

المملكة المغربية  
وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية

# ندوة الإمام مالك

إمام دار الفجرة

الجزء الأول



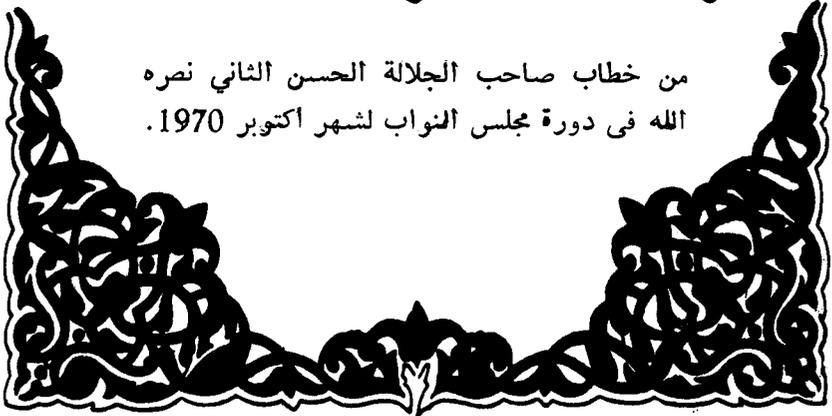






«... نريد مغربا في أخلاقه  
وفي تصرفاته جسدا واحدا موحدًا  
تجمعه اللغة والدين ووحدة المذهب،  
فديننا القرآن والإسلام ولغتنا لغة  
القرآن ومذهبنا مذهب الإمام مالك،  
ولم يقدم أجدادنا رحمة الله عليهم  
على التشبث بمذهب واحد عبثًا أو  
رغبة في انتحال المذهب المالكي، بل  
اعتبروا أن وحدة المذهب كذلك من  
مكونات وحدة الأسرة...»

من خطاب صاحب الجلالة الحسن الثاني نصره  
الله في دورة مجلس النواب لشهر أكتوبر 1970.





بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

## مقدمة

الحمد لله الواحد الفرد المالك ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد رسوله المبعوث بأوضح المسالك ، الذي تركنا على المحجة البيضاء ليلا كنهارها لا يزيغ عنها الا هالك ، وعلى آله وصحبه مصابيح الهدى فى الحوالك ، ومن تبعهم باحسان من اتباع الامام مالك بن أنس بن مالك ، وغيره من مذاهب الائمة السالكن بالمسلمين احسن المسالك .

اما بعد ، ففي اطار احتفالات الامة الاسلامية جمعاء بمقدم القرن الخامس عشر الهجري ، وتنفيذاً للتعليمات السامية لمولانا امير المومنين ، ومجدد امجاد هذا البلد الامين ، المتفاني فى خدمة قضايا المسلمين ، انطلاقاً من الحديث الشريف (( يبعث الله لهذه الامة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها )) قامت وزارة الاوقاف والشؤون الاسلامية بتنظيم ندوة الامام مالك بن أنس ، امام دار الهجرة رضى الله عنه ، بفلس خلال ايام : 9 ، 10 ، 11 ، 12 جمادى الثانية 1400 ( 25 ، 26 ، 27 ، 28 ابريل 1980 ) ودعت الى المشاركة فيها مجموعة من اساتذة العلم والحديث من داخل الوطن وخارجه ، لى الدعوة منهم اشقاء من العالم الاسلامي ، بالاضافة الى خيرة من علماء المملكة المغربية الافذاذ .

ولم يقتصر مجهود العديد من الحاضرين على تلبية الدعوة - فحسب - بل تعداه الى المشاركة اما بتقديم بحوث او مناقشة اخرى

او هما معا ، هذا الى جانب تركية فكرة الندوة لما أتاحته من تبادل للأراء وتعارف ، وما حققته للأرواح المجدنة من تآلف .

ومن أبرز ما أحاط هذه الندوة بهالة من الاحترام ، وجعل الانظار والاسماع توليها كل الاهتمام ، ما شرفها به جلالة الملك الهمام ، حين وجه لها رسالة سامية ، تضمنت توجيهات هادفة رامية ، تتم عما يمتاز به جلالته من مواهب فكرية وعلمية عالية ، الشيء الذي حدا بالندوة الى اتخاذ هذه الرسالة ، ورقة عمل موفورة الدلالة .

ولم يقتصر - أعزه الله - على المجهود من رسم الخطة التوجيهية ، وان اتسمت بسمو المشاركة الفعلية ، بل رعى الندوة منذ استهلالها ، وتابعها عن كثب في أعمالها ، وما ان أوشكت على اختتام أشغالها ، حتى بادر - حفظه الله - الى الامر بإبقائها مفتوحة ، أمام المشاركين كلها كانت ظروفهم سانحة ، لتدارس مختلف جوانب المذهب وأحكامه ، ومناقشة ما كتبه السابقون واللاحقون من أعلامه .

وقد انعكس هذا الشعور السامي على ما خالج صدور المنتدين من تجاوب ، لما انطوى عليه من أبعاد تؤدي الى التلاحم والتآلف والتحاب ، فبادروا بدورهم الى الاتفاق على انشاء « الندوة العلمية للفقهاء المالكيين » كمؤسسة تضم المختصين في الدراسات المالكية ، بمختلف الاقطار الاسلامية ، يكون مقرها بالمملكة المغربية .

وفي هذا الجو من التأثر والشعور بالمسؤولية ، تأبى وزارة الاوقاف والشؤون الاسلامية ، الا أن تضع بين أيدي جمهور الباحثين والدارسين ، وعموم المواطنين ، في مختلف الاقطار الاسلامية ، زبدة من عمل جليل لاساتذة فضلاء ، وعلماء أجلاء ، ساهموا بما علموا فعلموا ، وشاركوا ببحوثهم النيرة فأفهموا ، وبمناقشاتهم وردودهم فافحموا .

ويأتي هذا الكتاب مظهرا لما بذلوه من مجهود ، وما تركته مساهماتهم من صدى طيب محمود .

فاليهم جميعا شكر هذه الوزارة ، ومن خلالها شكر قائد الامة الداعي الى هذا المبرة ، التي ستبقى - بعون الله - مرجعا وسندا ، ومرشدا ومعتمدا ، يفي بالمرغوب لكل سائل ، بما يتفنيه من الافادة والاستفادة ، والله تعالى القائل : (( للذين أحسنوا الحسنى وزيادة )) .

وزير الاوقاف والشؤون الاسلامية

الدكتور أحمد رمزي

### مالك بن أنس رضي الله عنه في سطور

هو امام دار الهجرة واحد الائمة الاعلام ، مالك بن أنس بن مالك بن أبي عامر بن عمرو بن الحارث الاصبحي المدني ، أحد ائمة المذاهب المتبعة في العالم الاسلامي ، واليه تنسب المالكية . في فهرست الجزء الاول من كتاب : « وفيات الاعيان » لابن خلكان ، أن ولادة مالك رضي الله عنه كانت في سنة خمس وتسعين هجرية بالمدينة المنورة على ساكنها أفضل الصلاة وأزكى التسليم ، ووفاته كانت بها أيضا في الرابع عشر ربيع الاول ، وفي رواية في صفر سنة تسع وستين ومائة .





حضرات السادة العلماء المكرمين

منذ بضعة أيام ، حققنا بمشيئة الله وعونه ، أملاً عزيزاً علينا ،  
وَجُلماً طالما راودنا ، وذلك بتدشين أكاديمية المملكة المغربية التي  
ناملُ أن يُصبح المغرب بوجودها مركز إشعاع للعلم والفكر ، والحضارة  
البشرية بجميع مقوماتها وأبعادها .

ولم تُصرفنا مشاغلنا اليومية ، ومشاكلنا الظرفية عن تكريس بعض  
جهدنا واهتمامنا لإقامة صرح تلك المؤسسة العتيدة ، علماً منا بأن عظمة  
الأمم والشعوب لا تُقاس بضخامة بنيانها ، ولا بسعة عمرانها ، ولا بكثرة  
سُكّانها ، ولكن بعدد ما أنجبتته للإنسانية من عقولٍ مبتكرة ، وأفكارٍ  
نيّرة ، وقياداتٍ روحية تشعّ حكمةً وفوراً ، وتبقى على مرّ الزمان مناراتٍ  
تضيء الطريق للبشرية ، وتأخذ بيدها نحو السعادة الأبدية .

وإن من بواعثِ رضانا ، ودواعي غبطتنا وارتياحنا ، أن تُقام على أرضنا  
هذه الطيبة الطاهرة ، وفي هذا الطرف بالذات ، ندوةٌ خاصةٌ بالإمام  
مالك بن أنس رضي الله عنه ، إحياءً لذكراه ، وتذكيراً لأهله بفضلهم ، وتعريفاً  
بمقامه الرفيع بين شبابنا المتطلع إلى ثرائه الروحي العريق . وذلك بتسليط  
الأضواء بما سيُلقي من محاضرات ، وما سيعقبها من مناقشات ، على جميع  
أعماله العظيمة الخالدة ، التي ضمنت للسنّة النبوية البقاء والنقاء ،  
والصحة والصفاء ، وذلك بما احتواه كتابه " الموطأ " من صحيح الحديث ،  
وثابت الشمائل ، ممّا جعل تلميذه الإمام الشافعي رضي الله عنه يقول :  
" ليس بعد كتاب الله أصحّ من موطأ الإمام مالك " .

وَمَا أَغْنَاهُ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ التَّعْرِيفِ وَالتَّذْكِيرِ فِي بِلَدٍ كَالْمَغْرِبِ وَبَيْنِ قَوْمٍ كَالْمَغَارِبَةِ. فَقَدْ اخْتَلَطَ مَذْهَبُهُ الْعَظِيمُ بِحَيَاتِنَا مِنْذُ أَنْ اعْتَنَقْنَاهُ . فَلَا يَمُرُّ يَوْمٌ دُونَ أَنْ نُمَارِسَ فِيهِ جُمْلَةً مِنْ تَعَالِيمِهِ ، وَلَا يَتِمُّ أَكْلٌ وَلَا شَرَابٌ ، وَلَا صَلَاةٌ أَوْ صِيَامٌ ، وَلَا زَوْجٌ أَوْ طَلَاقٌ ، وَلَا مَعَامَلَةٌ دُونَ الرَّجُوعِ إِلَيْهِ ، وَالْإِهْتِدَاءِ بِمَا أَخْرَجَهُ فِيهِ ، مِنْ بَيْعٍ وَشِرَاءٍ ، وَإِعَارَةِ وَكِرَاءٍ ، وَمُعَاوَضَةٍ وَمُنَاقَلَةٍ ، وَمُقَاصَّةٍ وَمُحَاسَبَةٍ وَشُرَكَاتٍ ، إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْمَعَامَلَاتِ ، ” فَالذِّينُ الْمَعَامِلَةُ “ .

وَإِنَّ انْعِقَادَ هَذِهِ النَّدْوَةِ فِي مِثْلِ ظُرُوفِنَا الرَّاهِنَةِ لِيَنْطَوِي عَلَى أَكْثَرِ مَنْ مَغْرَبِيٌّ ؛ فَقَدْ أَلْهِمَ اللَّهُ أَجْدَادَنَا الْمُنْعَمِينَ إِلَى اخْتِيَارِ مَذْهَبِ الْإِمَامِ مَالِكٍ ، وَنَشْرِهِ - وَحَدَهُ دُونَ غَيْرِهِ - فِي طُولِ الْبِلَادِ وَعَرْضِهَا ، حَفِظْنَا لَوْحِدَةِ الْبِلَادِ الْمَذْهَبِيَّةِ ، وَدَرَّءَ أَلْكَلَّ مَا يَحْمِلُهُ تَعَدُّدُ الْمَذَاهِبِ وَالتَّحَلُّلُ مِنْ بُدُورِ الشَّقَاقِ وَالْخِلَافِ ، فَبَرَهَنُوا بِذَلِكَ عَلَى بُعْدِ نَظَرِهِمْ ، وَعَمَقِ مَحَبَّتِهِمْ لِشُعُوبِهِمْ ، وَرَغْبَتِهِمْ فِي إِسْعَادِهَا بِدَفْعِ الْوَحْدَةِ ، وَمَا يَنْتُجُ عَنْهَا مِنْ قُوَّةٍ وَمَنْعَةٍ . وَلَوْ صَدَرُوا فِي سُلُوكِهِمْ عَنِ أَنْانِيَّةِ أَوْحِدٍ لِلسَّلْطَنَةِ ، لَعَمَلُوا بِمَبْدَأِ ” فَرَّقْ تَسُدْ “ وَأَصْبَحَتْ بِلَادُنَا طَوَائِفَ وَشَيْعَاتٍ تَقَاتِلُ فِيهَا بَيْنَهَا وَتَتَنَاحَرُ ، وَلَمَّا رَأَيْنَا الْيَوْمَ هَذَا التَّمَاثُلَ وَالتَّلَاحُمَ بَيْنَ أَفْرَادِ شُعْبِنَا فِي مَوَاجِهَةِ الْغَزْوِ الْأَجْنِبِيِّ الرَّامِي إِلَى تَمْزِيقِ وَحْدَتِنَا التَّرَابِيَّةِ ، وَعَرْقَلَةِ مَسِيرَتِنَا الْحَضَارِيَّةِ .

أَمَّا الْمَغْرَبِيُّ الشَّافِي مِنْ إِقَامَةِ هَذِهِ النَّدْوَةِ ، فَهُوَ تَأَكِيدُ تَمَسُّكَنَا بِالسَّبْرِ فِي الطَّرِيقِ الْوَسْطِ الَّتِي اخْتَطَّهَا لَنَا إِمَامُنَا مَالِكٌ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، عَمَلًا بِقَوْلِهِ تَعَالَى : ” وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا “ فَتَجَبَّنَا بِاتِّبَاعِ مَذْهَبِهِ الْإِفْرَاطِ وَالتَّفْرِيطِ ، وَالانْحِرَافِ عَمَّا يَمْلِكُهُ الْعَقْلُ السَّلِيمُ ، وَالطَّبَعُ الْقَوِيمُ . فَقَدْ كَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، فِي حَيَاتِهِ مِثَالًا لِلتَّوَسُّطِ وَالاعتدالِ ، مُقْتَدِيًا بِأَخْلَاقِ وَشِمَائِلِ الرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ . وَرَغْمَ اعْتِدَالِهِ وَدَمَائَةِ أَخْلَاقِهِ ، فَقَدْ كَانَ دِرْعًا مَتِينًا لِلْعَقِيدَةِ ضِدَّ التَّحْرِيفِ وَالتَّزْوِيرِ ، وَالتَّوْبِيلِ الْمَغْرُضِ ، وَنَبْرَاسًا يَضِي الطَّرِيقَ أَمَامَ الْخُلَفَاءِ ، وَالأئِمَّةِ وَالعُلَمَاءِ فِي مَمْلَكَةِ الْإِسْلَامِ . فَكَانَ الْمُنْفَتِحَ الدَّقِيقَ ، وَالشَّارِحَ الْوَاضِعَ ،

والتوكل الصادق الأمين . ولم يبتعد ، في كل فتاواه وتعاليمه ، عن المنطق  
السليم ، والحلّق المستقيم ، مما جعل غالبية المسامحين تطمئن إليه ،  
وتأتم بهديه . وهذا مغزى آخر نستخلصه من سيرة هذا الرجل العظيم  
ومما يجب استلهامه كذلك من سيرة الإمام مالك ، ثباته ،  
رضي الله عنه ، على المبدأ ، ومطابقة أقواله لأفعاله . فقد كان شجاعاً في نصره  
الحق ، قوياً الإيمان بالله ، واضح المواقف ، لا يخشى في الله لومة لائم ،  
فلم يذعن قوياً ، ولم يمتلق طاغية ، ولم يتنازل عن شروئ نقيير من مبادئ  
العقيدة وأوامر الله .

وقد امتحن من أجل ذلك في إيمانه أيّما امتحان ، وضرب وعذب ،  
وأهين في سبيل الله ، وطيف به في شوارع المدينة ، وخلعت ذراعاً ليتنازل  
عن رأيه ، ويقتني بغير ما أنزل الله ، ويأذن بطلاق المكروه ، فأبى وصبر  
على الأذى ، وخرج من محنته التي كان يُراد بها إذلاله ، أعزّ وأكرم على الله ،  
وأجل وأعظم في عيون قومه ، وفي ضمير الأمة الإسلامية إلى عصرنا هذا .  
وصدق الله وعده : " إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم " .

وذهب الإمام مالك ، وبقيت صحبته الشهيرة : " من عرفني فقد  
عرفني ، ومن لم يعرفني فأنا مالك بن أنس . طلاق المكروه لا يجوز " . بقيت  
تتردد أصدؤها بين شعاب المدينة وتكبر وتعتظم لتشمل أرجاء المعمور ،  
ولتبقى شاهداً حياً مدى التاريخ على رفض الظلم ، والانصرار للحق .  
هذا عن جانب الإيمان ، والجهاد ، والشبات ، في شخصية الإمام  
مالك رضي الله عنه .

ولو أردنا تطبيق المقاييس العامية العصرية على الجانب العلمي  
لهذا الرجل الفذ ، لبرزت لنا شخصية عميقة ثاقبة الفكر ، متعددة  
الأبعاد ، واضحة المنهج ، شديدة العمق والانضباط . فهو لم يكتف  
بإثبات سند الحديث وتجنّم المشاق في تقصي رواياته إلى نبعه الأصلي ،  
بل تعدى ذلك إلى تحليل شخصيات رواة الأحاديث ، والتأكد من  
استقامتها وصدقها ورسوخها في العلم .

وقد أفضى به اجتهاده ودقته العلمية إلى النزول إلى شوارع  
المدينة المنورة لدراسة البيئة الاجتماعية التي عاش فيها الرسول  
صلوات الله عليه وسلامه . فدرس عادات وتقاليده أهل دار الهجرة  
التي انطبع سلوك أهلها بالسلوك النبوي . وذلك حتى يطمئن إلى صحته  
ظروف بعض الأحاديث . فأوحى بذلك للعلامة المغربي عبد الرحمن بن خلدون  
بالمناهج العامية التجريبية الذي نُصح به لتصحيح وقائع التاريخ القديمة  
بالرجوع إلى البيئات الاجتماعية التي وقعت فيها .

ولم يكتفِ ، رضي الله عنه ، بكل ذلك رغم عظمته ، فترك بأسب  
الاجتهاد مفتوحاً للأئمة من بعده ، وذلك بسببه استنباط الأحكام  
في ما كان يستجد من قضايا يفرضها اتساع رقعة الإسلام ، بالقياس  
على ما ورد في السنة وسيرة الرسول صلى الله عليه وسلم . فضمن بذلك  
المرونة والشمولية للمبادئ والأحكام الإسلامية ، وقطع الطريق على  
السطحية ، والتزمت ، والركود .

وقد اكتشف الغرب المسيحي ، بعد ألف عام من وفاة الإمام  
مالك ، ما نلذهبه الكامل من قوة وشراف ودقة في تنظيم أحوال المجتمع  
البشري أبدع نظام . فاستعاروا منه الشيء الكثير ، وخرجوا به على العالم  
وكانه من صنع أيديهم ، وعبريتهم مفكرتهم .

ورغم ما أسداه الإمام مالك للإسلام من خدمات جليلة ، وما  
تحمله في سبيل الدفاع عن مبادئه من أذى ، فقد خالجه في أواخر حياته  
شئ الشكوك والمخاوف من أن يكون قد أفتى برأيه سهواً أو خطأ بما  
يخالف الكتاب والسنة . قال (معن بن عيسى) : سمعت مالكا يقول :  
” إنما أنا بشر ، أُصيب وأخطئ ، فانظروا في رأبي ، فما وافق السنة فخذوا به “ .  
وقال (ابن قُعب) وهو أحد زواجر البارزين ، حين عادته وهو على  
فراش موته : جلست إليه فرأيتَه يبكي ، فقلت : يا أبا عبد الله ، ما الذي  
يُبكيك ؟ فقال : ” يا ابن قُعب ، وما لي لا أبكي ؟ ومن أحق بالبكاء مني ؟  
والله لوددتُ أني ضربتُ بكل مسألة أفيتت فيها برأبي بسوطٍ سوط ، وقد  
كانت لي السعة فيما سقتُ إليه . وليتني لم أفتِ بالرأي “ .

وإن دلّ هذا على شيء ، فإنما يدلّ على شفافية في الروح ، وقرب من الملكوت الأعلى ، وإشراقٍ داخليٍّ لا يحظى به إلاّ الراسخون في العلم من أولياء الله والصالحين ” ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون “. وإذا تدبرنا حديث الرسول صلى الله عليه وسلم : ” يبعث الله على رأس كل مائة سنة لهذه الأمة من يجدد أمر دينها ” وجدناه ينطبق انطباقاً كاملاً على الإمام مالك رضي الله عنه ، فقد ولد سنة 93 للهجرة ، وتوفي سنة 179 ، فملاً بعلمه وفضله قرناً كاملاً من الزمان ، وأخذ عنه العديد من العلماء والفقهاء من المشاركة والمغاربة . وقد حدثت عنه أئمة لا يكادون يُخصّون ، ومع ذلك لم يجلس للفتوى حتى شهد له سبعون من جلة العلماء بأنه أهل لذلك . ومن شهادات أهل عصره له ما قاله تلميذه الإمام الشافعي : ” إذا ذكر الأئمة (فمالك) النجم الثاقب . وما أحد أئمة عليّ من مالك “. وما كان أحد في زمانه أبرز منه ولا أعلم ، فهو بحق مبعوث هذه الأمة الأول بعد رسول الله .

معشر العلماء المبجلين ، إن حيوية الأمة الإسلامية ، وتداخل مجتمعاتها مع غيرها ، وتفاعلها مع حضارات ، وثقافات ، وديانات ، ومذاهب كانت إلى أممٍ قريب تفصلها عنها المسافات المادية والمعنوية ، وإن التطورات والتغيرات السريعة التي طرأت على المجتمع البشري في السبعين سنة الماضية ، والتي قال عنها أحد المستقبليين : ” بأن ما حدث خلالها من تقدّم يوازي ما حدث في مدى الخمسة آلاف سنة الماضية “ كل هذا يفرض علينا أسلوباً جديداً في التعامل مع ثرائنا الحضاريّ بجميع جوانبه . أسلوباً يتّيح للمسلم والمسلمة أن يندمجا في المجتمع التكنولوجي الذي يعيشان فيه ، وينسجما مع هياكل الحضارة الحديثة في إطار من الأخلاق الإسلامية السامية ، ودون شعور بالاعتراب والاستلاب ، أو بالتناقض والانفصام أو بالدونية والإثم .

فلتكن ندوتكم هذه فرصة للبحث عن ذلك الأسلوب ، ومناسبة للتصدي لهذا التحدي الحضاريّ الجديد ، وذلك بدراسة وتحليل قضايا

قضايا العصر واتخاذ مواقف ببناء منها على ضوء منهجية الإمام مالك، مواقف تتسم بالإيجابية والإقناع، والانسجام مع عقيدتنا، وبيئتنا وطبائعنا، وتكون امتداداً طبيعياً لتاريخنا، وحضارتنا، وإسهاماً من مفكرينا في تحسين نوعية العيش، ونماذج السلوك، في مجتمعاتنا، بل وحتى في المجتمعات الإنسانية الأخرى.

وهذه المواقف يجب أن تكون قابلة للبلورة حتى تصبح بديلاً قوياً، وواضحاً، وحاداً بما هو مطروح في الأسواق من شعارات أجنبية عنا، أفرزتها ظروف تاريخيتنا واجتماعيتنا لم نعشها، وفي مجتمعات بعيدة كل البعد عن مجتمعاتنا.

ولتأ على يقين من أنكم ستواجهون هذا التحدي بإقدام وإيمان، ومن أنكم ستفوزون بهذا الرهان. فكل ما تعج به أسواق الكتب، والصحف، والندوات، وأمواج الأثير من شعارات الحرية، والديمقراطية، والاشتراكية، والعدالة، والمساواة، وحقوق الإنسان، ما هو إلا بضاعتنا زدت إلينا معنونة بشتى العناوين.

وليست هذه أول مرة يطالب فيها علماء الإسلام بالتكيف بوضع جديد، فقد كان لهذا الوضع في تاريخ أمتنا ما يوازيه. ولم يكن ذلك أبعد كثيراً من عصر إمامنا مالك. فقد جاء بعده من العلماء من استخذموا منهجه وانتهوا إلى غير ما انتهوا إليه من نتائج، فكانوا يعلنون عدم اتفاقهم معه جهاراً بقولهم المشهور: "وإن قالها مالك، فلسنأله بمالك" ولم يجد أحد في ذلك غضاظة ولا انتقاصاً من مقام الإمام العظيم. ذلك أن روح مذهبه قائمة على الاجتهاد فيما لم يرد في الكتاب أو السنة أو الأثر. والاجتهاد هو مفتاح المسلمين للتكيف مع كل تقدم أو تطور فكري أو مادي في العالم، إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

وحاشا أن يكون التحجر والجمود من شيم الإسلام. وهو بريء من كل من يقفون في وجه التقدم باسم الإسلام. فحتى في عهد الرسول

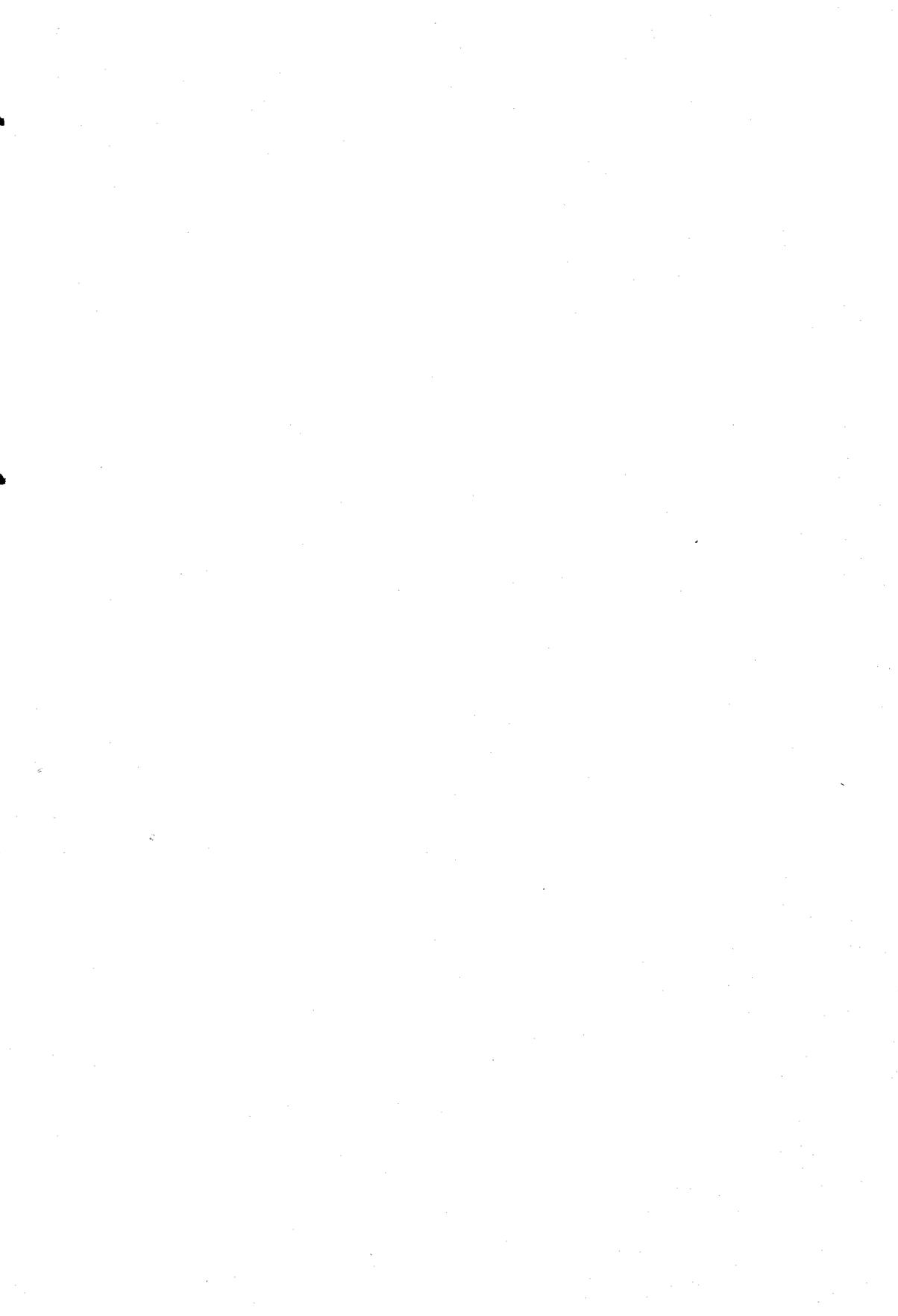
صلى الله عليه وسلم ، ووجد من أساء فهم الإسلام من ذوي الأمزجة السوداوية الجمامدة ، واعتقدوا أنه جاء للتحريم ، والتضييق ، والترهيب ، فحاجهم الله تبارك وتعالى في كتابه العزيز بقوله :  
" قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق " .

ونحن على يقين من أن بركة الإمام مالك ستحل بينكم ، وتشمل ندوتكم هذه ، وأنكم ستخرجون منها موقنين إن شاء الله ، ومُعَمَلين بما يملأ مجلدات من الأبحاث ، والدراسات ، والاكتشافات ، تضاف إلى ثرائه الخالد وتبقى مرجعاً حافلاً لدارسيه ، وشاهداً على فخرنا واعتزازنا بالانتماء إلى مذهبه ، وتشبثنا بمبادئه السامية .

" وقل اعملوا فسيري الله عملكم ورسوله والمؤمنون " صدق الله العظيم  
والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

حرر بالقصر الملكي بالرباط في يوم الجمعة 9 جمادى الثانية عام 1400

الموافق 25 أبريل سنة 1980 .



## كلمة السيد وزير الأوقاف والشؤون الإسلامية

بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه

- حضرة السيد مستشار صاحب الجلالة
- حضرات السادة الوزراء
- حضرة السيد عامل صاحب الجلالة لاقليم فاس
- حضرات السادة أعضاء السلك الدبلوماسي
- السادة النواب بالبرلمان
- السيد رئيس المجلس الاقليمي
- السيد رئيس المجلس البلدي
- السيد رئيس المجلس العلمي
- السادة الفيوف الافاضل
- حضرات السادة

السلام عليكم ورحمة الله .

وبعد : ففي اطار الاحتفالات ببداية القرن الخامس عشر الهجري وتنفيذا لاوامر صاحب الجلالة الملك الحسن الثاني نصره الله ، تنظم وزارة الاوقاف والشؤون الإسلامية ندوة الامام مالك بن انس رضي الله عنه ،

ويسعدني ويشرفني في هذا الحفل الافتتاحي أن أرحب بكم متمنيا لكم المقام الطيب وراجيا لكم العمل النافع الخالص لوجه الله فيما ستصرفونه من جهد أثناء انعقاد هذه الندوة .

لقد أصفينا باجلال واحترام للرسالة الملكية السامية التي وجهها جلالة الملك الحسن الثاني نصره الله الى الندوة على لسان مستشار جلالته الاستاذ أحمد بن سوادة .

ويجدر بالندوة أن تعتبر هذه الرسالة الملكية السامية دستوراً لها وورقة عمل أساسية لاشغالها لما تحتويه من أفكار أصيلة ومعاني نفيسة فهي تدعونا الى رؤيا مستقبلية نتبنى فيها المنهجية في العمل والاسلوب العلمي في التبليغ والايصال تمثييا مع ما تقتضيه الظروف العصرية من استعمال الوسائل التقنية الحديثة وهي سلاح يقوي ساعد المسلم وعقله وتضع المسلمين في المكانة اللائقة بهم بين الامم مع الحفاظ على جوهر الاسلام نقيا خالصا ناصعا .

واني باسمكم لاتوجه بالشكر والامتنان الى صاحب الجلالة حفظه الله على التفاتته الكريمة التي قصد منها اكرام العلم والعلماء ووضع برنامج عمل بين أيديهم ليهتدوا به في أعمالهم وتفكيرهم .

### حضرات السادة :

يجدر بنا ان نحتفل بالامام مالك وان نتدارس تراثه وأثره على الامة الاسلامية ، فقد ولد الامام في سنة خمس وتسعين للهجرة . ونشأ في دار الهجرة ، المدينة المنورة على ساكنها أفضل الصلاة والسلام ، وأخذ العلم عن شيوخ من جلة التابعين وكبارهم، فروى عنهم حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمدينة المنورة ، ومعلوم ان المدينة شهدت من حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم أهمها وأغزاهما تشريعا ، وفيها عاش جل الصحابة رضي الله عنهم ، أخذ التابعون صفات رسول الله وأعماله ، وتقريراته ، وتكون هي السنة التي تعد المصدر الاول للشريعة بعد القرآن الكريم .

والى جانب هذا ، كان عمل أهل المدينة ، وهم أعرف الناس بحياة الرسول عليه السلام وسلوكه ، وسجلوا كل حركاته وسكناته وما واكب سلوكه من ملابسات ، وهم الامناء الثقاب ، الذين لا يتطرق الشك الى ان اعمالهم كانت تبعا لما تعلموه من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فكانت من ثم اجتهاداتهم فيما لم يرد فيه نص صريح اقرب الى الصواب ، خصوصا وأن المدينة المنورة لم تبلفها الخلافات التي اندلعت فى جهات أخرى من الامة الاسلامية . وهكذا كانت المدينة مهدا لسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم،خالصة نقية من الشوائب،رواها صحبه،وعنهم تلامذتهم كبار التابعين والفقهاء، ومن هؤلاء تفقه الامام مالك، فقد لازم ابن هرمز عبد الرحمن الاعرج ونافعا مولى ابن عمر ، ومحمد بن شهاب الزهري ، وتفقه حتى أصبح علما من اعلام السنة والفقهاء ، يمحص ما يبلغه من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وينتقى الثقات من الرواة والشيوخ ، فلا يروي الحديث الا ممن يعلم صدقه وامانته ، وقد قال فى هذا المعنى : « ان هذا العلم دين فانظروا عمن تاخذون منه . ولقد ادركت سبعين ممن يقول : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم عند هذه الاساطين . فما اخذت عنهم شيئا ، وان أحدهم لو أوّتمن على بيت مال لكان امينا ، الا انهم لم يكونوا من أهل هذا الشأن » .

وقد ثبت عنه انه كان لا يخوض فى تلقي العلم أو تدريسه حتى يستعد لذلك بما يقتضيه مقام العلم وشرف حديث الرسول صلى الله عليه وسلم، والمسجد النبوي الذي كان يرتاده طالبا ومعلما ورائدا .

واذا علمنا ان الائمة الثلاثة الذين انتشرت مذاهبهم فى جميع أقطار الدنيا: أبو حنيفة النعمان، والشافعي، وأحد، أخذوا عنه جميعا،حتى أبا حنيفة الذي يكبره سنا ، علمنا السبب الذي جعل المغاربة يختارون علمه مذهباً ويستمسكون به منذ أن وصل اليهم فى مطلع القرن الثالث على يد علماء أفاقة ، أخذوا عنه كتابه الموطأ ، أمثال علي ابن زياد ، وعيسى بن شجرة من تونس ، وأسد بن الفرات القروي، وخلف بن جرير بن فضالة القروي، وعبد العزيز بن يحيى ، وعبد الله بن عمر بن غانم الرعيني ، ومحمد بن معاوية الطرابلسي ، ويحيى بن يحيى الليثي الأندلسي . وقد ظل المغاربة متمسكين بمذهب مالك طيلة قرون عاملين على اثرائه بما قاموا به من دراسات

لنصوصه واستنتاجه ، يواجهون بها ما يعرض لهم من قضايا،ومن ثم أصبح مذهب الامام مالك أغزر مادة في ميدان الافتاء وقواعده التي بنى عليها علماء الفتوى ، ما استنتجوه من احكام،أصبحت علما مستقلا،وضع فيها المتأخرون مؤلفات قيمة،لا تزال مراجع للفقهاء ترشدتهم وتبين لهم طريق الفهم الصحيح، من قواعد القرآني والمقري والونشريسي وغيرهم ، والامام مالك اول من ألف كتابا أجمع شيوخ العلم والحديث على انه أصح الكتب بعد كتاب الله تعالى، حيث يقول الشافعي : ما في الارض كتاب في العلم أكثر صوابا من كتاب مالك ، يقول أيضا : ما على الارض كتاب أصح من كتاب مالك ، يقول أيضا: ما كتب الناس بعد القرءان شيئا هو أنفع من موطأ مالك .

وقد درس المقاربة المذاهب كلها ، دراسة فحص وتحليل ، وأحاطوا بأصولها وقواعدها وفروعها، وتتبعوا سيرة أصحابها الغراء ومناقبهم العديدة ومآثرهم الحميدة ، فوقع اختيارهم على المذهب القائم على الكتاب والسنة والاجماع والقياس ، وعمل اهل المدينة ، والاخذ بالمصالح المرسلة ، وقلدوا الامام الذي انتهت اليه رئاسة الحديث والفقه ، وأعترف له بذلك من كافة الأئمة ، ووجدوا فيه القدوة والمثل الذي يجب احتداؤه والافتداء به في التمسك بالكتاب والسنة وما عليه جماعة اهل الحق والسلف الصالح .

ونظروا الى ما اتفق عليه السابقون واللاحقون من زيادة علم مالك وورعه وبعد غوره في الكتاب والسنة ، فتأكدت لهم ضرورة الاخذ بمذهبه لما بين العلماء من خلاف في جواز تقليد المفضل مع وجود الفاضل .

وإذا كان للمغرب أن يعتز في ابناء وشمم بذلك الدور الطلائعي الذي لعبه في نشر الاسلام وافشائه ، وفي حمل راية الجهاد وتادية واجب الدعوة وبشها في بلاد العمور وفي مختلف الأزمنة والعصور، فان له كذلك أن يعتز بأن جعله الله المنطلق الثاني بعد المدينة المنورة ، لنشر مذهب الامام مالك وتلقي دعوته .

فقد تلقى المقاربة هذا المذهب ، وكافحوا وجاهدوا تحت رايته ، والفوا فيه وشرحوا وأجادوا فيه وأبدعوا ودافعوا عنه ، وقالوا بأرجحيته على سائر المذاهب .

والمغاربة كذلك ، أن يرفعوا رؤوسهم في اعتزاز بأن أعترف لهم دون غيرهم من بلاد المعمور ، بأنهم قادة الفكر المالكي ورجال دعوته وجمهور مذهبه ، حتى عد بعضهم من مرجحات المذهب المالكي ، تمسك المغاربة به للحديث الوارد في تمسكهم بالحق .

وقد استقل المذهب المالكي بالمغاربة فاستقطب مؤلفاتهم ونقولهم وفتاويهم وهيمن على تفكيرهم ، فمنهم من دافع عن صحة الموطأ وجعله في الرتبة الاولى من درجات الصحة ، ومنهم من دافع عن المذهب وأرجحيته وترجم طبقاته ، ومنهم من وضع المختصرات المفيدة ، ومنهم من ألف في اصول المذهب وقواعده .

#### حضرات السادة :

نعقد هذه الندوة ، أكبارا للامام مالك ، واعترافا بفضله على الاسلام والمسلمين ، وهي مناسبة لتحريك هم المتخصصين ليعملوا فيما يستقبل من الايام والسنين ، على بعث الدراسات الاسلامية في التشريع والحديث والفقه والاحوال الشخصية . ويجدر بنا جميعا ان نسعى في جهد عام الى انجاح الندوة بالبحوث القيمة وبالمناقشات والندوات .

#### حضرات السادة :

اشكركم على تلبية الدعوة واكبر فيكم روح التضحية بالوقت النفيس للحضور والمشاركة في البحوث والمناقشات التي ستدور في هذا اللقاء حول حياة امام الائمة وسيرته واصول مذهبه وقواعده وفروعه واعلام مدرسته وما له من خصائص ومميزات .

واني لادعو الله بهذه المناسبة ان يحفظ مولانا امير المؤمنين جلالة الحسن الثاني رائد البعث الاسلامي ومجدد امجاده ، ويقر عينه بولي عهده ، الامير المحبوب ، سيدي محمد ، وصنوه الامير مولاي رشيد ، وباقي افراد الاسرة الملكية الكريمة ، كما ادعوه سبحانه وتعالى ان يحفظ الامة الاسلامية من كيد اعدائها وان يحرسها .

والسلام عليكم ورحمة الله .

## كلمة رئيس المجلس العلمي وعميد كلية الشريعة بفاس

- سيدي مستشار جلالة الملك المعظم
- سيادة وزير التربية الوطنية وتكوين الأطر
- سيادة وزير الاوقاف والشؤون الاسلامية
- سيدي العامـل
- حضرات العلماء الاجلاء

السلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته

وبعد :

فلئن جرت العادة باقامة احتفالات بمناسبة ، لتبغاء سلفوا وعباقره مضوا ، وخلفوا ذكرا حميدا ، بما قدموه للفكر الانساني ، وللثقافة البشرية من خدمات تذكر فتشكر .

- فان عقد ندوة حول شخصية الامام مالك ، من لدن وزارة الاوقاف والشؤون الاسلامية ، لمدارسة ما جاء به هذا الامام الجليل من مدارك ، يعتبر بحق في طبيعة ذلك .

- وان مشاركة باحثين كبار ، في هذا اللقاء الاسلامي الرفيع ، من جهات من العالم الاسلامي ، لتحمل في طياتها أكثر من معنى ، فيما يمتاز

به مذهب الامام مالك ، من صلاحية وجدية ، وقوة تضمن له البقاء والاستمرار ، عن طريق ما اعتمد عليه من كتاب ، وسنة ، واجماع ، وقياس ، وعمل اهل المدينة ، واستصحاب ، واستحسان ، ومصالح مرسلة ، وسد ذرائع ، مما ستتحفنا به دراسات الدارسين ، وبحوث الباحثين ، فيضفي كل ذلك ، على حياة الامام ، الزاخرة بجلال الاعمال ، ما يجعلها مكسوة بروائع بيانية طريفة ، ونتائج بحثية رصينة ، وخاصة حينما تجول الاقلام في آفاق المدارك ، التي حلق في سمائها ، امام دار الهجرة ، مالك بن انس بن مالك ، ابي عامر الاصبحي اليميني ، الذي روي عنه ، انه قال في تاريخ ميلاده ( ولدت سنة ثلاث وتسعين هجرية ) ، والذي خيم في مدينة الرسول ، طوال حياته ، والذي عرف عن جدارة ، بقطب الاحكام المحررة ، في الشريعة الاسلامية . وبامام الراي ، علاوة على الصدق التام ، في امامة النقل ، والذي قيل في ترجمته ، انه ولد مكتملا بعد ما مكث في بطن امه ثلاث سنوات ، فشب وترعرع في المدينة المنورة ، التي يآزر الايمان اليها ، كما تأزر الحية الى جحرها ، وأكرمه الله بمزيد علم ، ومزيد فضل ، ومزيد نبوغ ، ومزيد دهاء ، في استنباط الاحكام من ينايبها ، فأصبح مالك ناصية المعرفة العابقة من صميم الاصلة الاسلامية ذات الشأن الرفيع ، فهو اذا قال ، فقوله خير مرجع ، واذا كتب ، كان حجة الله فيما كتبه وحرره . اذا لا يفتى ومالك بالمدينة ، واذا نطق الناس بعالم المدينة ، فانهم لا يقصدون غيره ، وكان على ضرب من الشكر لله ، معتزاً بعمله ، لما قام عنده من دلائل ، على انه مبني على فهم رصين ، اوتيه مسلم ادراكه سليم ، منحه من الفتح العليم ، خاصة وسط اقارانه من اقطاب الاسلام ، وبناء الدين ، العارفين بالحلال والحرام ، والضارين فيهما بنصيب اوفى ، وقدح معلى ، روى - رحمه الله - علماً عن جده ، فهو من سلالة العلم - ، ويكفيه جلالته قدره ، ويكفيه تمسكاً بخشية وتقوى وورع ، انه لم يركب قط دابة في مدينة الرسول ، توقيراً واجلالاً لصاحبها ، صلوات الله وسلامه عليه .

- وفي روضة المصطفى ، كان يتلقى معارفه ، عن كبار رجالات العلم ، فبارك الله في تلك المعارف ، التي انتشرت في افريقيا ، والاندلس ، والمغرب ، وضمن لها البقاء كمذهب مفضل ، ومتبع باعتزاز في هذه الاقطار الى الآن .

– نرجع الى كتابه الموطأ فى الفقه ، عن طريق ما صح ، من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، الذي كان يجد الليالي والايام ، فى تقصي تمحيص ما جاء فيه ، لنعرف بالنص وبالمثال ، سبب ما ناله عن جدارة من لقب : أمير المؤمنين فى الحديث .

– ونتبع سلوكه العام والخاص ، لنعرف مدى وقوفه مع ما جاءت به السنة النبوية الطاهرة ، من حض على اتباع ، ونهي عن ابتداء ، وتقدير جم لحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، حيث لسعته مرة عقب أثناء اشتغاله بتبليغه ، فلم يحفل بها ، ولم يكف عن التبليغ بسبب ذلك اللسع ، رغم تألمه من اذاه .

سئل تلميذه الامام الشافعي : من هو فى معرفته وفضله وسعة اطلاعه ، فقال فى حقه : انه النجم الثاقب .

وسئل مرة عن اربعين سؤالاً ، فأجاب فى معظمها بقوله : لا أدري ، خوفاً من الوقوع فى خطأ ، لما يعلمه من أن المفتي فى حكم شرعي ، موقع عن الله تعالى .

وامتحن فى قضية طلاق المكروه ، وضرب بالسياط ، وأصر على فتواه بعدم جواز طلاق المكروه ، ولم تاخذه – رحمة الله عليه – لومة لائم فى ذلك .

ودام على ما عاش عليه ، من فضل وغزارة علم ، وجلالة قدر وتقوى وورع وخوف من الله ، واجلال سيد الكائنات ، الى ان توفاه الله فى مدينة الرسول ، ودفن بالبقيع ، رحمة الله عليه ، وفى الختام نقول :

تمتاز ندوة أوقاف لمجتمع يضم نخبة أقطاب من الشهب  
من عالم شرفوا فاسا بمقدمهم ليبحثوا مذهبا من معدن الذهب  
فمرحبا برجال العلم فى بلد يهيم بالعلم والاعلام والكتب

وفى الاخير ، ندعو فى هذا الجمع المبارك ، لمولانا أمير المؤمنين ، الحسن الثاني ، صاحب المبرات المتألقة فى قلب فاس ، حفظه الله ، وحفظ ولي عهده ، الامير الجليل ، سيدي محمد ، وصنوه الامير ، مولاي رشيد ، وسائر أفراد الاسرة الملكية الكريمة ، بما حفظ به الذكر الحكيم .

والسلام .

## كلمة رئيس المجلس البلدي بفاس

- معالي وزير الاوقاف والشؤون الاسلامية الدكتور احمد رمزي
- اصحاب المعالي الوزراء
- اصحاب السعادة
- اصحاب الفضيلة العلماء الاجلاء المشاركين في ندوة الامام مالك
- حضرات السادة

يسعدني ويشرفني ، ان احبيكم تحية طيبة ، باسم المجلس البلدي لمدينة فاس ، وأرحب بكم ، في بلدكم الثاني ، وفي هذه المدينة ، التي احتضنت المذهب المالكي ، طيلة اثني عشر قرنا ، حيث تخرج من جامعة القرويين الفذة عبر الاجيال ، سلسلة من اعلام المذهب المالكي ، في القضاء والافتاء والتشريع . ومن هذه المدينة ازداد هذا المذهب تدعيما ورسوخا ، منذ القرن الرابع الهجري ، بفضل الاتصال والاحتكاك ، والمجادلة بين اعلام الفكر الاندلسي بقرطبة ، وعلماء القرويين .

حضرات السادة المحترمين :

ان مدينتنا ، ننشرح ابتهاجا بمقدمكم ، وبما ستستقر عليه اعمالكم ، وستجود به قرائحكم ، وبما يفيض من وجدانكم الدافق ، من قوة حجة ونصاعة بيان ، ودقة برهان ، وسلامة رؤيا ، لمذهب الامام مالك ، ولا اجد احسن ما افتح به الكلام عن هذا الرجل العبقري ، سوى ما قاله عنه الاستاذ العلامة علال الفاسي ، في مستهل محاضرة القاها حول افضلية الامام مالك ومذهبه . يقول : لم اقرأ حياة مالك واخباره مرة ، الا وجدتهني

متخشعا باكيا ، للتأثر من مواقفه ، فى الذب عن السنة وحماية الشريعة ، ومجاهرته بالامر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وذلك ، هو حالى أيضا ، كلما قرأت ، اخبار رجال مذهبه الكرام الافذاذ ، الذين نهجوا نهجه ، فى الصدى بالحق واقامة العدل ، ومقاومة الجور والظفیان والبدع والاهواء ، الى ما تحلوا به من الزهد ، ومواصلة الذكر والفكر والعبادة ، ان قراءة اخبار مالك ، ورجال مذهبه ، تطهر النفس وتزكى القلب ، وتفتح الذهن ، وتنمي المعرفة ، وتعطي القدرة الحسنة لمن اراد ان ينهج منهج الصالحين ، ويسلك مسالك العارفين .

### حضرات السادة :

ان الامام مالك بن انس ، الذي تفرد مذهبه فى المغرب ، بقدرته على توحيد الفكر المغربى ، وتوجيهه توجيها سليما ، قد عمل على حفظ التوازن الفكرى فى بلادنا . وان فاس مدينة التواصل الحضارى ، التي عاشت اثني عشر قرنا ، قلعة من قلاع الفكر الاسلامى ، الصامد ضد كل غزو فكرى عبر العصور ، ومهد الاشعاع الحضارى الاسلامى ، عبر افريقيا واوروبا ، اخذت تسترد دورها الثقافى المجيد ، فى عهد جلالة الملك الحسن الثانى ، نصره الله ورعاه ، برعايته الشاملة ، فى هذا العصر بالذات ، مدينتنا تظاهرات اسلامية وعمرانية وثقافية ، فى هذا العصر بالذات ، حيث كان انعقاد المؤتمر العاشر ، لوزراء الدول الاسلامية ، والذي انبثقت عنه لجنة القدس الشريف ، وانتم تعلمون ، ما لهذه اللجنة من اهمية قصوى ، على المستوى السياسى والروحى ، ولا سيما والذي يرأسها هو ، جلالة الملك ، الحسن الثانى ، نصره الله ، وفى هذا القصر ، تم بحول الله ، مهرجان توأمة مدينة فاس وانذار ، عاصمة الحضارة الاسلامية فى السنغال الشقيق ، بحضور صاحب السمو الملكى ، الامير الجليل ، ولي العهد ، سيدى محمد حفظه الله .

وفى هذه القاعدة ، وجه منذ قليل ، ( يوم 9 ابريل 1980 ) المدير العام لاسمى منظمة ثقافية فى العالم ، منظمة اليونسكو ، السيد احمدو المختار مبو ، نداه العالمى لمؤازرة المدينة العتيقة فى الحفاظ على تراثها الخالد ، باسم الانسانية جمعاء .

وفى بداية هذا الاسبوع ، بتاريخ 21 ابريل 1980 ، عشنا حدثا ثقافيا هاما ونادرا ، الا وهو تأسيس اكااديمية المملكة المغربية ، برئاسة صاحب الجلالة ، الحسن الثاني نصره الله ، وبحضور اعلام من رجال الفكر الاسلامي والسولي .

وها نحن نعيش اليوم ، ندوة الامام مالك بن انس ، بأمر من جلالتة ، وتمتحت رعاية وزارة الاوقاف والشؤون الاسلامية .

### حضررات السادة :

اسمحوا لي ان اعرب لكم مرة ثانية ، عن بالغ الامتنان ، وعظيم الابتهاج ، وعميق السرور ، بوجودكم فى مدينتكم ، واننا جميعا ، لمتعطشون لما ستنثرون به معارفنا ، وستنمون به ادراكاتنا ، وتصحون به رؤانا .

وفقكم الله ، وسدد خطاكم ، وبارك فى اعمالكم ، وكلل بالنجاح ندوتكم ، وجعل كل كلمة منها ، مشعلا ينير لاجيالنا الصاعدة الحائرة ، ما ادلهم واظلم من المسالك ، وما اختلط واشكل من المفاهيم والمعارف ، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

... ولنا اليقين بان هذه السنة التي ستتناسب مع القرن الخامس عشر الهجري - ستكون ان شاء الله - سنة فتح وسلام وبركة ، على الاسرة الاسلامية الكبيرة والاسرة العربية الصغيرة ، ومما لا شك فيه ان الله سبحانه وتعالى - ما دمنا فى طريقه الواضح - سيكون بجانبنا وسيعيننا على القيام اولا باموريتنا ، ويعيننا ثانيا على تخطيط السبيل لابنائنا واجيالنا الآتية ، لانه اخذ ذلك على نفسه سبحانه وتعالى فى كتابه العزيز حينما قال : « ولينصرن الله من ينصره » وقال فى اخرى : « وكان حقا علينا نصر المؤمنين » ...

- جلاله الحسن الثاني -

## كلمة الشيخ عبد الله نياس ، من السينغال

- حضرات السادة العلماء ،
- حضرات السادة الوزراء ،
- أيها الاخوة ،

السلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته .

أيها الاخوة في الله ، نحبيكم ونبلغكم تحيات اخوان من السينغال يشكرون لكم اتاحة هذه الفرصة النادرة للاجتماع بكم ، والتعبير عن شكرهم العميق ، للاشتراك في هذه الندوة ، ندوة امام دار الهجرة ، مالك ابن انس رضي الله عنه .

أيها الاخوة في الله ، من باحثين واساتذة وسائر المشتركين في ندوة فاس المحروسة ، السلام عليكم ورحمة الله .

أما بعد ، فقد وصلتني الدعوة الكريمة ، للاشتراك في ندوة الامام مالك بن انس الاصبحي ، رضي الله عنه ، في وقت تراكمت علي الشواغل والمهام تراكما عجيبا ، ولكن تلك الشواغل والمهام ، كلها تنزري وتتضاءل امام هذه المناسبة العظيمة ، فمالك رحمه الله ، امامنا وامام الائمة ، وفاس المحروسة ، عاصمة علمية وروحية ، فهي واحة لراحة عقولنا وأرواحنا ، والمغرب قلعة اسلامية ، وهو في شخصيته التاريخية يعكس للعالمين ما في المذهب المالكي ، من عظمة وأصالة ، وعمق وحيوية

وانسانية ، واذا ضاق وقتي عن اعداد بحث مستفيض ، من جانب من جوانب شخصية الامام ، فلا يفوتني ان اثري معلوماتي ، بهذه المشاركة ، واستفيد من البحوث والمحاضرات ، التي تأتي لغيري من المشاركين ان بعدوها ، كما أنتهز الفرصة لابلاغكم ما يلي :

— اولاً : اشرف بنقل تحيات طيبة صادقة ، من مسلمي السينيغال ، الذين رضوا بالله وحده ربا ، وبالاسلام ديننا ، وبسيدنا محمد ، صلى الله عليه وسلم نبيا ، واتخذوا المالكية مذهباً ، والاشعرية عقيدة ، وشكرهم الجزيل لعمل جلالة الملك ، الحسن الثاني نصره الله ، لخدمة الاسلام ، ودعوته ، ولنشر القراءان الكريم وعلومه ، وطبع كتب التراث الاسلامي وتوزيعها في العالم الاسلامي ، لا سيما كتب المذهب المالكي النادرة ، كالتمهيد لابن عبد البر ، وترتيب المدارك للقاضي عياض وغيرهما ، ومثل هذا العمل الجليل مشكور ، لما فيه من ترسيخ للسلفية الصالحة ، وعود بالامة الى ينبوع الاصاله ، وانا اعتقد جزماً ان دور الحكام والمسلمين ، في مجال الدعوة الاسلامية ، دور اساسي ، ولا يعني عنه عمل فرد أو هيئة ابداً ، وخلق الميدان في معظم بلاد المسلمين من هذا العنصر الرسمي ، هو السبب غالباً في كثير مما أصاب مسيرة الاسلام ، من عثرات ، ومن هنا تولد حرصى الدائم على تلبية نداءات هذا البلد المسلم ، وأماننا شواهد ماثلة على ما أومأت اليه ، فهذه دار الحديث الحسنية ، ولعلها فريدة في دنيا الاسلام ، وهذه الدروس الحسنية السنوية ، تقليد فريد ايضاً ، وان اشتراكي في ندوة فاس هذه ، كاشتراكي في تلك الدروس الحسنية ، وفي المسيرة الخضراء التاريخية ، ما هو الا تعبير صادق ، من الاعتزاز بالاخوة الاسلامية ، وبالروابط الروحية والعلمية والتاريخية ، التي تشدنا الى المغرب عموماً ، والى فاس المحروسة خصوصاً ، والى جلالة الملك الحسن الثاني ، الذي يرجع اتصالي به وتعارفي معه ، الى ما قبل عشرين عاماً .

— ثانياً : انني مقتنع بجذوى هذه الندوة ، وادعو الى تكرارها ، كلما تيسر ذلك ، لان هذا العصر المادي الغائن ، بات يهدد القيم الروحية والتراث الديني ، وما أحوجنا الى ان نتشبث بالاسلام ، نقياً صافياً ، ولتحقيق هذا الغرض ، لا أرى بديلاً من مدرسة مالك ابن انس ، امام دار الهجرة .

فالمالكية مذهب المسلمين فى غرب افريقيا وشمالها ، وفى كثير من اجزاء افريقيا الباقية ، ومالك ، رضى الله عنه ، نادرة الزمان ، واعجوبة الدنيا ، وقد اجمع ائمة عصره على الاعتراف بمكانته ، التي لا تدانى ، ناهيك بالامام الشافعي ، حيث يقول : « مالك أعلم بكتاب الله ، ناسخه ومنسوخه » ، وقال ايضا : « مالك معلمي ، وعنه اخذنا العلم ، واذا ذكر العلماء ، فمالك النجم ، وما احد أمن علي من مالك ، جعلت مالكا حجة بيني وبين الله » .

وهذا الامام الاوزعي ، رحمه الله يقول : « مالك عالم العلماء ، وعالم اهل المدينة ، ومفتي الحرمين ، » .

وهذا الامام احمد بن حنبل يقول : « حديث مالك حجة بينك وبين الله » . والفت نظر المهتمين بهذا الموضوع ، الى الكتب التي وضعت خصيصا للتعريف بتلامذة مالك - رحمه الله - كالدرقطني ، والخطيب البغدادي ، والقاضي عياض السبتي ، فقد افاض مالك على اكثر من الف علم من اعلام العلماء ، العدول الائمة الافذاذ ، رضوان الله عليهم ، وسيلاحظون فى هذه التراجم ان من تلامذة مالك ، من كانوا له شيوخا بالامس ، حتى قال مالك تحدثا بنعمة الله : « قل رجل كنت اتعلم منه ما مات حتى يجيئني يستفتيني » .

هذا الامام العظيم ، الذي بشر به النبي صلى الله عليه وسلم بقوله : « يوشك ان تضرب الناس اباط المطي ، واكباد الابل فى طلب العلم ، فلا يجدون أعلم من عالم المدينة » ( رواه ابو هريرة ) جدير بأن نحتفل وننشر علومه ونندارس سيرته النقية الطاهرة ، ونستلهم تاريخه وشماله ، ونتقيد بسلفيته وادبه مع مقام الرسالة المحمدية ، وهذا ادب يدل على صدق الايمان وعمق المعرفة ، وكان يكره المتدعة ، واهل الاهواء ولا يسلم عليهم ، وكان لا يخشى فى الله لومة لائم ، ولا يتردد عن مواجهة كل موقف بما يمليه عليه علمه ومسؤوليته وتقواه ، والامثلة على ذلك كثيرة مشهورة ، كما ان مؤسساتنا التعليمية اليوم بحاجة الى نفحة من هدي مالك وجديته ، فقد كان - رحمه الله - يرى ان العلم نور ، وانه لا ينبغي لطالب العلم تلقي العلم عن من فى عقله او قلبه ظلمة ، كما كان - رضى الله عنه - يعتبر العلم دينا ، ولا يليق بالطالب ان يسلم نفسه لمن يلعب بدينه

ويضله عن عقله ، ويقول : « أن هذا العلم دين فانظروا عمن تأخذون دينكم » .

— ثالثا : على المهتمين بوحدة المسلمين ، وبتضامن مسلمي أفريقيا، أن يسعوا لنشر تعاليم مالك - رحمه الله - فان المذهب المالكي من أقوى عوامل التقارب والاتحاد بين مسلمي هذه البلاد ، لما فيه من وحدة مصادر التفكير ، وقواعد السلوك ، ولما في أصول المذهب وقواعده من صحة وضمائمات وسلفية ، وأما الاصوات التي تسمع أحيانا تدعو الى الانفلات من قيود المذاهب السنية ، فانها غالبا ما تعبر عن رقة الدين ، أو عجز عن عزائم الامور وجدية الالتزام .

وختاما اكرر شكري للمغرب الشقيق ، ولملكه المفدى ، مولانا الحسن الثاني ، ولوزارة الاوقاف والشؤون الاسلامية ، وفقنا الله لما فيه الخير للاسلام والمسلمين ، وجعل القرن الخامس عشر الذي اظلنا ، قرن العودة الصادقة الى رحاب الكتاب والسنة ، والعمل الناجح لخير الدنيا والاخرة ، والسلام والوثام في العالم عموما ، وفي بلاد المسلمين خصوصا ، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

جزى الله عنا في موطاه مالكا  
بأفضل ما يجزى اللبيب المهذب

لقد احسن التحصيل في كل ما روي  
كذا فعل من يخشى الاله ويرهب

لقد فاق اهل العلم حيا وميتا  
فاضحت به الامثال في الناس تضرب

وما فاقهم الا بتقوى وخشية  
واذ كان يرضى في الاله ويفض

- سعدون الوجيهي -

## كلمة الاستاذ عبد الرحمن نوح من النيجر

- السيد مستشار جلالة الملك المعظم
- السيد وزير الاوقاف والشؤون الاسلامية
- السادة الحاضرون

- ايها السادة الوزراء والسادة المجتمعون .  
بهذه المناسبة السعيدة ، يسعدني غاية السعادة ،  
باسم بلادي النيجر ، وباسم الوفد المرافق ، ان  
اوجه عميق الشكر الى وزارة الاوقاف والشؤون الاسلامية ، التي  
تفضلت ووجهت الينا الدعوة ، لحضور هذه الندوة الثقافية ، المنعقدة  
بمدينة فاس التاريخية ، كما اود ان اوجه الشكر الى الشعب المغربي  
الشقيق ، وعلى رأسه جلالة الملك المفدى ، الحسن الثاني حفظه الله  
ونصره .

ايها السادة الاعزاء ، بعد كلمة الشكر والتقدير ، اسمحوا لي ان  
القي ضوئاً قصيراً عن هذا التجمع الاخوي . ان اجتماعنا في هذه القاعة  
الطاهرة ، ان دل على شيء ، انما يدل على ان امتنا الاسلامية ، امة واحدة

قلبا وقالبا ، مهما بعدت المسافات ، ومهما اختلفت الالسنه والالسان والاجناس ، وذلك تطبيقا لمبادئه السامية ، التي لا تفرق بين هذا وذاك ، الا بالعمل القيم ، وفي هذا الاطار ، وردت آيات كثيرة ، تؤكد وتثبت هذه الحقيقة ، حيث يقول اصدق القائلين : « يا ايها الناس انا خلقناكم من ذكر وانثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ، ان اكرمكم عند الله اتقاكم » ، ويقول عليه الصلاة والسلام : ( كلكم للآدم وآدم من تراب ، لا فرق بين عربي وعجمي الا بالتقوى ) .

ايها الاعزاء ان هذه الجلسة التاريخية ، لخير دليل على التضامن الاسلامي الذي نحتاج اليه دائما ونسعى الى تحقيقه ، وخاصة في الظروف الراهنة ، التي تمر بها اقطارنا الاسلامية ، من محاولات عديدة ، للقضاء على الاسلام والمسلمين ، وفي هذه المحاولات المنكرة ، والظروف القاسية ، وفي هذا الخطر المحدق فان امتنا في حاجة ملحة الى توثيق الروابط ، وتقوية الاواصر ، والتعاون بين اقطارها الاسلامية وشعوبها ، حتى تستطيع الوقوف والصمود ، والدفاع عن حقها المشروع ، الذي يريد اعداء الاسلام سلبه وغصبه ، ولا يفيب عن احد ما حدث ويحدث في اقطارنا الاسلامية ، من انتهاك حرماننا ، وتدنيس مقدساتنا الاسلامية ، من قبل الكفرة الفجرة ، اعداء الاسلام ، الذين سلبوا واغتصبوا حقوق شعب فلسطين المسلم ، صاحب الحق الشرعي ، وحق عودته الى ارضه ، وما يحدث في الفيلبين وافغانستان ، من الاعتداء على الاسلام والمسلمين ، وحرمان هذه الشعوب من حقوقها المشروعة ، وطردها من ديارهم واسرهم ، حتى اصبحوا لاجئين ، هذه الاعمال البربرية كلها ، لا لشيء ، الا لانهم مسلمون ، ولهذا ارى ان الوقت الذي ينبغي لامتنا الاسلامية ، ان تقف موقفا ايجابيا ، في قضاياها ، اي قضايا الاسلام والمسلمين ، قد حان - والحمد لله - ان الامة الاسلامية قادرة ، بما لها ، من قوتين اساسيتين ، مادية ومعنوية ، وبان ايماننا الذي نتسلح به لخير سلاح ، نستطيع به ان نحقق ما نسعى اليه ، وواجب علينا ان نعمل بالتمسك بالكتاب والسنة ، كما اوصانا محمد صلى الله عليه وسلم ، وعلينا ان نتجه نحو اخواننا المجاهدين ، في فلسطين ، وبلاد الاسلام المحتلة ، الذين نزلت بهم المصائب ، وضاعت في وجههم سبل الحياة ، فننفس عنهم كربتهم ، ونفرج عنهم الهم الذي هم فيه ، ونخفف عنهم اعباء الحياة ،

لان الله تعالى وعد الذين يفرجون عن اخوانهم كربة فى الدنيا أن يفرج عنهم ما يكون فى الآخرة من ضيق وأهوال ، وكذلك وعد الذين يسهلون على مسلم قضاء حاجته أن يسهل لهم فى الدنيا والآخرة ، فيبسط لهم فى رزقهم فى الدنيا ، ويسهل لهم فى الآخرة ، بسبب هذا كله يجب علينا أن نساعد اخواننا فى فلسطين ، واخواننا فى الفلبين وأفغانستان ، ونساندهم بكل الامكانيات التي نقدر عليها ، من المال والروح ، من أجل تحرير بلادهم الاسلامية .

أيها السادة ، أتوقف هنا وأدعو الله تعالى ان ينصر الاسلام والمسلمين على أعدائهم المتربصين بهم ، ويسدد خطاهم ، ويجعل راية الاسلام عالية رافعة ترفرف . والسلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته .

ووصفه بعالم المدينة  
فيه من الفوائد الثمينة  
ان حديث يوشك الذي اشتهر  
وكان فى امتداحه حقا ظهـر  
ليس من المذاهب المتبعية  
منازع فيه له فاتبعه  
اذ مالك عالمها والمنصرف  
لها فى الاطلاق سماه فاعترف  
ولم يقع ضرب لأكباد الأبل  
لغيره كمثل ما له فعل

- الشيخ محمد حبيب الله الشنجيطي -

### كلمة الاستاذ ابراهيم الحسيني من نيجيريا

الحمد لله نعمده ونشكره ونستغفره ، ونعوذ بالله من شرور انفسنا  
وسيئات اعمالنا ، من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادي له ،  
والصلاة والسلام على سيدنا محمد خاتم الانبياء والمرسلين ،  
وامام الاولين والآخرين ، وعلى آله وصحبه .

وبعد :

سيدي الرئيس ، السادة اعضاء مجلس الرئاسة ، سادتي العلماء  
اعضاء هذه الندوة الموقرة ، السلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

يسعدني ان اتقدم اليكم باقتراح ، لا نرى له بديلا ، في سبيل  
العودة بالامة الاسلامية الى اصلتها ، في تمسكها بقيمتها التاريخية  
وسلفيتها القائمة على سماحة الاسلام ، والدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة ،  
كما قال تعالى : « ادع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة » .  
ممثلة في منهج مالك ومذهبه ، الذي هو منهج الدعوة ، الموروث من النبي  
واصحابه ، المنهج القائم على الكتاب والسنة ، واننا نعتقد صادقين ،  
ان ليس هناك اليوم مكان اليق بأن يتقدم اليه بمثل هذا الاقتراح ، من هذا  
المكان من فاس ، في المغرب الذي ضرب اروع الامثال عبر تاريخه  
الطويل ، المليء بالانجازات الضخمة ، في حماية الاسلام وصيانتة وحراسة  
عقيدته من التحريف والانحراف .

وليس ادل على هذا من مواقف جلاله الحسن الثاني نصره الله الحازمة والبناءة ازاء كبريات القضايا المصرية للامة العربية والاسلامية، فمواقفه فى ابراز فكرة المؤتمر الاسلامي الى الوجود ، وعمله المستمر كرئيس للجنة القدس فى ارجاع حقوق اخواننا الفلسطينيين المشروعة الى غير ذلك مما لا يحتاج الى ذكر ، مواقف لن ينساها له الاسلام والامة الاسلامية ، واخيرا الامر بالدعوة الى عقد هذه الندوة العظيمة ، وهو عمل فريد من نوعه ، كل هذه الاشياء ، اوجدت فى نفوسنا قناعة تامة بان انسب مكان نقدم فيه هذا الاقتراح هو هذا المكان ، المغرب العربي المسلم العظيم ، وفى مدينة فاس العاصمة العلمية العريقة .

سيدي الرئيس انني من نيجيريا ، البلد الافريقي الذي يعيش به ستون مليونا من المسلمين ، يدينون لله تعالى ، على مذهب الامام مالك ، فى عباداتهم ومعاملاتهم ، ومعى الاخ الاستاذ مالك سى من السينغال المسلمة ، وبالنيابة كذلك عن باقي اخواننا الافارقة ، نطالب هذا الجمع العظيم ، ان لا يبارح هذا المكان ، حتى ينشئ هيئة علمية ثقافية تحت اسم رابطة علماء المذهب المالكي ، على ان يتولى علماء هذه الرابطة وضع منهج متكامل ، يشمل الى جانب الفقه المالكي، جانب العقيدة والسلوك، عن طريق وضع اساس ثابت ، لمفهوم التربية الاسلامية ، كما تضمنتها آيات من الذكر الحكيم واحاديث واردة عن المعلم الاعظم ، سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ، فاذا كنا توجهنا بهذا الطلب الى المغرب ، فى ظل قيادة مولانا صاحب الجلالة الملك الحسن الثاني ، فان ذلك ليس بعجيب ، اذ المغرب هو المنطلق الاساسي للمذهب المالكي ، بعد المدينة المنورة، ومصر ، والعراق ومنه انتشر حتى وصل الينا فى جميع انحاء افريقيا ، وافريقيا لا تعرف غير مذهب مالك عبر تاريخها الطويل ، تاخذ به كحل انمائي فى كل جانب من جوانب حياتها .

سادتي ، هذا هو الاقتراح ، واتمنى من الله تعالى لنا جميعا التوفيق ، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

### كلمة الدكتور محمد علوي المالكي ، من المملكة العربية السعودية

بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله والصلاة والسلام على سيدنا  
محمد وعلى آله وصحبه ومن والاه

اما بعد ، فلقد استمتعنا فى هذه الايام ، بالبحوث والدراسات التي  
قدمت لهذه الندوة العلمية الموقرة ، والتي نقلتنا الى رحاب أمام  
المسلمين ، الامام مالك ، أحد الأئمة الذين حفظ الله بهم السنة  
المصطفوية . كيف لا وقد دعا لهم المصطفى عليه الصلاة والسلام  
بالنصرة ، وبشرهم بالجنة ، وأخبرهم بأنهم الفرقة الناجية ، المتمسكة  
بالحق الذي عليه النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه عند افتراق الأمة ،  
وأخبر بأنهم الطائفة الباقية ، الظاهرة على الحق ، التي تقاتل عليه ،  
المنصورة التي لا يضرها من خالفها ، ولا من خذلها ، حتى تقوم الساعة ،  
فمالك أحد الذين زكاهم النبي صلى الله عليه وسلم ، ووصفهم بأنهم حملة  
الحديث العدول ، الذين ينفون عنه تحريف الغالين ، وانحلال المبطلين ،  
وتأويل الجاهلين ، أحد الخلفاء الذين دعا لهم المصطفى بالرحمة ، وأخبر  
أنهم يأتون من بعده ، يروون حديثه وسنته ، ويعلمونها للناس ، فهم أولى  
الناس به يوم القيامة ، أحد أمناء الله على دينه ، وحفاظ سنة نبيه  
صلى الله عليه وسلم ، وحماة الدين الذين يذبون عن السنن ، ويميزون  
الأثار ، ويعرفون الصحيح من السقيم ، أحد الورثة الأمرين بالمعروف ،  
الناهين عن المنكر ، مالك الذي لا يحبه إلا صاحب سنة وهدى ، ولا

يغضه الا صاحب بدعة وهوى ، ومن هنا كانت السعادة والتوفيق ، والهدى والرشاد ، فى الاشتغال بأخبار هؤلاء ، ومعاناة البحث والتأليف ، فى دراسة احوالهم ، وأفكارهم وآرائهم ، وهذا داخل بلا شك ، فى خدمة السنة النبوية ، التي يعتبر المشتغل بها من الملهمين ، الذين أدركتهم لوحظ العناية ، وامتطوا مراكب الهداية ، وأتحفهم الله بالخير الوفير ، الذي لا ينقطع مدده ، ولا يحصر عدده ، مدى الدهر ، وحظه من الايمان واليقين أكبر الحظ ، وعناية الله لا تفارقه . وكانت هذه البحوث تصور فى الحقيقة أصالة مالك وأحواله ، فى علمه وعمله ، وخلقه ووطنيته ، باعتزازه بمدينةته وبلده ، فى عرفها وعاداتها وعملها ، ومحافظة على الآثار ، وعنايته فى فقهه ونظره ، مما يدل على بعده وكمال ذوقه الرفيع ، وفهمه الرائق ، ونظره الدقيق ، وملاحظته السامية . ولقد وفق الله تعالى وزارة الاوقاف فى المملكة المغربية ، الى عقد هذه الندوة والدعوة إليها ، بتوجيهات من جلالة الملك الحسن الثاني ، خادم العلم الشريف ، والساعي فى نشر التراث الاسلامي والفكري ، وفقه الله تعالى ، فكانت خطوة مباركة ، وبادرة موفقة ، ولان كانت المهرجانات والندوات السنوية ، تقام لامثال المتنبى وأبي العلاء المعري وغيرهما - مع الاعتراف بفضلهم - فان الامام مالك أولى واجدر ، وأعظم واكرم .

وفى الختام ، أتقدم بالشكر الجزيل الى وزارة الاوقاف والشؤون الاسلامية وعلى رأسها الوزير المحبوب ، الدكتور أحمد رمزي ، الذي اخذ بيد هذه الندوة بتوفيق الله الى النجاح والفلاح ، وكان لحسن خلقه ، ورحابة صدره ، وتواضعه الجم ، وعنايته الخاصة ، ورعايته الشخصية لنا جميعا ، الاثر الأكبر فى نجاح هذه الندوة . ونحب منه ان يبلغ عنا مولانا الحسن الثاني . خالص الدعاء له بالتوفيق والسداد والحفظ ، وان يؤيده الله بالبطانة الصالحة ، كما نشكر اخواننا أهل المغرب وخصوصا أهل فاس على حسن ضيافتهم وكريم وفادتهم ، فقد غمرونا باحسانهم ولسان حالهم يقول : « لو زرتنا لوجدتنا نحن الضيوف وانت رب المنزل » جزاهم الله تعالى خيرا ، ونسأله تعالى ان يوفقنا وأياكم لصالح الاعمال ، وان يجمعنا وأياكم فى رحاب هذه الندوات المباركة الصالحة لخير الاسلام والمسلمين ، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

## كلمة الاستاذ ابراهيم محمود جوب من السينيفال

بسم الله الرحمن الرحيم

واصلي واسلم على سيدنا محمد سيد الاولين والآخرين ، نبي الهدى والرحمة ، الذي دعا الى الله وهدى ، فكان من آثار دعوته ، ان انطلقت هذه الطاقة الجبارة التي سميت مالكا ، فأضاءت الارض بنور ربها ، ووصلتنا بالسماء عن طريق ما نشر ( أي مالك ) من هدي الله كتابا وسنة واقتباسا، مضى بالناس الى الخير عبر قرون .

ايها الاخوة في الله ، السلام عليكم ورحمة الله وبركاته ، لقد كدت أتهيب الموقف إذ فاجاني بعض اخوتي آنفا ، بأنهم يشرفونني بأن أتحدث نيابة عنهم جميعا ، ولا غرو ، فالمسلمون يد واحدة ويقوم بدمتهم ادناهم ، ولكنني عدلت عن التهيب ، لان المعاني التي تليق بهذا المقام ، يحسن التعبير عنها كل اعجم طمطمسي ، لانها تفرض نفسها ، ولانها تمثل لوحة رائعة لو تصدى للتعبير عنها أي كان لأبدع واجاد ، ولهذا قبلت التكليف ، واعتبرته تشريفا ، فباديء ذي بدء ، احمد الله الذي أنزل الكتاب ، وتعهد بحفظه وقرآنه وبيانه ، فكان ما كان من انتشاره وانتصاره في العالمين ، صخرة حقيقية ، تحطمت عليها كل المحاولات التي ارادت خنق صوت الرسالة ، وكنتم انفاسها ، منذ انطلقت الكلمة الاولى « اقرأ » منذ انبرى الصحابة للتلقي والتبليغ ، منذ بدأت المحاولات اليائسة : « وقالوا لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون » الى المعارك الدامية الفاصلة ، ولكن الحق انبلج ، فاذا الدنيا بأسرها ترى الاسلام وكأن معارضيهِ والمقاتلين ضده ، قوم اجتمعوا عبثا لدفن الظل ، كما نقول في افريقيا ، فتصوروا ايها الاخوة الاكارم ، عبث

من يحاول دفن الظل ، فان الكومة سترتفع ، وان الجهد سيضيع ، حتى اذا غربت الشمس ، رآى المسكين نفسه وقد احاط به الظل من كل جانب ، هذا الدين اذن ، يوحى بالحمد لنا ، فالحمد لله الذي أنزل الكتاب ، وحفظه وهدانا اليه ، وبلغنا فتمسكنا به ، ثم اننا نصلي على على رسول الله ، على النبي الذي لولا عناية الله ، لما عرفنا كيف نبجله ، ففي الوقت الذي ندعو الى الاسلام ، والى السنة ، والى حمل الدعوة الاسلامية ، يجب ان نلتفت مع كل خلجة قلب ، الى عظمة هذا النبي ، الذي من شأنه ما تعرفون ، فصلى الله عليه وسلم وبإسراء ، ووصلنا بحبله وصلانا انقطاع بعده الى يوم القيامة ، حتى نرد الحوض معه ، وقد رضي الله عنا ورضينا عنه .

ثم انني ايها الاخوة فى الله ، بالاصالة عن نفسي ، ونيابة اولية عن اخوتي الافارقة الاكارم ، العلماء الحاضرين هنا ، أتقدم بجزيل الشكر وعظيم الامتنان قولة حق نابعة من الفؤاد ، ليس من قبيل ما يتواضع عليه الناس من مجالات ، ولكن كما يقال : « ليست النائحة كالثكلى » احسننا بالفضل ، وادركنا القيمة ، وعرفنا مقدارها ، فنقول لجلالة الملك الحسن الثاني نصره الله : شكرا من الاعماق ، شكرا لكم يا صاحب الجلالة يوم عرفتم مقدار ميراثكم ، دينا قيما ، رسالة مقدسة ، عرشا بني على الهدى ، نسباً طاهراً زكاه القرآن ، شعبا ايبا مناظلا منذ عرف دعوة مالك ، وهي دعوة القراءان والسنة ، استمسك بها ، وعكف على دراستها ، والحفاظ عليها ، والدفاع عنها ، والتفاخر بها ، والاعتزاز بها ، حتى كان من شأن الشعب ، ومن شأن التراث ما تعرفون ، فشكرا لكم يوم اقمتم شعائر الدين ، ويوم بنيتم الجامعات والمعاهد ، ويوم اقمتم الدار الحسينية وهي دار الحديث ، ويوم دعوتهم اخيرا الى ندوة الامام امام الائمة مالك بن انس رضي الله عنه ، الذي سوف يظل نجم سعدنا طالعا ما دمنا معتمدين بحبل هديه ، مستمسكين بترائه ، متواطئين على احترام موطاه ، مدونين - لا بالاقلام ولكن بالارواح - مدونته وما احتوت عليه ، حريصين على ان نفاخر الدنيا بأسرها ، بأن مالكا امامنا ، ومدح مالك - ايها الاخوة - مدح لامام الانبياء وأمير الانبياء سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام .

فشكرا لكم يا صاحب الجلالة يوم اتحفتمونا فى مستهل عملنا بتلكم الرسالة الخالدة المليئة بالعبر والدروس والتجارب ، ولا غرو فان توجيهات اى ملك محترمة ، ولكن ما بالك اذا كان الملك الموجه ، ملكا مسلما ، عالما مثقفا ، قانونيا وطنيا ، افريقيا عالميا ، فعكفنا عليها ، واستخلصنا منها ، وأعجبنا قراركم الذي سوف يجعل من هذه الباكورة ثمرات يجنيها من حضروا ، ومن هم آتون باذن الله ، باستمرار الندوة مفتوحة ، ثم بتحويلها باذن الله الى مؤسسة قائمة ، سوف تستقطب أقطاب الفكر وعلماء الائمة الحريصين على الدعوة الاسلامية ، حتى اذا تهيأت الفرص كلها ، عدنا الى سيرة سلفنا الاولى ، خدمة للكتاب ، واستمساكا بالسنة ، وخدمة للتراث ، وصفاء فى العقيدة ، وسلفية لا غلو فيها ولا شطط ، حينئذ - لا شك يا امير المؤمنين - ستشيد الدنيا كلها بيتا وتخصه بمعنى جديد : « فعاجوا واننوا بالذي أنت امله ، ولو سكتوا اثنت عليك الحقايب » واذا كانت همة شاعرنا القديم ، منحصرة فى دنائير فى حقبة ، فان همنا معشر الدعاة الى الله ، ان نرى هذا الدين وقد رفر ف علمه ، وانتصرت دعوته ، واندحر أعداؤه ، وخاف المتريصون ، وفرح المؤمنون بنصر الله ، وعاد للكتاب مجده ، فلم يعد كتابا مرصعا مذهبا ، ولكن هدى يتبع ، ونبراسا يضيء الطريق ، ودستورا يطبق فى حياة الامة .

والكلام هنا طويل الذيل ، والمعاني تتوارد ، ولكنني لن ارسل نفسي هكذا ، كما يحلو لي ، وانما اقفى على ما قلت ، بشكر جهة تستحق الشكر والاشادة ، انها وزارة الاوقاف والشؤون الاسلامية ، فقد عهد اليها بالعمل فعملت ، وبالذعوة فدعت ، وبلاستقبال فاستقبلت ، وبالتنظيم فنظمت ، وبالرعاية فرعت ، وبالمشاركة فشاركت ، فكانت النتيجة ما رأيتم وراينا جميعا ، من اسبوع ملء عشنا خلاله مع امام من ائمة المسلمين ، بما عرضتم ايها الاخوة فى الله ، من بحوث مركزة ، اصيلة ، علمية ، سوف تبقى باذن الله كما توقع صاحب الجلالة فى كلمته التي اومأت اليها آنفا ، سوف تبقى مجلدات تضاف الى ما لمالك من

أمجاد ، وكان يعتبر هذا نوعا من بركة مالك تفاض علينا ، أى نعم ، بركة مالك ، ولكن هذه البركة حتى بمعيار مادي ، يمكن أن تختبر بالمجهر ، لأنها بركة تبنى على الحب والطاعة والعمل ، ( وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون ) ، وهذه الرؤية ، قبول وبركة وتزكية ، وهذا شيء ملموس .

أيها الاخوة فى الله ، لا بد لي من أن أشير الى قولة يقول قائلها : « أن القرن الحادي والعشرين سيكون متدينا أو لن يكون » أي ان البشرية ستعود الى الدين ، أو ان الكلمة ستتحق ، وتدمر الحضارة .

أيها الاخوة فى الله ، مهمة المسلمين مديد الانقاذ للحيارى ، ومالك امامنا روي انه فى قوله : « بلغني ان العلماء يسألون يوم القيامة عما يسأل عنه الانبياء » انه ميراث النبوة ، انها دعوة الحق ، انها مسؤولية العلماء ، ولكن قولوا لي ما ذا يستطيع العلماء لو أمسك الملوك والحكام فلم يشاركوا ، ولم يرعوا ، ولم يردوا لهذا الدين جميله .

ومن هنا ياتي تقديرنا لموقف جلاله الملك ، وليس تزلفا ولا مديحا ، فنحن ربينا على عدم التزلف ، وهو فى غنى عنم يتزلف له ، ولكن رأينا ان الدعوة لا بد ان يشترك فى رعايتها وحملها الملوك والحكام ، وحينئذ يعود الحق وينتصر .

ومرة اخرى اشكركم وأمتذر ان اطلت ، وقدروا مشاعر الافارقة وهم فى هذا النادي ، فانها مشاعر سامية رقيقة ، لانهم عاشوا تجارب لم يعيشها كثير من الناس ، وأقرب مثل يتصل بعبد الله الفقير هذا ، - وأستغفر الله من قولي أنا - حكاية حكاها لي والدي رحمه الله قال : « يا بني ، أحمد الله ، فقد ولدت بعد أجل ضربه أحد المستعمرين الفرنسيين ، لو تحقق ما يريد ، لولدت فى جو كافر ، لانه أراد ان يمحو الاسلام من السنيغال ، وجئت بعد الفترة ، وها أنت حفظت كتاب الله ، »

هكذا عشنا حتى وصلنا ذات سنة فراينا ذات يوم مجلة صفيقة  
ارادت ان توحى الى المسلمين فى بلدي بالايواء الى ظل ديانة اخرى ،  
فانتفض شيخنا ، الشيخ ابراهيم نياس - رحمه الله - وذكر السنغال ،  
والسنغال هنا رمز لكل افريقيا فقال :

فالسنيغال ياوى تحت ظل محمد  
ويعبد ربا جل شأننا موحددا  
فمن ظن شيئا غير هذا  
فظنه ، ضعيف ، عليل ، باطل ، لن يؤيدا  
رويدكم اهل الكنيسة لن تروا  
مدى الدهر انا قد تركنا محمدا

والسلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته .

... واملنا فى الله سبحانه وتعالى عظيم ، ويقيننا فى  
ان كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم بما  
يحتويان عليه من اخلاق للمدنية واخلاق للدولة ، واخلاق  
للجماعة البشرية ، واخلاق حتى للمواطنين فى مدينة واحدة  
ان السنة المحمدية سنجد فيها الاطار الطبيعي لحياتنا ،  
وتعايشنا كذلك مع العالم ، لان الاسلام هو دين الجميع  
ودين عالمي ، لان الدموة المحمدية ليست لصنف واحد من  
البشر ، بل خلقها الله سبحانه وتعالى لتكون مطيبة فى  
الحياة لكل الشعوب وكل الاجناس دون اختلاف بين  
الالوان والقارات ...

- جلاله الحسن الثاني -

نص الرسالة الجوابية التي بعثتها الندوة  
الى صاحب الجلالة الحسن الثاني نصره الله

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وآله وصحبه

الى

حضرة مولانا امير المؤمنين حامي حمى الملة والدين  
صاحب الجلالة الملك الحسن الثاني ادام الله عزكم ونصركم

السلام على مقامكم العالي بالله ورحمة الله تعالى وبركاته .  
وبعد :

فبمناسبة انعقاد ندوة الامام مالك بن انس رضي الله عنه ، بعاصمة  
مملكتكم العلمية ، يتشرف علماء المغرب والإقطار الاسلامية ، المشاركون في  
الندوة ، بان يرفعوا الى حضرتكم السامية ، كامل شكراتهم ، وموفور  
امتنانهم ، على الرسالة الكريمة ، التي تفضلتم بتوجيهها اليهم ، يوم افتتاح  
الندوة ، والتي انشروحت لها الصدور ، لما تضمنته من توجيهات سامية ،  
كان لها الاثر الفعال في نجاح الندوة ، والتي كانت بمثابة نبراس اضاء  
السبيل لاجنائها ، وخط لهم منهاج العمل في اجتماعاتهم التي استغرقت  
اربعة ايام ، احياء لذكرى هذا الامام الجليل ، وتوثيقا للصلة بين المهتمين  
بالفقه المالكي في الاقطار الشقيقة .

وان اعضاء الندوة ، ليعبرون لمقامكم العالي بالله ، عن سرورهم وكامل  
ابتهاجهم ، للقرار السامي الذي اتخذتموه بجعل هذه الندوة مفتوحة ، لكي  
تستمر في اعمالها ، وتثري نشاطها بدراسات عن شخصية القاضي عياض ،  
احد اعلام المذهب المالكي .

كما يرفع اعضاء الندوة الى علم جلالتم ، اقتراحهم لوضع البنات  
الاولى لانشاء « ندوة علمية للفقهاء المالكي » تستقطب علماء المالكية وغيرهم  
من فقهاء السنة ، وكذا اساتذة المعاهد العليا ، والجامعات الاسلامية ،  
المعتنون بالبحوث الفقهية ، ودراسة الفقه المالكي خاصة .

وان هذه الحركة الفكرية ، لمنسجمة تمام الانسجام ، مع الخطوات  
المباركة التي اتخذتها جلالتم باحداث المجلس العلمي الاعلى ، واكاديمية  
الملكة المغربية .

فاتكم يا امير المؤمنين صاحب المكرمات الطيبة ، والمبادرات النيرة  
الموفقة .

وانتم يا صاحب الجلالة ، باحياتكم المجد الاسلامي التليد، لتعبرون عن  
اربيحتكم الفياضة ، بتطاعتكم الكريمة لجمع الكلمة ، وتوحيد الصف ، درءا  
للكسوك والشبهات ، في هذا الظرف الذي يتطلع فيه المسلمون الى بزوغ  
قرن جديد ، ستكونون فيه بحول الله من المجددين لامر هذا الدين .

فجميع اعمالكم موقوفة على خدمة الصالح العام، وخدمة العلم ونصرة  
العروبة والاسلام ، واعلاء كلمة الله ، والحفاظ على مقومات الامة الروحية  
والاخلاقية والحضارية .

وان كافة اعضاء ندوة الامام مالك ليعتبرون انفسهم جنودا مجتدين  
وراءكم للنوذ عن وحدة الامة في العقيدة والمذهب ، ووحدتها الترابية ،  
المقدسة . كما يسجلون باعتزاز وافتخار مواقفكم الخالدة لاحقاق حق  
فلسطين ، وتحرير القدس الشريف ، والمسجد الاقصى ، اولى القبلتين  
وثالث الحرمين .

زادكم الله يا مولاي عزاً ورفعة ونصراً وتوفيقاً ، وسدد خطاكم ،  
وخلد في الصالحات ذكركم ، وأراكم في شعبكم ما يسر ، وحفظكم في سمو  
ولي عهدكم ، الامير المحبوب سيدي محمد ، وصنوه المولى الرشيد ،  
وسائر أفراد الاسرة الملكية الكريمة . انه سميع مجيب .

والسلام على مقامكم العالي بالله .

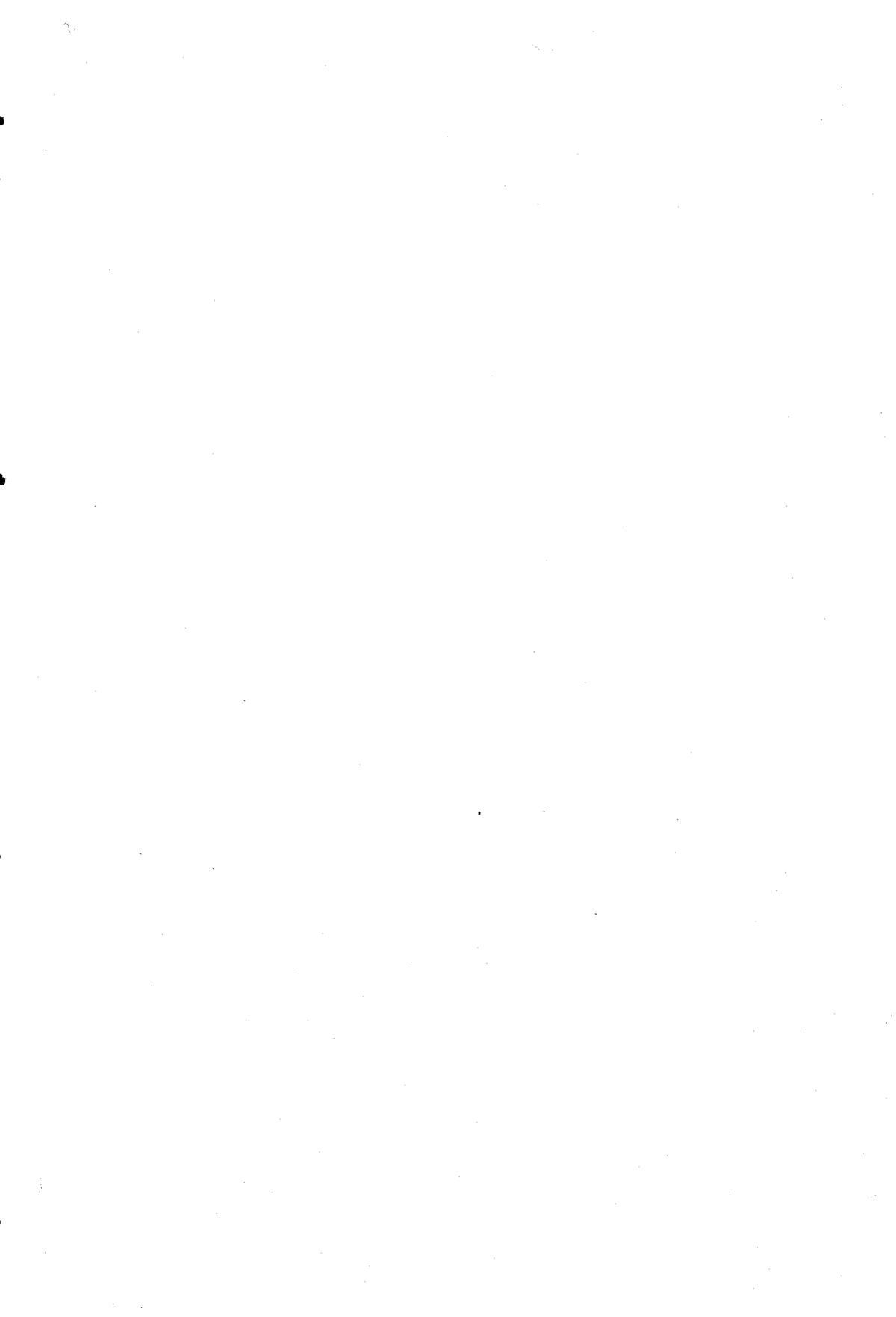
وحرر بفاس في 12 جمادى الثانية 1400 هـ  
موافق : 28 أبريل 1980 م

( ندوة الامام مالك بن أنس )

وكن في ذي المذاهب مالِكيا  
مدينيا وسنيا متينيا  
مدينة خير من ركب المطايا  
ومهبط وحي رب العالمينا  
نظرنا في المذاهب ما رأينا  
كمداهب مالك لناظرينا

- محمد بن عمار الكلامي البورني -

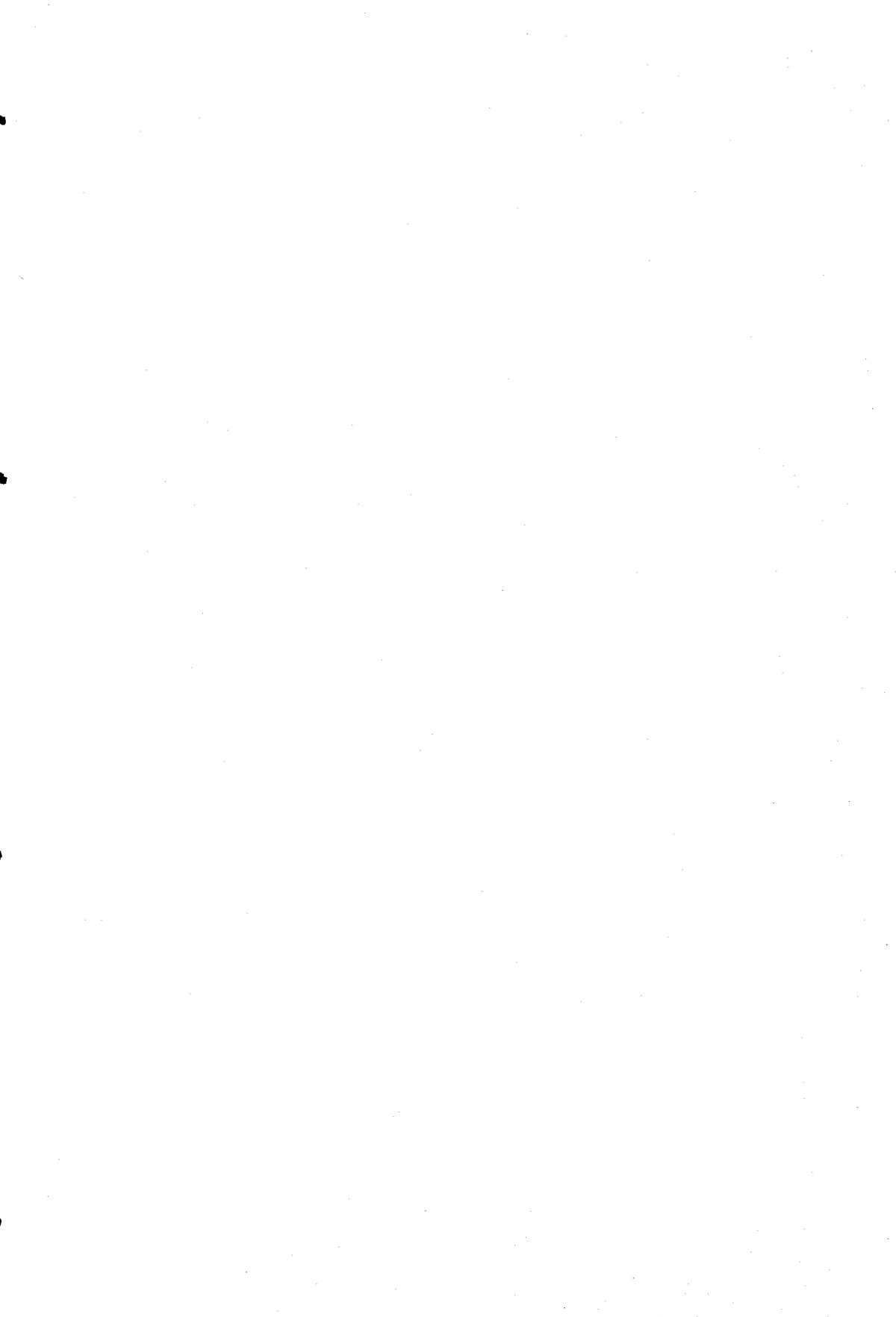
# البحوث



## الاستاذ الرحالي الفاروق

عميد كلية اللغة بمراكش ، ورئيس المجلس العلمي  
متخصص في الفقه والشريعة .

( الملكة المغربية )



الامام مالك ونظريته في تاصيل عمل أهل المدينة  
وترجيحه على الحديث الذي لا يصحبه عمل

### للملأمة الاستاذ الرأالي الفاروقى

بسم الله الرحمان الرحيم ، الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على  
الانبياء والمرسلين وعلى آل والأصحاب كلهم أجمعين

حضرات السادة العلماء الافاضل حياكم الله وبياكم وسلام عاطر يلقاتكم  
ورحمة الله تغشاكم ،

وبعد فقد كان قام فيما مضى تفكير في احياء ذكرى من الذكريات الفقهية  
والمناسبات القومية باسم شخصية اسلامية وعالمية لها ميزانها الخاص في  
باب الفكر والمعرفة ومقامها المعروف بين الائمة المجتهدين والعلماء الراسخين  
ولها مذهب سمي وسوي عرف في أنحاء الدنيا بالتمكن من مادة الفقه والحديث  
وبالاصابة في القول والعمل الا أنه كتب له أن يستقر ويزدهر في المغرب العربي  
وعلى الاخص المغرب الاقصى الذي دخل اليه مذهب الامام مالك بن انس رحمه  
الله في سنة ثمان وخمسين وثلاثمائة على يد أبي ميمونة دراس ابن اسماعيل  
المعروف بالمحدث .

وما هو المغرب الجديد يشهد الآن في عهد ملك قوام همام رفع الرايات  
والبنود وأقام السدود والحدود يشهد اقامة مهرجان يتناول فيه علماءنا الاجلاء  
أماما من أئمة الدين الخفيف ومجتهدا من مجتهدي الفقه الشريف وعظيما من  
عظماء الاسلام ومفكرا من المفكرين الاعلام لما يتمتع به هذا الامام من صفة  
شرعية وصيغة دينية ، ولما يذكرنا به مما نملك من ثروة فقهية وقيمة قانونية  
تتصل بحياة الناس وتفصل بينهم في الحياة الدنيا ، ويعتبر هذا المهرجان  
الكبير من السمو في منابر التعبير ومناطق التفكير وهو ما يجعله يسير مسيرة  
عصره ويبحث مع ذلك حياة أهله ، وينعش أماكن قوتها ونفوذها ومواضع

عزها ومجدها فأشكر لهؤلاء الاعيان عنايتهم بهذا المهرجان واستجابتهم للدعوة في هذا المكان الذي تعتبر دعوته دعوة استيناس واحتفاء ، ودعوة ارتباط وانتماء ، وأسأل الله لنا ولكم ولمن جاء قبلكم أو جاء بعدكم قوة الايمان وصحة الارادة واخلاص العمل في دائرة التعاون على البر والتقوى حتى يتأتى لنا أن نجمع بين روابط الماضي وروابط الحاضر ، من دون أن يلتبس علينا الحق بالباطل ، ومن غير أن يشتهب علينا مفهوم الخير بمفهوم الشر ، وحتى لا يكون بيننا وبين الاسلام قطيعة ولا مسافة بعيدة ، فان الاسلام الصحيح المأخوذ من الكتاب والسنة هو أساس تاريخنا وحضارتنا وقاعدة عزتنا ومكانتنا ، ومن كان يريد العزة فله العزة جميعا ، ومن كان يريد القوة فله القوة جميعا ، وانما يقوم البناء الصحيح على الايمان الصحيح ، وانما تكتسب العزة بالهداية والارشاد ، وبالاعداد والجهاد.

وما أكثر ما نرى من جليل الذكريات وعظيم الاحتفالات ولكن ما أوجنا الى الذكريات العامرة بالقيم والمعاني المليئة بالاسرار والمثاني .

- والى الرجال الذين تصنع بهم الدنيا وتخضع لهم الاعناق ، بسيرهم على صراط الله ونفعهم لعباد الله ، وجهادهم في سبيل الله ، واجتماع مثل هذه الصفات وهذه السمات قليل في الناس كما قال سبحانه وتعالى : « وان كثيرا من الخطاء ليبيغي بعضهم على بعض الا الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، وقليل ما هم » وكما قال : « وقليل من عبادي الشكور » .

وأخيرا نسال الله العلي الاعلى أن تنير هذه الذكرى المالكية معالم الطريق وان يكون لها نجاح ملحوظ وأثر محفوظ حتى يقوم الناس لله مثني وفرادي ثم يتطهروا من الاهواء والافاعيل ويتناصروا اذا هجمت الاهوال والاباطيل ، وشكروا للعلماء واكبارا للعلم الذي أرانا سعادة الدنيا وسعادة الاخرى كما أرانا عجائب الحياة في خلايا الكائنات ودعاء لصاحب الجلالة والمهابة بالنصر والتأييد ، ولولي عهده بالحفظ والتسيد .

شخصية الامام مالك رحمه الله من أهم الشخصيات التي لها وزنها وقيمتها في واقع التاريخ الاسلامي وهو مالك بن أنس بن مالك بن أبي عامر الاصبحي المدني أبو عبد الله المولود سنة 93هـ - والمتوفي سنة 179 في أصح الاقوال وأرجح الروايات، وهذه الشخصية الكريمة تكونت في ظل البيئة العربية والثقافة الاسلامية وفي ظروف الحياة الطيبة فلقد عاش رضي الله عنه في القرون المثني عليها بقول النبي صلى الله عليه وسلم : خيركم قرني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم - فاتجه الرأي العام الاسلامي الى آرائه وأفكاره لما امتاز به من الفقه في الكتاب والسنة حتى ضربت اليه آباط الابل من كل بلد ورجع

الشيوخ اليه في المتن والسند ، كما كان شيخ ائمة المذاهب الذين شروق  
وغرب فحاز بذلك ثقة الائمة وأصبح مثابة وقدوة للامة بما حباه الله به من  
صفات خلقية ومزايا علمية ، وصراحة دينية .

ومن أجل هذه الصراحة تعرض رحمه الله للضرب والاذية فلقد كانت الدولة  
في عصره تاخذ الناس بالطلاق في البيعة فافتاهم رضي الله عنه بعدم لزوم  
طلاق المكره رغم نهييه عن ذلك بل خرج الى الشارع وقال : من عرفني فقد  
عرفني الى آخر المقالة المشهورة وهكذا كان العلماء لا يخافون في الله لومة لائم  
بل يصدعون بالامر والحق كما قال سبحانه لنبيه : « فاصدع بما تؤمر » .

ومن عاداته في مذهبه رحمه الله أنه يتوسع في باب الحياة والعبادة حتى أنه  
يقول فيها بالمصالح المرسلة ، ويتشدد في باب الطاعة والعبادة حتى أنه لا  
يكاد يخرج عن حد الشريعة والدلائل الواردة .

ومن لطائف المغرب وخصائصه أن يكون متبوعه عالم المدينة وخدام السنة  
وأمام الائمة كما أن من دلائل ترجيح مذهبه كما صرح بذلك الشيخ زروق رحمه  
الله أن يكون أتباعه أهل المغرب الوارد فيهم قوله صلى الله عليه وسلم :  
لا يزال أهل المغرب ظاهرين على الحق حتى تقوم الساعة أو كما قال .

ومن تأليف هذا الامام العظيم :

- 1) رسالته الى الليث بن سعد في أهل المدينة واجماعهم .
- 2) ورسالته الى هارون الرشيد في الآداب والمواعظ .
- 3) ورسالته في القدر والرد على القدرية .
- 4) وتفسيره لغريب القرآن الى غير ذلك .

الا أن أشهرها ذكرا وأعظمها نفعا هو كتابه الموطا الذي كان أول ما ظهر في  
القرن الثاني بالمدينة الطيبة .

وأول من جمع بين شرفي الفقه والحديث فكان كتابا جامعا لابواب الحياة  
كلها - وكان مقامه في الحديث معروفا في الدنيا بأسرها ، ولذلك اعتنى به  
المسلمون شرقا وغربا وخدموه أجل الخدمات وشرحوه في أعلى مستويات ،  
واستفادوا منه ما يشتهون في حياتهم الادبية والمادية ولا سيما المغاربة الذين  
أكبروه ونصروه ووضعوه فوق رؤوسهم - ومن ثم تم له الفضل وحق له أن  
يتبوا مكان الصدارة فأحرى مكان المساواة .

وذلك أن البلاغات والمراسيل التي توجد فيه تساوي المعلقات في صحيح الامام البخاري رحمه الله ، فكما أن المعلقات توجد موصولة في مواضع أخرى كذلك المراسيل والبلاغات وجدت متصلة في أماكن أخرى كما حقق ذلك ابو عمر ابن عبد البر النمري وغيره من الحفاظ والنقاد .

ومن بلاغاته في الاجتماع قوله : بلغني أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : ما من داع يدعو الى هدى الا كان له مثل أجر من أتبعه لا ينقص ذلك من أجورهم شيئاً ، وما من داع يدعو الى ضلالة الا كان عليه مثل أوزارهم لا ينقص ذلك من أوزارهم شيئاً .

ومن أحاديثه في الاجتماع حديث أم سلمة رضي الله عنها قالت : قلت يا رسول الله انهلك وفينا الصالحون؟ قال نعم اذا كثرت الخبث ، ومصدق هذا قوله تعالى « وانفقوا فنتن لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة » والفتنة تشمل الفوضى والاخلاق التي تنشأ عن ركوب الاهواء والمحارم والفوضى في الارزاق التي تترتب على وجود الحيل والمظالم .

وقد دلت هذه النصوص الكريمة على أن طبيعة الاسلام لا تقبل الخبث والفساد وأن حياته تقوم على العدالة والطهارة ، وان العبرة بالاكثريّة لا بالاقليّة ، وبطهارة الباطن وان كان الظاهر في الاغلب عنوان الباطن .

ومثل هذه الشخصية التي تطاولت اليها الاعناق ، ورحل اليها الناس من كل الافاق ، تناولها العلماء بالدراسة وأولوها مزيدا من العناية وحللوها بعمق في البيئّة والاجتماع ، وفي السلوك والاخلاق وفي الفكر والاصلاح ، وفي العطاء والانتاج ، كيف وهو من أجل المجتهدين المشهورين بافكارهم الرشيدة وأنظارهم السديدة ، والمعروفين بشدة أتباعهم وتعظيمهم للشريعة المعصومة في السر والخفاء ، وفي الجهر والضحاء .

وكفاه فضلا وثناء قول السلف الصالح كسفيان بن عيينة رحمه الله في الحديث الذي تردد ذكره وتعدد لفظه ، يوشك أن يضرب الناس آباط الابل في طلب العلم فلا يجدون عالما أعلم من عالم المدينة : انه مالك بن أنس .

والناس اكيس من أن يمدحوا رجلا ٠٠٠٠ حتى يروا عنده آثار احسان قال القاضي عبد الوهاب البغدادي : لا ينازعنا في هذا الحديث أحد من ارباب المذاهب اذ ليس منهم من له امام من أهل المدينة فيقول المراد به أمامنا ، ونحن ندعي أنه امامنا بشهادة السلف له أنه اذا اطلق عالم المدينة او امام دار الهجرة فالمراد به مالك بن نويرة من علماء المدينة .

وقال الامام الشعراني رحمه الله تعالى في الميزان : رأيت النبي صلى الله عليه وسلم مرة وقال لي عليك بالاطلاع على أقوال أمام دار هجرتي والوقوف عندها فإنه شهد آثاري .

فامتثلت أمره صلى الله عليه وسلم وطالعت الموطأ والمدونة الكبرى ، ثم اختصرتها وميزت فيها المسائل التي تميز بها عن بقية الأئمة عملا بإشارته صلى الله عليه وسلم ، ورأيته رضي الله عنه يقف عند حد الشريعة لا يكاد يتعداها وعلمت بذلك أن الوقوف على حد ما ورد أولى من الابتداع ولو استحسن فإن الشارع قد لا يرضى بتلك الزيادة في التحريم أو في الوجوب . اهـ .

والى ذلك نتناول قضية من أهم القضايا ، ونظرية من اسد النظريات عنده وهي اعتبار استمرار عمل أهل المدينة راجحا ومقدما على غيره من أخبار الاحاد التي لم يصحبها عمل - اذ كان ذلك اصلا من أصول مذهبه ، وقاعدة من قواعد - بيب أن هذا الاصل قد تعرض لكثير من النقد والتعقب ، حتى بلغ أحيانا حد الطعن والتعصب ، فمنهم من غاب عن نظره القصد والسدد ، ومنهم من عاب وقال هذا أمر حدد ، وكل نزاع فانما ينشأ عن سوء الفهم أو عن سوء القصد ، وكيفما كان الحال فالخلاف طبيعة بشرية لا تقاوم ، ولكنها قد تحاكم .

وقبل أن نأخذ في عرض القضية وتوضيح مراميها ، وتقديم شواهدنا نذكر بشيء من صفات الامام مالك اذ الاخلاق هي أساس العلم والنجاح ، وباب الخير والفلاح .

لقد كان رحمه معروفا بالامامة في الفقه وأحكامه ، وبجودة النظر في مأخذه ومداركه ، وبالحظوة في معرفة السنن والآثار ، وحفظ سيرة رواة الاخبار ، فكما اعتبر ذلك أهل عصره ، واعترف به أهل مصره وشاهد ذلك أولا - أنه أول من وطأ للناس الحديث ، وأول من ألف في تفسير غريب الحديث ، وأول من اشتهر بالجمع بين شرف الفقه وشرف الحديث - وأنه أعلى سفدا وأثبت نظرا وأصح بصرا ، وشاهد ذلك ثانيا ان أبا عبد الله البخاري وهو ادنى بعلم الحديث وبأهل الحديث قد ملا جامعه الصحيح بالرواية عنه - وفي الوقت ذاته لم يرو عن الامام الشافعي والامام أبي حنيفة ولا حديثا واحدا - وليس هذا خطأ من قدرهما ولا نقصا من مرتبتهما حاشا وكلا وانما هو بيان للمواهب ، وتقدير للمناصب ، واما الامام أحمد وهو من هو في الحديث فروى عنه حديثين لا غير لانه أدرك شيوخه ، وأهل الحديث يرغبون دائما في علو السند ، ولا ينزلون عن ذلك الا لغرض .

وقد كان رحمه الله حاملا لصفات العلم ولاخلاق العلماء ، وسالكا سبيل التبيين والتثبت في المشكلات ، ومتحريا عن الكلام في المعوصلات ، وذلك ما سلك به مسلك الاولين ، وجعله يسير على سنن الماضين ، يراه الناس أهلا للرئاسة والصدارة ، ويرى هو نفسه دون ذلك - تواضعا لربه وهضما لنفسه ، ومن شأن العظماء عدم الرضا عن أنفسهم ، وقلة النظر الى أعمالهم قال مالك رحمه الله ربما وردت على المسألة تمنعني من الطعام والشراب والنوم فقيل له يا ابا عبد الله ، والله ما كلامك عند الناس الا نقر في حجر ما تقول شيئا الا تلقوه بالقبول ، قال فمن أحق ان يكون هكذا ، الا من كان هكذا ، قال الراوي فرأيت في النوم قائلا يقول : مالك معصوم - وقال اني لانكر في مسأله منذ بضع عشرة سنة فما اتفق لي فيها رأى الى الآن وكان اذا سئل عن المسألة قال للسائل انصرف حتى انظر فيها فينصرف ويردد فيها فقيل له في ذلك فبكي ، وقال اني أخاف أن يكون لي من المسائل يوم وأي يوم - وكان اذا سئل عن مسألة تغيرلونه ، ونكس رأسه ، وحرك شفقيه ، قغلا ما شاء الله لا قوة الا بالله - وكان يقول من أحب أن يجيب عن مسألة فليعرض نفسه قبل أن يجيب - على الجنة والنار ، وكيف يكون خلاصه في الآخرة - وقال ما شيء أشد علي من أن أسأل عن مسألة من الحلال والحرام لان هذا هو القطع في حكم الله ، ولقد أدركت أهل العلم والفقه ببلدنا وان أحدهم اذا سئل عن مسألة كان الموت أشرف عليه ورأيت أهل زماننا هذا يشتهون الكلام والفتيا ، ولو وقفوا على ما يصيرون اليه غدا لظلموا من هذا وان عمر بن الخطاب وعليا وعامة خيار الصحابة كانت ترد عليهم المسائل وهم خير القرن الذي بعث فيه النبي صلى الله عليه وسلم ، وكانوا يجمعون أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم ويسألون ثم حينئذ يفتنون وأهل زماننا هذا قد صار فخرهم الفتيا فبقدر ذلك يفتح لهم من العلم - قال ولم يكن من أمر الناس ولا من مضي من سلفنا الذين يقتدى بهم ، ومعمل الاسلام عليهم ، ان يقولوا هذا حلال وهذا حرام ، ولكن يقولون انا اكره كذا وأرى كذا ، واما « حلال وحرام » فهذا افتراء على الله « قل آرايتم ما انزل الله لكم من رزق فجعلتم منه حراما وحلالا قل الله أذن لكم أم على الله تفترون » لان الحلال ما حلله الله ورسوله والحرام ما حرماه .

- وسأل رجل مالكا عن مسألة وذكر انه ارسل فيها من مسيرة ستة اشهر من المغرب فقال له اخبر الذي ارسلك انه لا علم لي بها قال: ومن يعلمها، قال: من علمه الله . وسأله رجل آخر فلم يجبه فقال يا ابا عبد الله اجبني فقال ويحك تريد أن تجعلني حجة بينك وبين الله فاحتاج اذا أولا أن أنظر كيف خلاصي ثم اخلصك ، وقد سئل عن ثمان واربعين مسألة فقال في اثنين وثلاثين منها لا أدري ، لو كان يقول في أكثر ما يسأل عنه لا أدري ، ويقول اذا أخطأ العالم لا أدري اصيبت مقاتله ، قال عمر بن يزيد فقلت لمالك في ذلك فقال يرجع أهل الشام

الى شامهم ، وأهل العراق الى عراقهم ، وأهل مصر الى مصرهم ، قال فأخبرت الليث بذلك فبكي وقال - مالك والله أقوى من الليث - قال أبو مصعب فقال لنا المغيرة تعالوا نجتمع ما بقي علينا مما نريد أن نسال عنه مالكا فمكثنا نجتمع ذلك وكتبنا ، ووجه به المغيرة اليه وساله الجواب فأجابه في البعض وكتب في الكثير منه لا أدري فقال المغيرة يا قوم لا والله ما رفع الله هذا الرجل الا بالتقوى ، من كان منكم يسال عن هذا فيرضى أن يقول لا أدري - وكان يقول لاصحابه كما رواه عنه صاحبه معن بن عيسى القزاز انما انا بشر اصيب واخطيء فانظروا في رأيي فكل ما وافق الكتاب والسنة فخذوا به وكل ما لم يوافق ذلك فاتركوه .

هذه الجملة القينا بها لتبين أن العلم لا ينمو ولا يسمو الا في قلوب أهل الدين والورع ، ولتتبين بها من يكون من العلماء أولى بالاجتهاد والاتباع ، وليتخذ ذلك قانونا في سائر العلماء فان هذه الصفات موجودة في سائر هداة الاسلام غير أن بعضهم أشد اتصافا بها من بعض .

ثم انه لا جدال ان كل أمام من أئمة الاجتهاد له قواعد معينة ، ونصامهم محددة يركزون عليها أحكامهم الفقهية ، ودلائلهم النظرية - واذا تأملت منازع الفقهاء ، ومناهجهم في الفقه ، واجتهادهم في الشرع ، وجدت مالكا رحمه الله ناهجا في هذه القواعد خير المناهج ، وسالكا فيها أفضل المسالك ، ومرتبيا لمراتبها ومداركها أحسن ترتيب ، مقدما كتاب الله على الآثار ، ثم هي على القياس والاعتبار ، تاركا منها ما لم يتحملة الثقات العارفون بما يحملونه - أو ما يحملونه ووجد الجمهور من أهل المدينة قد عملوا بغيره وساروا على خلافه - وهم مركز الاسلام وموطن الايمان ، وأعرف بالقديم والحديث ، وأولى بالتمسك والتنسك - ولان للمدينة المنورة مزايا وفضائل ماثورة ، ولاهها مواقف ومقامات مشهورة - وقد تكلم الامام البخاري رحمه الله آخر كتاب الحج من جامع الصحيح على فضلها ، وتكلم في آخر كتاب الاعتصام على فضل أهلها ، وترجيح علمهم على علم غيرها ، ومن ذلك قول النبي صلى الله عليه وسلم : المدينة كالكبير تنفي خبثها كما ينفي الكبر خبث الحديد ، والخطأ في الدين خبث ، وقوله أن الايمان ليأرز الى المدينة كما تأرز الحية الى جحرها ، الى غير ذلك من الاحاديث التي تتكلم عن المدينة وخصائصها ، ومن ذلك ما أسنده البخاري في المنبر والمد والصاع وغير ذلك مما يدل على تقديم أهل المدينة في العلم على غيرهم وترجيح ما ذهب اليه مالك رحمه الله .

وقال القاضي عياض في المدارك - باب فضل علم أهل المدينة وترجيحه على علم غيرهم واقتداء السلف بهم - قال زيد بن ثابت اذا رأيت أهل المدينة على شيء فاعلم أنه السنة ، قال ابن عمر لو أن الناس اذا وقعت فتنة ردوا

الامر الى أهل المدينة لصلح الامر ولكنه اذا نعق ناعق نبعه الناس - قال مالك كان ابن مسعود يسأل بالعراق عن شيء فيقول فيه ، ثم يقدم المدينة فيجد الامر على غير ما قال فاذا رجع لم يحط رحله ، ولم يدخل بيته ، حتى يرجع الى ذلك الرجل فيخبره بذلك ، قال وكان عمر بن عبد العزيز يكتب الى الامصار يعلمهم السنن والفقه ، ويكتب الى المدينة يسألهم عن مضي ويعلمون بما عندهم ، وكتب الى ابي بكر بن حزم أن يجمع له السنن ويكتبها اليه فتوفي وقد كتب له ابن حزم كتباً قبل أن يبعث بها اليه قال مالك والله ما استوحش سعيد بن المسيب ولا غيره من أهل المدينة لقول قائل من الناس ، وقال عبد الله بن عمر بن الخطاب - كتب الى عبد الله بن الزبير - وعبد الملك بن مروان كلاهما يدعوني الى المشورة فكتبت اليهما ان كنتما تريدان المشورة فعليكما بدار الهجرة والسنة - وقال رجل لابي بكر بن حزم في أمر والله ما أدري كيف أصنع في كذا فقال أبو بكر يا ابن أخي اذا وجدت أهل هذا البلد قد اجتمعوا على شيء فلا يكن في قلبك شيء - وقال الامام الشافعي : أما أصول أهل المدينة فليس فيها حيلة من صحتها - قال الامام مالك ابن سيرين أشبه الناس بأهل المدينة في ناحية ما يأخذ به .

قال مسعود بن كدام قلت لحبيب بن ابي ثابت ايما أعلم بالسنة أو بالفقه أهل الحجاز أم أهل العراق قال أهل الحجاز - وقال الشافعي رحمه الله كل حديث ليس له أصل بالمدينة ففيه ضعف (

### ( رسالة الامام مالك الى الليث بن سعد في هذا )

من مالك بن أنس الى الليث بن سعد سلام عليكم فاني احمد الله اليك الذي لا اله الا هو اما بعد عصمنا الله واياك بطاعته في السر والعلانية ، وعافانا واياك من كل مكروه اعلم رحمك الله أنه بلغني انك تفتي الناس بأشياء مخالفة لما عليه جماعة الناس عندنا وببلدنا الذي نحن فيه ، وانت في امامتك وفضلك ومنزلتك من أهل بلدك وحاجة من قبلك اليك ، واعتمادهم على ما جاءهم منك ، حقيق بأن تخاف على نفسك وتتبع ما ترجو النجاة باتباعه - فان الله تعالى يقول « والسابقون الاولون من المهاجرين والانصار » الآية . وقال تعالى « فيشر عبادي الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه » فانما الناس تبع لأهل المدينة اليها كانت الهجرة ، وبها نزل القرآن ، وأحل الحلال وحرم الحرام ، إذ رسول الله بين أظهرهم ، يحضرون الوحي والتنزيل ، ويأمرهم فيعطونه ، ويبين لهم فينتبعونه ، حتى توفاه الله واختار له ما عنده صلوات الله عليه ورحمته وبركاته ثم قام من بعده أتبع الناس له من امته ممن ولى الامر من بعده فما نزل بهم مما علموه انفذوه ، وما لم يكن عندهم فيه علم سألوا عنه ثم أخذوا بأقوى ما وجدوا في ذلك - في اجتهادهم وحداثة عهدهم وان خالفهم مخالف

أو قال امرؤ غيره أقوى منه وأولى ترك قوله وعمل بغيره ، ثم كان التابعون من بعدهم يسلكون تلك السبيل ويتبعون تلك السنن ، فإذا كان الأمر بالمدينة ظاهراً معمولاً به لم أر لأحد خلافه للذي في أيديهم من تلك الوراثة التي لا يجوز لأحد انتخالها ولا ادعاؤها .

ولو ذهب أهل الإصصار يقولون هذا العمل ببلدنا ، وهذا الذي مضى عليه من مضى منا لم يكونوا من ذلك على ثقة ، ولم يكن لهم من ذلك الذي جازلهم فانظر رحمك الله فيما كتبت إليك فيه لنفسك وأعلم أنني أرجو أن لا يكون وعائي إلى ما كتبت به إليك إلا النصيحة لله تعالى وحده . والنظر لك ، والظن بك ، فانزل كتابي منك منزلة ، فانك إن فعلت تعلم أنني لم ألك نصحا وفقنا الله وإياك لطاعته وطاعة رسوله في كل أمر وعلى كل حال والسلام عليكم ورحمة وقد وافقه الليث رحمه الله في جوابه ، على ما أشار إليه في كتابه ، وإنما تركته اجتناباً للطول وتقديراً للوقت ثم قال في المدارك « باب ما جاء عن السلف والعلماء في وجوب الرجوع إلى عمل أهل المدينة ، وكونه حجة عندهم وأن خالف الأكثر ،

روي أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال على المنبر أخرج بالله على رجل روى حديثنا العمل بخلافه - قال ابن القاسم وابن وهب - رأيت العمل عند مالك أقوى من الحديث - قال مالك وقد كان رجال من أهل العلم من التابعين يحدثون بالأحاديث وتبلغهم عن غيرهم فيقولون ما نجهل هذا ولكن مضى العمل على غيره .

قال مالك رأيت محمد بن أبي بكر بن حزم وكان قاضياً وكان أخوه عبد الله كثير الحديث رجل صدق فسمعت عبد الله إذا قضى محمد بالقضية قد جاء فيها الحديث مخالفاً للقضاء يعاتبه ويقول له ألم يأت في هذا حديث كذا فيقول بلى فيقول أخوه فما بالك لا تقضي به فيقول فأين الناس عنه - يعني ما أجمع عليه من العلماء بالمدينة - يريد أن العمل بها أقوى من الحديث - قال ابن المعذل سمعت أنساناً سأل ابن الماجشون - لم رويتم الحديث ثم تركتموه قال ليعلم أننا على علم تركناه - قال ابن مهدي ، السنة المتقدمة من سنة أهل المدينة خير من الحديث - وقال ربيعة ألف عن ألف أحب إلي من واحد عن واحد - قال ابن أبي حازم كان أبو الدرداء رضي الله عنه يسأل فيجيب فيقال أنه بلغنا كذا وكذا بخلاف ما قال فيقول وأنا قد سمعته ولكني أدركت العمل على غير ذلك - قال ابن أبي الزناد كان عمر بن عبد العزيز يجمع الفقهاء ويسألهم عن السنن والأقضية التي يعمل بها فيثبتها ، وما كان منه لا يعمل به الناس الغاه وإن كان مخرجه من ثقة ، وقال مالك رحمه الله انصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم من غزوة كذا في نحو كذا وكذا ألفاً من الصحابة مات منهم بالمدينة نحو عشرة آلاف وبأقبيهم تفرق بالبلدان فأيهما أحرى أن

ينبغي ويؤخذ بقولهم - من مات عندهم النبي صلى الله عليه وسلم واصحابه الذين فُكرت - أو مات عندهم واحد أو اثنان من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم ، قال عبيد الله بن عبد الكريم قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم عن عشرين ألف عين تطرف انتهى . ولقد أشبع القاضي رحمه الله الكلام في هذه المسألة وأطال في توجيهها والدفاع عن وجوها ، وهي مسألة وإن تعفاها الإمام مالك رحمه الله وأقام مذهبه عليها ، فهي قضية السلف الصالح من الصحابة والتابعين كما سمعت ورأيت وكان الاختلاف في فهم هذه القضية نشأ عن الاختلاف في القصد ومن المفهوم أن القصد هو الإجماع أو شبه الإجماع الذي لا مجال فيه للرأي - وهو العمل المستند الى الدليل الشرعي لا مجرد العمل كما صرح بذلك علماء الأصول وقالوا يرجح الخبر على معارضه بعمل أكثر السلف - ويعمل أهل المدينة وقد قال الإمام مالك رحمه الله أحب الأحاديث التي ما اجتمع عليه الناس - ومن ثم كان رحمه الله في الموطأ يأتي بالآثار عن الصحابة والتابعين مبينا بها السنن وما يعمل به منها وما لا يعمل به ، وما يقيد به المطلق وما يخص به العام ، وكثيرا ما تراه يقول في الموطأ - الأمر المجتمع عليه عندنا - أو السنة التي لا اختلاف فيها عندنا - أو من السنة كذا ومراده رضي الله عنه بذلك عمل أهل المدينة وليس اتباع عمل المدينة لعصمة أهلها ، وإنما ذلك لكونهم أعرف بالوحي وبالمراد منه ، وأعرف بالقديم منه والجديد - لان المدينة مهبط الوحي وهم حاضرون فيها وغيرهم غائبون فيكون ضبط الوحي فيها أيسر وأكثر من أجل ذلك رجح العلماء والمحدثون الأحاديث الحجازية على الأحاديث العراقية إذا جاوز الحديث الحرة انقطع نخاعه .

وقال أبو اسحاق الشاطبي رحمه الله في مبحث ترجيح الدليل باستدامة العمل بمقتضاه أو بكثرتة - ما نصه ومن هذا المكان يتطلع الى قصد مالك رحمه الله في جعله العمل مقدما على الأحاديث - إذ كان إنما يراعي كل المراعاة العمل المستمر والاكثر ويترك ما سوى ذلك وإن جاء فيه أحاديث ، وكان ممن أدرك التابعين وراقب أعمالهم ، وكان العمل المستمر فيهم مأخوذا عن العمل المستمر في الصحابة ولم يكن مستمرا فيهم الا وهو مستمر في عمل رسول الله صلى الله عليه وسلم أو في قوة المستمر - وقد قيل لمالك أن قوما يقولون أن التشهد فرض فقال اما كان أحد يعرف التشهد فأشار الى الإنكار عليه بأن مذهبهم كالمبتدع الذي جاء بخلاف ما عليه من تقدم .

وسأله أبو يوسف عن الأذان فقال مالك وما حاجتك الى ذلك فعجبا من فقيه يسأل عن الأذان ، ثم قال له مالك وكيف الأذان عنكم فذكر مذهبهم فيه فقال من أين لكم هذا فذكر له أن بلالا لما قدم الشام سأله أن يؤذن لهم فأذن لهم كما ذكر عنهم ، فقال له مالك ما أدري ما أذان يوم وما صلاة يوم هذا مؤذن رسول الله صلى الله عليه وسلم وولده من بعده يؤذنون في حياته وعند قبره وبحضرة الخلفاء الراشدين من بعده - فأشار مالك الى أن ما جرى

عليه العمل وثبت مستمرا أثبت في الاتباع وأولى أن يرجع اليه - وقد بين في العتبية أصلا لهذا المعنى عظيما يجلب موقعه عند من نظر الى مغزاه - وذلك أنه سأل عن الرجل يأتي اليه الأمر يحبه فيسجد لله شكرا فقال لا يفعل ، ليس مما مضى من أمر الناس قليل له ان أبا بكر الصديق فيما يذكرون سجد يوم اليمامة شكرا أفسمعت ذلك قال ما سمعت ذلك وأرى أن كذبوا على أبي بكر وهذا من الضلال أن يسمع المرء الشيء فيقول هذا شيء لم نسمع له خلافا ثم قال قد فتح على رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلى المسلمين بعده أفسمعت أن أحدا منهم سجد - اذا جاعك مثل هذا مما كان في الناس وجرى على أيديهم لا يسمع عنهم فيه شيء فعليك بذلك ، فانه لو كان لذكر لانه من أمر الناس الذي قد كان فيهم - فهل سمعت أن أحدا منهم سجد فهذا اجماع اذا جاعك الأمر لا تعرفه فدعه ، هذا ما قال وهو واضح في أن العمل العام هو المعتمد على أي وجه كان وفي أي محل وقع ولا يلتفت الى قلائل ما نقل ولا نوادر الافعال اذا عارضها الأمر العام والكثير - وسجود الشكر ان فرضنا ثبوته عن النبي صلى الله عليه وسلم لم يداوم عليه مع كثرة البشائر التي توالى والنعم التي أفرغت عليه ، فلم ينقل عنه مواظبة على ذلك ولا جاء عن عامة الصحابة منه شيء الا في النادرة مثل كعب بن مالك اذ نزلت توبته فكان العمل على وفقه وتركه للعمل على وفق العامة منهم - ومن ذلك حديث الصيام عن الميت فانه لم ينقل استمرار عمل به ولا كثرة ، فان غالب الرواية فيه دائرة على عائشة وابن عباس رضي الله عنهم وهما أول من خالفاه فروى عن عائشة أنها سألت عن امرأة وعليها صوم فقالت أطعموا عنها - وعن ابن عباس أنه قال لا يصوم أحد عن أحد .

قال مالك ولم أسمع أن أحدا من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا عن التابعين بالمدينة - أمروا احدا أن يصوم عن أحد ولا يصلي أحد عن أحد وانما يفعل ذلك كل أحد عن نفسه - فهذا اخبار بترك العمل دائما في معظم الصحابة ومن يليهم وهو الذي عول عليه في المسألة - وقد سأل عن سجود القرآن في المفصل وقيل له أتسجد أنت فيه فقال لا وقيل له انما ذكرنا هذا لك لحديث عمر بن عبد العزيز فقال أحب الاحاديث الي ما اجتمع عليه الناس وهذا مما لم يجتمع الناس عليه وانما هو حديث من حديث الناس .

واعظم من ذلك القرآن - يقول الله تعالى « منه آيات محكمات هن أم الكتاب وآخر متشابهات » فالقرآن أعظم خطرا وفيه الناسخ والمنسوخ فكيف بالاحاديث ، وهذا ظاهر في أن العمل بأحد المتعارضين دليل على أنه الناسخ للآخر اذ كانوا انما يأخذون بالاحد فالاحد من أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وروى عن ابن شهاب الزهري أنه قال أعياء الفقهاء وأعجزهم أن يعرفوا حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ناسخه وهنسوخه وهذا صحيح - ولما أخذ مالك بما عليه الناس وطرح ما سواه انضبط له الناسخ من المنسوخ

على يسر والحمد لله - وبسبب ذلك ينبغي للعامل أن يتحرى العمل على وفق  
الاولين فلا يسامح نفسه في العمل بالقليل الا عند الحاجة ومس الضرورة .

أما لو عمل بالقليل دائما للزمه أمور :

1) المخالفة للاولين في تركهم الدوام عليه وفي مخالفة السلف الصالح  
ما فيها من الضرر .

2) واستلزام ترك ما داوموا عليه اذ المفروض أنهم داوموا على خلاف  
هذه الاثار بأدامة العمل على موافقة ما لم يداوموا عليه مخالفة لما داوموا  
عليه .

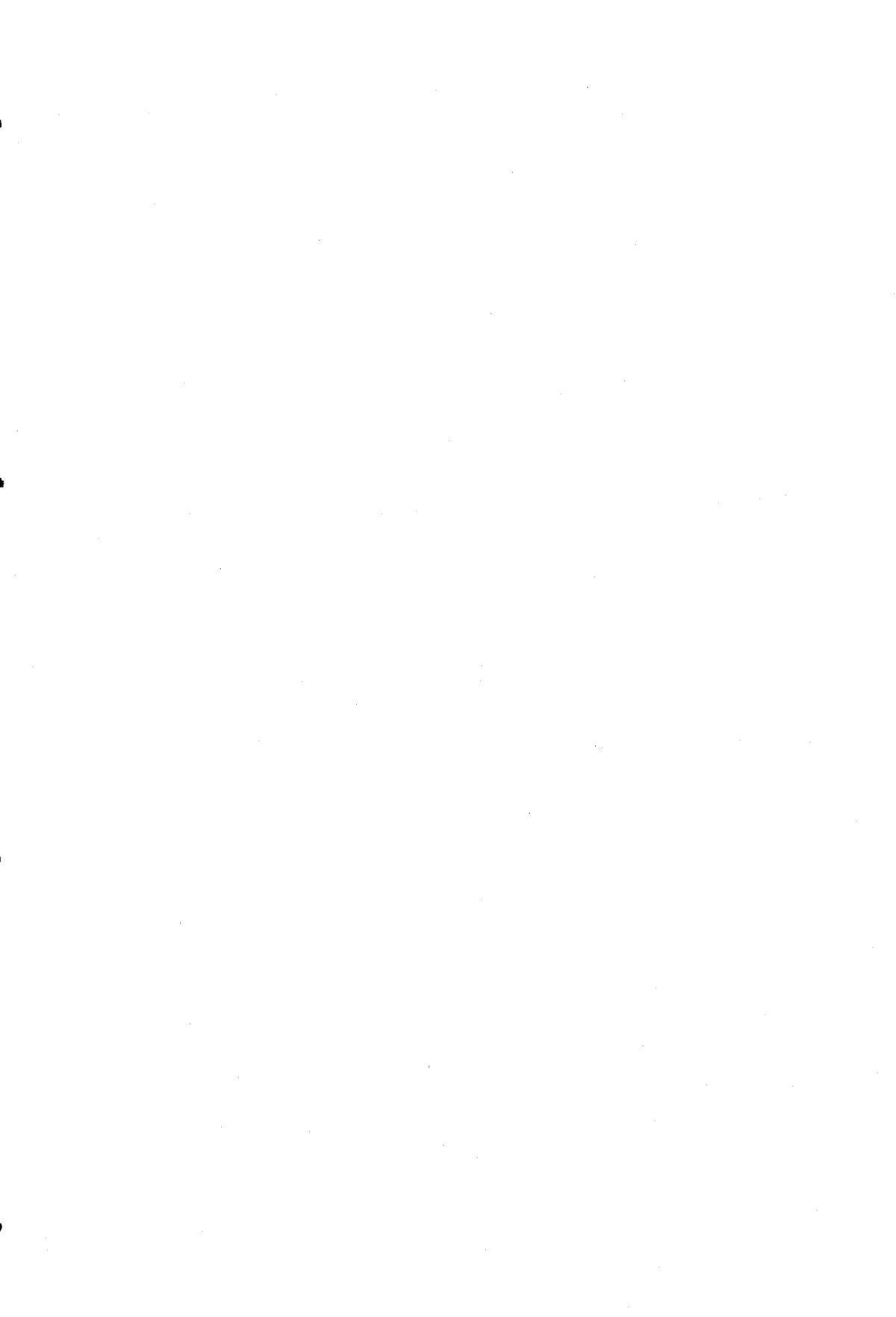
3) وكون ذلك ذريعة الى اندراس اعلام ما داوموا عليه واشتهار ما  
خالفه والاعتداء بالافعال ابلغ من الاقتداء بالاقتوال فالحذر من مخالفة الاولين  
فلو كان ثم فضل ما لكان الاولون أحق به ، والله المستعان أه . ومن جزاء  
ذلك لم يسمع أهل السنة دعوى الرافضة أن النبي صلى الله عليه وسلم نص  
على علي رضي الله عنه أنه الخليفة بعده لان عمل كافة الصحابة على خلافه  
دليل على بطلانه أو عدم اعتباره - ولان الصحابة لا تجتمع على خطأ وضلال  
- وكثيرا ما تجد أهل البدع يستدلون بالكتاب والسنة يحملونهما مذاهيمهم  
ويغبرون بمشبهاتهما في وجوه العامة ويظنون أنهم على شيء فما يعمل  
المتأخرون من هذا الجنس مخالف لاجماع الاولين وكل من خالف اجماع  
الاولين فهو مخطيء وضال .

وبعد فما أثبتناه في هذه الكلمة المتواضعة والموضوعة في تحقيق أصل  
من أصول المذهب المالكي كاف ان شاء الله في رد الاقاويل وشبه التأويل  
- ودال على أن مالكا رحمه الله قد ألهم السداد وتصرف تصرف الرشاد ، وإن  
ذلك ليس بدعا منه ولا خاصا به وإنما هو السنة القائمة ، والعمل الدائم  
المستمر ، والقول الصادر المنكر من أصحاب رسول الله صلى الله عليه  
وسلم وأتباعهم ، وان ذلك داخل في نطاق الناسخ والمنسوخ - وان الاجماع  
أكبر من كل شيء ومنه اجماع أهل المدينة لوزلك هو وجه الحق وعين الصواب  
والى الله سبحانه المرجع والمآب .

## الاستاذ محمد المكي الناصري

محصل على اجازات متنوعة فى الدراسات الادبية والقانونية ،  
متخصص فى فروع الثقافة الاسلامية .

( الملكة المغربية )



## المذهب المالكي منهـب المفاربة المفصل

للاستاذ الشيخ محمد المكي الناصري

تمهيد :

متى ذكرنا أئمة الشريعة من فقهاء الامصار المتبوعين في العالم الاسلامي منذ قديم الاعصار ، واستعرضنا الدور التاريخي العظيم الذي قاموا به في صيانة معالم الملة ، وتنظيم حياة الامة والدولة ، على اساس الكتاب والسنة ، وجب ان نطأ الى الراس تقديرا لاخلاصهم العظيم ، واجلالا لمقامهم الكريم ، وأعجابا بعبقريتهم الفذة وجهادهم المتواصل . فقد قاموا رضوان الله عليهم بالحفاظ على التراث الاسلامي الاصيل، المتسلسل اليهم منذ عهد الرسالة جيلا بعد جيل ، وتولوه بعنايتهم جمعا وتحصيلا ، وتمحيصا وتحليلا ، وتأصيلا وتأويلا ، وتفريعا وتفصيلا ، وتجريحا وتعديلا ، وانتصبوا لهداية الخلق ، تطوعا من تلقاء انفسهم ، دون تكليف من الدولة ولا من الافراد ، وأخذوا على عاتقهم اداء الامانة ، وتوجيه الامة والدولة الى طريق الحق والعدل ، ضمانا لمصالح العباد واستقرار البلاد .

وكان هدفهم الوحيد من اجتهادهم هو اصابة مقصد الشارع في كل ما يجتهدون . على هذا الهدف يلتقون ، ومن اجله يفترقون ، فهم مجموعون عليه ، وان اختلفت طرقهم اليه ، وليس على وجه الارض من هم أكثر اتفقا واقل اختلافا منهم ، يتبادلون فيما بينهم - على القرب والبعد -

التقدير والاحترام ، واذا تناظروا كانت مناظرتهم للوصول الى الحق ، بريئة من الجدل والخصام . قال القاضي عياض فى كتابه « ترتيب المدارك » ، ينوه بمقامهم ، ويعرف بجهودهم : « ثم جاء من بعدهم من العلماء ، من اتباع التابعين ، والوقائع قد كثرت ، والنوازل قد حدثت ، والفتاوي فى ذلك قد تشعبت ، فجمعوا اقاويل الجميع ، وحفظوا فقههم ، وبحثوا عن اختلافهم واتفاقهم ، وحذروا انتشار الامر ، وخروج الخلاف عن الضبط . فاجتهدوا فى جمع السنن ، وبنوا القواعد ، ومهدوا الاصول ، وفرعوا عليها النوازل ، وسئلوا فاجابوا ، ووضعوا للناس فى ذلك التصانيف وبوبوها ، وعمل كل واحد منهم بحسب ما فتح عليه ، ووفق له . فانتهى اليهم علم الاصول والفروع والاختلاف والاتفاق ، وقاسوا على ما بلقهم ، ما يدل عليه او يشبهه . رضى الله عن جميعهم ، ووفاهم اجر اجتهادهم » .

وتقديراً لما وهبهم الله من مواهب وملكات ، وما بذلوه فى خدمة الاسلام والمسلمين من جهود وتضحيات ، نالوا عند الامة المقام المحمود ، وملاّت محبتهم القلوب وجاوزت شهرتهم الحدود ، واتفق جمهور العلماء بعدهم على اتباعهم فى اجتهاداتهم ، والتفريع على اصولهم ، والتخريج على قواعدهم ، واعتنوا بدراسة كتبهم ومذاهبهم دون من قبلهم ، اكتفاء بما اختاروه وقرروه ، وانتقوه وحرروه - مع الاعتراف لمن سبقهم بمزيد العلم والفضل - واحلوه من الامة الاسلامية محل الامامة والزعامة ، ولم يسمحوا بتنقيص احد منهم او توجيه طعن اليه او ملامة ، اعترافا بما لهم من منة على الامة ، وغيره على ما لهم من كرامة . قال الحافظ ابن عبد البر فى كتابه « جامع بيان العلم وفضله » : « لا يقبل فيمن اتخذه جمهور من جماهير المسلمين اماما فى الدين ، قول احد من الطاعنين » ، وقال ايضا : « من قرأ فضائل مالك وفضائل الشافعي وفضائل ابي حنيفة - بعد فضائل الصحابة والتابعين - وعني بها ووقف على كريم سيرهم وهدبهم ، كان ذلك له عملا زاكيا . نفعنا الله بحب جميعهم » .

نعم اذا كان التطاول على مقام ائمة الشريعة ، وفى طليعتهم الائمة الاربعة بالتنقيص والتجريح ، والتعريض بهم بالتصريح او التلويح ، امرا غير مستساغ ولا مقبول لا فى المروءة ولا فى الدين ، لانهم جميعا معترف لهم باهلية الاجتهاد وممارسته ، والتوفر على أدواته ، ولان امامة كل

واحد منهم في الدين امر مجمع عليه عند جماهير المسلمين . فان مجرد الاندماج على المفاضلة بين امام وامام ، وترجيح مذهب على مذهب - لتحليل علمي او غرض عملي - لا يمنعه شرع ولا طبع . ذلك ان التفاضل في درجات العلم والايمان امر تقبله وتقرره نفس نصوص القرءان . فقد قال تعالى : « يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين اوتوا العلم درجات » ، وقال تعالى : « ومنهم مقتصد ، ومنهم سابق بالخيرات باذن الله » ، وقال تعالى : « تلك الرسل . فضلنا بعضهم على بعض ، منهم من كلم الله ، ورفع بعضهم درجات » الآية ، وقال تعالى : « ولقد فضلنا بعض النبيين على بعض وآتيناهم داوود زبوراً » . وقال تعالى : « فاصبر كما صبر اولو العزم من الرسل » . وفي حديث ابن عمر حسبما حدث به الامام احمد ابن حنبل : « كنا نفاضل بين اصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، نقول : ابو بكر ، ثم عمر ، ثم عثمان ، ثم علي ، فيبلغ ذلك النبي ( ص ) فلا ينكره » .

واذا كانت المفاضلة بين الانبياء والرسل لا تنزع وصف النبوة او الرسالة عن اي نبي او رسول ، ولا تستلزم في حق اي واحد منهم - صلوات الله وسلامه عليهم - ادنى تنقيص ، اذ كلهم اصطفاهم الله واجتباهم من بين خلقه ، واذا كانت المفاضلة بين الصحابة رضوان الله عليهم لا تجرد اي صحابي من وصف الصحبة ومقامها الديني الرفيع ، اذ كلهم اسعدهم الله ومن عليهم بصحبة رسوله ، والعيش في كنفه ، وتلقي الدين من فمه الشريف غضا طريا ، فان المفاضلة بين الائمة المجتهدين وبين مذاهبهم المتبوعة لا تستلزم الغض من مقام اي امام ، ولا تستلزم الطعن في اي مذهب ، وانما هي مجرد مقارنة بين صفات هذا الامام او ذلك ، ومميزات هذا المذهب او ذلك ، ومجرد موازنة بين الظروف التي احاطت بكل امام وكل مذهب ، فجعلت من هذا الامام او ذلك اماما متبوعا في المشرق دون المغرب ، او متبوعا في المغرب دون المشرق ، وجعلت من هذا المذهب او ذلك مذهبا سائدا في هذه الرقعة من العالم ، بينما جعلت المذهب الآخر يسود في رقعة اخرى . فالائمة المجتهدون رضي الله عنهم ، وان كانوا لا يجتهدون الا في نطاق الشرع ، ولا يحومون في اجتهادهم الا حول مقصد الشارع فعلا او تركا ، نفيًا او اثباتا ، هم ناس كبقية الناس ، يتاثرون ببيئتهم واعرافهم كما يؤثرون فيها ، ويفرزون من الآراء والاجتهادات ما تسمح به ملكاتهم وامزجتهم الخاصة ، اذ ( لا يكلف الله نفسا الا وسعها ) ، واستعداد الجمهور لتقبل هذه الآراء او تلك

الاجتهادات ، يختلف من مكان الى مكان ، حسب اختلاف الاوضاع ، واختلاف الطباع ، قال ابو اسحاق الشاطبي في كتابه « الموافقات » : « واما اذا وقع الترجيح بذكر الفضائل والخواص والمزايا الظاهرة التي يشهد بها الكافة فلا حرج فيه . بل هو مما لا بد منه في هذه المواطن ، أعني عند الحاجة اليه » . ثم قال رحمه الله : « واذا كان كذلك فهو القانون اللازم ، والحكم المنبرم ، الذي لا يتعدى الى سواه ، وكذلك فعل السلف الصالح » .

وقال القاضي عياض : « ثم اختلفت الآراء والهمم في تعيين (الامام) المقلد منهم ، بحسب ما اعتقدوا فيه انه هو الأعلم والأولى بالاتباع ، أما من اعتقاد اعتقده ، او انتشار ذكر وثناء سمعوه ، او من أتباع له اعتقده واتبعوه ، او من تقليد لأبائهم او أهل بلادهم نشأوا عليه والقوه » .

والآن فلنشرع على بركة الله في عرض الدوافع المختلفة ، والاعتبارات المتنوعة ، التي جعلت من مغاربة المغرب والاندلس قوامين على مذهب الامام مالك ، خداما له ، معتزين به ، أوفياء له في الماضي والحاضر ، حتى اصبح المغرب معروفا في العالم كله بأنه القلعة الامامية للمذهب المالكي ، ومركز اشعاعه الدائم على القارة الافريقية .

## ( 1 ) اعتبارات أدبية :

وهي أشبه ما يكون بالمناقب والبشائر التي تنشرح لها الصدور وتطمئن بها القلوب .

فمن هذا النوع حديثان شريفان اعتبرهما أتباع المذهب المالكي من مناقب امامهم ومذهبهم :

### الحديث الاول :

قوله صلى الله عليه وسلم فيما رواه ابو هريرة : « يوشك الناس ان يضربوا اكباد الأبل في طلب العلم فلا يجدون عالما أعلم من عالم المدينة » .

وفى رواية أخرى : « يلتمسون العلم ، فلا يجدون عالما أفعد سن عالم المدينة » . وهذا الحديث أخرجه مالك نفسه ، وأخرجه الترمذي وحسنه ، وأخرجه النسائي والحاكم وصححه ، ورواه ابن عبد البر فى كتابه : ( التمهيد لما فى الموطأ من المعاني والأسانيد ) بسنده الخاص الى أبي هريرة مرفوعا ، وروى ابن عبد البر فى نفس السياق بسنده عن سفيان بن عيينة أنه قال : « نرى هذا الحديث الذي يروى عن النبي صلى الله عليه وسلم : تضرب أكباد الأبل فلا يجدون عالما أعلم من عالم المدينة ، أنه مالك بن أنس » ، وبنفس المعنى صرح القاضي عبد الوهاب قائلا : « انه لا ينازعنا فى هذا الحديث أحد من أرباب المذاهب ، اذ ليس منهم من له امام من اهل المدينة ، فيقول : المراد به امامي ، ونحن ندعي انه صاحبنا بشهادة السلف له ، وبانه اذا اطلق بين اهل العلم : ( قال عالم المدينة وامام دار الهجرة ) ، فالمراد به مالك عندهم دون غيره من علمائها ، كما اذا قول ( الكوفي ) فالمراد به ابو حنيفة دون سائر فقهاء الكوفة » .

وأورد القاضي عياض فى كتابه : ( ترتيب المدارك ) ، نفس الحديث على اعتبار أنه اثر وارد فى عالم المدينة التي هي داره ، مستدلا بإضافة هذا اللقب اليه ، وإطلاقه عليه ، على لسان جماهير المسلمين ، ومحتجا بموافقة احوال مالك للحال المخبر عنها فى الحديث ، وتأويل السلف الصالح له على ان المراد به مالك ، « وما كانوا ليقولوا ذلك الا عن تحقيق ، ولا ليذيعوه بمجرد التشبهى والهوى » وعزز رأيه بتأويل سفيان بن عيينة لهذا الحديث ، وتصريحه بأن المراد به هو الامام مالك ، مؤكدا فى نفس الوقت ان الامام مالكا هو الذي انتهى اليه علم المدينة ، فحدث بها وأفتى خلال نيف وستين سنة ، دون أن ينتقل الى غيرها او يستوطن سواها ، يأخذ عنه اهل المشرق والمغرب ، ويضربون اليه أكباد الأبل ، ثقة منهم بأنه اعلم اهل وقته ، ومصرحا بأن : « هذا الحديث قد عد من معجزاته صلى الله عليه وسلم ، ومن جملة ما أخبر به من الكائنات فكان كما أخبر » .

ونجد شهاب الدين القرافى يشير فى مطلع كتابه الخالد « الذخيرة » الى نفس المعنى أيضا ، ويستدل على افضلية الامام مالك بورود هذا الحديث النبوي فيه ، واختصاصه بمهبط الرسالة وتظاهر الآثار بشرف معاليه .

## الحديث الثاني :

قوله صلى الله عليه وسلم فى احدى الروايات الواردة بصحيح مسلم : « لا يزال اهل الغرب ظاهرين على الحق لا يضر بهم من خالفهم » . وفى رواية - من خذلهم - حتى تقوم الساعة » .

ورود فى بعض طرقه بلفظ « لا يزال اهل المغرب » بفتح الميم وسكون المعجمة ، حسبما نبه عليه الحافظ ابن حجر فى فتح الباري ، وهذا الحديث رواه البخاري ومسلم فى صحيحيهما ، والترمذي وأبو داود فى سننهما ، من عدة طرق وبألفاظ متنوعة . وقد استدل به شهاب الدين القرافي فى مقدمة كتابه الجامع « الذخيرة » على احدى المزايا الكبرى التي يمتاز بها مذهب مالك وأتباعه من المغاربة ، فقال : « ومنها ما ظهر من مذهبه فى اهل المغرب ، واختصاصهم به ، وتصميمهم عليه ، مع شهادته عليه السلام لهم بأن الحق يكون فيهم ، لا يضرهم من خذلهم الى ان تقوم الساعة ، فتكون هذه شهادة للامام مالك بأن مذهبه حق ، لانه شعارهم وديارهم ، ولا طريق لهم سواه ، وغيره لم تحصل له هذه الشهادة » .

وعن مثل هذا الرأي عبر أبو القاسم محمد بن جزى فى مقدمة كتابه : « القوانين الفقهية » ، اذ قال : « اما بعد ، فهذا كتاب قوانين الاحكام الشرعية ، ومسائل الفروع الفقهية ، على مذهب امام المدينة ابي عبد الله مالك بن انس الاصبحي ، اذ هو الذي اختاره اهل بلادنا بالاندلس وسائر المغرب ، اقتداء بدار الهجرة ، وتوفيقا من الله تعالى ، وتصديقا لقول الصادق المصدوق صلى الله عليه وسلم : « لا يزال اهل المغرب ظاهرين على الحق حتى تقوم الساعة » . قال الحافظ ابن حجر : اتفق الشراح على ان معنى قوله فى الحديث : « لا يضرهم من خالفهم » ، ان المراد علوهم عليهم بالغلبة ، ثم عقب على ذلك بالرد على من حاول ان يجعل من هذه المنقبة مذمة لاهل الغرب ، فزعم « ان المراد بقوله فى الحديث : « ظاهرين على الحق » ، أنهم غالبون له ، وأن الحق بين أيديهم كالميت ، وان المراد بالحديث ذم الغرب وأهله لا مدحهم » .

ومن هذا النوع ما جرى على السنة ائمة المسلمين وعلمائهم من شهادات متعددة بامامة مالك وعلمه وعبقريته وشمالته الفاضلة ، ولا سيما

شهادات اقرانه ومعاصريه ، رغما عما هو متعارف من التنافس بين الاقران ، وما ينشأ عن المعاصرة من الاحتكاك وقلة الانصاف ، الامر الذي زاد اتباع الامام مالك تعلقا بمذهب امامهم ، واقتناعا بحسن اختيارهم .

فمن ذلك قول سفيان بن عيينة : « كان مالك سراجا ، ومالك حجة في زمانه » ، وقول ابن المبارك : « لو قيل لي اختر للامة اماما لاخترت لها مالكا » ، وقول يحيى بن معين : « كان مالك من حجج الله على خلقه ، مالك امام من ائمة المسلمين ، مجمع على فضله وثبته في الحديث » ، وقول حميد بن الاسود : « ما تقلد اهل المدينة بعد قول زيد بن ثابت كما تقلدوا قول مالك » ، وكان الأوزاعي اذا ذكر مالكا قال : « عالم العلماء ، وعالم اهل المدينة ، ومفتي الحرمين » ، وقال أحمد بن شعيب النسائي : « ما أحد عندي بعد التابعين أنبل من مالك بن أنس ، ولا أجل ، ولا آمن على الحديث منه » ، ومن ذلك قول ابن مهدي : « ما رأت عيناى أحدا أهيب من هيبة مالك ، ولا أتم عقلا ، ولا أشد تقوى ، ولا أوفر دماغا » ، وقول ابن المبارك : « كان مالك أشد الناس مداراة للناس وترك ما لا يعنيه » ، وقول ابن وهب : « الذي تعلمنا من أدب مالك أكثر مما تعلمنا من علمه » ، وقال يحيى بن يحيى التميمي : « أقمت عند مالك بن أنس بعد كمال سماعي منه سنة أتعلم هيئته وشمائله ، فانها شمائل الصحابة والتابعين » ، وقال الشافعي : مالك بن أنس معلمي ، ولا أحد أمن علي من مالك ، وعنه أخذنا العلم » ، وقال مطرف : « كان مالك اذا سئل من مسألة نزلت فكاننا نبي نطق على لسانه » ، وقال محمد بن الحكم : « اذا انفرد مالك بقول لم يقله من قبله فقوله حجة توجب الاختلاف ، لانه امام » ، وقال ابن وهب : « اذا لم أجد أثرا ، قلدت مالكا ، لان قوله اثر من الآثار » ، وقال ابن أبي أويس : « كان الناس كلهم يصدرون من رأى مالك بن أنس ، وكان للامير عنده رجل يسأله ، وكذلك للقاضي والمحتسب » ، وقلى علي بن المديني : « ما أقدم على مالك أحدا فى صحة الحديث ، ومالك أمير المومنين فى الحديث » ، وقال أبو عمر بن عبد البر : « معلوم أن مالكا كان من أشد الناس تركا لشذوذ العلم ، وأشدهم انتقادا للرجال ، وأقلهم تكلفا ، وأتقنهم حفظا ، فلذلك صار **اماما** . وقال فى موضع آخر من كتابه « التمهيد » : « الإخبار فى امامة مالك وحفظه واتقانه وورعه وثبته أكثر من أن تحصى ، وقد ألف الناس فى فضائله كتبا كثيرة ، وإنما ذكرت هاهنا فقرا من أخباره دالة على ما سواها » .

وقال سعيد بن عبد الجبار : « كنا عند سفيان بن عيينة فأتاه نعي مالك بن أنس فقال : « مات سيد المسلمين » .

## ( 2 ) اعتبارات موضوعية :

أولا : أن الامام مالكا بنى مذهبه على الروايات المرفوعة الى النبي صلى الله عليه وسلم موصولة أو مرسلة ، وبعدها على قضايا عمر ، ثم على فتاوي ابن عمر ، وبعد ذلك على أقوال فقهاء المدينة مثل سعيد بن المسيب ، وعروة بن الزبير ، والقاسم بن محمد ، وسليمان بن يسار ، وأبي سلمة ، وأبي بكر بن عبد الرحمان ، وأبي بكر بن عمرو بن حزم ، وعمر ابن عبد العزيز الذي هو أحد الراسخين في العلم ، وضم إلى العلم بالكتاب والسنة ، العلم بأقوال الصحابة وضبط أفضيتهم ، حتى قال فيه امام الحرمين : ( وأما مالك رحمه الله في أفضية الصحابة ( رض ) فلا يشق غباره ) ، « ولم يذهب عليه القياس ، لكن كان يتوقى ويتحرى ويريد التأسى بمن تقدمه » كما قال الشافعي لمحمد بن الحسن الشيباني عند ما تناظرا حول أي صاحبهما أعلم ، هل أبو حنيفة أو مالك ؟ .

**ثانياً :** أن الامام مالكا أقام مذهبه على أساس عملي متين ، فقد أدرك التابعين وعایشهم ، وراقب أعمالهم ، وتيقن أن العمل المستمر في المدينة على عهدهم إنما هو مأخوذ عن العمل المستمر في عهد الصحابة ، وأن عمل الصحابة لم يكن مستمرا فيهم ، الا وهو **مستمر في عمل رسول الله صلى الله عليه وسلم** او في **قوة المستمر** ، وبذلك كان ما جرى عليه عمل أهل المدينة باستمرار ، أحق في نظره بالمراعاة والاعتبار ، ومن أجل ذلك ، يترك ما وجد الجمهور والجم الغفير من أهل المدينة قد عملوا بغيره وخالفوه ، إذ العمل العام المستمر هو المعتمد ، ولا يلتفت إلى قلائل ما نقل ، ولا نوادر الأفعال إذا عارضها الأمر العام والكثير ، كما حل ذلك أبو اسحاق الشاطبي في « الموافقات » ، لا سيما وقد كان مالك أعلم الناس في وقته بسنة ماضية وسنة باقية ، وبالمعمول به من الحديث والمتروك ، كما نص على ذلك القاضي عياض في ( ترتيب المدارك ) . قال شهاب الدين القرافي في كتابه - ( الذخيرة ) : « أن الله تعالى أسعد مالكا وسدده لعمل أهل المدينة ، الذين ينقل أبناؤهم عن آباؤهم ، وأخلافهم عن أسلافهم ، الأحكام والسنن ، **النقل المتواتر** ، بسبب جمع

الدار لهم ولاسلافهم ، فيخرج المسند من حيز الظن والتخمين ، الى حيز العلم واليقين ، وغيره لم يظفر بذلك » .

**ثالثاً :** ان الامام مالكا املى فى مذهبه نحواً من مائة وخمسين مجلداً فى الاحكام الشرعية كما نص على ذلك شهاب الدين القرافي فى كتابه « الذخيرة » فلا يكاد يقع فرع الا ويوجد له فتيا ، بخلاف غيره ، ممن لا يكاد يجد له اصحابه الا القليل من المجلدات « كالام » للشافعي ، وفتاوي مفرقة فى مذهب احمد وابي حنيفة فى كتب اصحابهم ، ثم خرج اصحابهم بقية مذاهبهم على مناسبات اقوال ائمتهم . قال القرافي معقبا على ذلك : « ومعلوم ان التخريج قد يوافق ارادة صاحب الاصل وقد يخالفها ، حتى لو عرض عليه المخرج على اصله لانكره ، وسكون النفس الى قول الامام القدوة اكثر من سكونها الى اتباعه بالضرورة » .

على ان نحو الثلث من مذهب ابي حنيفة قد خالفه فيه صاحبه محمد بن الحسن وابو يوسف ، اذ وجدوا السنن تخالفهم فيما تركه ، كما حققه القاضي عياض .

**رابعاً :** ان الامام مالكا حاز قصب السبق وميزة الابتكار فى التصنيف الجامع بين الفقه والحديث ، وجرت عادته فى الموطأ وغيره على الاتيان بآثار الصحابة ، مبينا بها السنن ، وما يقيد مطلقاتها ، وما يعمل به منها وما لا يعمل به ، كما نبه على ذلك الشاطبي فى « الموافقات » ، وقد كان مالك « اول من الف فاجاد التأليف ، ورتب الكتب والابواب ، وضم الاشكال ، وصنع من ذلك ما اتخذته المؤلفون بعده قدوة واماما ، هذا مع « صعوبة الابتداء ، وحيرة الاختراع » ، على حد تعبير القاضي عياض فى كتابه ( ترتيب المدارك ) ، وهذه الميزة الشخصية والعلمية التى امتاز بها الامام مالك هي التى قام بتحليلها والقاء الاضواء عليها امام جليل عبقري من ائمة الاسلام فى القرن الثانى عشر الهجري ، الا وهو قطب الدين الشيخ احمد بن عبد الرحيم الدهلوي الهندي المعروف بشاه ولي الله صاحب الكتاب الشهير فى فلسفة التشريع واسرار الشريعة « حجة الله البالغة » فقد وضع شرحين على الموطأ ، احدهما مختصر ، اطلق عليه اسم « المسوى » ، وثانيهما مطول اطلق عليه اسم « المصفى » . وقد جاء فى شرحه الاول قوله الرصين الدقيق ، القائم على التبع

والاستقراء : « من تتبع المذاهب ورزق الانصاف علم لا محالة ان الموطأ عدة مذهب مالك وأساسه ، وعمدة مذهب الشافعي وأحمد وأساسه ، ومصباح مذهب أبي حنيفة وصاحبيه ونبراسه ، وهذه المذاهب بالنسبة الى الموطأ كالشروح للمتون . وعلم أيضا ان الكتب في السنن كصحيح مسلم ، وسنن أبي داود ، والنسائي ، وما يتعلق بالفقه من صحيح البخاري وجامع الترمذي ، مستخرجات على الموطأ تحوم حومه ، وتروم رومه ، مطمح نظرهم فيها وصل ما أرسله ، ورفع ما أوقفه ، واستدراك ما فاته ، وذكر المتابعات والشواهد لما أسنده » .

**خامسا :** ان الامام مالكا ظل طيلة حياته الطويلة يسخر مواهبه الفكرية ورصيده العلمي بالخصوص لفائدة الطلبة والسائلين وعمامة المستفتين ، ولم يكن يرى من المناسب تضييع الوقت فيما لا يفيد الناس فائدة مباشرة تعود عليهم بالنفع العميم في حياتهم اليومية ، وتقدم لمشاكلهم الحلول الشرعية العملية ، ولذلك كان الناس يزدحمون على بابه لأخذ الحديث والفقه كازدحامهم على باب السلطان ، حتى كان له حاجب يأذن أولا للخاصة ، فاذا فرغوا ، أذن للامة . وكثيرا ما كان يقول : « لا أحب الكلام الا فيما تحته عمل » .

وسأله رجل عراقي عن مسألة غريبة لا يتصور وقوعها فقال مالك : « سل عما يكون ، ودع ما لا يكون » ، وسأله آخر عن سؤال مماثل فلم يجبه . فقال له لم لا تجيبني يا أبا عبد الله ؟ فقال له : « لو سألت عما تنتفع به أجبتك » .

ومن هذا المنطلق قرر حكماء الشريعة ان « كل علم لا يفيد عملا فليس في الشرع ما يدل على استحسانه ، وان روح العلم هو العمل » . وهذه الروح الواقعية لامت العقلية المفريية كل الملاءمة .

**سادسا :** ان الامام مالكا كان مضرب المثل في التثبت في الفتوى ، والتحري في الاجتهاد ، والاحتياط في الدين . ومن مآثور كلامه في هذا الباب : « ربما وردت علي المسألة تمنعني من الطعام والشراب والنوم » . فقيل له : يا أبا عبد الله ، والله ما كلامك عند الناس الا نقر في حجر . ما تقول شيئا الاتلقوه منك « فأجاب قائلا : « فمن أحق أن يكون هكذا الا

من كلن هكذا » . ومن ماثور كلامه أيضا : ما شيء أشد علي من أن أسأل عن مسألة من الحلال والحرام ، لأن هذا هو القطع في حكم الله ، ولقد أدركت أهل العلم والفقه ببلدنا ، وأن أحدهم إذا سئل عن مسألة كان الموت أشرف عليه « وسئل مالك عن مسألة ، فقال : « لا أدري » . فقال له السائل : « أنها مسألة خفيفة ، وإنما أردت أن أعلم بها الامير . وكان السائل ذا قدر . فغضب مالك وقال : « مسألة خفيفة سهلة ! ليس في العلم شيء خفيف . أما سمعت قول الله تعالى : ( أنا سنلقي عليك قولا ثقيلا ) ، فالعلم كله ثقیل ، وبخاصة ما يسأل عنه يوم القيامة » وسأله آخر فلم يجبه . فقال له يا أبا عبد الله ، اجبني . فقال له : « ويحك ! أتريد أن تجعلني حجة بينك وبين الله ، أنا أحتاج أولا أن انظر كيف خلاصي ، ثم أخلصك » . وكان يقول : « أن هذا العلم دين ، فانظروا عمن تأخذون دينكم » .

وهذا الموقف الصارم من التحري والنزاهة ضاعف الثقة بالامام مالك والمذهب المالكي عند أتباعه .

### ( 3 ) اعتبارات ظرفية :

هذا النوع من الاعتبارات تتحكم فيه ظروف الزمان والمكان التي كان لها أكبر تأثير على تعلق المغاربة بالامام مالك ، واستمرار الرحلة اليه ، واعتمادهم في اقامة نظامهم التشريعي والقضائي عليه .

ذلك ان مقر اقامته الدائم الذي لم يفارقه منذ ولد الى ان فارق الحياة - الا للقيام بمناسك الحج - كان هو المدينة المنورة على ساكنها افضل الصلاة والسلام ، وهذه المدينة انفردت من بين مدن العالم بأنها العاصمة التأسيسية لأول دولة مثالية اقامها الاسلام ، ومنطلق جحافل الفاتحين الذين خرجوا يدعون الى الله لهداية كافة الانام ، ومدفن خاتم الرسل الكرام ، ومجمع نخبة النخبة من فقهاء السلف الابرار ، وموطن السلالة المباركة المنحدرة من المهاجرين والانصار ، وليس لاية عاصمة من العواصم الاخرى التي خلفت المدينة المنورة ، ما لها من المزايا المشتهرة ، والمناقب المقررة ، حتى أن الامام مالكا قال وهو يتحدث عنها للخليفة العباسي ابي جعفر المنصور : « ما على وجه الارض قوم

خيرا من اهل المدينة ، ولا خير من المدينة » فكانت بذلك مهوى افئدة المسلمين عموما ، وطلاب العلم خصوصا ، وبالاخص طلاب المغرب ، قال ابن خلدون فى مقدمته : « واما مالك رحمه الله تعالى فاختص بمذهبه اهل المغرب والاندلس ، وان كان يوجد فى غيرهم ، الا انهم لم يقلدوا غيره الا فى القليل ، لما ان رحلتهم كانت غالبا الى الحجاز ، وهو منتهى سفرهم ، والمدينة يومئذ دار العلم » .

ثم ان الامام مالكا اكرمه الله بالعمر الطويل ، والصبر الجميل ، فظل يحدث ويفتي ، ويؤلف وينتج ، ويراجع ويصحح ، خلال مدة تزيد على الستين سنة ، ولم تعاجله المنية ، كما عاجلت بقية معاصريه من الائمة ، فاستمر يؤدي رسالته الدينية والعلمية مدة ثلاثين سنة بعد وفاة ابي حنيفة ، وثلاثا وعشرين سنة بعد وفاة الازاعي ، وحوالي عشرين سنة بعد وفاة سفيان الثوري ، ومن اجل ذلك اتجهت الانظار كلها الى مالك ، واشربت اليه الاعناق ، واصبحت اعز امنية لطلاب العلم ، ولا سيما طلاب المغرب ، هي الالتحاق بركبه ، واغتنام الفرصة للاندماج فى صحبه ، حرصا منهم على تحصيل السند العالي فى الدين ، والارتواء مباشرة من المنبع الصافي بقاء معين ، وتراجع مذهب الازاعي فى الاندلس ومذهب ابي حنيفة فى المغرب امام مذهب مالك الذي قام نشره منذ البداية ، على اساس متين ، وقد اشار الى هذه الميزة التي خص الله بها الامام مالكا شهاب الدين القرافي فى كتابه ( الذخيرة ) بفاية الايجاز فقال : « ومنها طول عمره سنين فى الاقراء والاسماع ، ومعلوم انهما ينبوع الاطلاع » وكانت وفاة مالك سنة تسع وسبعين ومائة حسبما صححه القاضي عياض ، وتوفي رحمه الله عن سبع وثمانين سنة ، او عن تسعين سنة كما جاء فى بعض الروايات .

ومما يؤكد المركز العظيم الذي احتلته المدينة المنورة بين بقية الديار ، وان المغاربة باتجاههم اليها احسنوا الاختيار ، ما قرره المحدثون من « ان الاحاديث ( المدنية ) هي ام الاحاديث النبوية ، وهي اشرف احاديث اهل الامصار . ومن تأمل ابواب صحيح البخاري وجده يبدأ بها اول الباب كلما وجدها ، ثم يتبعها باحاديث اهل الامصار ، مثال ذلك : مالك عن نافع عن ابن عمر - مالك عن هشام بن عروة - مالك عن موسى ابن عقبة » .

#### ( 4 ) اعتبارات مصلحة :

لقد بذلت النخبة المغربية المثقفة المتخرجة على يد الامام مالك وكبار اصحابه جهودا متواصلة فى بث علمه ونشر مذهبه ، عملا بوصيته لهم ، فقد كان يوصي طلبته عند وداعه لهم قائلا : « اتقوا الله وانشروا هذا العلم ، وعلموه ولا تكتموه » ، كما روى ذلك عنه ابن القاسم وغيره ، وكان يقول : « ان العلم اذا منع من العامة لاجل الخاصة لم تنتفع به الخاصة » ، وكان على اتصال مستمر مع اصحابه بعد تخرجهم عليه وعودتهم الى بلادهم ، ولا سيما الذين ينتصبون منهم للفتوى والقضاء ، فيتلقى استلثهم ، ويتولى الاجوبة عنها عن طريق الوافدين عليه من رفاقهم واصدقائهم ، ويسر بالغ السرور بنجاحهم وتفوقهم ( مثال ذلك المكاتبات المتبادلة بين عبد الله ابن غانم القاضي وعبد الله بن فروخ المفتي والامام مالك ) ، ولما اصبحت الجماهير المسلمة فى المغرب والاندلس على بينة من مذهبه ، وثقة به ، بفضل التوعية التي قامت بها النخبة المثقفة ، سهل على اولى الامر ان يعتبروا المذهب المالكي مذهبا رسميا للدولة والامة ، واعلنوا فى بلدهم وحدة القضاء ووحدة المذهب الذي يقع التقاضي بموجبه ، مع التزام القول المشهور والراجح وما به العمل ، وحققوا بذلك مبدا مساواة المواطنين جميعا امام القانون ، على خلاف ما كان العمل جاريا به فى بعض اقطار المشرق ، من تعدد محاكم القضاة ، تبعاً لتعدد المذاهب ، وتفاوت الرعية فى الاحكام الصادرة عليها من محكمة الى اخرى ومذهب الى آخر ، واذا كان بعض الفقهاء من غير المالكية يرون ان اشتراط الامام على القاضي ان يحكم بمذهب معين يعتبر شرطا باطلا وتبقى التولية معه صحيحة ، او ان هذا الشرط باطل والتولية باطلة معا ، فان حذاق فقهاءنا يرون الانضباط الى امر واحد والحكم بمذهب واحد امرا لا بد منه ، ولا غنى عنه ، اذ به وحده تنضبط الاحكام ، وتضيق دائرة اللد والخصام ، قال ابو اسحاق الشاطبي فى الموافقات : « ... لم يكن بد من الانضباط الى امر واحد ، كما فعل ولاة قرطبة ، حين شرطوا على الحاكم ان لا يحكم الا بمذهب فلان ما وجده ، ثم بمذهب فلان ، فانضبطت الاحكام بذلك ، وارتفعت المفسد المتوقعة من غير ذلك الارتباط » ونبه الشاطبي الى « ان ترك الانضباط الى امر معروف يؤدي الى انخرام قانون السياسة الشرعية » ونقل عن الامام المازري ما

كتبه فى جواب له عن سؤال وجه إليه اذ قال : « ولست ممن يحمل الناس على غير المعروف المشهور من مذهب مالك وأصحابه ، لأن الورع قل ، بل كاد يعدم ، والتحفظ على الديانات كذلك ، وكثرث الشهوات ، وكثر من يدعي العلم ، ويتجاسر على الفتوى فيه ، فلو فتح لهم باب فى مخالفة المذهب لاتسع الخرق على الراقع ، وهتكوا حجاب هيبة المذهب ، وهذا من المفاصد التي لا خفاء بها » ثم علق الشاطبي على جواب المازري قائلا : « فانظر كيف لم يستجز المازري - وهو المتفق على امامته - الفتوى بغير مشهور المذهب ، ولا بغير ما يعرف منه ، بناء على قاعدة مصلحة ضرورية ، اذ قل الورع والديانة من كثير ممن ينتصب لبث العلم والفتوى - فلو فتح لهم هذا الباب لانحلت عرى المذهب ، بل جميع المذاهب ، لان ما وجب للشيء وجب لمثله » .

## 5 ) اعتبارات عقائدية :

عندما اخذت افكار النخبة المثقفة والسلطة الحاكمة فى بلاد المغرب والاندلس تتجه الى اقرار نظام تشريعي وقضائي ملائم للبيئة المغربية ، ومرض لمطامحها الفكرية ، كانت اقطار المشرق قد أصبحت مسرحا لتناحر الفرق والنحل ، واخذ تناحرها يؤتي أكله المر ، ويحدث من الخلافات والانقسامات ما يهدد وحدة المجتمع وسلامة الدولة .

ونظرا لبراءة مالك وأصحابه من الشبه والبدع الضالة ، على خلاف كثير من حملة المذاهب الاخرين الذين جمعوا بين الانتماء لمذهبهم الفقهي والانتماء لاحدى الفرق الخارجة عن السنة ، فقد وقع الاختيار نهائيا على المذهب المالكي ، لضمانة الوحدة التشريعية والوحدة القضائية من جهة ، ولبعده عن كل ما تشم منه رائحة الخلافات الاعتقادية من جهة اخرى .

ووقع ترسيم المذهب المالكي بالاندلس سنة سبعين ومائة ، اى قبل وفاة الامام مالك بتسع سنين ، ويحدثنا الونشريسي فى كتابه « المعيار » ، ان الحكم المستنصر بالله ، وكان ممن بحث عن احوال الرجال ، وتقر عن اخبارهم تنقيرا لم يبلغ فيه شأوه كثير من أهل العلم ، كتب الى الفقيه ابي ابراهيم - وهو اسحاق بن ابراهيم التجيبي - كتابا جاء فيه قوله : « وكل من زاغ عن مذهب مالك فانه ممن رين على قلبه ،

وزين له سوء عمله . وقد نظرنا طويلا فى اخبار الفقهاء ، وقرانا ما صنّف من اخبارهم الى يومنا هذا . فلم نر مذهباً من المذاهب غيره أسلم منه ، فان فيهم الجهمية والرافضة والخوارج والمرجئة والشيعة ، الا مذهب مالك ، فانا ما سمعنا أن احدا ممن تقلد مذهبه قال بشيء من هذه البدع، فالاستمسك به نجاة أن شاء الله تعالى . » .

وهذه الفقرات من كتاب « الحكم » تلقي الاضواء على احد العوامل الاساسية التي دفعت الى اختيار المذهب المالكي من طرف مغاربة الاندلس والمغرب ، وقد حقق هذا المذهب فعلا الهدف الرئيسي من اختياره ، فحمى المجتمع المغربي من الانقسامات العقائدية ، وقوى تماسكه وتلاحمه لعدة قرون ، على خلاف ما وقع بالمشرق من الهزات والفتن ، وقد كان قضاة المالكية ، وفقهاؤهم واقفين بالمرصاد لكل من تحدّثه نفسه بالدعوة الى بدعة او ضلالة ولا سيما فى بيوت الله ، وممن اشتهر بالوقوف منهم موقف الصرامة ، سحنون بن سعيد التتوخي منذ ولي القضاء ، «حيث فرق حلق اهل البدع» . ولأمر ما قام الفاطميون عند غلبتهم ، والموحدون اول ولايتهم بالانتقام من المالكية ، لانهم حجر عثرة فى طريق الدعوات المنحرفة ، لكن لم يلبث الموحدون أن راجعوا موقفهم، وتراجعوا عن ادعاء المهدوية وعصمة الامام ، فعاد المذهب المالكي الى عنفوان شبابه ، وما كادت سلطة الفاطميين تنقلص ، حتى عادت للمذهب المالكي صولته ومكانته من جديد .

وهناك اعتبارات أخرى أدت الى هذا الاختيار نمسك عن تحليلها الآن اضيق الوقت ، على ان نعالجها عند نشر هذا البحث موسعا شاملا بحول الله وقوته .

## خاتمة :

لعل العرض الذي قمنا به عن مختلف الاعتبارات التي أدت الى اقرار المذهب المالكي والتمسك به كاف لاثبات حقيقة تاريخية وعلمية واجتماعية ، فحواها أن اختيار المذهب المالكي لم يكن أمراً عفويًا ولا عشوائيًا على غير هدى ، وانما كان عبارة عن قرار تاريخي حاسم ، اتخذه اجدادنا الميامين عن بينة وعلى بصيرة ، اقتناعا منهم بأنه أصلح المذاهب

الفقهية لاقامة نظام قانوني وقضائي شامل ، ملائم للعقلية المغربية الواقعية ، والمزاج المغربي المتزن ، نظام متوازن ومتكامل ، يضمن الحقوق ، ويبسط رواق العدل ، ويمن على حفظ الامن والاستقرار ، نظام يحمي الامة والدولة من الهزات والانحرافات ، بما وضعه من قاعدة « سد الذرائع » ويفتح الباب في وجه التطور والتقدم باستمرار ، بما دعا اليه وركز عليه من اعتبار « المصالح المرسله » ، ويحفظ على المجتمع تماسكه وانسجامه ، بما أقره من « العوائد والاعراف » دون تزمست ولا اجحاف .

يضاف الى ذلك أن اختيار المذهب المالكي كان « اختيارا قوميا » منذ البداية ، فقد تم اختياره والدعوة اليه على يد نخبة مغربية صميمة عملت على تلقيه بعد تلقيه ، وعملت على نشره والتصنيف فيه ، والكشف عن أصوله وقواعده ومراميه ، وتحليل فلسفته ، وتوسيع دائرته ، وقامت بدور فعال في ابراز معالمه وامتداد حياته عبر القرون ، ولم يخدم المغاربة اى مذهب آخر مثل ما خدموا المذهب المالكي ، ففي خدمته واثرائه برزت العقيدة المغربية في ميدان التشريع والقضاء جيلا بعد جيل ، وبذلك أصبح **تراثا قوميا مغربيا** ، الى جانب كونه **تراثا اسلاميا وعالميا** ، وليس من قبيل الصدفة ان يكون **مغربي** فق هو الذي بسط سلطان المذهب المالكي في الاندلس ، الا وهو يحيى بن يحيى **المصمودي** الذي كان لاحد اجداده شرف الجهاد تحت قيادة طارق بن زياد ، وأن يكون **مغربي** فق آخر هو الذي بسط سلطان المذهب المالكي في المغرب ، الا وهو دراس بن اسماعيل **الجرأوي** .

يضاف الى ذلك أن حياة المغاربة تكيفت منذ عدة قرون باتجاهات هذا المذهب ، الذي نظم علاقاتهم الخاصة والعامة تنظيما دقيقا .

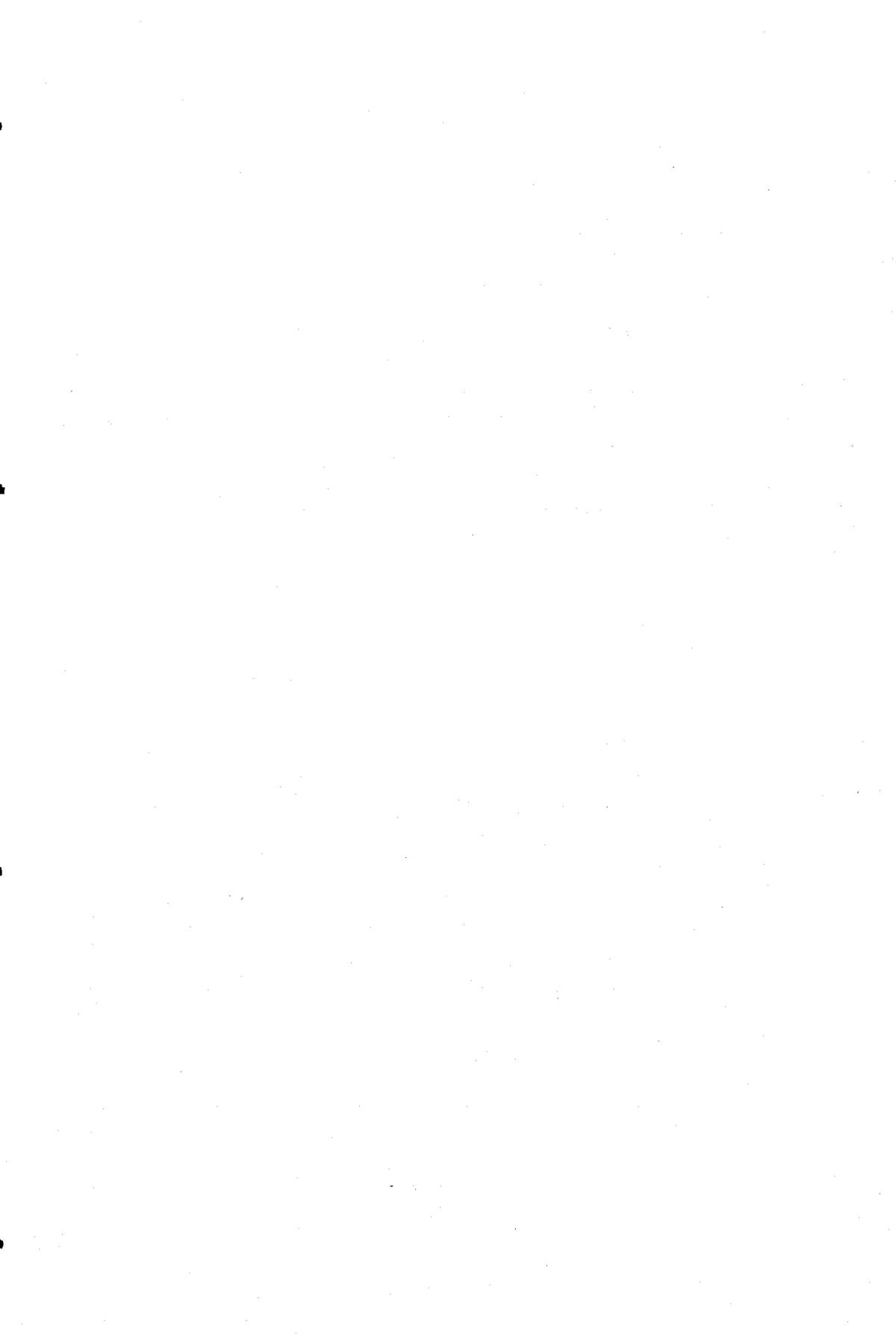
ويا حبذا لو اقام امير المؤمنين الحسن الثاني نصره الله مؤسسة خاصة للتخصص العالي في المذهب المالكي تدعى « دار الفقه الحسينية » على غرار « دار الحديث الحسينية » يتخرج منها شيوخ اجلاء من طراز القاضي ابي بكر بن العربي العمافري والقاضي عياض ، وشهاب الدين القرافي ، وابي اسحاق الشاطبي ، وأضرابهم ، فليس ذلك على همة امير المؤمنين ببعيد . ولا يفنى عن اقامة مؤسسة متخصصة من هذا

النوع ما يدرس فى كليات الشريعة وكليات الحقوق من نطف محدودة ، وقواعد معدودة لا تسمن ولا تفنى من جوع ، لا سيما والمذهب المالكي فى هذا العصر أصبح يعتبر حتى عند غير المالكية منجما غنيا ، ومنبعا ثريا ، يلجأ اليه شيوخ الفقه ورجال القانون فى العالم العربي والعالم الاسلامي للنقل والافتباس ، ويدنون فى قوانينهم قواعد على نفس الاساس ، كما يعنى بدراسته والافتباس منه والتنويه به كثير من رجال القانون والاستشراق الغربيين المنصفين ، فما علينا الا ان نرد لمذهبنا المالكي كامل الاعتبار ، وان نحمل لامانا مالك بن انس فى قلوبنا كل اجلال واكبار .

وخير ما نختم به هذه المجالة ما قاله الحافظ ابن عبد البر فى كتابه ( جامع بيان العلم وفضله ) وهو يوصي طلاب العلم والدين : « ومن طلب السنن فليكن معوله على حديث الأئمة الثقات الحفاظ ، الذين جعلهم الله خزائن لعلم دينه ، وامناء على سنن رسوله ، كمالك بن انس ، الذي قد اتفق المسلمون طرا على صحة نقله ، وشدة توقيه ، ومن جرى مجراه » ثم قال بعد ذلك : « وانما مالك ومن ذكرنا معه ائمة عند الجميع ، لان علم الصحابة والتابعين فى اقطار الارض انتهى اليهم ، لبحثهم عنه ، رحمهم الله ، والذي يشد عنهم يسير نزر فى جنب ما عندهم » ، الى ان قال : « ومن اقتصر على علم امام واحد ، وحفظ ما كان عنده من السنن ، ووقف على غرضه ومقصده فى الفتوى حصل على نصيب من العلم وافر ، وحظ منه حسن صالح ، فمن قنع بهذا اكتفى ، والاختيار له ان يجعل امامه فى ذلك امام اهل المدينة ، دار الهجرة ومعدن السنة » .

اذا جاء الاثر فمالك النجم ، واذا ذكر العلماء فمالك النجم ، وما احد امن علي فى علم الله من مالك بن انس .

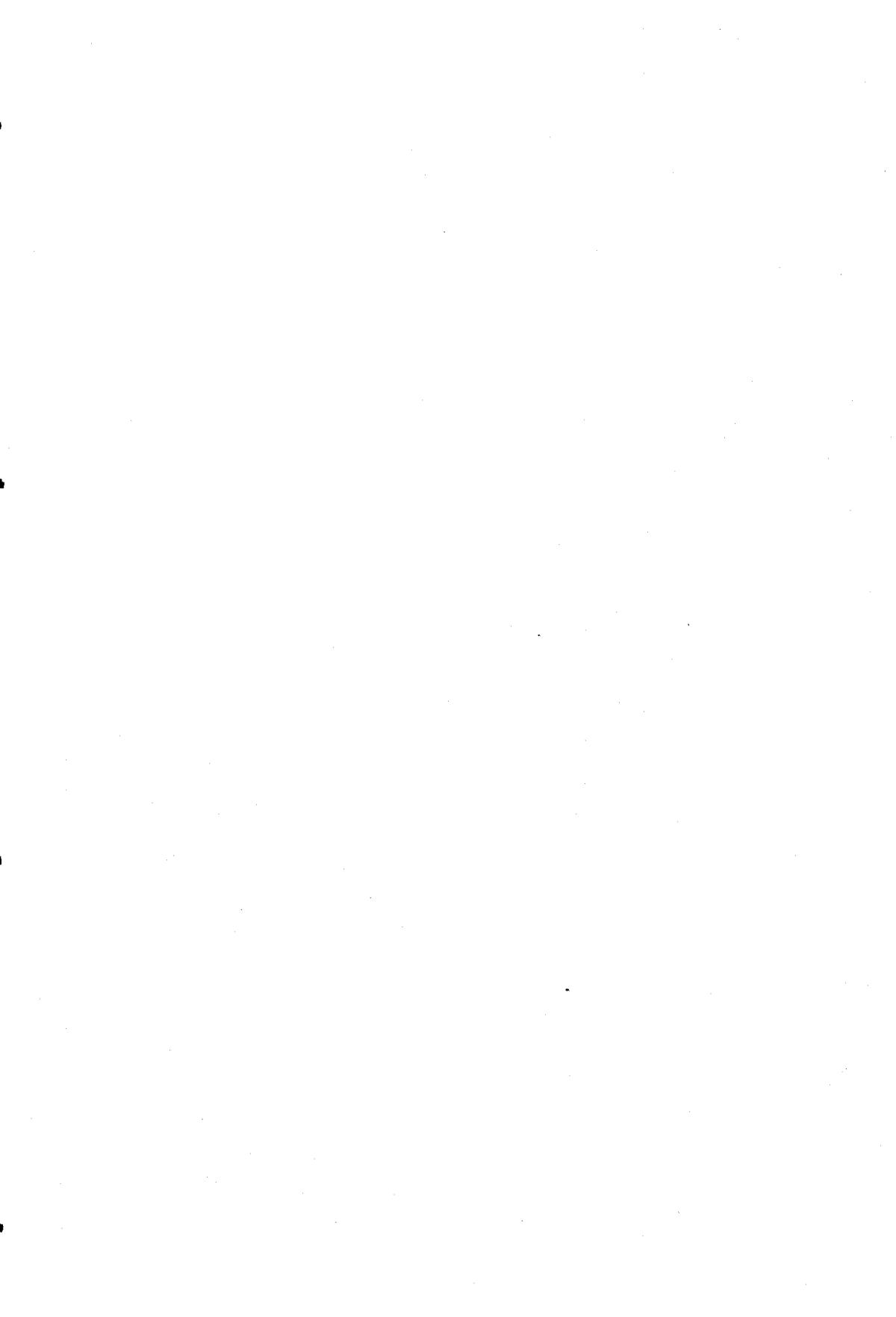
- الامام الشافعي -



## الاستاذ عبد الهادي التازي

محصل على شهادة العالمية بجامعة القرويين ودكتوراة الدولة فى التاريخ  
متخصص فى الشريعة الاسلامية والتاريخ .

( الملكة المفريية )



## المذهب المالكي كشعار من شعارات الدولة المغربية للدكتور عبد الهادي التازي

كان مما لفت أنظار الذين يؤرخون المملكة المغربية أن ( المذهب المالكي ) يكون شبه شعار من الشعارات الأساسية للدولة في هذه الديار ، فهو كالعلم والنشيد الوطني ، وكالعملة التي تعتبر مظهرا من مظاهر الكيان المغربي .

ومع أن المذهب المالكي أسس - كما قلنا - كشعار من شعارات الدولة ، فإن المشرع المغربي اكتفى عند صياغة الدستور بالنص - في الفصل السادس - على أن الدين الرسمي للدولة هو الإسلام دون أن يعين المذهب المالكي كشعار على نحو ما فعل بالنسبة للراية المغربية في الفصل السابع . . لماذا لأن المشرعين المغاربة - وهم من صميم أهل السنة - كانوا فيما يبدو - يرون أن من الابتداع إلى الدين أن ينص في الدستور - كما فعلت بعض الدول الإسلامية - على نعمت لم يكن معروفا على عهد الرسول صلى الله عليه وسلم .

علاوة على أن النص على ذلك ربما كان مؤشرا للتقليص من حرية الرأي ، الأمر الذي ظلت الدولة تحترمه عبر وجودها وظهورها ، وظلت ، نتيجة لذلك ، لا تمنع في مدارسها المذاهب الإسلامية الأخرى على صعيد الدراسات العليا .

ولقد اهتم الاجانب الذين قصدوا بلادنا ، منهم الدبلوماسيون او الزائرون العابرون بالجانب الروحي او بالحري بالمذهب المتبع من طرف المغاربة ، وهكذا لاحظوا اجمعين أن المغرب شعب مسلم بكامله ، لا يوجد فيه اثر لنحلة أخرى غير الاسلام .. كما لاحظوا اجمعين - وهذا بيت القصيد - ان المذهب الذي يمارس فيه هو مذهب أهل السنة ، وبالذات مذهب الامام مالك رضي الله عنه .

ومن ثم عادوا يؤلفون ويترجمون ما يمس هذا الجانب ليساعدهم على معرفة أكثر للشعب المغربي ، أفلم نقرأ عن ترجمة أمهات المذهب المالكي الى اللغات الاجنبية ؟ لقد ترجم بوسكي (Bousquet) مختصر الشيخ خليل . وترجم بيرشي (Bercher) رسالة أن ابي زيد ... أو لم نسمع عن استيعاب الموسعات العالية لرجال الفقه المالكي ؟ أفلم نر كيف أن في الاجانب من تخصص في هذا المذهب أو ذاك ، وغدا يكون وحده مرجعا من مراجع الفقه الاسلامي . ولا بد أنكم قرأتم عن الصراع الساخن الذي دار هنا بمدينة فاس في مطلع هذا القرن بين شخصيتين بارزتين من رجال جامعة القرويين ، وبين أحد رجال الاكاديمية الفرنسية ، ويتعلق الامر بالشيخ السي بوبكر بناني ومولاي احمد بن الامون البلغيثي من جهة ، وبين البروفيسور موليراس من جهة ثانية .

ولعل من المطرف ان نكتشف من خلال ( التاريخ الدولي للمغرب ) ان هذه البلاد ظلت تناصر أهل السنة ليس فقط على أرض المغرب ، ولكن في كل مكان ، ومن ثم كان رفض المغرب لكل المحاولات التي كانت تهدف لفرض المذهب الشيعي كمذهب رسمي للدولة ، سواء هنا في المغرب عندما كان الفاطميون يبذلون النفس والنفيس لتركيح المواطنين المغاربة لطقوسهم وعاداتهم ، أو هناك في المشرق أيضا عندما حاول التتر ( الذين اعتنقوا الاسلام ) فرض المذهب الشيعي على المسلمين في آسيا الوسطى حيث وجدنا ان المغاربة يقفون الى جانب المذهب السنني .

اقول هذا وامامي كتلة من وثائق تاريخية موكولة تتحدث عن  
خطابات متبادلة مثلا بين اسطامبول ومراكش ، بين السلطان مراد  
الثالث وبين السلطان احمد المنصور الذهبي الذي بعث بجوابه  
(سنة 993 هـ - 1585 م) حول محاولة الصفويين في ايران فرض المذهب  
الشيوعي على البلاد ...

كل هذا اذكره ... لاؤكد المقولة التي تقدمت بها والتي تتحدث عن  
المذهب المالكي كشعار من شعارات الدول المفريية ...

وقد لفتت تلك الظاهرة البارزة نظر محكمة العدل الدولية في لاهاي  
عندما طلب المغرب من منظمة الامم المتحدة ان تستشير المحكمة الدولية  
حول ما اذا كانت هناك روابط للصحاء مع المغرب .

وقد كان ذلك في يولييه عام 1975 عندما طرح القاضي السويدي  
بيترين (Petren) هذا السؤال الذكي على الاطراف المتنازعة :

يقول النص :

« نظراً للاهمية التي أعطيت في هذه المناقشات لقضية الدين فاني  
- يقول الرئيس بيترين - أريد ان اطرح السؤال الآتي على المستشارين  
المغاربية والموريطانيين والجزائريين :

« لقد وضع لنا ان السكان في المغرب وفي الصكحاء الغربية  
مسلمون سنيون تابعون للمذهب المالكي ، فهل هذا الانتساب للمذهب  
المالكي خاصة تميزهم عن باقي سكان الاطراف الاخرى في بلاد المغرب،  
مثلا سكان الجزائر المجاورة » . (1)

هكذا كان السؤال الذي نعتبره في منتهى الاهمية ، وبالنظر لما  
يولييه صاحب الجلالة الملك الحسن الثاني دائما من عناية لقضية

(1) Est-ce que cette appartenance au rite Malékite serait une Particularité qui les distingue des habitants d'autre Parties du Maghreb, par exemple des habitants de l'Algérie voisine ?

الشورى فى البلاد ، فقد تفضل اعزه الله فدعا صباح يوم السبت 26 يوليه 1975 ثلة من العلماء والمؤرخين المغاربة لابداء الراى امام محكمة لاهاي .

لقد تجلى واضحا ان المغرب يتميز عن البلد المجاور :

أولا - تشبثنا بالمذهب السننى المالكى بلغ حدا بحيث لم يوجد له ولا يوجد له الى اليوم منافس أو مزاحم يستطيع ان ينال منه ، سيما اذا عرفنا ان المغرب الاقصى ظل الدولة الوحيدة التى حافظت على كيانها عبر التاريخ ، ولن تستطيع أية جهة أخرى ان تقتحمها بما فى ذلك العثمانيون الذين استولوا على بقية أقطار الشمال الافريقى والذين وردوا يحملون معهم المذهب الحنفى فنشروه فى الجهات التى استولوا عليها .

ثانيا - أن الرحالة المغاربة الذين كانوا يقصدون بلاد المشرق ، سواء كانوا من شمال المغرب أو جنوبه كانوا يشعرون بالمفاجأة عند تخطيطهم الحدود المغربية ، لما يرونه من مذاهب أخرى منتشرة بتلك البلاد غريبة عنهم . وكلهم كانوا يعبرون عن ارتياحهم من واقع الامر فى بلادهم ، ذلك الواقع الذى يتمثل فى اجماع المغرب على مذهب واحد هو المذهب المالكى .

ثالثا - أن الحكومة المغربية كانت تشترط فى الشخصيات التى تتولى مناصب سامية بالمغرب أن تكون ملمة بالمذهب المالكى ، بل وملتزمة بتدريس أمهات الفقه المالكى فى المناطق التى يتولى الحكم فيها . وهذا بخلاف الحال فى البلاد المجاورة ، فان هناك مذاهب أخرى كانت وما تزال منتشرة ولكل منها قضاتها وأئمتها .

رابعا - أن المذهب السننى المالكى كان يسود بالنسبة للمغرب فى كل الثغور والمدن التابعة للدولة ، تلك المدن التى وردت مفصلة مدينة مدينة ، ثغرا ثغرا ، ابتداء من وادى الذهب جنوبا الى ما وراء مليلية شمالا ، حسبما تشهد بذلك وثائق الخارجية المغربية فى مطلع هذا القرن .

خامسا - أن في عداد الاسباب التي جعلت المغاربة يقاومون المد العثماني نحو بلادهم علمهم بأن هؤلاء يعتنقون مذهباً غير المذهب المالكي الذي ورثه المغاربة عن أجدادهم وأسلافهم والذي أصبح يكون شعاراً من شعاراتهم التي يمتازون بها .

سادسا - أن جل المخطوطات ، ان لم نقل كلها ، من التي توجد في المكتبات العامة والخاصة ، سواء في شمال المغرب او جنوبه بما في ذلك تخوم الصحراء . جلها مخطوطات وكتب فقه في المذهب المالكي على ما يكشف عنه واقع تلك المكتبات ، وهكذا تأكد أن لا صلة للجيران بهذا الجزء من الوطن الذي لم يعرف تسرباً لا للمذهب الحنفي ولا كذلك للمذهب الإباضي . وإنما ظل ينتسب للمذهب المالكي وحده ، ووحده فقط ، كالشأن في سائر أجزاء المغرب .

ولم يكن من الصعب على قضاة محكمة لاهاي ان يتأكدوا من صحة الأطروحة المغربية ، فقد وجدوا في الموسوعات المتداولة فيما بينهم والمكتوبة بكل لسان ما يؤكد ان المذاهب المعروفة في البلد المجاور لم تجد لها نفساً اطلاقاً في سكان الصحراء نتيجة لانها أي الصحراء تكون مع المغرب حزاماً قوياً يجعل حداً لكل التطلعات الخارجية نحو المحيط الأطلسي .

ولا أريد هنا بهذه المناسبة أن أفضل الكلام عن الظروف التي بسط فيها المذهب المالكي ظلاله على ديار المغرب ، فلقد أولى مؤرخو التشريع الإسلامي هذه النقطة ما تستحقه من العناية ، ولكن لا بد لي مع ذلك أن ألاحظ ان القولة التي نقلها عن اللخمي أبو سعيد الحميري ( ت 573 ) في كتابه ( الحور العين ) والتي يقول فيها : « انه لا يعلم ناحية في الدنيا غلب عليها التشيع إلا مدينة قم في إيران وبلاد ادريس . (2) في المغرب » .

هذه القولة تظل في عهدة البلخي وفي عهدة الذين نقلوا عنه ، فان الامام ادريس بن عبد الله بن الحسن مؤسس دولة الادارسة ، الدولة

---

(2) الحور العين تحقيق كمال مصطفى ، طبعة طهران 1978 ، ص 195 .

الإسلامية الأولى في المغرب ، كان هو نفسه رائدا من رواد المذهب المالكي بالمغرب ، ليس هو القائل في مجال التقدير لمذهب مالك : « نحن أولى بمذهبه » ؟

نحن نعلم جيدا عن الصراع المذهبي الذي اكتسح بلاد المغرب منذ ان التجأ إليها الخوارج والشيعة والمعتزلة والحنفية والظاهرية . ولكننا نعلم كذلك ان بلاد أدریس كما يسميها البلخي ، كانت ثالثة قاعدة للمذهب المالكي بعد مدينة الرسول وحاضرة القيروان .

وهكذا فإنه مهما نسب من فضل للمعز بن باديس ولزياد بن عبد الرحمن ، فان للادارسة أترا بارزا في تشجيع الفقه المالكي وترويجه في ديارهم ،، انهم لن ينسوا اطلاقا وقوف الامام مالك الى جانب قضيتهم في المشرق ، عندما أصدر فتواه المعروفة فاستهدف معهم للاضطهاد والحرممان ..

أردت بهذا التدخل أن أؤكد على دور الادارسة في تثبيت المذهب كاختيار أول من اختيارات الدولة المغربية ، ولا بد أن لا نغفل عن الصراع المرير الذي كان يصدم دولة الفاطميين الشيعة مع دول الامويين السنة من أجل الاستيلاء على بلاد أدریس ..

كما لا ننسى الموقف التلقائي الذي اتخذته المغاربة ليس فقط للحفاظ على حيادهم أمام تنافس هؤلاء وأولئك ، ولكن الدفاع - وهذا مهم - عن شعار الدولة الذي ارتضوه واقتنقوه .. ولم يكن ليؤثر فيهم ما لقوه من عنت وقهر وقمع وهم يتساقطون أمام اضطهاد الغزاة الذين كانوا يرغمونهم على ان يمارسوا شعائر لم يكونوا يعتادونها وهم ملكية ..

ولقد استرجع المذهب المالكي انفاسه بظهور دولة المرابطين التي عملت بتوجيه ابي عمران الفاسي (430 هـ) عندما أحال على احد الرجال الذين كان يعتمد عليهم في المغرب لنصرة المذهب المالكي . حيث شاهدت الامبراطورية المرابطة من جنوب أوروبا الى تخوم افريقيا . ومن الغرب الى الشرق وحدة تاريخية مذهبية لم يسبق لها مثيل ...

ولم تكن معارضة دولة الموحدين للمذهب المالكي فيما قد يبدو الا ضرا من محاولة لاتخاذ موقف متوازن ازاء المذهب املا فى تحقيق الوحدة الاسلامية الكبرى بين المشرق والمغرب . الم نقرا عن الموحدين انهم كانوا يمهدون لتوحيد جناحي العالم الاسلامي .. او لم نسمع عن الصراع الخفي بين بلاط بغداد وبلاط مراكش ؟ فلعل التظاهر بموقف تشجيع مذاهب شرقية اخرى .. ولعل الاجهار على بعض كتب الفروع المالكية كانت وراءه اهداف بعيدة .. ؟

ولا بد ان نتساءل هنا عن اسباب هجرة بعض الادمغة المغربيــــة الى اوربا من امثال الشريف الادريسي الجغرافي المشهور الذي استفاد روجي الثاني من مقامه بصقلية فطاب اليه ان يضع له خارطة للعالم ظلت الى الان حديث المجالس الاكاديمية التي اعتبرت الخارطة كأعلى مستوى وصل اليه علم الكاروتوغرافيا الاسلامية .. فهل ان الادريسي هاجر لانه لم يكن راضيا على موقف «المصامدة» كما يسميهم ، ام انه كان يسخر من دعواهم عصمة المهدي هذه الدعوى التي صدمت اهل السنة ؟ ام انها انفة من سيطرة غير مقبولة بالنسبة له وخاصة فى الميدان العلمي . ان حديث الشريف الادريسي عن « المصامدة » فى كتابه (نزهة المشتاق) كان مليئا بالهزم واللمز ، فى الوقت الذي كان ينعت فيه روجي بالملك المعظم . ، فقد وصفهم بأنهم « يحجون » الى قبر محمد بن تومرت ولم ينعتهم بالمهدي . ووصفهم بأنهم ينهبون الاموال ويسفكون الدماء ويبيحون الحرام ، كل ذلك بمذهب لهم يرونه حلالا . ؟

ان السر فى تنقل الشريف الادريسي الى صقلية ما يزال محتاجا الى البحث والتنقيب .. ولا بد ان نتساءل ايضا عن السر الذي كان يكمن وراء تراجع القاضي عياض عن السير فى ركب الموحدين بعد ان كان أعلن ولاءه لهم فى الفترات الاولى من ظهورهم ، هل لانه كان مالكيما ملتزما ، وكان يرى فى اعتماد الموحدين المذاهب الاخرى ما يمس بذلك الالتزام .. لا بد ان نرحل الى مدينة مراكش لنزور ضريح القاضي عياض لنجد النص فى شاهد قبره على انه ( مالكي المذهب ) ولا بد ان نقبل

الافتراض بان النقش يرجع لتاريخ دولة بني مرين التي قدرت في القاضي عياض تمسكه بمبداه ومذهبه ، ولا بد مع هذا ان نقبل الاطروحة التي تقول بأنه لو امتدت ايام الموحدين طويلا لامتدت السن المهيب الى مؤلفات القاضي عياض ( احد سبعة رجال مراكش ) على ما يقول اليوسي ، فلولا بنو مرين الذين بادروا للاهتمام بتراث عياض لاصبح عياض في عداد ضحايا الفترات القلقة من التاريخ !

مهما يكن فان دولة الموحدين لم تلبث ان انهارت تحت وطأة دعاة المالكية من امثال القاضي الذي كان اكبر واعظم من ان يغمط بسهولة والذي يعتبر كتابه « المدارك » احدى وسائل الرد على الموحدين .

لقد استطاع بنو مرين بسرعة ان يسترجعوا ما ضاع ، وان يبعثوا ما فقد من كتب المالكية ، وفي صدرها كتاب المدونة الكبرى لسحنون التي نسخها فقهاء فاس من حفظ ابي الحسن علي بن عشرين عند ظهور ملوك بني مرين ..

**ولكون المذهب المالكي شعارا من شعارات الدولة - كما قلنا -**  
اهتم الحكام بكل ما يقوي ويدعم وينمي من الدراسات المتعلقة بالمذهب ،  
وان الله ليزع بالسلطان ما لا يزع بالقرءان كما يقولون .

وهكذا وجدنا الدولة المغربية تهتم بالموضوع وتكثر المجالس العلمية في مختلف قواعد المغرب ، كما تهتم باعداد الاطر الصالحة لاشاعة المذهب سواء في الجبل او السهل ، في البادية او الحاضرة .

فلقد عرفنا تأسيس المدارس العلمية منذ عهد المرابطين . واستمر تشييدها ايام الدول المتلاحقة وخصوصا ايام عهد بني مرين ، ان هذه المدارس كانت تعتبر بمثابة احياء جامعية تؤوي مئات الطلاب . لقد شاهدنا سلسلة من المدارس ، ليس فقط في مدينة فاس ، ولكن في مدينة مراكش ومدينة سلا .. ومكناس ومدينة تازة ووجة ،، لقد كانت جامعة القرويين بفاس في واقع الامر غير التي نشاهد بناعا بين سوق

الشماعين والصفارين ، ولكنها كانت جامعة متحركة تسكن قرون الجبال وتخوم الصحاري بمن يتخرج عنها من الطلبة الافاقين الذين يعودون لبلادهم فقهاء علماء .

لقد كان بفاس زهاء مائة واربعين كرسيًا علميًا تابعًا لجامعة القرويين ثلثها متخصص لدراسة الفقه المالكي ، وقد انتهى عدد المساجد لو الفروع التابعة لجامعة فاس الى سبعمائة واثنين وثمانين في بداية العهد المريني .

والى جانب المدارس والكراسي والمجالس اهتمت السلطات باعداد الكتاب الذي يدور محوره حول المذهب المالكي . وبهذا نفسر الثروة الهائلة الضخمة التي تتوفر عليها المكتبة المغربية من حيث حصيلة المخطوطات والكتب المتعلقة بالمذهب المالكي ، فليست هناك مكتبة تخلو من عشرات النسخ لكتاب الموطأ الذي يعتبر أول مؤلف إسلامي معروف ، وليست هناك مكتبة في المغرب تخلو من رسالة ابن أبي زيد القيرواني (ت 386 هـ 996 م) ومختصر الشيخ خليل 776 - 374 (3) وتحفة ابن عاصم 829 - 1426 وأرجوزة ابن عاشر 1040 - 1631 ومما يتصل بهذه الامهات من شروح وحواشي وهوامش وتعليق ..

ومن خلال استعراضنا للكتب والمادة التي يعتمد عليها المشايخ بالمجالس العلمية نجد ان السلطات المغربية لم تتردد أيضا في استجلاب المصنفات المتعلقة بالمذهب المالكي ، كما وقد شجعت المؤلفين المغاربة

---

(3) ظهر كتاب الشيخ خليل بعد نحو من عشرين سنة فقط على ظهوره بالمشرق ، ولدخول متن سيدي خليل الى المغرب قصة مطرفة . فقد حدث ان كان بتلمسان شاب جميل المهيأ أنيق الملبس على نحو ما سمعنا عن نصر بن حجاج في المشرق ... صادف ذلك الشاب فتاة من بنات تلمسان فلم يشعر الا وقد رماها بنظرة مارقة ، فقرعت اسماعه بهذه الآية الشريفة : « يعلم خائنة الاعين وما تخفي الصدور .. »

وهنا خجل الشاب من وضعه وأزمع على ان يقصد مدينة فاس ليشتمل بما يعنيه حيث وجدناه يحمل معه عام 805 هـ في جملة ما يحمل من كتب ، مختصر الشيخ خليل الذي اصبح مرجعا للناس ومشفلتهم ...

ولا بد ان لا ننسى ان بالمغرب الاقصى جاليات كثيرة وردت اصلا من اليمن ومن العراق والبصرة وبغداد ومن الشام ، وكل هؤلاء العراقيين والبصريين والبغداديين وردوا مصحوبين كذلك بمصادر ومراجع مالكية ...

انفسهم على الكتابة ورصدت احيانا الجوائز السنوية الذين يقومون بتحرير  
المواضع المطروحة مما نرى آثاره في كتب الفتاوي والنازلات التي تعتبر  
من أثرى مصادر الفقه ، وهي تعطى فكرة عن الحياة الاجتماعية  
في المغرب .

ولا بد ان نتساءل عن السر الذي يكمن وراء انسجام المغاربة مع  
المذهب المالكي على النحو الذي نعرف ، في كل الجهات لا تتميز فيه  
طبقة دون الاخرى .

ان هناك عددا من الاسباب التي لفتت نظر المؤرخين والباحثين  
ولقد استوعب الباحثون الاسباب التي ذكرها السابقون من امثال  
ابن خلدون ، على نحو ما قرأناه بمناسبة اسبوع الامام مالك بن انس  
الذي نظمه شباب النهضة الاسلامية بالمغرب أوائل السبعينات (4) ؟ .

وان السر الذي يكمن وراء انتشار المذهب المالكي هو انتساب  
الامام مالك لمدينة الرسول صلى الله عليه وسلم ، ونحن نعلم عن تعلق  
المغاربة بكل من او ما يمت بصلة لمثل هذه العتبة المقدسة ، ان  
المدينة المنورة ليست كاي مدينة اخرى وانه لم يسمع في التاريخ  
ولن يسمع أيضا فيما اعتقد عن مغربي حج ولم يقم بزيارة المدينة  
المنورة .. مستحيل . ومن امثال المغربية المعروفة في معرض  
الاعمال الغير الكاملة مما يقول : « حج ما زار » ..

على ان هناك سببا بارزا آخر ، ذلك ان العرب الوافدين على  
المغرب كانوا في جلهم من اهل اليمن ، ومعلومة هي صلات لسكان  
المغاربة الاصليين بالعرب اليمنيين ، وبما ان مالكا يمني ، فلا غرابة  
ان نرى هذا التجاوب بين بني العم .

---

(4) اريد بهذه المناسبة ان اغتنم الفرصة لاذكر بان المصدر الذي كان يشير اليه الاستاذ  
علال الفاسي رحمه الله عند انتقاده للاستاذ ميشو بيلير في العدد العاشر من  
مجلة الايمان ، كان هو المحاضرة التي ألقاها هذا الاستاذ بالفرنسية بعنوان :  
« الزوايا الدينية » والتي طبعت أوائل العشرينات .

حضرت فى الشهر الماضى مؤتمر الأثار فى صنعاء ، ولشد ما كانت المفاجأة بالنسبة الى وأنا أقف فى المعرض الناجح الذى أشرفت عليه منظمة اليونيسكو ، أقف على اثرين : أولهما نماذج من الحروف الحميرية التى لم تكن تختلف فى مجموعها عن حرف ( تيفيناغ ) ، ثانيهما نماذج من تصاميم القصور اليمينية القديمة التى لم تكن تختلف إطلاقاً عما اعتدنا مشاهدته فى ورزازات وفى قصبة ابن شهاب بصفة خاصة على ما رأينا فى الوثائق التى عرضتها وزارة الدولة المكلفة بالشؤون الثقافية بمناسبة يوم النداء العلمى لاتخاذ مدينة فاس بمتحف البطحاء .

أريد القول ، انه كان هناك تجاوب واضح بين السابقين واللاحقين قرب ( الموالك ) بعضهم بعضاً ..

ولكن هل كان نشر المذهب يقتصر على العلماء من الرجال ؟ ان التاريخ ليسجل ان المرأة المفريية قامت بدورها فى سبيل توعية المواطنين من بنى جنسها .. ان فى حملة تلك الكراسى العلمية ما كان موضوعاً بحيث يستفيد منه الرجال والنساء على السواء .

فلقد كان الكرسي الشهير المعروف بكرسى الأسبوع الأعلى يقع فى زاوية من المسجد تحت الخلوة التى كان النساء يقصدنها والتى كانت تطل على الكرسي المذكور ، يفصل بينها وبين المسجد حاجز من شبالك خشبي ،، هناك كن يستمعن لرسالة ابن أبي زيد ومختصر خليل .

كما كان هناك كرسي مماث يقع تحت مستودع ابن عباد ظهر خصّة ( فوارة ) لعين يمكن النساء من متابعة الدرس من فوق ، دون أن يكشف عن تقابهن ..

ومن فى الناس لا يعرف ان الست خيرونة كانت لها يد فى نشر العقيدة الأشعرية بدور الفقهاء اللائي يتوزعون على حارات المدينة ، وفى كل حومة من قواعد المغرب .

لقد كان لانتشار المذهب المالكي وتوحيد الناس على خطاه أثره  
على كل من الحياة الفكرية والسياسية والاقتصادية .

قد ساعد من جهة أولى على ازدهار الحركة الفكرية وتركيزها  
في أصول المذهب ومداركه ، فكم الف من كتاب ، وكم حرر من موضوع  
وكم من نظرية طرحت على بساط البحث .. آلاف من المسائل والقضايا فيها  
ما كنا نعتبر إيراده ضربا من العبث بالوقت والورق لكنه حصل بالفعل  
ونحن نعيشه ...

سأذكر لكم على سبيل الفكاهة نازلة من النوازل الفقهية مرت بي  
في باب اليمين من مختصر الشيخ خليل ، عندما تحدث عن الزوج  
يقدم لزوجته قطعة لحم وهو يحلف لها ان تأكلها، فتخطف الهرة قطعة اللحم  
فحتى لا يحنت ولا يقع في مأساة طلاق مثلا ، قام الزوج بشق جوف  
الهرة وأخرج القطعة وتقدمها لزوجته من جديد.. هل يكون بارا في قسمه  
او حائثا . ؟ اسمعوا للنص - ان صح التعبير - للشيخ خليل  
حول هذه النازلة : « وفي لتأكلها فخطفتها هرة فشق جوفها واكلت قولان»

لا اخفيكم اني وطلبتي ، كنا نستبعد ان تجري هذه النازلة ، وان  
يقوم شخص بشق بطن هرة لأخراج القطعة .. لكننا جميعا قرانا وشاهدنا  
في الصحف منذ شهر خلت صورة لطفلة لا أذكر جنسيتها اقتطع كلب  
أنفها فعمد أهلها بسرعة الى الكلب وتحيلوا على اخراج ما في جوفه  
حيث أعيد زرع الانف في وجه الطفلة ؟ وقريب من هذه النازلة وقع في  
دولة البحرين قبل أسابيع ، فهل كان الشيخ خليل يجازف عندما كان يأتي  
بمثل هذه النوازل .. الواقع اننا نحن بقصورنا وضيق أفقنا كنا آثمين  
في اتهام فقهائنا بالتحليل والتصوير والتعمل ...

وان من اطراف أنواع النقاش الذي كان في الواقع وليدا لمبادئ  
المذهب المالكي ، ذلك النقاش الذي احتد بين رجال الفقه منذ قرون  
حول موضوع يعتبر اليوم حديث الساعة في مجالس القضاء وفي ندوات  
الإذاعة والتلفزة ، ويتعلق الأمر بالزوجة تشارك زوجها في أشغاله

وتخفف من أعبائه ، هل تشاركه في الاموال التي تدخل عليه ، لعلكم تسمعون بين الفينة والاخرى بأن هذه الموظفة تشكو من زوجها . انه يريد ان يستبد بحواثلها وأن هذا لموظف يريد ان تكون الاملاك باسمه دون زوجته .

لقد كان للفقهاء المغربي ابن عرضون الشفشاوني رأي رائد عظيم حول المرأة تخدم في بيتها مع زوجها الخدمة الظاهرة والباطنة من خدمة الزرع في الصيف والفواكه في الخريف ولقط الزيتون وشبه ذلك وخدمة البيت كلها من طحن وخبز وحطب .

ابن عرضون يقول بحق المرأة في اقتسام الثرة مع زوجها على التساوي . لقد كان لهذه الفتوى صدى كبير في اواسط العلماء . وكان من اشد الفقهاء تحاملا على هذه الفتوى الشيخ عبد القادر الفاسي الذي كان يرى ان عرف مدينته يخالف تلك الفتوى التي تعتبر في نظري فتوى حية رائعة استمعوا الى هذه الابيات من العمل الفاسي :

وخدمة النساء في البوادي	للزوج بالدرس وبالحصاد
قال ابن عرضون لهن قسمة	على التساوي بحساب الخدمة
قالوا : لهم في ذلك عرف يعرف	لكن اهل فاس فيها خالفوا

اعتقد انه لو عاش الشيخ عبد القادر الفاسي اليوم ورأى السيدات في مدينته وفي المغرب كله يتزاحمن مع الازواج على الشغل . . ولو رأى ان فيهن من لا تعتبر ان مالها ومال زوجها سواء . لكان استرشد بمذهب ابن عرضون في ان يجعل للزوجة حصة نسبية من ثروة زوجها على مقدار ما تنقضه ويتقاضاه .

اما عن الاثر السياسي الذي كان المذهب المالكي فاطنه ابرز من ان يرضح فقد عرفنا عن الكسب الذي جنيناه من وحدة المذهب سواء في الخارج او الداخل . . ففي الخارج كان عوننا لنا على مقارعة الصليبية التي كانت تهددنا من الشمال ، فكنا نألف ولا نختلف ، وكنا نتجه في وحدة مترابطة للقتال لا نجد وراعنا من يشبط او يفشل او يخذل ؟

وكنا من الناحية الداخلية أيضا كتلة واحدة وراء القائد.. لا يستحسن  
الواحد منا ما يستخفه الآخرون ولا يستنكر الواحد منا ما يستصفره  
الآخر ..

وكما كان لنشر المذهب المالكي اثره على الناحية الفكرية والسياسية  
كان له اثره كذلك على الناحية الاقتصادية .. ضرورة ان توحيد المذهب  
يعني اختفاء الصراعات العقائدية المتلفة والمدمرة . وانه ما خرب ويخرب  
اقتصاد البلاد الا التناحر والتطاحن .. امامكم وامامي عدد من الدول التي  
تمزقها المذاهب ، فالشمال سنة والجنوب شيعة ، والسنة بدورها فرق،  
والشيعة كذلك فرق .. وكل فرق تتزعمها آية . طاقات مفتتة وجهود  
مبعثرة .

كنا نعيش مع النازلة الواحدة في المدينة الواحدة ، لكل رايه  
فيها ، قد يصل الراي لدرجة تكفير الراي الآخر .. وهنا يضيع السر  
وتتهدد المروءة .. فهؤلاء يحرمون وأولئك يبيحون والآخرون يجلدون  
والمواطنون بين هؤلاء وأولئك تائهون ..

هذا وان من الواجب التأكيد على ان المملكة المغربية كانت  
تساعد بل تعمل على تصدير المذهب المالكي لما وراء البحار ولما وراء  
الصحراء .. الى تخوم افريقيا ومجاهل آسيا .

وهكذا فان كل الذين ارخوا للحركة الفكرية في دول افريقيا وعرفوا  
بالوجود الاسلامي هناك ، واهتموا بنوع للمذاهب المتبعة في تلك  
البقاع .. كلهم كانوا منصفين عندما عزوا انتشار المذهب المالكي الى  
رجال سافروا من المغرب الى تلك الاعماق ، او طلبه شدوا الرحلة  
الى جامعة القرويين من تلك الافاق ليعودوا الى اوطانهم مزودين مؤهلين .

ثم هل يغيب عن ذاكرتنا ما تناقلته مذكرات الرحالة الذين جابوا  
آسيا ... مذكراتهم التي تتحدث عن ان تلك الجهات النائية مدينقئ اسلامها  
بل وفي انتسابها للذهب المالكي الى حجاج مغاربة قصدوا تلك النغور  
فانقطعوا اليها دعاء مرشدين .

وهل يجهل أحد منا دور ابن بطوطة نفسه فى التعريف بالمذهب المالكي أثناء رحلته الطويلة التي استوعب ثلثي العالم .. ولقد وقفت فى أوائل السبعينات على خزانة فى ( دبي ) كانت فى ملك الشيخ محمد ابن عبد السلام الريفي الذي كان قاضيا فى ( ديره ) والذي ترك جملة من الكتب تعتمد على الفقه المالكي صارت الى وزير الدولة الاستاذ المرحوم ابن سليم على ما نشرته فى ابانه بالمجلات المشرقية والمفربية .

وقد ذكر له الشيخ راشد حاكم دبي بانه تتلمذ على شيخ اخذ الاصول المالكية عن علماء مغاربة .

ولقد اكتسب المذهب المالكي بالمغرب شعبية لم يبلغها واصل .

لقد كان الناس وخاصة منهم الذين يقضون سحابة يومهم فى المصنع أو المتجر ، كانوا يتمكنون فيما بين العشائين من حضور مجالس علمية رائعة تقوى من ذاكرتهم وتساعدهم على معرفة الحلال والحرام ، فكانت هذه الدروس الليلية بمثابة النشاط الموازي الذي يعوض المعوقين والمنشغلين .

هل بعد هذا نحن بحاجة لان نعرف صدق المقولة السائرة :  
« الاعراف فى ديار المغرب لا بد ان نجد لها سنداً فى الفقه المالكي » ؟

ولنستعرض امامنا بعض المقولات التي تجري عفوا على السنة الناس وهي مما يرجع لاصل فى الفقه او مدرك من مدارك السنة .

كثيرا مما يحدث ان ندخل على قوم وهم يتناولون اكلهم فنقرأ السلام عليهم ، ولكنهم عوض ان يجيبوا عن السلام يقولون : « لا سلام على طعام » وهم ولو انهم يقصدون الى دعوتك لمشاركتهم فى الطعام ، لكنهم ينطلقون من اصل مالكي منصوص عليه فى باب الجهاد من مختصر الشيخ خليل عند قوله وهو يردد فروض الكفاية : « ورد سلام » ، فقد ذكر الدسوقي على الاكل ولا يرد « ومعلوم ان مطالبة الاكل برد السلام قد يعرضه وهو يجيب ، الى الاختناق ..

ويتفق ان تجد نفسك فى ازدحام على حانوت سفاح ويحاول آخرون ان يتجاوزوا الصف ويحصلوا ، من فوق رأسك على سفنج فتسمع آخرين يحتجون بقول الفقهاء (قضى للسابق) .. وعندما يسمع الناس هذه الكلمة الصغيرة فى مبنائها ، الكبيرة فى معناها ، يلوذون بالصبر والاناة انتظارا لدورهم ونوبتهم ..

ويحدث ان تجتمع مع قوم وتحدث اليهم عن جدى شخص من الاشخاص ويقتنعون معك بما تقول ، لكنه لا يلبث ان يظهر شخص اقدر واكفاً واجدر فيميل القوم الى تفضيل هذا الاقدر الاكفاً الاجدر مرددين قاعدة الفقه المالكي : « اذا حضر الماء بطل التيمم » ..

لكن الاكثر طرافة من هذا ان تسمع بعض المغاربة وهم يتحدثون عن شخص متساهل متحيل فى سلوكه ، ينعته بقولهم « مسلم حنفي » ، فماذا كانوا يقصدون ؟ ليس الامر فى نظري الا انعكاسا لروح النقد المستمر من طرف المالكية لزملائهم الحنفية ..

ولا بد لشرح هذه القولة من استعراض حالة من حالات الخلاف بين السادة الحنفية والمالكية ، ويتعلق الامر بقضية الحيل فى الاسلام هل تجوز او لا تجوز ؟ نحن نعلم ان الحنفية يجيزون التحيل يقوم به المسلم للتقلت من أداء واجب من الواجبات : مثلا شرط زكاة المال عندنا ان يمر عليه الحول .. لكن الحنفية تقول : لو ان هذا المالك تحيل فوهب ماشيته مثلا لزوجته قبيل انتهاء الحول ثم تحيلت هي الاخرى فباعت لزوجها الماشية بعيد ذلك لما وجبت لا عليها ولا عليه زكاة ولو استمرا يتلاعبان كذلك مدى الحياة .

المالكية لهم موقف ازاء الحيل .. فالحيل التي تهدف لنسف ركن من الاركان او ابطال ادب من الآداب لا تجوز ، لكن الحيلة التي يقصد منها التخلص من ظلم او التقليل من كارثة لا بأس انها تجوز . سوف اکتفى هنا باحالتكم على كتب الاصول لتتبع الموضوع ، فان ما كان يهمني هنا ترديد بعض المغاربة لعبارة ( مسلم حنفي ) فى معرض التعبير عن التساهل ... هناك اقوال اخرى تجري على اللسان نحو قولهم :

( صلاة الشك باطلة ) عندما يقررون الابتعاد عن نتيجة مشكوكة الى نتيجة اخرى محققة الفائدة .. كما تجري على اللسان كثيرا قاعدة « لا ضرر ولا ضرار » وكلمة « الضرورات تبيح المحظورات » ، وعبارة الشيخ خليل فى فصل غسل الميت « المعين مبتدع » وعبارته فى باب ازالة النجاسة : « وعفى عما يعسر » و « لا يستنجى من ريح » .

دعونا فى هذا الجو الشعبي المرح ، ان الحجاج المغاربة يعرفون ان (ابن عاشور) فاق كل مطوف ممن عرفتهم مكة والمدينة (الحرمان الشريفان): لانه يصف مناسك الحج ومراحله بدقة واتقان وكأنما هو دليل أزرق ...

وان المصلين المغاربة يعرفون كذلك ان رسالة ابن ابي زيد القيرواني تأتي فى القيمة عند وصفها لشعائر الصلاة ... ولاجل هذا وذاك كان فى العبارات الشائعة والصائبة لدى عوام الناس قولهم : «صل بالرسالة وحج بابن عاشر» اى اذا اردت ان تتقن حجك فاعهد على وصف ابن عاشر ، واذا اردت ان تتقن صلاتك فعليك بالرسالة .

وكثيرا ما نرى الناس يتبادلون الراي حول عمل ما من الاعمال هل يقومون به البداية او فى النهاية ؟ فنسمع احدهم يردد ما ورد فى فصل السهو من مختصر الشيخ خليل : « وصح ان قدم او آخر » ويقتنع الكل بان المهم فى الامر ان يتم انجاز ذلك العمل سواء اكان هذا فى هذا الموقف او ذلك .

ومن منا لم يسمع بالمثل الجاري على الالسننة والذي يقول : (المحتتب فضولي) ان كلمة الحتب تحريف للفظ (محتسب) ، والمحاسب وظيف حضاري كما تعلمون من اختراع المالكية ، يعنى الشخص السذي ينصبه امير المؤمنين لكي يسهر على راحة وسلامة المواطنين ، فهو يتدخل لمراقبة ما يباع لهم من مأكول وما يحكي لهم من قول ، وفيما يلبسون وما ينسجون ... وحتى فيما يبنون وما يفرسون ، فعليه اذن ان يكون اداة متحركة يقتحم كل معمل وكل مكتب وكل مطبخ ، فهو بحسب وظيفته هذه يجب ان يكون «فضوليا» والا فهو ليس بمحتسب ؟

سمعت بعضهم يرددون عبارة سيدي خليل في باب الحج : «ولذلك اتخذت السلاليم» في معرض نكتة دقيقة لا تخلو من طرافة ، وحتى نتذوق عمق النكتة اذكر ان هناك امورا تعتبر من قبيل المكروه بالنسبة للزوج المحرم في الحج ، مثلا حمل زوجته الحاجة للمحمل لما قد يجره ذلك من استلذاذ يتنافى وحرمة الحج . ومن اجل ذلك وضعت السلاليم رهنا اشارة الحاجات ليصومدن بها الى المحمل فلم يكن من العبث وجود « السلاليم » وموجرى ( سلاليم ) ، يعني اذا رايت تديبرا ما فاسأل ، فانك مدرك اسبابه ... ونحن كثيرا ما نشاهد تشريعا من التشريعات يتخذ ، وفي البداية قد لا نعرف اسرار وضع ذلك التشريع ، لكننا لا نلبث ان ندرك لماذا اتخذت السلاليم؟

ان هناك كثيرا من الافادات الجارية على اللسان ، مما يدل على شعبية المذهب المالكي ورواج الامهات التي تعالجه ..

افلم يرد على مسامعنا المثل السائر : « مخزن جاير ولا رعية فاسدة» وهو يعني ان الحكومة الجائرة افضل من شعب فاسد « وهو الفقه الذي نقله الديباج ( ص 276 ) عن الامام مالك بلفظ آخر : « سلطان جائر سبعين سنة خير من امة سائبة ساعة من نهار » .

وهل لا نتذكر ما جرى من نقاش بلغ حد الشنئان حول ما نسب استرواحا للامام مالك : « يجوز قتل الثلث لاصلاح الثلثين » ( 5 ) .

وكثيرا ما نسمع الناس يتحدثون عن عدم ما حرج في ان يدافع المرء عن كفاءته ، ان يشعر الآخرين بصفة او باخرى انه اهل لهذا المنصب او ذاك ، وانه يشرح نفسه لهذا المكرمة او تلك فيرددون قولة الشيخ خليل التي تشجع الفقهاء على ان يطالبوا بمنصب قاض مثلا اذا كانوا يرون انفسهم مقتدرين على ذلك ، فالناس يقولون : ( ونذب ليشهر عليه ) اي انه من المستحب بالنسبة للعارفين ان يتقدموا بترشيحاتهم للانتظام في السلك شريطة ان يكون غير جهلة .

( 5 ) الميثار الجديد ، المجلد 11 - ص 93 - 94 - 95 .

وكثيرا ما يستشهد العامة عندما يلحظون تنافر وتناحر ، بل وتآمر اصحاب الحرفة الواحدة فيما بينهم ، فيقول بعضهم « خوك فى الصنعة عدوك » ولكن الخواص منهم يرددون قولة الشيخ خليل « **وعالم على مثله** » أى ان شهادة العالم على مثله لا تجوز نظرا لما يوجد عادة بين « الزملاء » من تنافر وتطاحن ، الامر الذي جعل بعض الفقهاء يعطونهم تشبيها مريرا يجعلهم « كالتبوس فى الزريبة » على حد تعبيرهم .

وكثيرا ايضا ما يستشهد العامة عندما يلحظون مبالغة زائدة تصدر من قوم بعيدين غالبا من موقف المبالغة يقولون : « اهل الميت صبرو والمعزون كفروا » لكن الخواص منهم يقولون : « ملكي اكثر من الامام مالك ... »

الى غير هذه المقولات التي نكتفي بالاشارة اليها والتي تعبر عن تغفل المذهب المالكي فى المغرب بما يقوم عليه من قواعد وما يحتضنه من آداب جعلت المفارقة يحفظونها ويرددونها فيما بينهم كما يرددون الامثال الشعبية .

وعند ما كان المغرب يتعرض للعدوان العسكري فى مختلف العصور الممتاخرة ، كان المفارقة قاطبة ذكورا واناثا يندفعون نحو ساحة القتال وكانهم جميعهم يحفظون قول الشيخ خليل فى باب الجهاد : « **وتعين بفتح العدو وان على المرأة** » أى ان الجهاد يصبح فرض عين على كل مواطن ومواطنة اذا ما اقدم العدو على اقتحام الارض ..

ومن ثمت قويت حاسة الجهاد لدى المفارقة والمفريبات الذين ظلوا وظللن بالمرصاد لكل المتربصين والطامعين . وبحسبكم ان ترجعوا لقراءة ما كتب عن الظروف التي واكبت عقد الحماية ونسفها سواء سنة 1912 او 1955 لتعرفوا مدى ايمان المفارقة بصدق قول سيدي خليل : « **وتعين بفتح العدو وان على المرأة** » .

ثم وحسبكم ان تعيشوا مع هذه الجملة وانتم تسمعون للمواقف المفريية فيما يتعلق بقضيتنا المصيرية ووجدتنا الترابية ...

ولا بد ان نبحث آثار الامام مالك ، ليس فقط في أقوالنا وافادتنا ،  
ولكن أيضا على مظاهرنا وفي حياتنا الاجتماعية ...

لعلنا قرانا بعض الوصف لما كانت عليه هيئة الامام مالك ، سواء من  
مدارك عياض أو من المعاجم التي ترجمت لمالك ، فكلها مطبقة على أنه  
كان يلبس الثياب العدنية والخراسانية والمصرية الغالية الثمن ، وكان  
- وهذا بيت القصيد - اختار له من اللون الثياب الريفية التي يلبسها  
**اللون الأبيض** .. وكان كثيرا ما يقول أحب للقارىء أن يكون أبيض الثياب .

وبذلك وضع الامام مالك تقليد رفيعا للذين يتصدرن لمجالس  
العلم والتدريس .. وبذلك أيضا خط الطريق لرجال الدولة ان يسنوا  
لهم قوانين تعتمد على تجربته واختياره ...

ومن هنا لا يعرف ان المغرب كان الدولة الوحيدة في العالم التي  
اصدرت مرسوما ملكيا (ظهيرا) عام 684 هـ - 1285 م يقضي باتخاذ  
الملابس البيضاء شعارا للدولة .

لا اكتمكم انني لم أقف في سائر مطالعتي على أمة من الامم اهتمت  
بتشريفات اللباس منذ أواسط القرن السابع الهجري ، كما كان الامر  
بالنسبة للمملكة المغربية .

ان الامر يتعلق بالظهير الذي اصدره ابو يوسف يعقوب يوم  
الاحد العشرين من شعبان الموافق تاسع عشر أكتوبر من التاريخ  
السابق ، بأن لا يلبس الا **البياض** ، وكان ذلك بمناسبة لقاء القمة الذي  
تم بين العاهل المغربي وبين العاهل الاسباني صانشو ، لقد أمر  
السلطان في يوم اللقاء باظهار شعائر الاسلام وشدد على لبس البياض ،  
فكان منظرا فريدا ويوما مجيدا ، اجتمع فيه الملكان : المسيحي وحاشيته  
وهم في سود الثياب ، والمسلم وحاشيته وهم يرتدون الملابس البيضاء .

وهكذا نرى ان تاريخ **اللباس الأبيض** في المغرب علاوة على أنه  
تقليد لسلوك الامام مالك ، فانه يقترن بأحداث وطنية بالغة الأهمية ،

ومن تم كان ( البياض ) صفة مميزة للطبقة العاملة ، ولما اعتذر الاستاذ ابو الحجاج الانفاسي عن قبول الملابس البيض التي بعث بها اليه السلطان ابو عنان ، قال له الرسول مبلغا رسالة السلطان : « انما قصد برسلها ان يمتاز اهل الخطة العلمية عن غيرهم .

ايها السادة :

انكم ستطربون ولا شك وانتم تقراون عن تاريخ التقاليد الجامعية فى شتى المؤسسات . انكم ستجدون اسم الامام مالك كشخصية من الشخصيات الاولى التي وضعت قواعد مرسومة لمن يريد التصدي لنشر العلم ، لمن يريد ان يلقي درسه بين الطلبة حتى يظل طيلة القاء الدرس مرفوع المعنوية لا يشر بأنه يلبس رديئا .

وبهذا تدركون مدى ما يرتكبه الاستاذ اليوم من عبث وسخف عندما يتعمد ان يدخل على تلاميذه وهو على حال من اللباس لا تنتسب لفريق ، ولا تلوي على طريق ! .

ايها السادة :

ان الحديث عن المذهب المالكي يظل مقارنا الحديث عن ميلاد المملكة المغربية ، لقد ظهر تقريبا فى عصر واحد ، ومن ثمت فان المغرب يعتبر وارث المدينة المنورة فى هذا التراث ، ومن ثمت ايضا نظر المؤرخون الى هذه الديار المغربية على انها دار سنة . . . عملت باستمرار على تطور المذهب وازدهاره ، اقتناعا بأنه أي المذهب المالكي صياغة محكمة لرسالة الاسلام التي لا تتقيد بزمان ولا مكان ، رسالة للامس واليوم والقد ، رسالة لا تعرف حدودا جغرافية ، ولا تعترف بفروق فى الجنس واللون . . .

لقد كان هدف سلفنا الصالح من توحيدنا على مذهب واحد ، هو صهر كياننا فى بوتقة واحدة امام كل تهديد سواء اكان ذات التهديد صيليبا كما كان ، او ايديولوجيا كما يكون . . .

وكما كانت وحدتنا الدينية بالامس ضمانا لنجاحنا في مسيرتنا ،  
فستظل وحدتنا اليوم بشيرا لتوفيقنا ونصرتنا وظفرنا ... وسيكون  
علينا ان نذكر اسم الامام مالك ضمن اسماء الشخصيات البارزة التي  
كان لها اثر قوي على صنع تاريخ المغرب ، سنذكر اسمه لزوما ، كما  
نذكر اسم بطل وقعة الزلاقة ، ووقعة وادي المخازن ... كما نذكر اسم  
بطل الاستقلال ورائد المسيرة الخضراء ... الكل وعلى مستوى عال  
له في هذا المغرب وجود ، والكل له على هذا المغرب يد ..

واذا كان المغرب قد اتخذ ويتخذ من هذا المذهب دثاره وشعاره ،  
واذا كان يعتز برجاله هذا المذهب على انهم رجاله وقادته ، فمن  
حق العالم الاسلامي ان يتذكر ان الفضل في صعود الاسلام بهذا الجناح  
من ذلك العالم ، يرجع لاولئك الحماة الاوفياء الشرفاء الذين ادوا الرسالة  
في البداية وما يزال ابناءؤهم يشقون بها الطريق الى النهاية ...

حدثني عن مالك انه بلغه ان لقمان الحكيم اوصى ابنه  
فقال يا بني جالس العلماء وزاحمهم بركبتك فان الله يحيي  
القلوب بنور الحكمة كما يحيي الله الارض الميتة بوابل  
السماء .

- الامام مالك بن انس -

**الاستاذ عبد العزيز بن عبد الله**

محصل على اجازة فى الحقوق  
متخصص فى الشريعة والحقوق والتاريخ .

( الملكة المفريية )

*Handwritten text, possibly a title or header, centered on the page.*

## الفقه المالكي والوحدة المذهبية بين المغرب وصحرائه

بقلم : الاستاذ عبد العزيز بنعبد الله

ان من تتبع بدقة شبكة تطور الفكر المذهبي في افريقيا ، يلاحظ باندهاش ان خطوط هذه الشبكة وحدودها تعانق اطراف خريطة واسعة ترسم اجزاء المغرب بسهوله وجباله وصحرائه ، فلننظر الى خريطة افريقيا ولنتابع كيف دحن المذهب المالكي ، وكيف تطور ، ولماذا اختار بعض المناطق أو اختارته دون غيره . . ولماذا عانق هذا الاختيار بدقة علمية متناهية يقف امامها العالم الجغرافي مشدوها .

ويمكن رسم معالم هذا الخط على المراحل الآتية :

ان منبع الالهام الفقهي والاصولي انبثق من مصدر الاسلام الاول ، وهو مدينة الرسول عليه السلام ، وقد كان هذا العامل ، اول باعث على اختيارات المغاربة في مذهب الامام مالك لسببين هما : ان المدينة المنورة هي اطار هذا المذهب ولان عمل اهل المدينة هو منبعه ومثاره ، واذا اعتبرنا ان المغرب عاش فترة مخاض في تاريخه سماها ( كويتي ) بالصور الفاضلة تارجع خلالها بين مذاهب ابي حنيفة والشافعي والاوزاعي وبعض الاتجاهات الخارجية والرافضية ، فان نهاية القرن الرابع كانت بداية استقرار في الاعتبار والانتشار بالمغرب ، وحتى في هذه الفترة ، وبالنسبة ايضا ، لمذهب الخوارج ، فاننا نلاحظ ان المدينة المنورة كانت مصدر الالهام ، حيث توجه العالم ( سمكن بن واسول ) والد لمير سجلماسة المدراري الى المدينة المنورة لآخذ اصول العقيدة

الخارجية عن عكرمة مولى عبد الله بن عباس ، ومع ذلك فقد شعرت الدولة المدراية التي تأسست عام 140 هـ / 757 م أنها على غير صواب ، فاختار أميرها ( الشاكر لدين الله ) في منتصف القرن الرابع ، مذهب مالك ، مستعيضا باتجاهه الوجدوي عن البط الفكري الذي عاشت فيه الصحراء آنذاك نحو من قرنين ، ولم يكد ينتصف القرن الخامس حتى هب الملمثون من الصحراء في حركة تآزرت تلقائيا مع الاتجاه العام الذي كان سائدا آنذاك في المغرب والاندلس ، فاستأصلوا الشيعة الموسويين في اغمات والروافض بالاطلس الكبير ( حسب البكري وابن حوقل ) والبحليين ( بماسة وتارودانت ) كما قضوا على النحلة البرغواطية التي انحدرت من فكرة خارجية شرقية دخيلة تمكنت الى الآن في الجزائر وتونس ، بالاضافة الى مذهب الامامين ، الشافعي وأبي حنيفة .

وفى نفس الوقت كانت فاس ملتقى لمذاهب السنة وخاصة مذهب الامام مالك الذي اقام أصله المولى ادريس الاكبر باسناد منصب القضاء لأول شخصية عربية هي محمد بن سعيد القبسي تلميذ الامام مالك ، وسفيان الثوري . ( الجنوة ص 13 ) .

وإذا كانت هناك في المغرب مظاهر خارجة عن مذهب مالك ، فانما هي اختيارات حرة استمرت الى القرن الرابع ، حيث أصبحت ( جامعة القرويين ) منبع المعرفة المقارنة في افريقيا ( جامعة الازهر ) بمائة عام ، وقد نقل ( أبو جيدة الفاسي ) من الشرق وثائق شافعية ، وقد توفي عام 360 هـ / 970 م ( السلوة ج 3 ص 13 ) . والواقع أن مدينة فاس بفضل مؤسسها المولى ادريس الذي يعتبر أول وآخر مثال في تاريخ الانسانية لرجل دخل وحيدا فريدا عدا مولاه راشد فالتفت حوله ( عام 177 هـ / 793 م ) قبائل البربر عن بكرة ابيها كما قال ابن خلدون وهي المستعصية التي لم ترضخ قبل ذلك لاحد وتمزز ذلك منذ تأسيس القرويين بالتفاف قرطبة والقيروان حول فاس ، حيث هاجرت أربعمائة أسرة قيروانية مثل آل الفهرس الذين أسسوا جامعة القرويين وثمانية آلاف عائلة ( او ثمانمائة في رواية أخرى ) من قرطبة بعد ( ثورة الربضيين ) ،

وكان ذلك بزعامة رجل بربري من طنجة من قبيلة نفزة ، وهو يحيى بن يحيى الليثي المتوفى عام 234 هـ / 848 م . وقد سمع الموطن مالك وسفيان بن عيينة ( التهذيب ج 11 ص 300 / النسخ ج 1 ص 332 / ابن خلكان ج 2 ص 216 / جلوة المقتبس ص 359 / المغرب ج 1 ص 163 / ابن الفرصي ص 44 / الديباج ص 350 ) . ومن الغريب أن كلام ابن الأندلس والمغرب أتجها نفس الاتجاه حيث ألزم هشام بن عبد الرحمن الأموي كافة أهل العدة الشمالية بمذهب مالك ، وذلك بدعوة من يحيى الليثي النفزاوي ، ونفزة يرجع إليها نسب ابن أبي زيد القيرواني ، وآل بناني ، وأول من نزل منهم بالصحراء في القرن الخامس هو محمد الصديق بناني ، حيث توغل داخل الصحراء إلى السودان . وتتشخص قبيلة نفزة الصحراوية في زينب بنت اسحاق النفزاوي الهوارة التي كانت زوجة أبي بكر بن عمر الكدالي ثم يوسف بن تاشفين بعده .

فمذهب مالك تعزز أذن في الأندلس بحركة نابغة من المغرب في شخص يحيى الليثي الذي كان قاضي القضاة عند الأمويين ، كما تعزز في أفريقيا بفضل مرونة سحنون ( الجذوة ص 360 ) بالإضافة إلى الاعتراف بالجميل للإمام مالك الذي ساند العلويين ضد خصومهم العباسيين ببغداد ، ولم يكد المرابطون يدخلون مدينة فاس خلال القرن الخامس ، حتى اتجهوا في تعزيز جامعة القرويين ، فوسعوا بلاطاتها ، وأوصلوها إلى ما هي عليه الآن مندهشين مما لاحظوه من تقاطر رواد المعرفة والفكر عليها من الأندلس وأفريقيا الشمالية ، حيث تجلت وحدة الفكر المذهبي في مظاهر مختلفة ، كان أقلها الاستناد في قراءة القرآن منذ القرن الرابع إلى قراءة نافع ، وكذلك على عملية الوقف الهبطي تبسيطا لتلقين القرآن في الكتابات التي كانت مجرد جناح في المسجد ، امتد إلى الصحراء بنفس الاسم ، حتى سميت قرية في شنقيط بالأمسيد في حين أن الكلمة المستعملة في الشرق ، هي الكتاب ، وفي السودان الشرقي الخلوة .

ولا يخفى أن العالم ( ميمون الصحراوي ) المتوفى 506 هـ ( وقيل 530 هـ حسب ابن الأبار ) هو شيخ القاضي عياض ( الإعلام للمراكشي

ج 7 ص 239 ) امام المذهب المالكي في المغرب وصاحب ( المدارك ) التي هي سجل رجالات المذهب ، حيث نوه بانتشاره آنذاك ( ص 65 ) في المغرب الاقصى والصحراء الى بلاد من اسلم من السودان باستثناء المغرب الاوسط الذي كانت فرق الخوارج الصفرية والاباضية قد تغلفت فيه وخاصة في بلاد الزاب وحول تلمسان وتاهرت .

وقد كان تمسك الصحراء بمذهب الامام مالك اوثق وابلغ ، اذ عن طريق هذا المذهب تأسست الدولة المرابطية منبثقة من الصحراء بدافع من ( واجاج بن زلو ) الذي اختار ( عبد الله بن ياسين ) بايعاز من ( ابي عمران الفاسي ) امام المذهب في تونس ، ولذلك كان اهل الصحراء يهتمون بحفظ شيئين اثنين في مقدمة ما يحفظون ، وهما : كتاب الله بقراءة نافع ووقف ابي جمعة الهبطي ، ومدونة سحنون ، حتى ذكر اليوسي من رجال القرن الحادي عشر في حديثه عن الرجراجيين ان اهل ( ذغوغ ) الذين انتشروا في المغرب وصحرائه كان يحفظ المدونة منهم عن ظهر قلب 6760 من الرجال ، وخمسائة من النساء ( المعسول ج 4 ص 9 ) ورغم ما قد يكون في ذلك من افعال فهو يعطينا صورة عن قوة مذهب مالك في الصحراء ، وقد ذكر المؤرخون ايضا ان اهل رجراجة في الساقية الحمراء وما والاها حفظ منهم القرءان والمدونة ثلاثمائة امرأة . وقد شاهدت في ارباض ( تافراوت ) قبور عشرين امرأة ممن كن يحفظن المدونة ، ومعلوم ان ( العتبية ) التي انتشرت في المغرب وصحرائه صنفتها محمد ابن احمد بن عبد العزيز العتبي ، تلميذ يحيى بن يحيى الليثي وان كان ايضا تتلمذ لسحنون .

وقد اختلفت الرواية الفقهية عن صاحب مالك بن انس الاساسي ، وهو عبد الرحمن بن القاسم ، فاسد بن الفرات ، اخذ عنه اجوبة المدونة من حفظه ثم اخذها عنه سحنون بعد ذلك ، وقد رجع عن الكثير مما كان قد اجاب به اسد بن الفرات الذي كتب له ابن القاسم ان يصلح اسديته على ما عند سحنون .

اما ( العتبية ) التي هي كتاب « المستخرجة من الاسمعة » فقد جمعها محمد بن احمد العتبي القرطبي ( 255 هـ / 868 م ) من احد عشر سماعا ، منها سماع ابن القاسم واشهب وابن نافع اصحاب مالك ثم ابن وهب والليثي وابن مرتيل وسحنون وابن اصبغ ( من الثمانية وكلهم عن ابن القاسم ) .

وقد تناول ابن رشد الجده هذه ( العتبية ) بالبيان والشرح والتعليل والتوجيه والتأويل والتحصيل في كتابه ( البيان والتحصيل ) ، فالتحصيل جمع نتائج العمليات السابقة في عبارات قليلة واضحة تلخص الاحكام ، وقد حظي هذا الكتاب بعناية كبرى ، فتبناه خليل في مختصره ، وقد اخذه بالاجازة من ابن المؤلف ابو القاسم عبد الرحمن بن عيسى الفاسي ( ابن الملجوم ) ( 836 هـ ) واختصره ، كما شرحه ابو ابراهيم بن قائد بن موسى الزواوي القسطنطيني ( 857 هـ ) في كتابه ( الجامع الكبير ) واعتنى به السلطان سيدي محمد بن عبد الله حيث كون لجنة عام 1174 هـ لنشر الكتاب وتصحيحه ، تكونت من السادة محمد التاودي بن سودة وعمر بن عبد الله الفاسي ومحمد بن عبد القادر الفاسي وعبد القادر بوخريص ، وانجزت الكتاب في 20 مجلدا بخط احمد الغزال .

فلاسدية اذن هي اصل المدونة جمعها اسد بن الفرات ( 213 هـ / 828 م ) عندما ذهب الى العراق ، فدون ما سمعه من المسائل الفقهية على طريقة العراقيين ثم لقي اصحاب مالك كابن القاسم ( 191 هـ ) فاضاف اجوبة عن هذه المسائل التي هي تفرعات وفروض ، في حين ان الفقه المالكي كان يقتصر على النوازل ، ثم اخذ ( سحنون ) المدونة وعاد بها الى مصر وعرضها على ابن القاسم ، واصلح فيها مسائل ورتبها وبوبها واحتج لبعضها بالاثار والاحاديث ، وحتى ابن الفرات تراجع عن اجتهاداته الواضحة .

ولعبد الملك بن حبيب ( الواضحة ) وهي اصل ( العتبية ) استخرج فيها المعاني والقواعد التي قامت عليها الفروع . ولم يكن عالما بالحديث ومعرفة صحيحه من سقيم ، لهذا اهتم بالفروع اكثر من الاصول .

والعتبية هي لمحمد بن عتياب ( 255 هـ ) وتسمى المستخرجة جمعها من عدة مصادر ( ابن القاسم وأشهب والليثي وشبظون والواضحة وكلها كتب مسائل ونوازل ) وأكثر فيها من المسائل الشاذة ، لذلك قال محمد بن وضاح بأن في المستخرجة خطأ كثيرا ، وقد تناول البيان والشرح والتعليل والتوجيه والتحصيل لابن رشد الجد مسائل المذهب حسبما ورد في المستخرجة دون تأصيل من الكتاب والسنة .

وقد شرحها واختصرها محمد بن عبد السلام سحنون ( 256 هـ / ولخصها ابن أبي زيد القيرواني ( مالك الاصر وقطب المذهب ( 386 هـ ) في كتابه ( المختصر ) و ( النوادر والزيادات على المدونة ) ( أزيد من مائة جزء ) .

ثم اختصر ( البرادعي ) كتاب النوادر في كتابه ( التهذيب ) الذي جمع فيه 36.000 مسألة اتقن ترتيبها وتبويبها .

ثم جاء ابن يونس التميمي ( 451 هـ ) فنقل معظم ما في ( النوادر ) وغيره من الامهات في كتابه في ( الفقه ) المسمى ( مصحف المذهب ) وهو احد المصادر الاربعة التي اعتمدها خليل في مختصره . وقد شعر فقهاء المغرب والاندلس بأن الفكر المالكي بدأ ينزلق في تفرعاته خارج نطاق الاصلين وأحس بابتعاد الفقهاء عن التشريع الاسلامي الاصيل امثال قاسم بن سيار الاندلسي ( 276 هـ ) الذي ألف في الرد على العتبي وابن مزين كما قام محمد بن وضاح وبقي بن مخلد وعباس الفارسي القيرواني المحدث ( الذي احرق بنفسه المدونة وكتب الرأي وسط القيروان ، اوائل القرن الثالث الهجري حتى ادبه اسد بن الفرات ( المدارك ج 3 ص 300 ط . وزارة الاوقاف بالرباط ) وسعيد بن الحيداد القيرواني ( 330 هـ ) وأبو بكر بن العربي ( 543 هـ ) في القواصم والعواصم وابن عبد البر .

ومهما يكن فقد وصلت المدونة الى المغرب الاقصى عن طريق  
دراى بن اسماعيل الفاسى « وهى اصل المذهب المرجح روايتها على  
غيرها عند المغاربة وايها اختصر مختصروهم وشرح شارحوهم ، وبها  
مناظراتهم ومذاكرتهم » ( المدارك ج 2 ص 472 ) .

سمع ابن العجوز عبد الرحيم بن احمد الكتامى ( 413 هـ / 1022م )  
مختصر المدونة عن ابن ابي زيد القيروانى ( المدارك ج 4 ص 720 /  
الديباج ص 139 ) .

وقد ذكر عياض ان مختصر المدونة والنوادر وكلاهما لابن ابي زيد  
القيروانى ، عليهما المعول بالمغرب فى التفقه ( المدارك ج 4 ص 494 )  
( توجد نسخة من النوادر بخزانة جامعة القرويين ) .

وكان ابن بشكوال محمد بن يوسف بن الفخار يحفظ المدونة  
والنوادر ويوردها من صدره ( راجع ابن بشكوال ) .

ولابراهيم بن عبد الرحمن التسولى التازى ( 747 هـ / 1346 م  
تقييد على المدونة ) جمعه من تقريرات شيخه ابي الحسن الزرديلى .

( ايضاح المكنون لشرح مدونة سحنون ) لعلي بن عبد الحق  
الزردىلى ابي الحسن الصغير ( 719 هـ / 1319 م ) . ( المكتبة الوطنية  
بتونس ( 95 م ) .

وذكر ابن مرزوق الحفيد ان تقييد الشيخ عبد العزيز بن محمد  
القورى الفاسى ( 750 هـ / 1349 م ) صاحب الشيخ ابي الحسن  
الصغير - على المدونة من احسن التقييد . كما ان اعلم الناس بالمدونة  
هو عبد المومن بن محمد الجناتى ابو فارس الفاسى ( 746 هـ / 1345 م )  
( النيل ص 156 ) .

وقد شرح المدونة او قيد عليها علماء افذاذ ، منهم :  
ابراهيم الاعرج البادسى .

- تعليق على المدونة لابي بكر عثمان بن مالك زعيم فقهاء المغرب .
- ( طرر على المدونة ) لابن مطر الوريغلي ابي اسحاق الاعرج ( 683 هـ / 1284 م ) .
- ابو عمران موسى بن ابي علي الزياتي الزموري نزيل مراكش ( 702 هـ / 1302 م ) .
- ابو عمران الفاسي : ( مسائل فقهية مختصرة من المدونة ) ( خع 1839 د ) ( م = 17 - 52 ) ( خاصة حول تزويج المرأة ) .
- ( شرح بعض المدونة ) لاحمد بن علي بن قاسم الزقاق ( 932 هـ / 1525 م ) .
- تقييد على تهذيب المدونة لابي سعيد خلف بن ابي القاسم الازدي البرادعي لعلي بن محمد الصغير الزرويلي المعروف عند المشاركة بالمغربي ( 719 هـ / 1319 م ) نسختان بدار الكتب الوطنية بتونس . ( ق . 232 س 31 / ق . 200 س 31 / ق . 277 س 31 / ق . 232 الى 256 - س . 22 )
- وذكر صاحب الدوحة ( ص 2 ط . فاس ) ان له شرحا على المدونة واسم كتاب البرادعي ( تهذيب مسائل المدونة ) خع 1989 د ( 307 ص - الجزء الاول فقط ) .
- راشد بن ابي رشاد الوليدي ( الجدوة ص 123 / نيل الابتهاج ص 101 ) .
- ( تقييد على المدونة ) لعبد العزيز بن محمد القروي الفاسي ( 750 هـ / 1349 م ) قيده عن ابي الحسن الصغير ( الجدوة ص 269 ) .
- عبد الله بن ابي زيد القيرواني صاحب كتاب النوادر والزيادات على المدونة حيث لخص مذهب مالك ، توفي بتونس ( 386 هـ / 997 م )

( خع 731 - 1 د / خق ل 40 - 793 / شجرة النور ص 96 /  
تذكرة الحفاظ ص 1021 ) .

— ( شرح المدونة ) لعبد الله بن اسماعيل الاشبيلي قاضي اغمات  
ومراكش كان يميل في فقهه الى النظر واتباع الحديث ( 497 هـ /  
1103 م ) . املاها عبد الله الفاسي التادلي من حفظه ( كان يقرئ  
عام 623 هـ / 1226 م ) ( النيل ص 118 ) .

— ( مناهج التحصيل ونتائج لطائف التأويل في شرح مشكلات المدونة )  
لعلي بن سعيد الرجرجي ( خق = ق 88 ) ( الجزآن الاول والرابع )  
نسبه بروكلمان في تاريخه ( ج 3 ص 282 ) الى ابن رشد الجد .

— شرح على المدونة للقاضي عياض يسمى ( مناهج التحصيل ) لخص  
فيه ما وضع للائمة من التأويلات واعتمد على كلام ابن رشد الجد  
وتخریجات اللخمي .

— ( تعليق على المدونة ) لمحمد بن سليمان السطي ( 750 هـ / 1349 م )

— ( تعاليق على شرح المدونة ) لابي الحسن الصغير بقلم محمد بن  
عبد العزيز التازغدري مفتي فاس ومشاور الدولة ( 833 هـ /  
1428 م ) ( الجلوة ص 148 ) .

آخر حفاظها بفاس امام الجماعة محمد بن قاسم القروي ( 872 هـ /  
1467 م ) .

— شرح المدونة لموسى بن ابي علي الزناتي الزموري ( 702 هـ / 1302 م )

— ( مسائل فقهية مختصرة من المدونة ) خع 1839 د ( م = 17 - 52 )  
لموسى بن محمد بن معطي العبدوسي مفتي فاس وشيخ ابن قنفذ .

— الامام المازي - توجد نسخة من شرحه للمدونة ( 279 ص ) هي  
من نوادر المخطوطات في ( خع 150 د ) عشر عليها في الزاوية  
الناصرية بتامكروت .

ذكر حسن حسني عبد الوهاب في كتيبه حول الامام المازري ( ص 63 ) ان بمكتبة القرويين جزءاً فريداً منه ، وقد لاحظ محمد ابراهيم الكتاني ان هذا الجزء غير موجود على ما يظهر نظراً لعدم اباته في برنامج كتب القرويين . وقد احرقها الموحدون ( النيل ص 118 ) ، وعندما احرقوها املاها من حفظة علي بن عشرين الحافظ ( الاعلام للمراكشي ج 8 ص 311 ( تح ) .

وإذا حاولنا ان نستعرض الحجج الشاهدة بمدى تغفل مذهب مالك في الصحراء انطلاقاً من جامعة القرويين ، فلن تكفيها مئات الصفحات ولدي من ذلك قوائم مدرجة في كتابي « معلمة الفقه المالكي بالمغرب » . ولنضرب لذلك امثلة بسيطة في خصوص مصنفات أصبحت تشكل المصادر الكلاسيكية للفقه المالكي بالمغرب وهي مختصر الشيخ خليل وتحفة ابن عاصم ولامية الزقاق ( خع 1360 د ) .

فقد شرح مختصر خليل احمد بن بابا السوداني التنبكتي ومحمد بن عبد الكريم التواتي ، كما ألف الاول في مبهمات خليل ( مخطوط في خم 4975 ) وشرح صغرى السنوسي في عقيدة المذهب ، وقد نظم محمد يحيى الولاتي ( منهج الزقاق ) وشرح محمد بن محمد الدليمي لاميته ( خم 8921 ) ( خع 2140 د ) وشرح بابا بن احمد يبا الشنجيطي ( التحفة العاصمية ) وألف محمد بابا الصحراوي كتاباً في الاصول لدعم مذهب مالك ، وكان محمد بن يوسف الركاثي مرجع الصحراء في فقه مالك ، حيث كان لا يجاري في الفتاوي في فقه المذهب ، وهو خريج القرويين ، ومن اخوته الخليل الفقيه المشهور في القضاء والفتوى ، ومن تخرج في القرويين ايضاً الشيخ عبد الرحمن بن احمد الشنجيطي المتوفى عام 1224 هـ / 1809 م ، وقد برز في المذهب على أهل عصره ، وكان شيخ الجماعة بفايس مدة اقامته بها ، ومعلوم انه عن طريق الشيخ ابي بكر بن عبد الرحمن القندوسي المتوفى عام 1244 م انطلق الاسناد لكثير من العلوم الشرعية وخاصة في مذهب مالك في الصحراء وحدها ، بل حتى في شمال المغرب عن طريق المسند الفقيه السيد التهامي ابن رحمون .

وحتى بين النساء نجد العديداً مثل الغالية بنت ابراهيم السباعية التي تخرجت في الحوض بالصحراء والتي كانت تحفظ مختصر خليل ، وكان لها باع طويل في فقه المذهب وخاصة الفرائض ، وقد تمسك ولدها الحاج عبد الله الجراري بمذهب مالك رغم دراسته في الازهر حيث عاد الى طرفاية عام ( 1311 هـ / 1893 م ) بعد ان اقام في رواق المفاربة وجال في الافغان والهند والاستانة ، وكانت شيخات العلم تدرسن مختصر خليل لجموع النساء كالعالمة الكنتية زوجة الشيخ المختار التي ختمت المختصر في درس خاص بالنساء ، في نفس الوقت الذي ختم زوجها درسه للرجال ، وقد ألف فيهما ولدهما العلامة محمد بن الشيخ المختار كتابه « الطريفة والتالدة في مناقب الشيخ الوالد والشيخة الوالدة » ويوجد بخزانة جامعة القرويين ( خق ل 40 / 779 ) في مجلدين لوثائق فقهية في شأن أصول أملاك المرابيح قرب وادي كير والساورة على مذهب مالك ، وذلك من قبل زوجة المولى اسماعيل أم مولاي زيدان عام ( 1111 هـ / 1699 م ) .

وإذا راجعنا لائحة الكتب الدراسية التي كانت مرجع فقهاء الصحراء نجدها لا تختلف عنها في جامعة القرويين ، وقد أعطانا أحمد بابا السوداني في ترجمته عن نفسه صورة لذلك ( كفاية المحتاج ، والاعلام للمراكشي ج 2 ص 100 ) ، كما تتجلى وحدة المنهجية وطرق التدريس بين السهول والصحراء في المغرب الوالد فيما كتب من دراسات في الموضوع ( المعسول ج 13 ص 10 ) ، ومن ذلك أن الطلبة كانوا يكتبون في مجموع المغرب أسفل ألواح القراءة متون للمرشد المعين والمختصر والتحفة في مذهب مالك .

وكان ملوك المغرب وخاصة العلويين الاماجد يستعينون برجال الفتوى من علماء المذهب في الصحراء ، مثال ذلك محمد البوهالي الركائبي الذي استقدمه جلاله الحسن الاول عام ( 1291 هـ / 1874 م ) . وعاش في بلاطه عشر سنوات ثم عاد الى باعمرانة وباقي الصحراء مزودا بتكوين اقوى في مدرسة القصر العامر التي كانت منبرا يتبارى فيه كبار

العلماء وخاصة فى المجالس الملوكية ، وكان التبادل موصولا يدل عليه وجود قضاء صحراويين متعددين فى الحواضر ، مثل عثمان التواتي قاضي سلا المتوفى عام 1158 هـ ، ومعلوم أن العمل السجلماسي فى تدوين ما جرىات فقه المذهب يعزز العمل الفاسي ، وكلاهما مستعمل فى السهول والجبال والصحراء الى حدود النيجر ، لان قاضي تارودانت عاصمة سوس ، كان هو قاضي القضاة ينسحب نظره على كل قبائل الصحراء التي كانت تشكل كما يقول سيدي العربي بن السائح فى بيته ( ص 74 ) بلدا هو أقصى المغرب . ومن هؤلاء محمد بن أبي بكر الاقاوي الذي تولى القضاء بظهير شريف مؤرخ ب 1124 هـ كقاض للقضاة ومفتي اكبر فى تخوم الصحراء ، وقد تحدث صاحب كتاب « أربعة قرون من تاريخ الصحراء » الاستاذ مارتان عن ظواهر تعيين القضاة فى الصحراء الشرقية طوال أربعة قرون ( راجع خاصة القضاء فى توات ص 314 ) ، ومنهم أيضا أحمد دوكتا بن محمد المختار مفتي تيندوف الذي كان مرجع الصحراء كلها فى الفتيا ، ومن مظاهر اعتزاز فقهاء الصحراء بالمذهب المالكي أنهم كونوا ما سموه بطريق الفقهاء ، وهي سبيل الحجيج من مصر الى المغرب تمر عن طريق فزان وتوات لا عن الجزائر ( راجع رحلة ابن مليح التي أشار اليها صاحب الاعلام ج 4 ص 276 ) .

وهناك مئات اعلام الفقه المالكي من المغاربة عينوا قضاة فى حواضر الشرق العربي كقضاة مالكية ، نظرا لما عرف به علماء المغرب سهولا وصحراء من ضلعة وعمق فى هذا المذهب بين اخوانهم المالكية فى العالم الاسلامي ، وقد تولى يونس بن طرية القصري ( قصر كتامة ) قضاء طرابلس الغرب ، كما تولى التدريس بدار الحديث الكاملية بالقاهرة عام ( 641 هـ / 1243 م ) . ( تكملة الصلوة لابن الأبار ج 3 ص 741 ) .  
ولدينا قائمة لهؤلاء العلماء الذين تولوا القضاء أو تدريس الفقه المالكي فى الشــــرق .

الاستاذ ابراهيم صالح الحسيني

محصل على الاجازة العلمية فى الشريعة الاسلامية من الازهر .

( نيجيريا )

1870

1870

1870

## الامام مالك ، امام دار الهجرة ، واثره فى تطور القضايا التشريعية

بقلم : الشيخ ابراهيم صالح بن يونس الحسيني

الحمد لله ، والصلاة على سيدنا محمد رسول الله ، وعلى آله وصحبه  
وتابعيهم باحسان الى يوم الدين .

هو امام دار الهجرة ، مالك بن انس بن مالك بن ابي عامر بن عمرو  
الاصبحي ، نسبة الى ذي اصبح الحارث ابن عوف ، قبيلة كبيرة  
ينتسب اليها بعض ذوات اليمن .

ولد الامام رضي الله عنه عام 93 فى منطقة على مبعدة من المدينة  
عرفت بوادي المروة ، وكان ابوه يعمل فى صناعة النيل ، وكان جده مالك  
ابن ابي عامر تابعيا محدثا ، يروي عن معمر وطلحة وعائشة وابي هريرة  
وعثمان رضي الله عنهم ، وكان يكتب المصاحف ايام عثمان على ما قال  
الطبري ، ولما قتل عثمان سيطر القتلة على المدينة فتأخر دفنه ، اذ هاب  
الناس بطش الارهايين ، فتصدى لدفنه جماعة من اهل الشجاعة والفتوة  
فيهم جد الامام رضي الله عنه مالك بن ابي عامر هذا ، كما كان عمه ابو  
سهيل ابن مالك ، من اخوة اربعة يروون العلم عن ابيهم ، وكان هو وابوه  
يدخلان على عمر بن عبد العزيز ايام خلافته ، وكان مالك يروي عن عمه ابي  
سهيل ، كما كان ابن شهاب القرني شيخ المدينة ، وشيخ مالك بن انس يروي  
عنه ، ويقال ان اول من قدم الى المدينة من اسلافه هو مالك بن ابي عامر

وقيل أبو عامر بن عمر ، وهو الذي قدم من اليمن على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فكان من أجلاء الصحابة الذين شاركوا في جميع الغزوات سوى بدر ، لأنها وقعت قبل قدومه .

ومن هذا البيت خرج مالك بن انس ، عالم المدينة وأمام دار الهجرة ، والذي يقول فيه الشافعي ، مالك حجة الله تعالى على خلقه . ويقول مالك معلني وعنه أخذت العلم ، وقال اذا جاءك الحديث عن مالك فشد به يدك واذا جاء الاثر فمالك النجم ، ويروى : اذا ذكر العلماء فمالك النجم . وقال ابن عيينة : انا كنا نتبع آثار مالك وننظر الى الشيخ ان كتب عنه وان تركناه .

وهكذا تتوارد شهادات رجال العلم والمعرفة لئمالك ناصر السنة ، ورافع رايتها ، وارث علم الحجاز ، وستاتي الكثير من الشهادات اثناء الحديث عنه ان شاء الله .

### مبدأ امره :

عند ما انتقل مالك من وادي المروة الى العقيق بقرب المدينة، عاش مع اخ له من تجارة البز بمبلغ ضئيل قدره أربعمائة دينار ، حتى وجهته امه الى كتاب بني تيم فحفظ القرآن على قارىء المدينة ، اول السبعة ، القراء ، الامام نافع بن عبد الرحمن ، بن أبي نعيم ، مولى بني تيم ، ثم وجهته الى أشهر فقهاء آل تيم آنذاك ، وهو ربيعة بن أبي عبد الرحمن بن هرمز مدة طويلة لم يخلطه فيها بغيره وتأثر بحكمته كما سيأتي .

وقد اعتزل مجلس ربيعة آخر الامر ، من أجل المسائل التي انتقدها عليه كثير من تلامذته كما جاء واضحا في رسالة الليث بن سعد الى مالك حيث جاء في تلك الرسالة : وكان خلاف ربيعة لبعض ما قد مضى ما قد عرفت وحضرت وسمعت قولك فيه ، وقول ذي الراي من أهل المدينة يحيى بن سعيد، وعبيد الله بن عمر، وكثير بن قرقد، وغيرهم كثير ، ممن هو أسن منه ، حتى اضطرك ما كرهت من ذلك الى فراق مجلسه، وذاكرتك أنت وعبد العزيز بن عبد الله بعض ما نعت به على ربيعة من ذلك ، فكنتما من الموافقين فيما انكرت ، تکرهان منه ما اكرهه ، ومع ذلك بحمد الله عند

بيعة خير كثير ، وعقل اصيل، ولسان بليغ، وفضل مستبين، وطريقة حسنة في الاسلام، ومودة صادقة لآخوانه عامة، ولنا خاصة، رحمه الله وغفر له وجزاه بأحسن من عمله . ومن شيوخه أيضا ، محمد بن المنكدر ، وكان لا يكاد يسأله أحد عن حديث الا بكى ، يقول مالك : كنت اذا وجدت من نفسي قسوة آتي ابن المنكدر ، فأنظر اليه فأبفض نفسي اياما ، ثم أتجه الى الاخذ عن الامام جعفر بن محمد الصادق ، فلأزمه حتى اشتهر بالانتساب اليه والاخذ عنه ، وكان مالك يقول : كنت أرى جعفر بن محمد وكان كثير الرعاية والتبسم ، فاذا ذكر عنده جده النبي صلى الله عليه وسلم أخضر وأصفر ، ولقد اختلفت اليه زمانا وما رأيت يحدت عن رسول الله الا على طهارة ، ولا يتكلم فيما لا يعنيه ، وكان من العلماء والعباد والزهاد ، الذين يخشون الله ، وما آتيته قط ، الا ويخرج الوسادة من تحته ويجعلها تحتي، وعلى كل ، فقد أخذ مالك عن خيار أهل زمانه ، فأكثر عن أهل العلم والفضل والعرفه ، حتى كان أخذه عن شيخ بمثابة توثيق لذلك الشيخ ، ومما يدل على توسعه في الاخذ مع التحرك التام ، ما نقله السيوطي عن الدولقي : أخذ مالك عن تسعمائة شيخ ، ثلاثمائة من التابعين ، وستمائة من تابعيهم ممن اختاره وأرضاه ، لدينه وفهمه وقيامه بحق الرواية وشروطها، وسكنت النفس اليه ، وترك الرواية عن أهل دين وصلاح لا يعرفون بالرواية . قال السيوطي : ومن الاعلام الذين روى عنهم نافع، مولى ابن عمر وزيد بن أسلم والزهري وأبو الزناد - وقد تقدما - وعبد الرحمن ابن القاسم بن محمد ابن أبي بكر الصديق، وأبوب السخثياني، وثور بن زيد الديلي، وإبراهيم ابن أبي عبلة المقدسي وحميد الطويل . ثم ذكر ربيعة وهشام ابن عروة ويحيى ابن سعيد الأنصاري ، وعائشة بنت سعيد ابن أبي وعاص ، وخلق ، قال : وروى عنه كثير من شيوخه، كالزهري، ويحيى بن سعيد الأنصاري، بل قيل ان مالكا ما روى عن أحد الا روى عنه ذلك الشيخ بعد ذلك ، الا نافع بن أبي نعيم المقرئ .

### انعقاد الإجماع على امامة مالك :

ولقد انعقد إجماع علماء الأمة على امامة مالك وجلالة قدره وثقته وامامته ، حتى قال وهيب ليحيى بن حسان : ما بين شرقها وغربها أحد آمن عندنا على العلم من مالك ، والعرض على مالك أحب الي من السماع من

غيره . وقال ابو مصعب عن مالك رلمه الله ، ما افيتت حتى شهد لى  
سبعون محنكا انى اهل لذلك .

وقد اتفق على ذلك شيوخه واقرانه ومن جاء بعدهم . وقد اشتهر  
عند المحدثين أن اصح استاذ هو مالك ، عن نافع ، عن ابن عمر ، ثم مالك  
عن الزهري ، عن سالم ، عن ابن عمر ، ثم مالك عن ابي الزناد ، عن الاعرج ،  
عن ابي هريرة .

### صفات مجلس مالك :

جلس مالك فى اول امره للدرس فى المسجد ، ثم نقل اخيرا درسه  
الى بيته ، وكان مجلسه مجلس وقار وحلم ، وكل رجلا مهيبا نبىلا ، ليس  
فى مجلسه شىء من المرء واللفظ ، ولا رفع صوت ، اذا سئل عن شىء فاجاب  
سائله ، لم يقل له من أين هذا ، وكان له كاتب قد نسخ كتبه يقال له حبيب  
يقرا للجماعة ، فليس أحد ممن حضر يدنو منه ، ولا ينظر فى كتابه ، ولا  
يستفهمه ، هبة واجلالا، وكان حبيب اذا أخطأ فتح عليه مالك، ولم يكن يقرا  
كتبه على أحد ، وهذه هي عادته ، الا ان يحيى بن بكير ذكر انه سمع الموطأ  
من مالك أربع عشرة مرة ، وزعم ان اكثرها بقراءة مالك ، وبعضها بالقراءة  
عليه انتهى . رواه ابن سعد عن محمد بن عمر الواقدي .

وأخرج الخطيب عن ابراهيم بن هارون الليثي، وكان من جلساء مالك،  
قال : كان مالك لا يحضر مجلسه لفظ ولا لغو ، وكان مهيبا ، اذا سئل عن  
الشىء فاجاب سائله لم يراجعه ، ولم يقل له من أين اتيت ؟ وروي ان  
شاعرا دخل عليه فمدحه فقال :

بدع الجواب فلا يراجع هيبة \* والسائلون نواكس الاذقان  
ادب الوقار وعز سلطان التقى \* فهو المطاع وليس ذا سلطان

واما الآخذون عنه فهم أكثر من أن يحصيهم مقال مختصر ، فقد  
عدد الخطيب منهم تسعمائة وستين تلميذا ، وقيل ألف الا سبعة أنفس  
سرد اسماءهم السيوطى فى كتاب « تزوين الممالك » وزاد عليهم عددا جما .

ونقل عن القاضي عياض انه الف كتابا فى رواية مالك ، ذكر فيه نيفا من الف اسم وثلاثمائة اسم ، انتهى .

ويكفي ان ممن روى عنه أو حضر مجلسه ، الأئمة الثلاثة المجتهدون الامام أو حنيفة ، والامام الشافعي مباشرة ، والامام أحمد بواسطة الشافعي ، واما المختصون بفقته ومذهبه وفتاويه ونقله الى الامصار والاقطار ، فكثيرون وأكثرهم عناية بذلك أصحابه المدنيون والمصريون والعراقيون ، وهكذا عاش مالك حياة عامرة بالجهاد والاصلاح والعمل ، حتى توفي سنة تسع وسبعين ومائة ، وعاش أربعاً وثمانين سنة .

### أثر مالك على الأمة :

ان الامام كما هو معلوم ، لا يمثل فى علمه وفقهه وأثره التشريعي فكره فحسب ، وانما يمثل المدينة المنورة بكل ما تحويه هذه الكلمة من معنى بعيد المرمى ، فالمدينة بعد هجرة الرسول إليها ، واجتماع عشرات الآلاف من أصحابه عليه السلام بها حوله ، يشاركونه فى بناء الأمة الاسلامية ويصاحبونه فى غزواته ورحلاته ، ويضعفون اليه وهو يتلو عليهم آيات الكتاب ، ويعلمهم الحكمة ويزكيهم ، ويوجههم الى ما فيه سعادتهم . وفيهم يقول الرسول صلى الله عليه وسلم : «خير القرون قرني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم» ، لم تبق مدينة عادية ، بل أصبحت هي المركز التشريعي المتكامل ومجتمع السنة العملية بلا شك ، وكان من عناية الله بالامام مالك ، ان نشأ فى هذا الوسط ، وفى هذا الجو الذي صنعه بعد هداية الله تربية محمد ، واشرف محمد ، ومجتمع المدينة وثيق الصلة بسيرة الرسول وسيرة كبار أصحابه ، خاصة الذين قام مذهب مالك عليهم . وهم أبو بكر الصديق ، وعمر الفاروق ، وعلي بن أبي طالب ، فكان وارث علوم أصحاب محمد فى المدينة ، ووارث علم فقهاؤها السبعة ، ويمتاز أهل المدينة باتباع السنن ، وعدم التساهل فيها ، وكان ذلك واضحاً ، فى أسلوب مالك فى الحكم ، والفتوى ، والتعليم . وبما أن عمر بن عبد العزيز أفضل مثال للزعامة والقيادة بعد الخلفاء الراشدين ، تأثر به مالك جداً ، وبذلك يكون الامام مثل فكر المدينة، وكان وسطاً فى كل شيء، فى مأكله ، ومشربه ، وملبسه، فكان كما قيل ، بالاضافة الى ما وهبه الله من بسطة فى الخلق ، وجمال الصورة ،

حسن اللباس ، أتيق المجلس ، فكان يطعم الجيد ويطعمه ، وقد صدق من قال فيه انه قد رزقه الله تعالى قوة وصحة في الجسم ، وعقلا رصينا وذكاء خارقا ، فهو طويل القامة ، عظيم الهامة ، شديد بياض الوجه ، صالحا تقيا مهابا من قبل الجميع ، غير هيب ولا متردد في قول الحق ، ولو أدى ذلك الى تعريض نفسه للاذى ، متشددا في متابعة السنة ، لا يتسامح حتى في صغير الامور ، ويقول : أخشى ان تكون المخالفة فتنة ، يشير بذلك الى قوله تعالى : « فليحذر الذين يخالفون عن أمره ان تصيبهم فتنة او يصيبهم عذاب اليم » حتى قال فى التثويب انه ضلال مع خفة الامر فيه .

### تسامح مالك رحمه الله مع علماء الامة :

كان لا يرى أن الخلاف بين علماء الامة بسبب الادلة الواصلة اليهم عن الرسول صلى الله عليه وسلم ، موجب للعداء او التفكير ، لذا لما عرض له أبو جعفر المنصور ، حمل الناس على فقهه وموطأه، رفض هذا العرض . فقد روى ابن سعد عن الواقدي ، انه سمع مالكا يقول : لما حج أبو جعفر دعاني فدخلت عليه وحدثته ، وسألني فأجبتة ، فقال اني عزمتم أن أمر بكتابتك الذي وضعته - يعني الموطأ - فينسخ نسخا ثم أبعث الى كل مصر من أمصار المسلمين بنسخة ، وأمرهم بأن يعملوا بما جاء فيه ، ولا يتعدونه الى غيره ، ويدعو ما سوى ذلك من العلم المحدث ، فاني رأيت أهل العلم رواة أهل المدينة وعلمهم . فقلت يا أمير المؤمنين ، لا تفعل هذا فان الناس قد سبقت اليهم اقاويل، وسمعوا احاديث، ورووا روايات، وأخذ كل قوم بما سبق اليهم، وعملوا به ودانوا به من اختلاف الناس وغيره ، وأن ردهم عما اعتقدوه شديد ، فدع الناس وما هم عليه ، وما اختار أهل كل بلد لانفسهم . فقال لعمرى ، لو طاوعتني على ذلك لامرت . وهذا من اكبر الادلة على نزاهة مالك وصدق نيته فى نشر الدين ، وانصافه ، مع أن ما انفرد به النازحون من الصحب الكرام بالنسبة لما أجمع عليه ساكنوا المدينة من الصحابة ، أمر يسير ، ولو كان مكان الامام غيره من الدعاة الى انفسهم ، او المعجبين بأرائهم ، لطار لهذا الامر ، ولما تردد فى ايقاع النكاية بخصوصه فى سائر الاقطار .

وكان مالك فى اجتهاده وتعليمه وافتائه ، يتجنب التكلف ، ويتعد بنفسه عن مجالسة المتكافين ، فقد كان معجبا بابن هرمز الاعرج وكان يقول :

« جالست ابن هرمز ثلاث عشرة سنة في علم لم ابته لاحد من الناس ، قال وكان من أعلم الناس بالرد على أهل الاهواء ، وبما اختلف فيه الناس » ، وكان مالك يقتدي به وياخذ بحكمته ، ويقول سمعت ابن هرمز يقول: «ينبغي للعالم أن يورث جلساءه قول لا أدري ، حتى يكون ذلك أصلاً في أيديهم يفزعون إليه ، فإذا سئل أحدهم عما لا يدري قال لا أدري » . قال ابن وهب : « كان مالك يقول في أكثر ما يسأل عنه لا أدري » .

وأخرج الخطيب البغدادي ، وابن عبد البر عن الهيثم بن جميل ، قال : « شهدت مالكا سئل عن ثمان وأربعين مسألة فقال في اثنتين وثلاثين منها لا أدري » . قال ابن الخطيب : « سمعت مالكا يقول حقا على طالب العلم أن يكون له وقار وسكينة وخشية ، وأن يكون متبعا لأكثر من مضى قبله » . وأخرج أبو نعيم بإسناده قال : سأل رجل مالكا عن مسألة فقال له : « قال رسول الله صلى الله عليه وسلم كذا ، فقال الرجل أرايت ، قال مالك فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم » . وكان رحمه الله معظما للسنن ، حتى أنه لا يجلس للتحدث إلا وهو على أكمل الحالات . وأخرج أبو نعيم عن معن ابن عيسى ، قال : كان مالك إذا أراد أن يجلس للحديث اغتسل وتبخر وتطيب ، فإذا رفع أحد صوته في مجلسه زجره وقال : قال الله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي » . فمن رفع صوته عند حديث رسول الله فكأنما رفع صوته فوق صوت رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وعن أبي إيس قال : « كان مالك إذا أراد أن يحدث تواضاً ، وجلس على صدر فراشه ، وسرح لحيته ، وتمكن في الجلوس ، موقرا بوقار وهيبة ، ثم حدث ، ف قيل له في ذلك ، قال أحب أن أعظم حديث رسول الله ، فلا أحدث إلا وأنا على الطهارة ، اجلالا لحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم . وجاء عنه أنه كان بالإضافة إلى ما تقدم ، يفتسل ويلبس ثيابا جددا ، ثم يحدث ويقول : « ليليتي منكم أولوا الاحلام والنهي » . وروى عنه أنه قال : «عندي أحاديث ما حدثت بها قط ، ولا سمعت مني ، ولا أحدث بها حتى أموت .

وعن الشافعي قال : « قيل لمالك ، عند ابن عيينة أحاديث ليست عندك قال : وأنا أحدث عن الزهري بكل ما سمعت » . لا أريد أن أطيل ، وعلى الجملة فالإمام يعتمد دائما ما بوضوح واستبان من الأدلة في وروده ودلالته

ويتجنب الشواذ ، وهذا ما حمّله على التزام علم أهل المدينة ، مع اعترافه  
للآخرين بفضلهم وديانتهم .

### فقّه مالك :

أخرج الترمذي عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى  
الله عليه وسلم قال : « يوشك أن يضرب الناس أكباد الأبل في طلب العلم  
فلا يجدون عالماً أعلم من عالم المدينة » . ففي الحديث إشارة واضحة  
إلى امتياز المدينة وعلماؤها وعلى رأسهم مالك ، بالعلم والفقه والمعرفة  
بعد عصر النبوة ، كيف لا وهي مأوى الصحابة ، خصوصاً السابقين الأولين  
منهم ، فقد استبقاهم عمر في المدينة لفضل نصحهم ، ولسعة علومهم ،  
ولامحاضهم النصيح له في إدارته لأمور المسلمين ، وضنا منه بهم أن يقتلوا  
وهم حملة علم الشريعة ، بذلك صارت المدينة هي عاصمة الإسلام ، ومجتمع  
أفكار علماء الصحابة والتابعين .

ولما جاء العصر الثاني هاجر كثير من العلماء من أوطانهم إلى المدينة،  
لاستقرارها ، ولكثرة الفتن بغيرها ، أولاً لأنها مهبط الوحي ، ومكان جثمان  
النبي صلى الله عليه وسلم ، ومأوى الصحابة ثانياً . فكان أهل العلم من  
التابعين من المدينة أكثر ، وبالعراق والشام قلة ، ونشأ مالك رحمه الله  
في هذا المجتمع ، وأخذ العلم عن خيار رجاله . وقد تخير من هذا الخيار  
فكان يقول : « أن هذا العلم دين فانظروا عمن تأخذون منه ، لقد أدركت  
سبعين ممن يقولون قال رسول الله صلى الله عليه وسلم عند هذه  
الأساطين - مشيراً إلى أعمدة المسجد النبوي الشريف - فما أخذت  
عنهم شيئاً ، وأن أحدهم لو أؤتمن على بيت مال لكان أميناً ، إلا أنهم لم  
يكونوا من أهل هذا الشأن » . فكان رحمه الله حريصاً على أن يجمع ما في  
المدينة من آثار الصحة ، وعلومهم ، وفتاويهم ، وأقوال النبي صلى الله عليه  
وسلم ، لذلك نراه يحرص على علم الزهري عن مشايخه يقول ابن شهاب  
جمعنا العلم من رجال في الروضة وهم سعيد بن المسيب وأبو سلمة  
وعروة والقاسم وسالم وخارجة وسليمان ، قلت : وهؤلاء الفقهاء السبعة  
هم أساس فقه الحجاز واتصل بهم مالك عن طريق مشايخه ، وكان وسيلته  
إلى علم آل عمر بن الخطاب ، نافع ، وزيد بن أسلم وغيرهم . كما أن وسيلته

الى علم آل بيت النبي ، الى جانب جعفر بن محمد ، الباقر عبد الرحمن بن هرمز الاعرج مولى الهاشميين . كما ان صلته بالتمييز المتعددة الجوانب ثابتة ، وخصوصا عن طريق اخذه العلم عن شيخه ربيعة ابن ابي عبد الرحمن وعلى كل حال ، فمالك يفتل عليه جانب الرواية ، مع فقه وثيق الصلة بالكتاب والسنة ، ويكره الامعان فى الراي ، وكان يكره الخوض فى المسائل الفرضية ، حرصا منه على السنة ، وتجنبيا للناس من الايفال فى الاقيسة والآراء التي لا تستند على أدلة النقل ، وكان يرى أن القياس، انما هو على ما تقرر من أصول الكتاب والسنة ، وسنة الخلفاء الراشدين ، وفتاوي كبار علماء المدينة من الصحابة والتابعين .

ولمالك الفقيه المحدث ، منهج اختص به فى الفقه والاستنباط ، فكان امام دار الهجرة يأخذ بكتاب الله تعالى أولا ، فان لم يجد فى كتاب الله نصا اتجه الى السنة ، وقد استوعبها حفظا ودراية ، ويدخل فيها عنده جميع احاديث الرسول صلى الله عليه وسلم ، القولية والفعلية ، والتقرير ، وما اضيف اليه عليه السلام من الصفات والشمال ، وتشمل كذلك فتاوي الصحابة ، الشاملة لقول الصحابي ومذهبه ، كذلك شاملة لاقضيتهم واجتهاداتهم ، وكثير ما يسميها بسنة من مضى من أهل العلم . ومن هذا الباب عمل أهل المدينة ، وهو شامل أولا لما قال به بعض أئمة الصحابة وكبار التابعين من أهل الحل والعقد ، وكثيرا ما يعبر عن هذا بقوله: «عليه العمل عندنا » ، وثانيا لما اتفق واجتمع عليه أهل الفتوى بالمدينة من الصحابة الى كبار التابعين ، ممن عليهم الاعتماد وفيه يقول : « هو الامر المجتمع عليه عندنا . وكان عمر بن عبد العزيز يجمع فقهاء المدينة ويسألهم عن السنن والاقضية التي يعمل بها فيثبتها، وما لا يعمل به الناس يطرحه ، وكان يقال لابي الدرداء ، قاضي الخليفة عمر بن الخطاب، بلغنا كذا وكذا بخلاف ما تقول ، فيجيب وأنا قد سمعته ، ولكن أدركت العمل على غير ذلك . وهكذا بنى مالك فى فقهه على اليقين .

ومن اصوله اضافة الى ما تقدم ، القياس ، وهو الحاق امر غير منصوص على حكمه بأخر منصوص على حكمه ، لاشتراكهما فى وصف هو علة الحكم ، ويدخل هذا الباب ، اعتبار المصلحة ، وسد الذرائع ، والعرف والعادات ، اذن تكون الأدلة عنده هكذا :

1 - **الكتاب** : ومنزلته فوق جميع الأدلة ، لانه أصل التشريع ، والحجة القاطعة فيه ، ومجتمع أحكام الله الخالدة الى ان يرث الله الارض ومن عليها ، وهو مقدم عنده على السنة فما بعدها ، ويأخذ بالنص الصريح الذي لا يقبل التأويل ، ويأخذ بالظاهر الذي يقبل التأويل ما دام ليس هناك من الشريعة ما يدل على وجوب التأويل ، ويأخذ من مباحث الكتاب بمفهوم الموافقة ، وهو فحوى الكلام ، وذلك بأن ينص القرآن على حكم ويفهم ما هو أقوى منه في معنى هذا الحكم من هذا النص من غيره عناء عقلي ، مثل قوله تعالى : « ولا تقل لهما أف ولا تنهرهما ، » فان هذا النص يفهم منه بالاولى النهي عن الشتم والضرب . وكذلك قوله تعالى : « ان الذين يأكلون أموال اليتامى ظلما إنما يأكلون في بطونهم نارا » الآية . فان هذا النص يفهم منه النهي عن افساد مال اليتيم واهلاكه بأى وجه من وجوه الافساد والتدبير أو التقصير في المحافظة عليه ، كما انه يأخذ بمفهوم المخالفة ، هو ان يجيء الحكم مقيدا بوصف غير غالب أو نحوه ، فيفهم ذلك نقيض الحكم عند تخلف النص ، وذلك مثل قوله عليه السلام : ( في سائمة الغنم زكاة ) . فان هذا النص يفهم منه ان السائمة من الغنم أو الابل أو البقر ، وهي التي ترعى العشب بنفسها زكاة . ويفهم بالمخالفة ان المعلوفة لا زكاة فيها وبذلك اخذ الشافعي ، في حين ان الامام لم يأخذ بهذا الحديث ، وأوجب الزكاة في المعلومة ، لان الوصف هنا خرج مخرج الغالب ، وليس الفصد منه تعليق الحكم عليه . ويأخذ الامام أيضا بالتنبيه على علة الحكم كما في قوله تعالى : « قل لا أجد فيما أوحى الي محرما على طاعم يطعمه الا ان يكون ميتة أو دما مسفوحا أو لحم خنزير فانه رجس ، أو فسقا أهل لغير الله به » . فان هذا يفيد ان العلم في التحريم انه رجس ، أي طعام خبيث رديء ، ليلحق به كل ما يماثله في هذه الصفات ، والامام يعتمد على مثل هذه الأدلة من السنة أيضا ، وان كان القرءان هو المقدم . وقد ورد حديث غسل الأبناء من ولوع الكاب سبعا أولاهن بالتراب ، حكما بنجاسة فمه ، والفني استعمال التراب . وقال ان ندب الفسل للتعبد كيف لا وقد قال تعالى : « وما علمتم من الجوارح مكلبين تعلمونهن مما علمكم الله ، فكلوا مما أمسكن عليكم ، » وقال : « كيف يبأح صيده ويكون نجسا » . ومنح النيابة في الأعمال البدنية ، الا ما كان من الوصية بالحج عن الميت ، وترك العمل بالاحاديث الواردة في هذا المجال ، لقوله تعالى : « وأن ليس للانسان الا ما سعى ، وأن سعيه سوف يرى ، ثم يجزاه الجزاء الاوفى » .

2 - السنة : وتأتي في المرتبة الثانية في اعتباره ، وهو يأخذ بها ويشدد في ذلك ، ولا يترخص في ردها ، ويأخذ بالدرجة الاولى بالمتواتر منها، وهو الذي رواه جماعة يؤمن تواطؤهم على الكذب، عن جمع مثلهم، حتى يصلوا بذلك الى النبي صلى الله عليه وسلم ، ويأخذ بالمشهور ايضا ، وهو ما رواه جماعة لم يبلفوا حد التواتر ، ثم رواه عن الصحابة عدد يلزم منه اشتهاار الحديث ، ويؤمن اتفاههم على الكذب ، ويكفي في ذلك ان يشتهر في عصر التابعين واتباعهم ، وهذا شأن كثير من السنن التي دونت في الصحاح والسنن ، والموطأ ، والمسائيد المشهورة . وهو يقرب في القوة من المتواتر .

واما الاحاد ، وهو الذي يتواتر ، ولم يشتهر في عهد التابعين ، ولا في عهد اتباعهم ، ويقدم مالك رحمه الله ، عمل اهل المدينة على خير الاحاد .  
واما هل يقدم عليه القياس او لا ؟ فخلافا نقله ابن رشد في المقدمات .

ومثال تركه للعمل بخبر الواحد لانه لم يكن معمولا به في المدينة حديث خيار المجلس وهو : البيعان بالخيار ما لم يتفرقا . وقد تركه قائلا : «ليس عندنا حد معروف في ذلك»، وقد اول ذلك اصحابه، بأن التفرق المذكور هنا بالكلام وليس بالابدان ، وقد يترك العمل بخبر الواحد سدا للذريعة كما في حديث صيام ست من شوال ابتداء من اليوم التالي ليوم الفطر ، فقد ترك الامر بصيامها خشية من ان يزيدا العامة في رمضان فيؤدي بهم الامر الى صيام العيد ، وان كان المروي عنه في سيرته انه كان يصومهما ولا يمنع من يفعل ذلك من فقهاء اصحابه .

3 - عمل اهل المدينة : وكان الامام يعتبر بعمل اهل المدينة كما قدمنا ، ويعده حجة اذا كان هذا العمل متفق عليه في الجملة بينهم ، وكان مما لا يمكن الا ان يكون نقلا عن النبي صلى الله عليه وسلم ، وقد ورث عن شيخه ربيعة بن ابي عبد الرحمن ، الف عن الف خير من واحد عن واحد . ومعلوم ان الصحابة في عهد الخليفتين متوفرون في المدينة ، وكان الخليفة اذا اراد تنفيذ حكم يجمع اهل الحل والعقد ، وذوي العلم والمعرفة من الصحابة ، ويسالهم ، ويدالي كل واحد بما بلغه في ذلك عن النبي صلى الله عليه وسلم ، فيأخذ الخليفة بما اجتمع وتواطأ عليه رأيهم، ويكون سنة متمعة اكتسبت الشهرة منذ تلك اللحظة، وهذا ما دعا الامام الى تقديم عمل اهل

المدينة الذي هو في حد ذاته مبني على خبر آحاد ، لكنه تقوى بتواطؤ الصحابة وكبار التابعين عليه ، ولم يكن مالك هو اول من أخذ بعمل أهل المدينة ، وانما قبله كان داب القضاة وأهل الفتوى ، كما في قصة أبي الدرداء السابقة، وقد روي عن القاضي محمد ابن أبي بكر بن عمر بن حزم انه قيل له في حكم قضي به : الم يأتي في هذا حديث كذا ، فقال بلى ، فقيل له ، فما بالك لا تقضي به، فقال، فأين الناس، يعني أين ما اجمع عليه الصلحاء بالمدينة ، فيرى أن العمل به افضل لتقويه باتفاق الناس عليه ، باعتبار انه منقول عن النبي صلى الله عليه وسلم ، فكان تركه خيرا لخبر ، هو أقوى منه اذا لم يمكن الجمع بينهما ، وهو الترجيح، أحد مسائل الاجتهاد والقياس .

**4 - فتوى الصحابي وقوله :** ومالك قد أخذ بقول الصحابي وفتواه وعد ذلك من قواعد مذهبه ، خاصة اذا قال الصحابي او أفتى بما لا يعلم الا من النقل ، ومعنى هذا انه يقبل قول الصحابي وفتواه، لقطعه بأن الصحابة كانوا متبعين ، وليسوا مبتدعين ، وانهم يستندون في أكثر الاحيان على سنة قد تخفى على غيرهم ، وفي هذا الموضوع آراء كثيرة ، فلتراجع في مطائنها وكان الامام يأخذ بفتاوي كبار التابعين ، وان كان لا يرفعها الى مستوى قول الصحابي ما لم تكن اجماعا ، والا جعلها مثل قول الصحابي، لاستناد الاجماع على دليل شرعي ، وان جهله الناس ، واهملوه فلم ينقلوه .

**5 - القياس والمصالح المرسلة والاستحسان :** وعلمنا مما تقدم ان الامام كان يأخذ بالقياس ، وهو قياس الفروع على الاصول ، وهو شامل للقياس المشهور في اصطلاح الاصوليين ، وهو الحاق امر غير منصوص على حكمه بأمر آخر منصوص على حكمه ، لاشتراكهما في وصف هو علة الحكم الثابت للمقيس عليه ، واما الاستحسان ، فهو ان يقتضي القياس الحاق المسكوت عن حكمه بالاصل الذي صرح بحكمه ، وتقتضي المصلحة الجزئية عدم ذلك ، فيرجع الامام هذه المصلحة الجزئية ويحكم بها ، وهذا نوع من انواع الاستحسان ، وهناك نوع آخر هو صريح الاستحسان ، وهو الحكم على مقتضى المصلحة حيث لا نص ، سواء اكان في الموضوع قياس ام لا ، وهذا شامل للاستحسان في اصطلاح الاصوليين ، كما انه شامل للمصلحة المرسلة .

وهي المصلحة التي يشد لها دليل خاص بالاعتبار أو الالفاء ، فيؤخذ بها حيث لا نص ، شريطة ان يكون في الاخذ دفع للحرج ، وتحقيق لمصلحة شرعية ، وكما ان الشرط والصلاح يجب ان لا يتصادم مع حكم الشرع ، فكذلك انما يعتبر من المصالح ما اقرت الشريعة اعتباره . وبذلك يتضح ان من اصول مذهبه ، المصالح المرسله ، اي اعتبار المصلحة اذا لم يكن نص من القرءان او السنة ، لان الشرع ما جاء الا لرعاية مصالح الناس ، فكل نص شرعي ، فهو مشتمل على مصلحة هي الحكمة فيه، وبعيدا عن شقاق الكلام ، وبعيدا كذلك عن الانسياق وراء استحسانات العقول المنحرفة ، اذ المصلحة تعتبر بالشرع اولا عند الامام .

ومن ابرز ما امتاز به المذهب المالكي في المصالح ، هو اباحته للامام ان يوظف الخراج على الناس اذا خلا بيت المال مما يفي بحاجة الجند ، واجاز انعقاد الامامة الكبرى لمن قصر عن رتبة الاجتهاد ، لان اصل الامام مصلحة ضرورية ، واشترط علوم الاجتهاد كمالي ، واذا تعارضت الضروريات والكماليات ، كان المرجع هو الضروريات . وكذلك يدخل في هذا الباب اذن الامام للذميين ان يحدثوا في ارض العنوة كنائس ، او يأذن لهم بترميم ما تهدم منها ، اذا رأى في ذلك مصلحة راجحة ، كما ذهب اليه اصحاب مالك في الاندلس ، ويدخل تحت هذه القاعدة ، كثير من المعاملات التي يجري الآن التعامل بها بين الناس ، فيما لو عكفنا على دراستها على ضوء الفقه الاسلامي ، دراسة جادة وهادفة ، وبعيدة عن الطيش والخفة .

6 - **النرائع** : وهذا من الاصول التي اشتهر عن الامام الاخذ بها وظهرت في كثير من فروع المذهب المالكي ، واساسها هو ان الخوف من الوقوع في المحظور ، موجب لتجنب تعاطي بعض المباحات ، وقد جاء عن ابن عمر رضي الله عنه : «التقوى : ان تترك ما ليس به بأس خشية الوقوع فيما به بأس» . اذن كل ما ادى الى محرم فهو حرام، وما لا يتم الواجب الا به فهو واجب ، بقدر التمكن من فعل هذا الواجب . وكذلك ما يترتب على فعله مصلحة يكون مطلوبا ، كما ان ما يترتب على فعله مفسدة يكون محظورا .

وقد قسموا ما يؤدي الى مفسدة الى اربعة اقسام :

**الاول :** ما يؤدي الى مفسدة مقطوع بها ، كحفر بئر خلف باب الدار بحيث يسقط فيها الداخل منه .

**الثاني :** ما يغب على الظن انه يؤدي الى مفسدة ، كبيع العنب لمن يمكن ان يعصر منه الخمر ، او من يبيع الى الحربيين ما يتقوون به على حرب المسلمين . وهذا فيما اذا لم تكن هناك حرب ، والا كان من القسم الاول .

**الثالث :** ما يؤدي الى مفسدة فقط في النادر والغالب عدم ادائه الى ذلك ، كحفر البئر في موضع مناسب لا يتأذى به أحد .  
ومما اشتهر على السنة الناس : ان النادر لا حكم له .

**الرابع :** ما يكون ادائه الى المفسدة واقعا بكثرة ، كالشأن في بيع الاجال ، فقد تؤدي الى الربا في بعض الصور ، وقد ينذر بعض الناس بالاباحة الاصلية ، الى استباحة ما حرم الله تعالى . والقسمان الاولان يمنعان سدا للذريعة ، والثالث يباح مطلقا لان النادر لا حكم له . واما الرابع فقد تنازعه عاملان : عامل الاذن الاصيلي ، وعليه فهو حلال ، وعامل ما قد يؤدي اليه ، وعلى هذا فهو حرام ، ويرجح جانب الحل ، مع اعتبار نية المتصرف ، فان قصد المحذور ، فعليه اثم قصده ، والا كان تصرفه جائزا .

**7 - الاستصحاب :** وهو ان ما تقرر من حكم لعين او شيء ، يجب ان يستمر حتى يوجد دليل على تغيره ، وهو استصحاب البراءة الاصلية ، اي ان ذمة المكلف يجب ان تكون فارغة عن الشغل بأي تكليف حتى يدل على شغلها بالتكليف دليل ، ومن امثلة هذا ، استصحاب اباحة الاشياء قبل وجود ما يدل على المنع ، ومن هنا قالوا : « الاصل في الاشياء الاباحة حتى يوجد دليل المنع » ، فالعقود والشروط والمعاملات على عمومها والالتزام بها ، الاصل فيها الاباحة ، حتى يوجد دليل ينقل عن هذا الاصل ، وقد قال تعالى : « وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا » .

8 - **العرف** : ومن الامور التي اعتبرها مالك واحترمها، العرف القولي والفعلي ، وكان في كثير من الاحيان يحكم تبعا لما تعارف عليه الناس في الاجال والشروط وغير ذلك . ويقول كل ما عده الناس بيعا فهو بيع . وعندما عرض لحديث البيعان بالخيار في الموطأ قال : ليس لهذا عندنا حد معروف ، ولا امر معمول به . وعندنا كل ما يعتبره الناس ضررا في التعامل ، يكون ضررا يجب دفعه ، وهناك جزئيات لهذا الاصل في المذهب كثيرة ، لا نطيل بها حيث ان محلها هو كتب الفروع .

وباختصار ، يمتاز الفقه المالكي بالمرونة والتيسير والشمول ، حيث انه مبني على المصلحة ، وملاحظة احكام الضروريات ، ويفتح باب الترجيح بين الادلة ، ويقر ما وقع موافقا لدليل المخالف ، من العقود والعبادات، مع مرجوحيته عنده بالاصالة .

والجدير بالملاحظة هنا ، هو ان هذه الاصول التي اخذ بها مالك وافقه عليها اكثر الائمة ، فهم جميعا يتفقون على الاصول الاربعة ، الكتاب والسنة والاجماع والقياس ، وهذه لا خلاف فيها ، وانما اضاف اليها مالك ما ذكر ، كما فعل باقي الائمة بالنسبة لبعض تلك الاصول ، والاجتهاد هو سبيل الباحث لادراك حكم واسرار التشريع الاسلامي . وطلب الدقة في نسبة الاقوال الى اصحابها ، يعرض على المرء ان يرجع الى الكتب التي تضمنت تلك الاقوال ، وبينتها ، وشرحت ما اشكل من كلام ائمتها ورجالها .

### كتب الامام مالك ومسائله :

وصل الينا عن الامام آثار كثيرة ورسائل متعددة، رواها عنه اصحابه، من تلك الآثار ، كتاب المجالسات ، الذي دون فيه ابن وهب ما سمعه عن الامام في مجالسه، وهو كتاب يشتمل على احاديث وآثار، وسنن وآداب ، وهو ينسب لابن وهب ، لانه كتبه ورتب مضامينه، وهناك رسالة في القدر، بعث بها مالك الى ابن وهب ، ورواها تلميذه ابن وهب المذكور عنه ، ومنها رسالته الى هارون الرشيد ، وهي متداولة بين ايدي الناس . ومنها رسالة في الاقضية ، كتبها لبعض القضاة ، رواها عنه بعض اصحابه ، ورسالة في احكام الفتوى ، وقد تنسب اليه اشياء غير هذه ، الا ان بعض علمائنا يتوقفون في بعض هذه الآثار . ولكن الذي لا يشك فيه انسان ، ونقله الكافة

عنه ، فهو كتابه الموطأ، الذي يعتبر بحق، أول كتاب في السنن والآثار، وأعمال الصحابة واجتهاداتهم في فتاويهم ، وكان الناس قبل الموطأ ، يعتمدون على ذاكرتهم وحفظهم ، وكان لديهم من الذكاء والفطنة وسيلان الذهن ، ما شهد لهم به المخالف قبل الموافق ، هذا وكان كثير من الأئمة منذ عهد أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ، يحاولون كتابه السنن والآثار وجمعها، ويحجمون عن ذلك ، خشية اختلاطها بالقرآن، خصوصا والأمة في أول مراحل بنائها ، وتطورها من البداوة الى الحضارة ، ولا يزال الداخلون في الاسلام الجدد، يقدون الى المدينة المنورة من كل جهة ، ومع هذا الاحجام ، فقد كتب بعض الصحابة لنفسه احاديث كثيرة، مثل عبد الله بن عمرو بن العاص ، وهناك كتب من النبي الى بعض عماله ، نضمت سننا كثيرة، فهناك كتاب الزكوات وصحيفة عمرو بن شعيب ، عن ابيه عن جده، عن النبي صلى الله عليه وسلم، وصحيفة بهر بن حكيم، عن ابيه عن جده . وصحيفة علي بن ابي طالب ، التي شملت الدماء وأشياء أخرى . وصحيفة ابي شاه ، التي تضمنت بعض الاحكام التي عهد بها النبي لامته ، في خطبته في حجة الوداع ، الى غير ذلك مما يجب ان يعتبر هو أول التدوين للسنن والآثار . واما ما كان من أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز ، فليس الا الجمع والتدوين ، الذي اتسم بالرسمية ، ولا شك ان لهذا الامر أهمية خاصة ، فقد أصدر أوامره لابن شهاب الزهري ، ان يجمع له ما قدر على جمعه من السنن ، ومع انه لم يتم له ما أراد ، الا ان الفكرة ظلت قائمة تنتظر التنفيذ ، ولما جاء عهد الخليفة ابي جعفر المنصور ، قيل انه حاول جمع الناس على مذهب واحد في القضاء والفقہ ، وهو ما عليه أهل المدينة من الفقه والسنة والاثر ، فطلب الى العلماء ان يفعلوا ذلك ، فكتب غير واحد من العلماء كتباً اطلقوا عليها اسم الموطأ ، وكان من جملة من طلب اليه ذلك، مالك ابن انس، امام دار الهجرة ، فكتب موطاه الذي وصل الينا ، وأراد المنصور أن يحمل الناس جميعا على ما في الموطأ ، ولكن مالكا رفض ذلك ، متعللا بما تقدم ذكره في صدر هذا المقال .

والموطأ كتاب حديث وفقه ، منزلته بين علماء الامة ، هي منزلة صحيح البخاري وصحيح مسلم، بل ما تضمنه من الاحاديث، يعد من أصح الصحيح، وهو حجة عند مالك واتباعه ، وعند باقي فرق الامة ، كما عليه الجمهور، وجميع ما فيه مسند الا اربعة احاديث، وقد خرج احاديثه ابن عبد البر في التمهيد وفي التفضي والاستذكار ، واللف في شواهد القاضي اسماعيل بن حماد ، كتابا في عشر مجلدات ، وشرحه ابن الحذاء ، في ثمانين جزءا، وقد

قال الشافعي ، ما بعد كتاب الله أصح من كتاب مالك ، رحم الله الجميع . وقد ذكر فيه الامام ، الاحاديث الخاصة بالموضوع الذي يناقشه ، ثم يقفي ذلك بعمل اهل المدينة المجمع عليه ، ثم رأي من التقى من بهم من كبار ثقات التابعين وصلحائهم ، وآراء للصحابة واقضيتهم ، وآراء وفتاوي من جاء بعدهم ، وهو في كل ذلك يركز على الاتباع ، ويتجنب الابتداع ، ولذلك قال : اما أكثر ما في الكتاب فرأي لعمرى ما هو برأي ولكنه سماع من غير واحد من اهل العلم والفضل ، والائمة المقتدى بهم ، الذين أخذت عنهم ، وهم الذين كانوا يتقون الله ، وكبر علي فقلت رأيي ، وكان رأيهم مثل رأيي ، مثل رأي الصحابة الذين ادركوهم عليه ، وادركتهم انا على ذلك ، فهذه وراثه توارثوها قرنا عن قرن الى زماننا ، فهو رأي جماعة ممن تقدم من الائمة .

واقدم بلغ عدد من روى عنهم الامام في الموطأ ، خمسة وتسعين محدثا ، منهم تسعة وثمانون من كبار شيوخ المدينة وعلماءها ، وستة فقط ، من خارجها . ومع ان مالكا لم يرحل لطلب العلم ، فقد تجمع لديه من الاحاديث ما لم يجتمع لغيره ، بسبب وجوده في المدينة المنورة ، التي اشتهر بالعلم والفتيا بها كثير من كبار الصحابة والتابعين ، خاصة بعد ان أصبحت مأوى ومأمنًا للهاربين من الدنيا ، ومن المشاركة في الامور السياسية ، عاملين بحديث أبي سعيد الخدري عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال : « يوشك أن يكون خير مال المسلم غنم يتتبع بهن شعف الجبال ومواقع القطر ، يفر بدينه من الفتن » .

ولقد ذاع صيت الامام مالك امام دار الهجرة وموطاه ، لا في المدينة وبلاد الحجاز واليمن فحسب ، وانما في الاقطار الاسلامية ككل . فأقبل على رواية الموطأ عنه جمهور كبير من الطلبة .

قال القاضي ابو بكر بن العربي في شرح الترمذي ، الموطأ هو الاصل الاول واللباب ، وكتاب البخاري هو الاصل الثاني في هذا الباب ، وعليهما بنى الجميع كمسلم والترمذي . قال وذكر ابن الهباب ان مالكا روى مائة الف حديث ، جمع منه في الموطأ عشرة آلاف ، ثم لم يزل يعرضها على الكتاب والسنة ، ويخبرها بالاثار والاخبار ، حتى رجعت الى خمسمائة ، وقال الكيا الهراسي في تعليقه في الاصول ، موطأ مالك ، كان اشتمل على تسعة آلاف حديث ، ثم لم يزل ينتقي حتى رجع الى سبعمائة . واخرج

ابو الحسن بن فهر في فضائل مالك عن عتيق بن يعقوب ، قال ، وضع مالك الموطأ على نحو من عشرة آلاف حديث ، فلم يزل ينظر فيه في كل سنة ويسقط منه حتى بقي منه هذا . وقال سليمان بن بلال ، لقد وضع مالك الموطأ وفيه اربعة آلاف حديث او اكثر ، ومات وهي الف حديث ونيف ، يلخصها عاما عاما ، بقدر ما يرى انه اصلح للمسلمين ، وامثل في الدين ، اورده القاضي عياض في المدارك - انتهى من التنوير - .

روى الموطأ كما قلنا كثير ، ولكن اشهر روايات الموطأ المتداولة الآن روايتان : احدهما رواية يحيى بن يحيى الليثي ، وهي النسخة التي طبعت في مصر ، وانتشرت في سائر انحاء المعمورة . وثانيهما رواية الامام محمد بن الحسن الشيباني ، صاحب ابي حنيفة ، والنسخة الخاصة بهذه الرواية طبعت في الهند ، وعليها وضع الامام شاه ولي الله الدهلوي شرحه ، وما زال مالكا ينقح ويهذب احاديث الموطأ حتى عادت الى ما هي عليه الآن .

والاختلاف في عدد احاديث الموطأ ، سببه اختلاف الروايات عن الامام ، فكل رواية قد اختصت بعدد من الاحاديث ، يزيد او ينقص بحسب التهذيب والتلخيص الذي يجريه الامام من وقت لآخر على احاديثه .

وسيرة مالك رحمه الله في درسه دائما ، الجلوس في المسجد النبوي ، وكان يجلس في مجلس عمر بن الخطاب ، ويسكن بمنزل عبد الله ابن مسعود ، ثم اختص بالجلوس في بيته . قال الواقي ، كان مالك يأتي المسجد ، ويشهد الصلوات والجنائز ، ويعود المرضى ، ويقضي الحقوق ويجلس في المسجد ، فيجتمع اليه اصحابه ، ثم ترك الجلوس في المسجد فكان يصلي وينصرف الى مجلسه في داره ، وترك حضور الجنائز ، فكان يأتي اصحابه ويعزيهم ، ثم ترك ذلك كله ، فلم يكن يشهد الصلوات في المسجد ولا الجمعة ، ولا يأتي احدا يعزيه ، واحتمل الناس له ذلك حتى مات ، وكان ربما قيل له في ذلك ، فيقول ليس كل الناس يقدر ان يتكلم بعذره .

وكان مرة يجلس للحديث ، ومرة للمسائل والفتاوي ، ولهذا رجال ، ولذلك ايضا رجاء ، ومن اكبر تلك الموسوعات الفقهية التي نقلت عنه ، مدوية اسد ابن الفرات ، التي اخذ مسائلها عن ابن القاسم في مصر ، ورجع بها الى

القيروان، فكتبها عنه سحنون ابن سعيد، وكانت تسمى الاسدية، ثم جاء بها سحنون الى ابن القاسم سنة 188 للهجرة، فعرضها عليه، وأصلح فيها مسائل، ورجع بها الى القيروان سنة 191، غير مرتبة المسائل، ولا مرسومة التراجم، فصحح سحنون أكثرها، واحتم لبعض مسائلها بالآثار من روايته من موطأ ابن وهب وغيره، وبقيت منها بقية على أصلها، وتبلغ مسائل المدونة اثنتين وثلاثين الف مسألة، وهذه المدونة موسوعة فقهية كبيرة، تمتاز باليسر والسهولة والشمول، وهي المرجع الاساسي في الفقه المالكي. ومن كتب من أتباع الامام مالك، عبد الله بن عبد الحكم المصري الف ثلاثة كتب، اولها المختصر الكبير، والثاني المختصر الاوسط، والثالث المختصر الصغير.

فالمختصر الصغير، قصره على الموطأ، والاوسط، قسمه الى قسمين، احدهما، أكثر فيه من الآثار، وهو من رواية القراطيسي، وثانيهما، من رواية ابنه محمد، وسعيد بن حسان، وقد قالوا: أن مسأله المختصر الكبير 18 الف مسألة، والاوسط 4 آلاف، والصغير احتوى على الف ومائتي مسألة. أما اصبح بن الفرج، فصنف كتاب الاصول، وكتاب سماعه من ابن القاسم، اثنتين وعشرين كتابا، والف محمد بن عبد الله بن عبد الحكم كتابا مثل القراءان، وكتاب الوثائق والشروط، وكتاب آداب القضاة، وكتاب الدعوة والبيانات، وبالجملة أن أهم امهات هذا المذهب بعد المدونة كتاب الواضحة، لعبد الملك بن حبيب، ثم العتبية، لمحمد بن المواز، ثم الميسور القاضي اسماعيل، والمجموعة، لابن عبدوس، والسليمانية، لابي الربيع سليمان ابن سالم القطان، أحد اصحاب الامام سحنون، والمختلطة، لابن القاسم، وهي نفس المدونة، إلا أنها بدون ترتيب. والمدونة، موسوعة فقهية كبيرة، جمعت الكثير من القواعد والاصول التشريعية، شرح منها محمد بن سحنون اربعة كتب. كما شرحها آخرون، واختصرها خلف بن القاسم الأزدي، المعروف بابن البرادعي، وشرحها سند بن عنان الطراز، وآخرون، وفي كثير من المناسبات يشير الشيخ خليل في مختصره الى هذا الاختصار.

ثم استمر علماء المذهب في تقريب ما تضمنته هذه الاصول من مسائل فقهية، تهم الباحث من علوم الشريعة، في يسر وسهولة، وكانوا يعتبرون أن أقرب وسيلة الى حفظ المسائل واثقانها، هو استظهارها

فكتبوا المختصرات ، وكان من أعظمها مختصر ابن الحاجب، المتوفى عام 646هـ الذي شرحه خليل بن اسحاق في القرن التالي ، في ستة مجلدات ، وسمى شرحه التوضيح ، تخير فيه ما رجح من شروح السلف والمتقدمين ، ثم ألف مؤخرًا كتابا ، هو اختصار لما تفرق في ذلك الشرح وأصله ، وهو كتاب مختصر الشيخ خليل، وقد انكب الناس منذ ذلك التاريخ على دراسته وشرحه والتعليق عليه ، وبالجملة ، فعليه وحده الآن الاعتماد في فهم الفقه المالكي لمن أراد التوسع أو التعمق ، وكانت وفاته رحمه الله عام 767 هـ وقد انتشر هذا المذهب في كثير من البلاد خارج الحجاز ، فانه ظهر في مصر في حياة الامام مالك ، اذ ادخله فيها تلامذته الذين حملوا عنه مسائله، أمثال عبد الرحمن بن القاسم ، وعبد الله بن عبد الحكم ، وعبد الرحيم بن خالد، وأشهب ، وغيرهم ، ممن اتخذ مصر مستقرا ومقاما .

وكان أكثر من سبق الى الرحلة الى مالك، المصريون ، والمغربيون من أهل أفريقيا والاندلس ، وهم الذين تولوا نشر هذا المذهب في شمال أفريقيا كله وفي الاندلس ، ثم ظهر هذا المذهب بالبصرة وبفداد وخرسان ، بواسطة بعض ممن أخذ عن تلامذة مالك ، مثل أحمد بن المعز بن غيلان الصبدي ، من أصحاب عبد الملك بن الماجشون ، ومحمد بن مسلمة ، وأبو اسحاق اسماعيل ابن اسحاق بن اسماعيل بن حماد بن زيد القاضي ، الذي نشأ بالبصرة واستوطن بفداد ، والامام يعقوب بن شيبه صاحب المسند المعلل ، وأبي ذر الهروي المحدث ، من أقران الدارقطني ومعاصريه، وأحمد ابن فارس ، أحد أئمة اللغة والادب ، والامام أبي بكر ابن مجاهد ، شيخ المقرئين ببفداد والمشرق كله ، والامام أبي بكر الشبلي الصوفي والفقير ، وأمثالهم من أفاضل علماء هذا المذهب .

وعند ما انتقل المذهب من الحجاز الى أفريقيا بواسطة تلاميذة الامام المعاربة ، كانت أفريقيا على مذاهب أهل الحديث ، كما هو شأن الفاتحين الذين دخلوها حاملين معهم راية الاسلام .

وأما الاندلس ، فقد كانت على مذهب الاوزاعي في الاغلب ، ولكن هناك اقلية على مذهب الامام أبي حنيفة رحمه الله ، ثم انتشر المذهب هناك حتى شمل جميع بلدان المغرب وبلدان أفريقيا المسلمة . وقد لعب يحيى ابن يحيى الليثي رحمه الله في ذلك دورا هاما ، وكذلك الامام عبد السلام

ابن سعيد المعروف بسحنون . وكان سحنون متسامحا مع بعض القضاة  
 الاحناف ، فقد كان يوليهم ويقرهم على القضاء على المذهب الحنفي وعلى  
 أي حال ، فان هذا المذهب وصل الى الممالك الاسلامية في غرب افريقيا  
 ولا يعرف حتى الآن غيره ، وكان دخوله بلاد كانم وبرنو ، على ايدي علماء  
 وفدوا الى تلك البلاد من مصر ومن توات والمغرب ودور تنبكتو في هذا  
 الشأن كبير وبارز ، فقد دنت الوثائق وسلاسل العلماء على صلات كبيرة  
 وواسعة . ترتبط تلك البلاد ببلدان المغرب بقسميه الادنى والاقصى ، فان  
 الموافقة بيننا في نيجيريا وتشاد والكمرون والسودان وبين المغرب في  
 العقيدة والشريعة متطابقة ومتكاملة من كل الجوانب ، فالعقيدة الاشعرية  
 والمذهب المالكي هما نفسهما هناك وهنا ، بل وكذلك القراءة أيضا هي  
 رواية ورش عن نافع ، وحتى الخط ، فالخط الافريقي ، هو نفس الخط  
 المغربي مع تغيير بسيط ، بل هناك عادات أخرى متشابهة، وأود ان أشير  
 قبل انهاء هذا المقال الى نقطة هامة ، وهي ان هذا المذهب ، واحد من أربعة  
 مذاهب ، أجمعت الامة الاسلامية مؤخرا على اعتبارها ، واعتبار ان أئمتها  
 مقبولون ، ومقبولة مذاهبهم ، في العقائد او الفقه او الاخلاق او مناهج  
 التفكير العامة ، وليسوا من البدعة في شيء ، ومقلدهم سالك طريق  
 البداية ، اذا كان قاصرا عن أخذ الحكم من الكتاب والسنة وأدلتها .

ولعلماء المذهب المغاربة فضيل ، ليس على المالكية في الممالك  
 الاسلامية في غرب افريقيا فحسب ، وإنما على المسلمين عامة . في جميع  
 انحاء المعمورة . ونظرة بسيطة في كتب الرواية ، تريك ذلك بكل وضوح،وعلى  
 سبيل المثال ، انك اذا راجعت كتاب «فتح الباري» وهو أضخم كتاب في  
 شروح الحديث ، وجدته يعتمد على شروح أئمة المالكية المغاربة ، لهذا  
 الكتاب العظيم أو لغيره من كتب الحديث ، فقد نقل : عن الاصيلي ، وابن  
 الحذاء ، وابن بطل ، وابن عتاب ، والمهلب بن أبي صفرة ، وابن عبد البر، وأبي  
 الوليد الباجي ، والقاضي ابن علي الجياني ، والفاسي ، والداودي، والمازري،  
 وابن العربي ، وابن رشد ، والقاضي عياض ، وابن بشكوال ، والسهيلي ،  
 والقرطبي ، وابن التين ، وابن أبي جمرة الفاسي ، والعلامة ابن المنير، كل  
 هؤلاء من المغاربة اعتمد عليهم الحافظ في شرحه على البخاري، سوى زين  
 الدين ابن المنير ، فهو أسكندراني ، وها هو ابن مالك، الذي لا زال الناس  
 يدرسون نسخة اليونيني من البخاري التي صححها له ، وكفى بذلك فخرا .

وليس هذا من قبيل القول بالرأي في الدين ، خصوصا اذا لاحظنا معنى قوله تعالى : « فاسألوا اهل الذكر ان كنتم لا تعلمون » ومن هذا المنطلق أصبحت دراسة العقائد والمسائل الفقهية على قواعد الأئمة وأصولهم ، أمرا أساسيا في تكوين المسلم تكويننا صحيحا وسليما .

ولقد شاع وذاع ، وانعقد عليه شبه اجماع، أن عقائد اهل السنة، مع كونها مجتمعة في الكتاب والسنة ، يستحسن ان تدرس على قواعد وأسس وضعها أئمة اهل السنة ، مثل الامام ابي الحسن الاشعري ، والامام ابي منصور الماتريدي ، وهي أصول قابلة للتأويل أو التسليم للنصوص بحسب اعتبارات مفهومة من الأدلة الكلية ، ولا حرج من سلك مسلكهم من المسلمين ، وكذلك اتفقوا على لزوم اتباع احد هؤلاء الأئمة المجتهدين وعلى ان متبع احد الأئمة الأربعة لا يعتبر مبتدعا ، بل متمسكا بالسنة ، وهكذا في مناهج التزكية والاخلاق ، اتفقوا على أن أفضل ما وصل اليه رجال التربية الإسلامية ، طريقة الجنيد ، والحاسب ، وابي طالب المكي واخيرا الغزالي ، وفي جميع هذا المذاهب ، يوجد متعصب ومعتدل، والعبرة بنهج المعتدلين ، فالمتعصب المتطرف ، لا يستطيع ان يرى الحجة او يدرکها ولو كانت نصب عينيه ، لما قد تقرر في نفسه أن الحق منحصر في مذهبه ، ولقد ظهرت مذاهب جديدة ، تدعو الى رفض المذاهب كلها ، بحجة أن هذه المذاهب فرقت الامة ، وحالت دون اجتماعها على رأي واحد ، ومذهب واحد ، او بحجة ان هؤلاء الأئمة قد فاتت كل واحد منهم احاديث صحيحة ونحن نقول لاخواننا هؤلاء ان هذه المحاولة قد فكر فيها كثيرون قبلهم ، ومن امثلة ذلك نية المنصور على حمل الناس على كتاب الموطأ وتجديد هذه الفكرة على عهد الرشيد ، ولكن مالكا يرفضها ، لانه يعلم ان هذا يستحيل في أمة بهذه الكثرة ، وبها الملايين من العقول المثقفة ثقافة اسلامية اخذت من القرآن والحديث ، وليس فهم رجل منهم أولى بالأخذ من فهم رجل آخر ، ما لم يسنده دليل صريح، واما بخصوص ما يقال من أن هؤلاء الأئمة ، قد فاتتهم بعض الأحاديث ، فعلى تقدير صحة هذه الرعون ، فمن الذي في هذا العصر يدعى أنه احاط علما بجميع الاحاديث النبوية ، اذن، فان الدعوة الى ترك المذاهب الأربعة بهذه الحجج ، دعوة خاطئة ، وبما ان هؤلاء الدعاة الى مثل هذا الرأي منقسمون على أنفسهم ، ومتعددة أهدافهم، فانهم يدعون في ضمن هذا ، الى استبدال أربعة مذاهب ، بما لا ينحصر من المذاهب المتناقضة ، ومن المعلوم أن الاختلاف بين هذه المذاهب

الأربعة، لم يبلغ الى حد تكفير بعضهم بعضا ، بعكس هذه المذاهب الجديدة التي اجمع دعائها على ان الاختلاف بين الناس ، ينقسم فقط ، الى اسلام وكفر، فمن وافقهم فهو مسلم، ومن خالفهم يعدونه كافرا ، ولو كان معه الكتاب والسنة، فاذا عرفنا هذا ، فانه ليس من الحكمة ان نهدم ثقافة اسلامية كاملة لامة ، جهدت وعكفت على جمعها وتمحيصها ملايين العقول العديدة وصقلتها خبرة أربعة عشر قرنا ، لمجرد هذه التهم التي لم تصادف محلها ، وكل المسائل والجزئيات في قضايا الفقه المنتشرة في هذه المذاهب مسندة بأدلة من الكتاب او السنة ، او اجماع الامة ، او القياس الذي يفيد عموم النص ، وان عجز عن ادراك ذلك القاصرون، ومما لا جدال فيه، هو أنه حتى في هؤلاء الدعاة عدد كبير عاجز عن أخذ الحكم أو التعرف عليه من الكتاب والسنة ، وبما ان الله اوجب على القاصر ان يسأل العالم ، فلا بد من رجوع بعضهم الى بعض في تعرف الحكم الالهي ، اذ المسلم لا يحل له ان يفعل شيئا حتى يعلم حكم الله فيه ، واذا كان هذا جائز بالنسبة لهم فما بالهم يحرمون منه الآخرين ، كيف وقد رتب الله هذا المجتمع وقسم افراده الى أمر ومأمور ، فقال عز من قائل : «يا ايها الذين آمنوا اطيعوا الله واطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم » اذن ، فلا بد من الاقتداء بالذين هم اولى بذلك ، لما اختصاصهم الله به من علم ومعرفة ، واحاطة بأدلة الشرع بحسب الوسع البشري ، ولن ياتي أحد من المتأخرين بأفضل مما جاء به هؤلاء الأئمة ومذاهبهم ، التي يجب ان تكون هي الاصل لكل نهضة ثقافية في مجال التشريع الاسلامي نعتزم القيام بها .

### التشكيك في علوم السلف ، تشكيك في الاسلام كله

ان التشكيك في علوم سلف هذه الامة الذين باشروا نقل الاسلام حتى اوصلوه بكل امانة الينا ، لا يقل خطرا عن التشكيك في الاسلام ، لان الكتاب والسنة الذين هما اساس الاسلام ، لا يصلان الينا الا عن طريقهم فكيف نشكك في عقائدهم ، وفي سلامة صدورهم ، ونحن نعتمد على رواياتهم ، ولقد يبالح البعض في هذا الموضوع ، ويذهب به التعصب بعيدا عن المعقول ، فيدعي ان ليس لهذا الفقه في مذاهبه الأربعة ، صلة بالكتاب والسنة ، ويحاول خلق الشبهات حول هذا الموضوع ، ونحن نقول ان كل من ادعى هذا الادعاء، فقد كذب على الله ، وكذب بما لم يحط به علما وفضح نفسه فيما يدعيه من معرفة للكتاب او السنة ، فما هي مؤلفات

ائمة هذه المذاهب ؟ فبعض مؤلفات المالكية هي الموطأ والتمهيد ، والاستذكار ، والبداية والنهاية ، لابن رشد ، وغيرها (1) وكتب المذهب الشافعي مشحونة بالأدلة ، فدونت الام ، والرسالة ، واختلاف الحديث والروضة ، والمذهب ، والمجموع الذي شرحه به النووي ، الى غير ذلك . ومن كتب المذهب الحنبلي ، يكفي كتاب المغزى ، والشرح الكبير ، واما من مذهب الامام ابي حنيفة ، فلو نك كتاب الجواهر المنيفة ، وكتاب شرح معاني الآثار ، وكتاب نصب الراية للزيلعي ، الى غير ذلك ، كل هذه الكتب وغيرها كثير تكذب جميع تلك الادعاءات الخاطئة . وفي نهاية المطاف يسرني ان اتناول موضوع السنة والبدعة لنرى سماحة الاسلام ، وأين هي البدعة المذمومة ؟

### السنة والبدعة

السنة عند علماء الاصول تطلق على ما صدر عن النبي صلى الله عليه وسلم من الاقوال والافعال او التقارير ويدخل في الافعال ما هم به النبي صلى الله عليه وسلم او اشار اليه وان لم يتواتر نقل المصادر عند جمهور العلماء وسنة الخلفاء تابعة لسنته عليه السلام لقوله : ( فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين ) . ومن السنة ايضا ما اضيف الى النبي صلى الله عليه وسلم من الاوصاف والشمايل والصفات الخلقية .

والمحدثون يعرفونها بانها ما اضيف للنبي صلى الله عليه وسلم من قول او فعل او تقرير او صفة خلقية وما يتصل بالرسالة من احواله الشريفة قبل بعثته عليه الصلاة والسلام مما يرد ذكره في بعض المناسبات الدينية كمناسبة ولادته الشريفة ، وللفقهاء ايضا تعريفات للسنة مختلفة وأشمل ما يقال في ذلك : هو انها ما في فعله ثواب وفي تركه عتاب لا عقاب اى انها ما في تركه ملامة احترازا عن النقل الذي في فعله ثواب وليس في تركه عتاب ولا عقاب .

(1) وفي الفتاوي يكفي كتاب « المعيار المعرب » عن فتاوي علماء افريقيا والاندلس والمغرب « وهو يبرهن على تمشي هذا المذهب مع حاجات هذا العصر .

ونفي العقاب احترز به عن الغرض أو الواجب الذي في فعله ثواب ،  
وفي تركه عقاب ، أي عذاب بالنار ، وفي مجال العمل والاعتقاد، فالسنة تطلق  
على ما يقابل البدعة لقوله عليه السلام : ( فليكن بسنتي وسنة الخلفاء  
الراشدين ، وأياكم ومحدثات الأمور ، فان كل محدثة بدعة ، وكل بدعة  
ضلالة ، وكل ضلالة في النار ) .

فالسنة هنا تعني ما وافق عليه النبي صلى الله عليه وسلم من  
العقد والعمل ، كان ذلك منصوصا عليه في القرآن أو في الحديث أو  
راجع اليهما . وعلى هذا تكون السنة كلمة شاملة للشريعة الإسلامية كلها  
في ألتها، من كتاب وسنة واجتهاد، مستند الى واحد منهما، بشرط الصحة  
في الاجتهاد ، أو تكفي الصحة في نظر المجتهد وموافقيه ، لا في نظر مخالفه  
في الاجتهاد ، وعليه يدل ضنيع الفقهاء في تصويبهم لآراء الأئمة المجتهدين ،  
ومن هنا يتضح ما قلنا سابقا من ان السنة تعني ما دلت عليه تلك الأدلة  
التي تقدم بيانها ، وهي ما جاء به الرسول عليه السلام ، وفيه يقول تعالى :  
« وما آتاكم الرسول فخذوه ، وما نهاكم عنه فانتهوه » . وقال : « وما كان  
لمومن ولا مومنة إذا قضى الله ورسوله أمرا ان تكون لهم الخيرة من  
أمرهم ، ومن يعص الله ورسوله فقد ضل ضلالا مبينا » . وقال : « ومن  
يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيئين والصديقين  
والشهداء والصالحين ، وحسن أولئك رفيقا ، ذلك الفضل من الله » .  
وقال تعالى : « ومن يطع الرسول فقد أطاع الله » . وقال : « قل ان  
كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله » . وقال تعالى أيضا : « فلا وربك  
لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجا  
مما قضيت ويسلموا تسليما » . وقال : « فليحذر الذين يخالفون عن  
أمره ان تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب اليم » .

وأما البدعة فهي كل ما خالف هذه السنة التي أمر الله باتباعها  
وانتهاجها ، قصد ذلك مخترعها أم لا ، وهي في اللفظة تعني كل شيء أحدث  
على غير مثال سابق ، سواء كان محمودا أو مذموما .

والى انقسامها الى محمودة ومذمومة ذهب الامام الشافعي ونقل  
الامام أبو شامة في كتاب « الباعث، الى انكار البدع والحوادث » عن خرمة بن  
يحيى قال : سمعت الشافعي رحمه الله تعالى يقول : البدعة بدعتان : بدعة

محمودة ، ويدعو مذمومة ، فما وافق السنة فهو محمود ، وما خالف السنة فهو مذموم . وقال الربيع ، قال الشافعي رحمه الله تعالى : المحدثات من الامور ضربان :

احدهما : ما أحدث يخالف كتابا او سنة او اجماعا او اثرا ، فهذه البدعة الضلالة .

الثاني : ما أحدث من الخير لا خلاف فيه لواحد من هذا ، فهي غير مذمومة الخ .

وقال الشيخ عبد الحق الدهلوي في شرح المشكاة : اعلم ان كل ما ظهر بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم بدعة ، وكل ما وافق - يريد من البدعة - اصول سنته وقواعدها او قيس عليها فهو بدعة حسنة . وكل ما خالفها فهو بدعة سيئة وضلالة . ولابن رجب الحنبلي في شرح الاربعين كلام يشبه هذا : والمراد بالبدعة ما أحدث مما لا اصل له في الشريعة يدل عليه . اما ما كان له اصل من الشرع يدل عليه ، فليس ببدعة شرها ، وان كان بدعة لفة .

وباختصار ، فان علماء الامة الاسلامية كادوا ان يجمعوا على ذلك ، وهو ان البدعة التي جاءت الشريعة بدمها ، هي المخالفة للشريعة ، اعني ان دليل الشريعة العام والخاص لا يشملها .

ومن هنا ندرك ان تمييز البدع والمحدثات ، امر يحتاج الى علم كثير وفهم كبير ، واطلاع واسع ، والا آل الحال الى ما تردت فيه بلادنا الآن من انكار السنن ، وتكفير عامة المسلمين ، الذي اتخذه بعض الجهال عادة لهم .

وقد حدثت امثلة لبعض البدع المذمومة في عهد النبي عليه الصلاة والسلام ، ولكنه ردها كما حدثت المحمودة فأقرها .

ومثال البدعة المذمومة التي حدثت في عهده ولكنه عليه السلام نهى عنها ، اعتزام بعض الصحابة على عدم النوم ، والبعض الآخر على عدم الفطر نهارا أبدا ، واعتزام الآخر على اعتزال النساء، فلما اخبر عيله السلام بذلك ، صعد المنبر وقال لهم : ما بال اقوام كذا وكذا : « فمن رغب عن سنتي فليس مني » والقصة في الصحيح .

وكذلك حدث التشدد في العبادة ، وخاصة قيام الليل ، من بعض الصحابة ، فنهاهم عنه علما منه بأنهم لا يطيقونه، فقد قالت عائشة رضي الله عنها: كانت عندي امرأة من بني أسد ، فدخل علي رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : من هذه ، قالت ، قلت : فلانة ، لا تنام بالليل ، فذكرت من صلاتها ، فقال : « مه ، عليكم ما تطيقون من الاعمال ، فان الله لا يمل حتى تملوا » مع انه صلى شكرا لله تعالى حتى تورمت قدماه .

وكذلك امتناعه عن الخروج للصحابة لصلاة التراويح ، خشية ان تفرض عليهم ، هذا وما قبله باعته الشفقة .

وكذلك حدثت قصة اخرى اخرجها البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : بينما النبي صلى الله عليه وسلم يخطب اذا هو برجل قائم فسأل عنه ، فقالوا أبو اسرائيل ، نذر ان يقوم ولا يقعد ، ولا يستظل ولا يتكلم ، ويصوم ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : مره فليتكلم ، وليستظل ، وليقعد ، وليتم صومه . وفي رواية انس مرفوعا : ان الله لغني عن تمذيب هذا نفسه ، وراه يمشي بين ابنية . وفي بعض الروايات ان النبي صلى الله عليه وسلم ادرك شيخا يمشي بين ابنية يتوكأ عليهما فقال النبي صلى الله عليه وسلم : ما شان هذا ؟ قال ابناه يا رسول الله كان عليه نذر فقال صلى الله عليه وسلم : اركب ايها الشيخ ! فان الله غني عنك وعن نذرك . (راجع الصحيحين والسنن ومسنند الامام احمد ) . كل هذه الآثار وامثالها كثير تمثل جانب البدعة التي حدثت في عهد النبي صلى الله عليه وسلم ولم يقرها .

واما مثال ما حدث في عهده وله اصل في شريعته عليه السلام فأقره فكثير ، وهو مثال للبدعة المحمودة فمن ذلك :

اقراره عليه السلام لبلال على التزام المداومة على صلاة ركعتين بعد كل وضوء مع الاشادة بصنيع بلال هذا ، ففي البخاري عن ابي هريرة رضي الله عنه ان النبي صلى الله عليه وسلم قال لبلال عند صلاة الفجر : يا بلال ، حدثني بأرجى عمل عملته في الاسلام ، فاني سمعت دف نعليك بين يدي في الجنة ، قال ما عملت عملا أرجى عندي اني لم اظهر طهورا في ساعة ليل او نهار ، الا صليت بذلك الطهور ما كتب لي ان أصلي ( ودف

تعليك كما فسره البخاري حركتهما ) ، والحديث رواه الترمذي، والحاكم في المستدرک ، وفيه اقرار النبي لبلال على اجتهاده فى هذه العبادة ، وهي الترامه صلاة ما قدره الله له من النوافل ، وهو الركعتان ، كما جاء فى رواية الترمذي ، فقال بلال : يا رسول الله ، ما اذنت قط ، الا صليت ركعتين ، وما اصابني حدث قط ، الا توضأت عندها ورايت ان لله علي ركعتين انتهى ، وبما ان اصل المحافظة على النوافل والظاهرة مندوب اليه المسلم ، ومتروك تحديد وقت الاباحة المناسب لظروف المسلم للمسلم نفسه ، أقر الرسول عليه الصلاة والسلام بلالا على هذا الاجتهاد ، ولم يعتبره تشريعا جديدا ، ولم يعده فى البدع المذمومة ، بل صار سنة باقراره عليه السلام .

ومثل الاقرار على نوع من العبادة يحدثه أحد المسلمين بحضرتة عليه السلام ما جاء فى حديث رفاعة بن رافع الزرقى قال : كنا يوما نصلي وراء النبي صلى الله عليه وسلم ، فلما رفع رأسه من الركعة قال : سمع الله لمن حمده ، قال رجل وراءه : ربنا ولك الحمد ، حمدا كثيرا مباركا فيه ، فلما انصرف قال : من المتكلم ، قال أنا . قال : رايت بضعة وثلاثين ملكا يبتدرونها ايهم يكتبها اول . رواه البخاري والترمذي والنسائي ، وفيه اجتهاد هذا الصحابي فى الدعاء فى الصلاة مع قوله عليه السلام : « صلوا كما رأيتموني اصلي » . ومثال الاقرار فى الدعاء احاديث كثيرة ، منها حديث انس الذي رواه احمد والترمذي ، وابن حبان فى صحيحه ، ان النبي صلى الله عليه وسلم سمع رجلا يدعو : اللهم اني اسألك بأن لك الحمد ، لا اله الا انت الجنان المنان بديع السموات والارض ، ذا الجلال والاکرام ، يا حي يا قيوم . فقال لقد سأل الله باسمه الاعظم . ومثله حديث عبد الله بن بريدة عن ابيه انه قال : سمع النبي صلى الله عليه وسلم رجلا يدعو ويقول : اللهم اني اسألك بانى أشهد أنك انت الله الذي لا اله الا انت ، الاحد الصمد ، الذي لم يلد ولم يولد ، ولم يكن له كفوا أحد . فقال : والذي نفسي بيده ، لقد سأل الله باسمه الاعظم الذي اذا دعي به اجاب ، واذا سئل به أعطى . رواه الترمذي وغيره ، وقال حديث صحيح .

ومن ذلك اقراره المرأة على عد التسبيح بالحصا ، مع ارشاده لها الى ما هو اسهل منه ، فقد اخرج أبو داود، عن عائشة بنت سعد ابن أبي وقاص، عن

أبيها أنه دخل مع النبي صلى الله عليه وسلم على امرأة وبين يديها ثوبى  
او حصا تسبح به ، فقال : اخبرك بما هو أيسر عليك من هذا او أفضل  
فاقل : سبحان الله عدد ما خلق في السماء ، وسبحان الله عدد ما خلق في  
الأرض ، وسبحان الله عدد ما خلق بين ذلك ، وسبحان الله عدد ما هو خالق  
والله أكبر مثل ذلك ، والحمد لله مثل ذلك ، ولا اله الا الله مثل ذلك ، ولا حول  
ولا قوة الا بالله مثل ذلك . رواه النسائي والترمذي . وهذا ونحوه مثال  
لما حدث في عهده من الأقوال والأفعال ، مما يصاح مثلا للبدعة المحمودة .  
فالمذاهب وما اشتملت عليه في مجال العبادات والمعاملات من هذا  
القسم . فاذا امنت النظر فيما سقناه هنا . اتضح لك معنى السنة ومعنى  
البدعة الحقيقية ، وهي كل ما حدث مخالفا لدلالة الشرع العامة والخاصة  
وغير داخل تحت أي كلية من كلياته ، فكثير مما يلهج الجهال بكونه من  
البدع المحدثه ، لا يدخل في البدع الشرعية ، ذلك لانهم لقصورهم في اللغة  
والأصول ، وعجزهم عن التمييز ورد الفروع الى أصولها ، يطلقون كلمة بدعة  
على كل ما جهلوه ، ومن أعظم البدع في الإسلام ، تقديم الجهال على العلماء  
واسناد المناصب الدينية لمن لا يستاهلونها لجهلهم ، او لفقدان شرائطها  
فيهم ، فيتخذون الافتاء بالجهل حرفة لهم يتعيشون من ورائها ، فيحرفون  
الآيات ويبدلون ، ويكذبون على الله ورسوله . وقد قال تعالى : « ولا تقولوا  
لما تصف السنتكم الكذب هذا حلال وهذا حرام لتفتروا على الله الكذب .  
ان الذين يفترون على الله الكذب لا يفلحون » .

ومن أعظم البدع التي عمت بها الباطل في هذا العصر ، الذي ساد فيه  
الروبيضة أخذ الدين ممن ليس له دين ، وتحريف القرآن ، وتكذيب آياته  
البيّنات .

ومن أكبر ما ابتلي به هؤلاء ، حمل آيات نزلت في المشركين والكفار  
على المؤمنين ، وهذه هي بدعة الخوارج ، ففي الصحيح ان ابن عمر كان يرى  
الخوارج شرار خلق الله ، وقال انهم انطلقوا الى آيات نزلت في الكفار  
فجعلوها على المؤمنين . حتى ترى الرجل يصبح مومنا ويمسي كافرا  
طبقا لما أخبر به عليه الصلاة والسلام . ففي صحيح مسلم ، عن أبي هريرة  
قال ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : بادروا بالأعمال فتنا كقطع  
اللبل المظلم ، يصبح الرجل مومنا ويمسي كافرا ، ويمسي مومنا ويصبح  
كافرا يبيع دينه بعرض الدنيا .

وأخرجه احمد والطبراني عن الضحاك بن قيس وفيه : يبيع اقوام  
اخلاقهم ودينهم بعرض من الدنيا .

وأخرجه الحاكم من حديث معاذ في آخر حديث عوف بن مالك قال  
خمسة اظلتكم من ادرك منهن شيئا ثم استطاع ان يموت فليمت : ان يظهر  
التلاعن على المنابر ، ويعطى مال الله على الكذب والبهتان ، وتسفك الدماء  
بغير حق ، وتقطع الارحام ، ويصبح العبد لا يدري اصال هو ام مهتد .

وروى الطبراني في الاوسط من حديث سلمان رضي الله عنه قال ،  
قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « اذا ظهر القول ، وخزن العمل ،  
واختلفت اللسان ، وتباغضت القلوب ، وقطع كل ذي رحم رحمه ، فعند  
ذلك لعنهم الله فأصمهم وأعمى أبصارهم » .

فنسأل الله لنا الهداية والتوفيق ، وجعلنا من الذين يستمعون القول  
فيتبعون أحسنه ، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

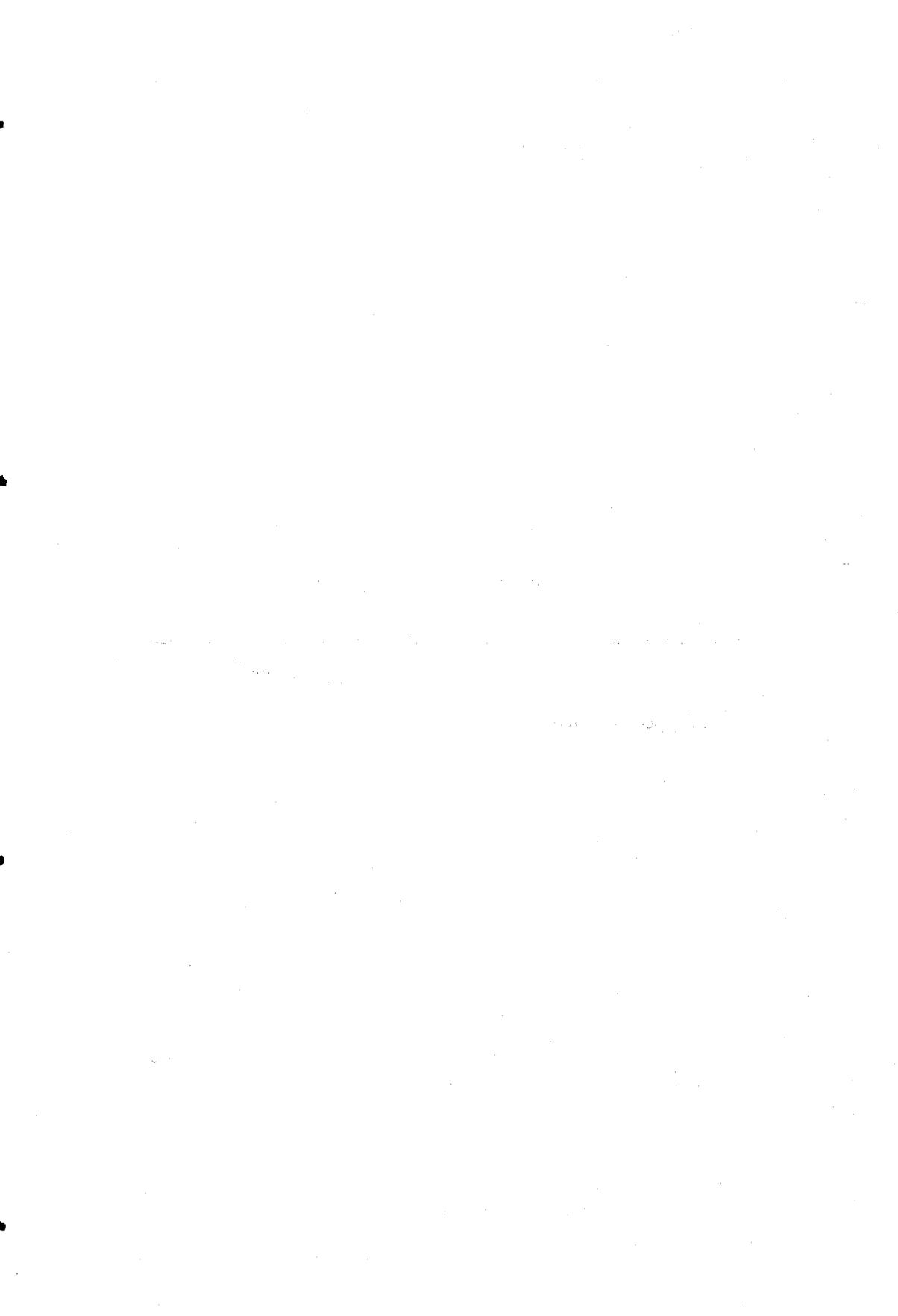
ان المجاهدين الاولين في عصر النبي صلى الله عليه  
وسلم لم يكونوا اذ ذاك جيشا منظما ولا جيشا محترفا  
ولكنهم بهروا العالم بما حققوه من فتوحات لم تكن فتوحات  
السبب فقط ، ولكن فتوحات الاخلاق ، فتوحات الاسلام .

- جلاله الحسن الثاني -

الإستاذ عبد السلام المسفيوي

محصل على العالمية ، متخصص في البحث وحياء  
التراث العلمي .

( الملكة المفريية )



## قبس من تاريخ مالك رحمه الله

للاستاذ عبد السلام جبران المسفيوي

أيها السادة :

يسعدني أن ألقى على مسامعكم الكريمة كلمة وجيزة كقبس من تاريخ الإمام مالك ، ذاك الإمام الجليل الذي أغنت شهرته العلمية ومآثره السنينة عن التعريف به والأشادة بذكره رغم ما وضع في ترجمته من التأليف العديدة والتصانيف المديدة ، لا بد أن أذكر من ذلك الشيء اليسير تبركا وتنويها بجنايه الأثير ، وقيل الدخول في الموضوع نشير الى المدرسة التي أنبتت هذا الإمام العظير وهي المعروفة بمدرسة أهل المدينة يعود أصل هذه المدرسة الى عمر بن الخطاب وابنه عبد الله وزيد بن ثابت وعبد الله بن عباس وعائشة زوج النبي صلى الله عليه وسلم ، وكانت حقائق الدراسة في مسجد الرسول صلى الله عليه وسلم وفيه أيضا تدبر شؤون الدولة الإسلامية ، وكان الاعتماد العلمي آنذاك على ما حفظ في الصور أكثر مما كتب في السطور لشدة الايقان وسيلان الاذهان ، فظهر من تلك المدرسة جماعة من الفقهاء الاعلام الحاملين راية الاسلام ، من أشهرهم سعيد بن المسيب وعروة بن الزبير والقاسم بن محمد وأبو بكر ابن عبد الرحمن وسليمان بن يسار وخارجة بن زيد وعبيد الله بن عبد الله في ذلك الوسط العلمي تمخض الزمان فولد الامام مالك نادرة البطون عام 93 هـ وكان أصله عربيا من قبائل اليمن ، وهو أبو عبد الله مالك بن أنس

الاصبحي بن مالك بن ابي عامر ابن عمرو بن الحارث بن غيمان ، ابوه ينتمي الى قبيلة اصبح من قبائل اليمن ، وينتمي نسب امه الى قبيلة الازد واسمها العالية بنت شريك ، وجده قد نزل بالمدينة حينما اتاها متظلما من بعض ولاة اليمن فاخثارها مستقرا ومقاما ، وتصاهر مع عائلة قرشية من بنسي تيم بن مرة وكان حلفه فيهم ، وكان جده مالك المذكور من كبار التابعين ، ومن الاربعة الذين حملوا عثمان بن عفان الى مرقداه الاخير ليلا اخذ ، واخذ منه .

اخذ عن عمر بن الخطاب وعن عثمان بن عفان وطلحة بن عبد الله وعائشة أم المؤمنين واخذ عنه بنوه منهم والد الامام انس وابو سهيل نافع، المعدود من شيوخ ابن شهاب الزهري وقد تأخر عنه في الوفاة كما في فتح الباري . نشأ مالك في بيت متجه لاكتساب العلم واقتنائه وتعلمه وتعليمه وفي بيته مليئة بالطموح للعرفان فوجه في اول نشأته همته القعساء لاخذ العلوم وللارتواء من ينابيعها الفياضة بالفهوم وبذل أقصى جهده في تحصيل المعارف وتحمل المشقة ودلل الصعاب في سبيل التقاط فرائدها ، وكان له خبير معين من والدته الازدية لما لها من كبر العناية بمظهره كمخبره تلبسه عند الذهاب لطلب العلم احسن الثياب وتختار له المآخذ العلمية الصافية كقولها له اذهب الى ربيعة الراي فتعلم من ادبه قبل علمه .

فكان يقتطف من رياض العلم اطيب ازهارها ، ويجتني احلى ثمارها حتى اصبح قدوة للانام وحجة في حديث الرسول عليه السلام وعمدة كبرى في فقه الاسلام ، وكان معجبا باحد شيوخه وهو عبد الرحمن بن هرمز المعروف بالاعرج وقد قال رضي الله عنه فيه : جالست ابن هرمز ثلاث عشر سنة في علم لم ابته لاحد من الناس ، قال وكان اعلم الناس بالرد على اهل الاهواء وبما اختلف فيه الناس ، وكان رضي الله عنه يتأدب باديه وياخذ بحكمته وقد قال جلساؤه في ذلك سمعت ابن هرمز يقول : ينبغي للعالم ان يورث جلساءه قول لا ادري حتى يكون ذلك أصلا في ايديهم يفزعون اليه ، فاذا سئل احدهم عما لا يدري قال لا ادري لان كلمة لا ادري تدل على الامانة في العلم ولذلك كان رضي الله عنه لا يترفع في الشيء الذي لا يعلمه ان يقول لا ادري ، بل حدث عنه تلميذه ابن وهب فقال كان مالك يقول في أكثر ما يسأل عنه لا ادري . وقال خالد بن خداس

قدمت على مالك من العراق بأربعين مسألة فقال فى اثنين وثلاثين منها لا أدري ، قال مالك كان ابن عجلان يقول : اذا أخطأ العالم قول لا أدري أصيبت مقاتله ، وروى عن ابي الدرداء رضى الله عنه انه قال لا أدري نصف العلم ، وكان مالك يكثر من قول ما شاء الله ، فقال رجل ما أكثر ما يقول مالك ما شاء الله ، قال فأتى فى منامه فقيل له أنت القائل ما أكثر ما يقول مالك ما شاء الله ، لو شاء مالك ان يثقب الخردلة بقوله ما شاء الله لفعل . وكان مالك اشقر ، شديد البياض ، ربة من الرجال ، كبير الرأس ، أصلع ، وكان لا يخضب شيبه ويكره حلق الشارب ويعيبه ويراه مثلة ، وكان يترك له سبلتين طويلتين ويحتج بقتل عمر بن الخطاب رضى الله عنه لشاربه اذا همه امر ، وكان حسن البزة ، وقورا مهيبا ، ومن هيبتة ان الرجل لا يدخل عليه ويملا عينه منه ومن سمته ويقع تحت تأثير نظراته النافذة حتى يأخذ ذلك من فوائده ويهابه فيجلس كأنما على رأسه الطير .

وقد كان الخلفاء واولادهم يهابونه حتى ان ابا جعفر المنصور كان مالك فى مجلسه واذا بصبي يخرج ثم يعود فقال المنصور : أتدري من هذا ؟ قال : لا ، قال : هذا ابني وانما يفزع من شيبتك ، وكان له نفوذ اكبر من نفوذ الولاة حتى انشد فيه بعض شعراء عصره :

ياتي الجواب فما يراجع هيبة والسائلون نواكس الادقــان  
أدب الوقار وعز سلطان التقى فهو المطاع وليس ذا سلطان

وسر هذه الهيبة ناشىء من تقوى الله وطاعته ، وله رضى الله عنه علاوة على ذلك بسطة فى الجسم يعتنى بملبسه فجعل له ذلك مظهرا جسيما ممتازا فى الجمال .

وقد بلغت هيبتة هذه حدا أعلى من هيبة الملوك كما حدث بذلك بعض أهل الاندلس اذ قال عندما رآه : ما هيت أحدا هيبتى من عبد الرحمن ابن معاوية ( أى عبد الرحمن الداخل ) فلما دخلت على مالك هبتة - هيبة شديدة صغرت منها هيبة ابن معاوية ، وكان شديد التعظيم لحديث الرسول صلى الله عليه وسلم لا يحدث الا على وضوء ، ولا يركب دابته فى دار الهجرة النبوية على ضعفه وكبر سنه ، وكان يقول لا أركب فى مدينة فيها جثة الرسول صلى الله عليه وسلم ، وكان اذا أراد ان يلقي على المسامع

أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم يفتسل ويتبخر ويتطيب فاذا رأى أحدا رفع صوته عنده يقول له : أغضض من صوتك فان الله يقول لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي . وبلغ من اجلاله لحديث الرسول انه يحدث فلذغته عقرب ست عشرة مرة ولونه يتغير ومع ذلك لم يقطع الحديث .

وهو من تابع التابعين على الصحيح خلافا لمن قال انه من التابعين محتجا بادراكه لعائشة بنت سعد بن ابي وقاص ، وقد قيل فيها انها صحابية والصحيح انها ليست بصحابية بل هي من التابعيات .

اما الفتوى فقد اقلت اليه مقاليدها حتى قيل : لا يفتى ومالك في المدينة ، وقال مصعب سمعت مالكا يقول : ما أفتيت حتى شهد لي سبعون اني اهل لذلك ، وفي رواية أخرى حتى قال لي ثلاثون معمما : أفت ، فأفتيت وأنا ابن أربع عشرة سنة ، وكان في ذلك الوقت لا يتعمم تحت حلقة الا فتيه . وكان من المتصدرين للفتوى في زمانه يحيى ابن سعيد الانصاري ، وربيعة بن ابي عبد الرحمن ، ونافع مولى ابن عمر وأمثالهم ، وقال ابن مهدي : أئمة الناس في زمانهم أربعة : سفيان الثوري بالكوفة ، ومالك بالحجاز ، والاوزعي بالشام ، وحماد بن زيد بالبصرة . وقال ابو حاتم الرازي : الحجة على المسلمين الذين ليس فيهم : سفيان الثوري وشعبة ومالك وسفيان ابن عيينة وحماد بن زيد .

وكان مالك لا تأخذه في الله لومة لائم ، له من شجاعة الادب ورسوخ العقيدة وقوة الايمان ما جعله لا يهاب في ابداء رأيه أحدا ، ولا يخشى في مذهبه وعدا ولا وعيدا بل كان يستعصم بالصبر الجميل امام التصريح بما يعتقد حق ، حتى أفتى بخلع المنصور ، ومبايعة محمد بن عبد الله من آل علي مما دعى أمير المؤمنين جعفر بن سليمان الى ضربه سبعين سوطا من أجل ما نسب اليه أن البيعة لا تحل بالاكراه على أن ذلك الضرب لم يزد في سماء مجده الا علوا وارتقاء .

والمنصور لما أحس بمرارة ما فعل جاء الى الحجاز حاجا فبعث يستدعيه ليعتذر اليه فجاء على لسانه في ذلك ما يدل على مقدار عظمته في سماحته ، كما كان عظيما في علمه وحميد خصاله ، حيث قال : « لما دخلت على ابي جعفر وقد عهد الي ان آتية في الموسم ، قال لي : والله

الذي لا إله إلا هو ما أمرت بالذي كان ولا علمته ، انه لا يزال أهل الحرمين بخير ما كنت بين أظهرهم ، واني أخالك أمانا لهم من عذاب ، ولقد رفع الله بك عنهم سطوة عظيمة فانهم أسرع الناس الى الفتن ، أمرت بعد والله ان يوتي به أى بالوالي على قتب ، وأمرت بضيق محبسه والاستبلاغ من امتهانه ولا بد ان أنزل به من العقوبة اضعاف ما نالك منه ، فقال : عافى الله أمير المؤمنين وأكرم مثواه فقد عفوت عنه لقرايته من رسول الله صلى الله عليه وسلم وقرايته منك ، قال : فعفا الله عنك ووصلك ، ثم قال له بعد ذلك لم يبق فى الناس أفقه مني ومنك وقد شغلتنى الخلافة فضع للناس كتابا ينتفعون به .

وتجنب رخص ابن عباس وشدائد ابن عمر وشواذ ابن مسعود ووطئه للناس توطئة ، فصنف الموطأ ، وبوبه تبويبا فقهيا مما جعله كتاب حديث وفقه فى آن واحد ، واختلف مقدار أحاديثه باختلاف رواته ، وسمعه عليه المهدي ثم الرشيد سنة 174 ، وأغدقا عليه أنواع النعم ، وله مع الخلفاء والولاة نصائح غالية ومواعظ قيمة سجلها التاريخ بمسداد الفخر على صفحات الخلود ، وروى عتيق بن يعقوب الزبيرى ان هارون الرشيد قدم المدينة المنورة وكان قد بلغه ان مالك بن أنس عنده الموطأ يقرأه على الناس فوجه اليه البرمكي ، فقال له اقرا له السلام وقل له يحصل الى الكتاب فيقرؤه علي ، فقال له : اقراه السلام وقل له ان العلم يزار ولا يزور وان العلم يوتي ولا يأتي فاتاه البرمكي فأخبره ، وكان عنده أبو يوسف القاضي فقال يا أمير المؤمنين يبلغ الى أهل العراق انك وجهت الى مالك بن أنس فى أمر فخالفك واعزم عليه فيبينما هو كذلك اذ دخل مالك بن أنس فسلم وجلس فقال يا ابن أبي عامر ابعث اليك فتخالفني فقال مالك : يا أمير المؤمنين أخبرني الزهري وذكره بسنده عن خارجة بن زيد بن ثابت عن ابيه رضى الله عنه قال : كنت اكتب الوحي بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يستوي القائلون من المؤمنين وابن أم كلثوم عند النبي صلى الله عليه وسلم فقال يا رسول الله اني رجل ضرير وقد أنزل الله فى فضل الجهاد ما قد علمت ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : لا أدري وقلمي رطب فما جف حتى ثقل فخذ النبي صلى الله عليه وسلم على فخذي ثم اغمي على النبي عليه السلام ثم جلس ، فقال صلى الله عليه وسلم يا زيد اكتب غير أولي الضرر ، فيا أمير المؤمنين حرف واحد بعث فيه جبريل والملائكة من مسيرة خمسين عاما الا ينبغي لي ان اعزه واجلسه وان الله

تعالى رفعك وجعلك فى هذا الموضع بعلمك فلا تكن أنت أول من يضع عز العلم فيضع الله عزك ، قال فقام الرشيد فمشى مع مالك الى منزله فسمع منه الموطأ وأجلسه معه على المنصة فلما أراد أن يقرأه على مالك قال تقرأه علي قال مالك ما قرأته على أحد منذ أزمان ، قال فتخرج الناس عني حتى أقرأه عليك فقال مالك : أن العلم إذا منع من العامة لأجل الخاصة لم ينفع به الخاصة فأمر له معنى بن عيسى الفزاز ليقراه عليه فلما بدأ ليقراه عليه قال مالك بن أنس لهارون الرشيد يا أمير المؤمنين أدركت أهل العلم ببلدنا وانهم ليحبون التواضع للعلم فنزل هارون على المنصة فجلس بين يديه ، قال ابن ناصر الدين وقد رويت هذه القصة أطول من هذا عن عبد الله بن وهب وهذا امثل .

وكان مالك ذا فطنة وعقل واجح حتى أن ربيعة كان إذا جاءه مالك قال جاء العاقل ومن ذكائه ما وقع فى زمنه وهو ابن ثلاثة عشرة سنة كان يقرأ الفقه على أشياخه ان امرأة غسلت ميتة فلما وصلت الى فرج الميتة ضربت بيدها على فرجها وقالت يا فرج ما كان أرنالك فأمسكت يدها على الفرج والتحمت فما استطاع أحد إزالة يدها فقيل للفقهاء ما الحكم فى ذلك ، فمن قائل تقطع يدها ومن قائل يقطع بدن الميتة قدر ما أمسكت عليه اليد ، وطال فى ذلك النزاع أى حرمة أوجب علينا ، هل حرمة الحي فلا يقطع منه شيء أم حرمة الميت فلا يقطع منه شيء .

فبينما هم كذلك اذ دخل مالك فى جملة الصبيان الطلبة فقال : أرى الحكم فى ذلك أن تجلد الفاسلة ثمانين جلدة حد القرية ، فان كانت افترت فان يدها تطلق فجلدت الفاسلة حد القرية فأطلقت يدها فتعجب الفقهاء من ذلك ، ونظروا اليه بعين التعظيم والاحترام والحقوه بالشيوخ العظام كما الحق عمر ابن الخطاب عبد الله بن عباس بأهل بدر لعظم قدره فى العلم .

وكان مالك ذا فراسة قوية نافذة لبواطن الامور ولخفايا النفوس ومن ذلك ما ذكره الشافعي حيث قال : لما سرت الى المدينة ولقيت مالكاً وسمع كلامي ، نظر الي ساعة وكانت له فراسة ثم قال ما أسمك قلت محمد ، قال يا محمد اتق الله واجتنب المعاصي فانه سيكون لك شأن من الشؤون ، وقد اتاه الله حافظة واعية وحرصاً شديداً على الحفظ وصيانة ما يحفظ من النسيان ، وقد سمع من ابن شهاب الزهري واحداً وثلاثين

حديثاً لم يكتبها ثم اعادها فلم ينس منها حديثاً واحداً . ومما لا ريب فيه ان قوة المحافظة أساس للنبوغ في أى علم ولذلك قال فيه ابن شهاب المذكور : انه وعاء علم ، وكان يواجه مشاكل الحياة بارادة قوية وعزيمة صارمة مما جعله يستولى على أهوائه وشهواته ، وكان الاخلاص في العمل شعاره الوحيد ، وقد رفعه الاخلاص ان يقرر فيقول : ان نور العلم لا يؤنس الا من امتلأ قلبه بتقوى الله فهو يقول : العلم نور لا يأنس الا بقلب تقى خاشع كما دفعه الاخلاص ايضا في الاحكام الى الابتعاد من قوله هذا حرام وهذا حلال ، فيما لم يكن فيه نص صريح بل كان في ذلك اكره واستحسن ، وكثيراً ما يعقب ذلك مقتبساً من القرآن ، ان نظن الاظننا وما نحن بمستيقنين .

اما الادلة التي بنى عليها مذهبه فهي تبلغ سبعة عشر ، خمسة من كتاب الله وهو يجعله فوق كل الادلة لانه المصدر الاساسي للشرائع والنبوغ الاول لها ، وسجل أحكامها الخالدة .

1 ) يأخذ بنصه الصريح وهو لا يقبل تأويلاً نحو فصيام ثلاثة ايام في الحج ... ،

2 ) يأخذ بالظاهر منه وهو لا يقبل التأويل ولكن لا يوجد دليل على وجوب تأويله .

3 ) يأخذ بمفهوم الموافقة وهو فحوى الكلام وتنبية الخطاب نحو قوله تعالى : « فلا تقل لهما أف ... » الخ .

4 ) يأخذ بمفهوم المخالفة وهو ان يجيء النص على الحكم مقيداً بوصف او نحوه مما يفيد تقيض الحكم عند تخلف النص نحو قوله تعالى : « والزاني والزانية فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة ولا تأخذكم بهما رافة في دين الله » .

5 ) يأخذ بالتنبيه على علة الحكم مثل قوله تعالى « فانه رجس او فسقا - أهل لغير الله به » .

وهكذا يأخذ بكتاب الله العزيز نصاً صريحاً او باشارة او تنبيه او مفهوم ويأخذ من السنة ايضا مثل هذه الخمسة لان السنة هي النبوع

الثاني بعد كتاب الله فى الشرائع ، فكان يأخذ بالمتواتر ، والمشهور منها  
أى المشتهر فى عصر التابعين وتابعهم اماما أشتهر بعده فلا عبرة به ،  
ويأخذ أيضا بخبر الاحاد ما لم يعارض أصلا معلوما أو لم يكن هناك ما  
يعاضده من اصل قطعي آخر ، أو يخالف عمل أهل المدينة كما سيأتي

الدليل 11 الاجماع ، وهو المصدر الثالث للشرائع بعد الكتاب  
والسنة ، وهو اتفاق المجتهدين المسلمين فى عصر من الاعصار على حكم  
شرعي .

الدليل 12 القياس وهو الحاق امر غير منصوص على حكمه بأمر  
آخر منصوص على حكمه لاشتراكهما فى علة الحكم ، لان علة الاحكام هي  
السبب فى وجودها .

الدليل 13 عمل أهل المدينة يعتبره الامام مالك حجة ويقدمه على  
الاحاد ، ويقول مقالة شيخه ربيعة : ( ألف عن ألف خير من واحد عن  
واحد ) وكان يوجه اللوم الى كل فقيه لا يأخذ بعمل أهل المدينة ، على أن  
عمل أهل المدينة كان رائجا قبل مالك حتى عند القضاة ويعتبرونه منقولا  
عن الرسول صلى الله عليه وسلم ، روى فى ذلك ان القاضي محمد ابن ابي  
بكر قيل له فى حكم قضى به : ألم يات فى هذا حديث كذا ، فقال بلى ،  
فقيل له : فما بالك لا تقضى به ، فقال : فأين الناس عنه ، يعنى ما اجمع  
عليه الصلحاء بالمدينة .

الدليل 14 قول الصحابي فكان رضى الله عنه يأخذ بفتوى الصحابي  
على انها حديث واجب العمل به اذا كان ذلك لا يمكن ان يعرف الا بالنقل  
من الرسول صلى الله عليه وسلم .

الدليل 15 الاستحسان كان يأخذ به ويقول الاستحسان تسعة اعشار  
العلم لانه الخضوع لحكم المصلحة حيث لم يكن نص قرآني او حديث نبوي  
لان الشرع العزيز ما جاء فى الواقع الا لمصالح الناس .

الدليل 16 سد الذرائع ، كانت الذرائع من الاصول التي اخذ بها  
مالك اذ يرى ان ما يؤدي الى الحرام حرام وما يؤدي الى الحلال حلال ،

وفى ذلك من الحق ما لا يخفى ، اذ فيه ربط الاصول الشرعية بمصالح  
البشر .

الدليل 17 الاستصحاب ، اى الاستدلال باستصحاب الحال ، ببقاء  
ما كان على ما كان لعدم ثبوت تغيره ، وعند دليل الاستصحاب نمسك  
عنان القول فى هذا الباب منبهين على ان مناهج مذهب الامام مالك مناهج  
خصيصة متعددة يتسع فيها آفاق التفكير ، وتجد فيها ألوانا من المنازع  
الفقهية الملائمة للافطار المتباينة فى العادات والاعراف فيها مجال واسع  
للاستنباطات .

وقد كان من فقهاء هذا المذهب المالكي من جمع بين الفقه العميق  
وبين الفلسفة والحكمة كابن رشد الحفيد الذي تلقى عنه الارويون كثيرا  
من مباحث الفلسفة .

وكان لكتابه الموطأ روايات متعددة لم تصلنا منها الا اثنتان : رواية  
محمد بن الحسن صاحب ابي حنيفة ، ورواية يحيى الليثي الذي انتهت له  
الرئاسة فى الاندلس وقد اخترمته المنية سنة 234 ، وكان من تلامذته  
الامام محمد بن الحسن الشيباني الحنفي والامام الشافعي وأسد بن  
الفرات التونسي وعبد السلام التنوخي المعروف بسحنون ، واشتهر  
منهم فى عصره عبد الرحمن بن القاسم وعبد الله بن وهب وأشهب بن عبد  
العزیز القيسي وغيرهم ، وقد نشأ مذهبهم بالمدينة وانتشر فى الحجاز  
ثم اقتص به اهل المغرب والاندلس ، اما من الناحية الشعرية فقد نقل انه  
لم يقل الا بيتين :

درج الايام تنـدرج \* ويوت الهم لا تلـج  
رب أمر عز مطلبه \* قربته ساعة الفرج

هكذا بقي طيلة حياته الكريمة مشرقا لنور العلم وقبلة لرواة الحديث  
وعمدة لارباب الفتوى حتى اتاه الاجل المحتوم سنة 179 يوم الاحد لتمام  
اثنى عشر يوما من ربيع الاول ودفن بالبقيع وقد أشار الى وفاته العلامة  
احمد المغربي بقوله :

قد رمز الشيخ الامام الماهر  
وفاة مالك بقول ظاهر

وذلك قعظ غير ان لا توريفة  
فيه ولا اشارة لتعمية

فقلت لما ان رأيت ذلك  
تاريخه قولك فاز مالك

فمن زحزح عن النار وادخل الجنة فقد فاز .

والذي تولى الصلاة عليه عبد الله بن محمد بن ابراهيم بن محمد بن  
علي بن عبد الله بن عبوس وله من العمر تسعون سنة ، أسكنه الله فسيح  
جناته وغمسه في دائرة رحمته وجعل له أحسن جوار وأطيب قرار .

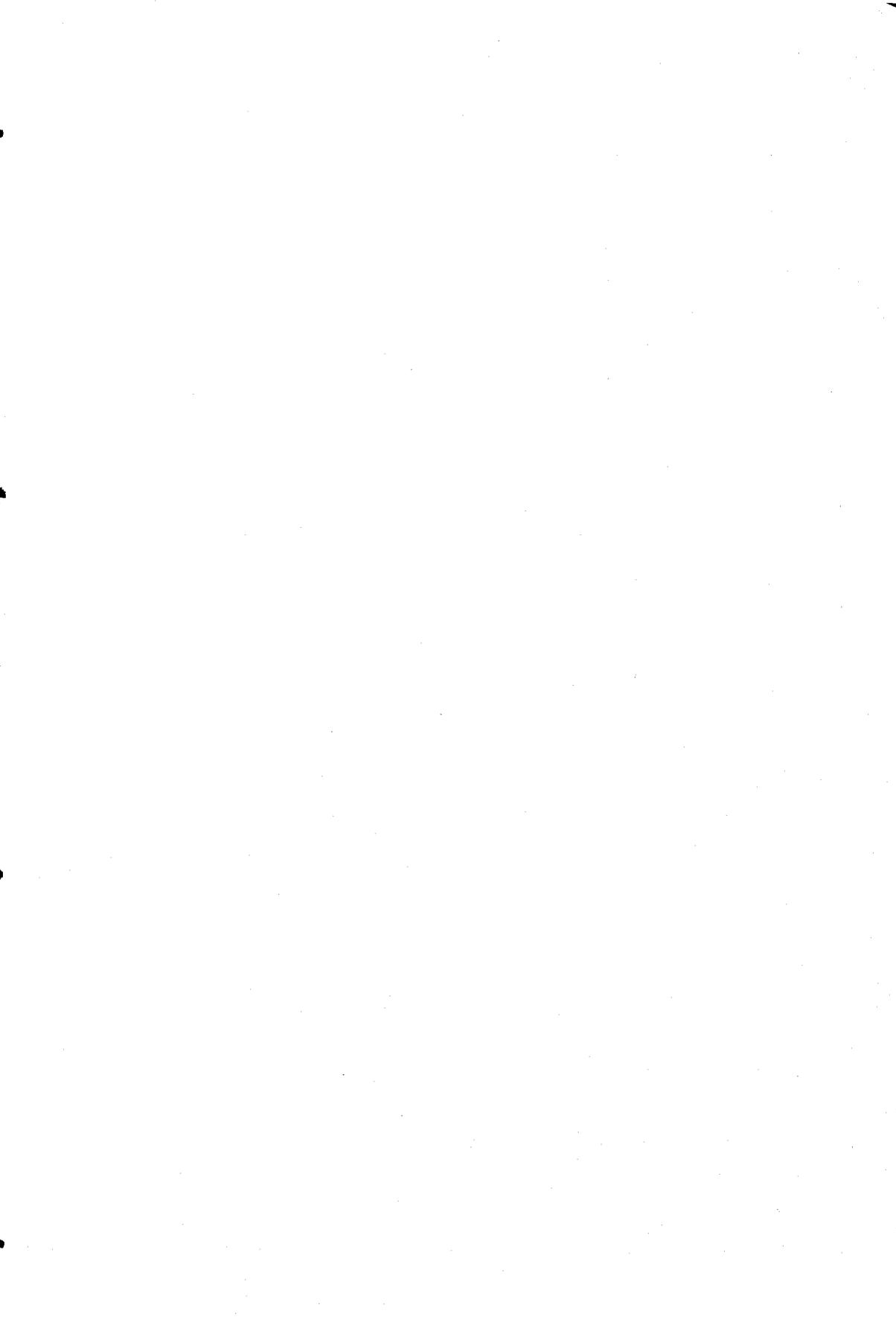
مالك امام من أئمة المسلمين ، مجمع على فضله وثبته  
في الحديث ، ومالك نجم أهل الحديث المتوقف على  
الضعفاء ، الناقل عن أولاد المهاجرين والانصار .

- يحيى بن معين -

## الاستاذ عباس الجرادي

محصل على ليسانس وماجستير في الادب العربي ،  
وعلى دكتوراة الدولة في الآداب .

( المملكة المغربية )



## اسباب انتشار المذهب المالكي واستمراره في المغرب

للدكتور عباس الجراري

لا يخفى ان اجتهاد المسلمين الاوائل فى ممارسة الحياة السياسية والفكرية لدولة الاسلام التي اتسعت رقعتها بفتوح البلدان وانسواء شعوب هذه البلدان تحت لواء الدين الجديد ، اتاح لهم ان يواجهوا قضايا عدة فرضتها الظروف الطارئة التي كانت تواكب عملية الاتساع والانتشار ، وما كانت تولد من احتكاك وصراع اغنيا الفكر الاسلامي وامداه بتجارب تنسم فى غالبيتها بالاجيائية ، على الرغم مما افضت اليه فى بعض الاحيان من سلبيات ، وهي تجارب متعددة الجوانب ، ترتبط ابعادها بكل مقتضيات الحياة ، ويمكننا ان نذكر منها :

**اولا :** بعدا سياسيا تمثل فى مشكل الخلافة ، وقد واجهه المسلمون منذ وفاة الرسول عليه السلام ، ثم تطور بعد مقتل عمر بن الخطاب ليفضي فى عهد عثمان بن عفان وعلي الى أزمة أدت فى أيام ابن أبي طالب الى انقسام الخلافة شطرين : احدهما فى العراق والجزيرة يدين لعلي ، والثاني فى الشام ومصر خاضع لمعاوية ، كما أدت الى ظهور الخوارج .

واتسع نطاق هذه الازمة بعد انفراد معاوية بالامر ، وما ترتب عن تحرك ابني علي ، والحسين خاصة ، من معاناة كان طبيعيا ان تفرز تنظيمات شيعيا لم يلبث ان شكل مع حركة الخوارج حزبي معارضة للدولتين الاموية والعباسية على السواء .

**ثانياً :** بعداً عقدياً متمحوراً حول ما سمي بعلم الكلام ، وهو علم يدور حول أصول العقائد الإسلامية لاثباتها والدفاع عنها ضد الآراء المخالفة لها بالحجج العقلية .

والحقيقة أن المسلمين لم يكونوا محتاجين إلى هذا العلم أول الأمر ، لعمق إيمانهم واقتدائهم بالرسول واعتمادهم على العمل أكثر من اعتمادهم على الجدل والمناقشات النظرية ، ولكنهم شغلوا به بعد أن انقسموا إلى فرق وأحزاب ، وبعد أن أخذ النزاع صبغة عقيدية ربطت الموقف من الخلافة عند تلك الفرق والأحزاب بقضية الإيمان والكفر .

وينطلق علم الكلام من جانبين : أحدهما نقلي قائم على ثبوت شرعي يقيني للمبادئ العقيدية ، والثاني عقلي يهدف إلى البحث عن الأدلة التي تكشفها هذه المبادئ وتدافع عنها ، ومن ثم نشأ الخلاف حول الكلام بين فريقين :

1 - الذين يرون ضرورته ، معتمدين على أن القرآن نفسه يدعو إلى الجدل العقلي ويحث عليه للإثبات والإقناع ، وهو الخط الذي سار فيه المعتزلة ، مثيرون بذلك مباحث تتعلق بصفات الله وبالقضاء والقدر ومصير الإنسان وحرية وبقضايا العدل والوعد والوعيد .

2 - الذين يقفون ضده ، لأنهم يرون أنه لا داعي لأدلة عقلية ، في إثبات شيء قرره العقيدة ، لا يحتاج لغير الإيمان به ، ومعظم هؤلاء من أهل السنة ، وأن اتجه بعضهم فيما بعد إلى استحسان الخوض فيه ، لا سيما مع اتجاه الأشعري الذي صاغ العقيدة صياغة عقلية وافقت من كان من أهل السنة ميالاً للجدل والنقاش .

**ثالثاً :** بعداً فقهياً بدأ باجتهاد الصحابة والتابعين في القضايا والنوازل التي طرأت عليهم وليس فيها نص صريح من الكتاب والسنة ، واتضحت من هذا الاجتهاد المبكر أو بدأت تتضح ملامح مدرستين فقهيتين :

**أحدهما :** في المدينة يميزها فقه الأثر ، من حيث أن فقهاءها لا يخلون بالرأى إلا اضطراراً وعند الضرورة ، مع اتباع لجانب المصلحة .

**والثانية :** في العراق يطبعها فقه الراي ، ويعمد فقهاؤها الى الاجتهاد كلما اعوزهم النص ، سالكين فيه جانب القياس مع تهاد عندهم في بعض الاحيان يعتمد على الافتراض والتقدير .

ثم اتسع نطاق الاجتهاد بعد التابعين على يد الفقهاء الائمة ، وكان فيهم من ادركهم واخذ عنهم سواء في هذه المدرسة او تلك ، فقد اخذ ابو حنيفة عن اساتذة من فقهاء الراي كابراهيم النخعي والشعبي وعطاء بن ابي رباح .

واخذ مالك عن تلاميذ ابن عمر كابنه سالم ، وكنافع ، فضلا عن كبار التابعين الذين كانوا بالمدينة ، وفي طليعتهم سعيد بن المسيب الذي اخذ عن ابن شهاب تلميذ عمر بن الخطاب ، وقاسم بن محمد بن ابي بكر الصديق الذي روى عن عمته عائشة ام المومنين .

والحق ان ظروفنا كثيرة جدت ، هي التي حثت هؤلاء الائمة على التفكير في حماية الفقه مما قد يداخله من شوائب ، وبدراسته وتعميده والاجتهاد فيه ، منها :

- 1 - ظهور قضايا ومشاكل ونوازل لم تكن مطروحة من قبل .
- 2 - انتشار ظاهرة الوضع والكذب في مجال الحديث .
- 3 - ابتداعات الفرق والاحزاب ، وخاصة ما يتصل منها بفقه الشيعة

والخوارج الذي كان يقابل فقه الجماعة او فقه السنة .  
وتجدر الاشارة الى ان اختلاف الائمة المجتهدين لم يكن يمس جوهر الشريعة ، ولكنه كان يمس فهم بعض النصوص وتطبيق كلياتها على الفروع .



كان طبيعيا - بعد ان تم فتح المغرب على يد عقبة بن نافع ابتداء من سنة 61 هـ ، ثم على يد موسى بن نصير ابتداء من سنة 79 هـ - ان تقوى اواصر اتصاله بالمشرق الذي اخذت اصداؤه احداثه تتردد فيه بكل ابعاده السياسية والعقدية والفقهية .

ففي المجال السياسي كان الاضطهاد الذي مارسه الامويون على الخوارج ولا سيما في عهد عبد الملك وابنه هشام يحثهم على الفرار من قبضة الدولة ومحاولة نشر مبادئهم في الامصار ، وكذلك كان الامر في عهد العباسيين .

وهكذا وفدت على المغرب والشمال الافريقي عامة فئات هؤلاء الخوارج ، وخاصة منها الاباضية والصفيرية ، من أمثال سلمة بن سعد الاباضي الذي يعتبر من المع القادمين ، فضلا عن اتصال بعض البربر بزعماء المذهب الخارجي في المشرق ، ومن اولهم ابو داود وعبد الرحمن ابن رستم اللذان اخذا عن ابي عبيدة مسلم بن ابي كريمة امام الاباضية في العراق .

ويبدو ان مبادئ الخوارج وافقت مزاج البربر وناسبت وضعهم السياسي والاجتماعي ، اذ كانوا يعارضون به كل من يحاول أن يفرض عليهم سيادة تقوم على التمييز ، فقد كانوا موزعين بين امرين :

**اولهما :** رغبتهم في الدين الجديد لاقتناعهم به واختيارهم له .

**ثانيهما :** تضايقهم من المسؤولين العرب الوافدين وما كان يطبع سلوكهم - والدولة الاموية عامة - من سمات العنصرية والقبلية .

وليس يخفى ان الهدف عند قادة جيوش الفتح وعند الولاة كان - بعد نشر الاسلام - يتمثل في الجانب العسكري والاداري فضلا عن جمع الاموال والفنائم والاسلاب ، وربما بالغ بعضهم في ذلك ، على حد ما فعل عمر بن عبد الله المرادي عامل طنجة ، فقد « تعدى في الصدقات والاعشار واراد تخميس البربر وزعم أنهم فيء المسلمين ، وذلك ما لم يرتكبه عامل قبله » (1) .

ولا شك أن مثل هذه السياسة اثارت اضطرابا في العلاقات بين العرب والبربر ادى الى ظهور زعماء خوارج وطنيين كميصرة المدغري

---

(1) البيان المغرب لابن عذاري ج 1 ص 52 (كولان وبروفنسال - دار الثقافة - بيروت) .

الذي قاد ثورة طنجة سنة اثنتين وعشرين ومائة ، وكان على رأى  
الصفريّة .

وتسنى للمذهب بذلك أن يكون له نفوذ حتى في الجنوب ، إذ  
تأسست إمارة خارجية في سجلماسة بزعامة بني مدرار الذين كان يغلب  
على امرائهم المذهب الصفري الى أن تحولوا لمذهب السنة في عهد محمد  
ابن الفتح بن ميمون الملقب بالشاكر لله في أوائل القرن الرابع .

وعلى الرغم من ميل المغاربة الى مبادئ الخوارج ، فإنه لم يتح  
لهؤلاء أن يقوموا بدور في المغرب كالذي قاموا به في بقية بلاد الشمال  
الافريقي (2) ، حيث ظهرت زعامات من الفقهاء الذين تمكنوا من الوقوف  
في وجه الدولة المركزية ومن اقرار حكم محلي في طرابلس والقيروان  
ثم المغرب الاوسط ، وكان في طبيعتهم أبو الخطاب عبد الاعلى بن السمع  
المعافري الذي كانت له الرياسة في طرابلس الى ان قتله العباسيون ،  
وكان قد خرج في سجلماسة سنة 141 (3) ومنها توجه الى القيروان ثم  
طرابلس ، وهو الذي ساند عبد الرحمن بن رستم الى ان ثبته في القيروان،  
لولا ان العباسيين طاردوه واضطروه الى الانتقال للمغرب الاوسط ، مما  
اتاح له ان يقيم دولة في تاهرت التي ستصبح مركز الخوارج الإباضية في  
الشمال الافريقي ، لا سيما بعد ان انتهت زعامتهم في طرابلس .

وكما وفد الخوارج على المغرب ، فكذلك وفد الشيعة فارين من  
الاضطهاد الذي كانوا يعانون منه سواء في عهد الامويين او العباسيين ،  
وكان لهم دور كبير فيه بالقياس الى ما قام به الخوارج ، ونرجح (4) ان  
يكون فشل هؤلاء في النهوض بدور كبير في المغرب ناتجا عن اقبال  
المغاربة على آل البيت ، في حب لهم واشفاق عليهم مما انزل بهم من  
تكبّات .

وقد تجلّى هذا الاقبال في الترحيب الذي لقيه المولى ادريس حين  
وفد الى المغرب فارا من وقعة فخ سنة تسع وستين ومائة في عهد الهادي

---

(2) انظر وحدة المغرب المذهبية ص 12 - 13 ( لصاحب البحث ط. الدار البيضاء 1976 )  
(3) البيان المغرب ج 1 ص 71 .  
(4) انظر وحدة المغرب المذهبية ص 13 .

العباسي ، او مبعوثا قبل تاريخ هذه الواقعة بنحو عشر سنوات من لدن اخيه محمد بن عبد الله الذي كانت له مواجهات مع المنصور العباسي (5) .

وفى نطاق الترحيب الذي لقيه ، تنازل له اسحاق بن عبد الحميد الاوربي عن امارته فى ويلي وبايعه ودعا القبائل ان تبايعه .

واذا كان المولى ادريس لم يحاول نشر المبادئ الشيعة فى المغرب كما سنرى بعد ، فان زعماء شيعة آخرين قد حاولوا ذلك على حد ما فعل عبد الله المهدي الفاطمي الذي تسنى له ان يؤسس بمساندة داعيته ابي عبد الله الصنعاني المعروف بالشيعة دولة مذهبية حاولت ان تفرض نفوذها على جميع الشمال الافريقي بدءا من القيروان الى سجلماسة ، دون ان ننسى دولة الموحدين التي أسسها المهدي بن تومرت والتي اقامها على مذهب يستند فى بعض جوانبه الى مبادئ الشيعة الامامية ، وهو موضوع سنعود اليه بعد .

ولم تكن مبادئ الخوارج والشيعة وحدها التي انتقلت الى المغرب والشمال الافريقي ، ولكن انتقلت كذلك افكار المعتزلة ، اذ يبدو ان واصل ابن عطاء بعث اصحابه للامصار ينشرون مذهبهم ، وكان من بينهم عبد الله بن الحارث الذي ارسله الى افريقية ، وقد « كان مجمع الواصلية قريبا من تاهرت وكان عددهم نحو ثلاثين الفا فى بيوت كبيوت الاعراب يحملونها » (6) . ثم انه لا شك ان وفود العلماء الذين كانوا يفلون من العراق كانوا يحملون معهم مبادئ الاعتزال .

ولقد ظهر من بين العلماء الافارقة بعض المعتزلة ، ربما كان فى طليعتهم سليمان الفراء ، بل ان بعض المؤرخين تحدثوا عن اعتزالية بعض زعماء القبائل كاسحاق بن عبد الحميد الاوربي الذي وصفوه بالمعتزلي (7) .

وغير خاف بعد هذا ان دولة الاغالبة كانت تنتصر لآراء الاعتزال ، وان دولة الموحدين كانت كذلك ، بدفاع المهدي عن العقيدة بالحجج العقلية ، وتحليله فكرة تنزيه الله ، ودعوته الى تأويل المتشابه .

(5) حسب ما اورد الاشعري فى مقالات الاسلاميين ج 1 ص 145 ( الطبعة الاولى 1369 هـ 1950 م ) .

(6) معجم البلدان ج 2 ص 8 ( مادة تاهرت ) - ط دار صادر - بيروت .

(7) انظر المسالك والممالك للبكري ص 118 ( نشر دوسلان - الجزائر 1857 ) .

أما في الميدان الفقهي ، فيبدو أن « أفريقية كان الغالب على أهلها . لسنن إلى أن قدم إليها عبد الله بن فروخ أبو محمد الفارس فنقل إليها مذهب أبي حنيفة » (8) وبالفعل ، فقد « كان مذهب أبي حنيفة رضي الله عنه بأفريقية أظهر المذاهب فحمل المعز . . . جميع أهل المغرب على التمسك بمذهب الإمام مالك بن أنس رضي الله عنه وحسم مادة الخلاف في المذهب واستمر الحال في ذلك إلى الآن » (9) وعند عياض متحدثا عن المذهب الحنفي أنه « دخل منه شيء قديما بجزيرة الأندلس وبمدينة فاس » (10) ، ربما لأنه من أول المذاهب الفقهية التي ظهرت ، ولوجود تلاميذ مباشرين لأبي حنيفة كعبد الله بن المغيرة ، ووجود علماء متحمسين له كابن أبي الجواد الذي « كان يذهب إلى رأي الكوفيين ويقول بالمخلوق » (11) دون أن ننسى دور أسد بن الفرات ، ودون أن ننسى كذلك انتشار المذهب في عهد الأغالبة لعلاقتهم مع العباسيين .

ويذكر عياض كذلك أن « أفريقية وما وراءها من المغرب . . . كان الغالب عليها في القديم مذهب الكوفيين إلى أن دخل علي بن زياد وابن أشرس والبهلول بن راشد وبعدهم أسد بن الفرات وغيرهم بمذهب مالك فأخذ به كثير من الناس ، ولم يزل يفتشو إلى أن جاء سحنون فغلب في أيامه وفض حلق المخالفين واستقر المذهب بعده في أصحابه فشاع في تلك الأقطار » (12) .

ثم أنه « كان بالقيروان قوم قلة في القديم أخذوا بمذهب الشافعي » (13) ، « ودخل شيء منه بلاد أفريقية والأندلس بأخرة بعد الثلاثمائة » (14) ، ومن فقهاؤه أبو العباس الفضل بن نصر الباهي المعروف بالرئيس (15) ، وأبو عثمان سعيد بن الحداد الذي « صحب أول حاله سحنون وسمع منه ونزع آخره إلى مذهب الشافعي من غير تقليد له بل

(8) الفقه على المذاهب الأربعة ص 27 ( المقدمة ) ط الثانية .

(9) وفيات الأعيان ج 5 ص 233 - 234 ( ت احسان عباس - بيروت ) .

(10) المدارك ج 1 ص 65 وانظر كذلك الديباج ص 12 - 13 ( ط الأولى ) .

(11) المدارك ج 4 ص 69 - 70 ( نشر وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية - المغرب ) .

(12) المدارك ج 1 ص 25 - 26

(13) نفس المصدر ص 26

(14) نفس المصدر ص 66

(15) معالم الإيمان للدباغ ج 3 ص 68 - 69 ( تونس 1320 )

كثيرا ما يخالفه ويعتمد على النظر والحجة « (16) ، وقد ذهب بعض الدارسين (17) الى أن المنصور الموحي تحول الى المذهب الشافعي ، وهو رأى لا أساس له ، وقد ناقشناه فى دراسات سابقة (18) .

ويعتبر مذهب داود الظاهري من المذاهب التي كان لها صدى ولو أنه خافت ، اذ « قال به قوم قليل بافريقية والاندلس » (19) ، قبل أن يغنيه ابن حزم فى القرن الخامس بالدراسة والتأليف ، وتجدر الإشارة الى أن المنصور الموحي كان معجبا بابن حزم ، والى أن المهدي قبله تأثر ببعض مبادئ الظاهرية .

ولا يخفى بعد هذا أن أهل الاندلس كانوا « منذ فتحت على رأي الازاعي الى أن رحل الى مالك زياد بن عبد الرحمن وقرعوس بن العباس والغاز بن قيس ومن بعدهم فجاءوا بعلمه وأبانوا للناس فضله واقتداء الامة به فعرف حقه ودرس مذهبه » (20) ، وكان قد « أدخل بها قوم من الرحالين والفرباء شيئا من مذهب الشافعي وأبي حنيفة وأحمد وداود فلم يمكنوا من نشره فمات بموتهم على اختلاف أزمانهم الا من تدين به فى نفسه ممن لا يؤبه لقوله » (21) .

ولعل مذهب الازاعي كان معروفا كذلك فى المغرب وبقية بلاد الشمال الافريقي بسبب الاتصال الذي كان مع الاندلس الاموية ، ولمجيء بعض العلماء الشاميين ، وخاصة أيام عمر بن عبد العزيز حين ولي اسماعيل بن أبي المهاجر « وبعث معه . . . عشرة من التابعين أهل علم وفضل منهم عبد الرحمن بن نافع وسعد بن مسعود التجيبي » (22) وأبو عبد الرحمن الحيلي واسماعيل بن عبيد الانصاري المعروف بتاجر الله وموهب بن حي المعافري وحيان ابن أبي جبلة القرشي وأبو تمامة بكر بن سوادة الجذامي وأبو سعيد جعثل بن عاهان بن عمير (23) .

(16) المدارك ج 5 ص 79

(17) هو HENRI LAOUST فى كتابه : Les schismes dans L'islam :

ص 235 (PAYOT - PARIS 1965)

(18) انظر : أبو الربيع الموحي ابتداء من ص 45 ووحدة المغرب الذهبية ص 22

(19) المدارك ج 1 ص 66

(20) نفس المصدر ص 26 - 27

(21) نفسه

(22) البيان المغرب ج 1 ص 48

(23) انظر رياض النفوس للمالكي من ص 64 الى 75 ( ط . النهضة المصرية 1951 )

واذن ، فانه واضح ان المغرب تعرف فى عهده الاسلامية الاولى الى جميع التيارات السياسية والفكرية التي وفدت على الشمال الافريقي وتصارعت فوق أرضه بحدّة وعنف فى أحيان غير قليلة ، ومع ذلك فانه اختار الاتجاه السني ، واختار داخل هذا الاتجاه مذهب الامام مالك الذي هاش كل تلك التيارات ، واحتك بها واصطدم معها قبل ان يحرز انتصاره عليها ويصبح المذهب الذي أجمع المغاربة عليه ، اذ جمعهم فى وحدة ساعدت على حفظ كيانهم الديني والوطني ، بعيدا عن النزاعات الطائفية التي كثيرا ما تكون سببا فى تفكك اوصال الشعب الواحد .

فما هي يا ترى أسباب هذه الظاهرة ؟ أى ما هي أسباب انتشار المذهب ؟ وما هي أسباب استمراره ؟ وقبل ذلك : ما هي أسباب أخذه بالفكر السني ؟

### أولا : أسباب أخذ المغرب بالفكر السني :

1 - نعتقد فى البدء (24) ان المغاربة كانوا فى هذه المرحلة يميزون بين جانبين : الجانب العاطفي أو العاطفي السياسي ، والجانب الفكري الديني العقدي التطبيقي ، فهم فى الاول يميلون الى الخوارج والشيعية ، يتعاطفون معهم ويرحبون بهم ويوسعون لهم ويساندونهم ، ولكنهم فى الثاني يجدون أنفسهم سنيين ، أى مع ( أهل السنة ) ، وهو مصطلح غامض على الرغم من شيوعه ، فقد « سأل رجل مالكا فقال : من أهل السنة يا أبا عبد الله ؟ قال : الذين ليس لهم لقب يعرفون به ، لا جهمي ولا رافضي ولا قدرى » (25) .

والحقيقة أننا حين نقول عن المغاربة أنهم سنيون ، نعتبر أنهم من ( أهل السنة والجماعة ) ، سواء فى معناها العام الواسع الذي يطلق مقابل الشيعة ، أو فى معناها الخاص الضيق الذي يقصد به الذين اهتموا بسنة الرسول عليه السلام ، وسلكوا طريق الصحابة والتابعين فى التسليم والتفويض والبعد عن التأويل ، ملتزمين كتاب الله وسنة رسوله وأجماع الأمة .

(24) انظر : وحدة المغرب المذهبية ص 14  
(25) المصدرا ج 2 ص 41

وتكاد تكون قضية الاستواء خير مثال يبلور هذا الاتجاه ، وهي تدخل في مجال الصفات التي أولها المعتزلة انطلاقا من موقف التنزيه ، فقد « سأل رجل مالكا فقال : الرحمن على العرش استوى ، كيف استوى يا ابا عبد الله ؟ فسكت مالك مليا حتى علاه الرضاء ، وما رأينا مالكا وجد من شيء وجده من مقالته ، وجعل الناس ينظرون ما يامر به ، ثم سرى عنه فقال : الاستواء عنه معلوم ، والكيف منه غير معقول ، والسؤال عن هذا بدعة ، والإيمان به واجب ، وأني لاظنك ضالا ، أخرجوه ، فنأداه الرجل : يا ابا عبد الله ، والله الذي لا اله الا هو لقد سألت عن هذه المسألة أهل البصرة والكوفة والعراق فلم أجد أحدا وفق لما وفقت إليه » (26) .

ومصطلح ( أهل السنة والجماعة ) يشمل بهذا المعنى أصحاب المذاهب الأربعة ، وان ضاق فيما بعد ليختص أو يكاد يختص به الأشاعرة . ولعلنا في غنى عن التذكير بما سبق أن قلنا في أول هذا البحث من أن الأشعري صاغ العقيدة صياغة عقلية وافقت من كان من أهل السنة ميالا للجدل العقلي ، وكان في ذلك قد اتخذ موقفا وسطا يكشف عنه مثلا رأيه المعتدل بين القائلين بالجبر والقائلين بالحرية والاختيار ، اذ رفض أن تكون الأفعال من خلق الإنسان كما يقول المعتزلة ، ولكنه أقر بقدرة الإنسان على كسب هذه الأفعال . ومعروف أن المغاربة يربطون بين سنتهم ومذهب الأشعري في مجال العقيدة والتوحيد ، بل ان تلك السنية طبعت عندهم حتى ميدان التصوف ، فوسمته بخصائص تعبدية تأثر فيها بالصوفي البغدادي أبي القاسم الجنيد القائمة طريقته على الكتاب والسنة .

وانطلاقا من الحقيقة التي بدأنا بها هذه النقطة ، والتمثلة في تمييز المغاربة بين الجانب العاطفي السياسي والجانب الفكري التطبيقي ، سوف لا نستغرب اذا وجدنا المولى ادريس في خضم صراعه وأسرته مع العباسيين يسلك السبيل السني في المغرب ولا يحاول نشر المبادئ الشيعية ، ربما لانه اكتفى بايجاد كيان له ينطلق منه ، ولعله أحس عدم استعداد المغاربة الذهني لتقبل تلك المبادئ ، دون أن ننسى زبديّة

(26) نفس المصدر ص 39 .

الإدارة في الأصل . وغير خاف أن الزيدية أكثر فرق الشيعة اعتدالا وأقربها إلى أهل السنة (27) .

ويتضح اتجاه الإدارة السني من خلال الرسالة التي وجهها المولى أدريس للبربر لداً قدومه ، والتي دعاهم فيها إلى التمسك بالكتاب والسنة ، مستفزا غيرتهم الإسلامية لمواجهة الظلم النازل بآل البيت ، في تحميل للمسؤولية واثارة للمحبة والاشفاق عن طريق اخبارهم بما حل به وبأسرته وفيها قال :

« ... أدعوكم إلى كتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم ، وإلى العدل في الرعية ، والقسم بالسوية ، ورفع المظالم ، والاختذ بيد المظلوم ، واحياء السنة ، وامامة البدعة ، وانفاذ حكم الكتاب على القريب والبعيد ، وأذكروا الله في ملوك غيروا ، وللأمان خفروا ، وعهد الله وميثاقه نقضوا ، ولبني بيته قتلوا . وأذكركم الله في أرامل احتقرت ، وحدود عطلت ، وفي دماء بغير حق سفكت ، فقد نبذوا الكتاب والاسلام ، فلم يبق من الاسلام الا اسمه ، ولا من القرءان الا رسمه ، واعلموا عباد الله أن مما أوجب الله على أهل طاعته المجاهدة لأهل عداوته ومعصيته باليد واللسان ... وقد خانت جبابرة في الآفاق شرقاً وغرباً ، وأظهروا الفساد وامتلات الأرض ظلماً وجوراً ، فليس للناس ملجأ ولا لهم عند أعدائهم حسن رجاء ، ففسى أن تكونوا معاشر اخواننا من البربر اليد الحاصدة للظلم والجور ، وانصار الكتاب والسنة القائمين بحق المظلومين من ذرية النبيين ، فكونوا عند الله بمنزلة من جاهد مع المرسلين ونصر الله مع النبيين . واعلموا معاشر البربر أني أتيتكم وأنا المظلوم المظهور الطريد الشريد الخائف الموتور الذي كثر واتره وقل ناصره وقتل اخوته وأبوه وجده وأهلوه ، فأجيبوا داعي الله فقد دعاكم إلى الله ، فان الله عز وجل يقول : « ومن لا يجب داعي الله فليس بمعجز في الأرض وليس له من دونه أولياء » . أعاذنا الله وإياكم من الضلال وهدانا وإياكم إلى سبيل الرشاد » (28) .

وقبل أن يختم دعوته عرف بنفسه وبنسبه إلى أن أوصله إلى الرسول عليه السلام .

(27) انظر : وحدة المغرب المذهبية ص 15 .  
(28) الوثائق : المجلد 1 ص 40 - 41 - 43 ( المطبعة الملكية - الرباط ) .

على أن سنية الإدارة لم تقف عند هذا الحد ، بل تعدته الى اعتناق المذهب المالكي الذي سينتشر في عهدهم . ولعلنا هنا أن نذكر بالتعاطف الذي كان بين المولى أدريس والامام مالك ، وهو تعاطف يرجع الى أمرين (29) :

**الأول :** أن مالكا يروي في موطاه عن عبد الله الكامل والدادريس .

**الثاني :** أن مالكا كان له موقف من العباسيين لصالح أخ أدريس المسمى محمدا والمعروف بالنفس الزكية ، حيث أفتى عند قيام هذا الأخير بأن بيعة أبي جعفر لا تلزم لأنها كانت على الإكراه ، وضرب في ذلك كما هو معروف ، وكان قد أفتى ببطان الطلاق المكره وسقوط يمين الإكراه على العموم ، اعتمادا على الحديث النبوي : « ليس على مستكره يمين » .

2 - ونعتقد كذلك أن المقاربة بميولهم السنية القوية رفضوا مبادئ المذاهب الأخرى وقاوموها بشدة وعنف .

فبالنسبة للاعتزال لم تجد آراؤه اقبالا في الأوساط المغربية لما هي عليه من تعقيد فكري ونظر فلسفي لا يدخل في صميم العقيدة ، فضلا عن أن المقاربة لم يكونوا مستعدين لذلك بعد أن وجدوا بغيتهم في أتباع الكتاب والسنة على أوضح وجه وأبسطه .

ثم أن فقهاء المالكية في جميع أقطار الشمال الأفريقي وقفوا ضد تسرب مبادئ المعتزلة ، وضد الذين يحاولون نشرها ، وربما عادوهم وكفروهم ورموهم بأشنع التهم . ويكفي أن نذكر أن أسد ابن الفرات قال في حق بشر المريسي وكان يعتنق آراء الاعتزال وكتب في ذلك ( كتاب التوحيد ) : « أو جهل الناس التوحيد حتى يصنع لهم بشر فيه كتابا ؟ هذه نبوة ادعاها » (30) .

بل أن فقهاء المالكية ومعهم جماهير الأمة اتخلوا موقف عداء من الدولة الأغلبية ، لانحيازها لفقهاء العراق ومبادئ المعتزلة ، وربما كان لهذا الموقف أثر في انهيار الدولة .

(29) انظر : وحدة المغرب الذهبية ص 15 - 16 .  
(30) رياض النفوس ج 1 ص 182 .

أما بالنسبة للفكر الخارجي ، فعلى الرغم من انسجامه مع ميول المغاربة ، باعتباره يوافق طبيعتهم الاستقلالية ورفضهم كل سيادة تحاول أن تفرض هيمنتها العنصرية عليهم ، وباعتبار الدور السذي كان له في افهامهم حقيقة مبادئ الاسلام وحقيقة أسلوب الحكم فيه خاصة (31) ، فانهم لم يلبثوا أن تراجعوا عنه تحت تأثير حبهم القوي لآل البيت ، فضلا عن التصفية التي حدثت للخوارج على يد الفاطميين الذين طاردوا الإباضية وحاربوهم بعد أن كانوا في عهد الاغالبية يتمتعون بشبه استقلال ذاتي داخلي ، دون أن ننسى قول الخوارج ببعض المبادئ التي يرفضها المغاربة ، كالظن في عثمان ابان المرحلة الثانية من خلافته ، والظن في علي بعد قبوله التحكيم والمبالغة في ذلك الى حد تكفيره والحكمين وكل من قبل التحكيم ، وكذلك الظن في أصحاب الجمل طلحة والزبير وعائشة وتكفيرهم ، وكذا تكفير الامويين والعباسيين ، علما بأن الإباضية وحتى الصغرية يعتبرون أقل الفرق الخارجية غلوا .

وأما بالنسبة للشيعة ، فما كان المغاربة ليرتاحوا لهم أو ينسجموا معهم ، لاعتمادهم على مبدأ التأويل وعلم الباطن ، ولأن سلوكهم المثير كان دافعا للفقهاء والجمهور الى اتخاذ موقف خصومة وعداء .

ويكفي للدلالة على هذا السلوك أن نشير الى ما كان يصدر عن عبيد الله (32) في خطبه ، فقد خطب بعد أن تمكن من القضاء على بني مدرار في سجلماسة سنة 296 و « اظهر . . . التشيع القبيح وسب أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم وأزواجه . . . وزعم أن أصحاب النبي عليه السلام ارتدوا بعده » (33) ولم يستثن منهم الا ابن أبي طالب والمقداد بن الاسود وعمار ابن ياسر وسلمان الفارسي وأبا ذر الغفاري .

كذلك « منع عبيد الله الفقهاء الا يفتوا الا بمذهبهم الذي ينسبونه الى جعفر بن محمد ويسمونه مذهب أهل البيت . . . وغلظ الامر على المالكية

(31) انظر : الادب المغربي من خلال ظواهره وقضاياها ج 1 ص 45 - 46 ( لصاحب البحث دار المعارف - الرباط 1979 ) .

(32) يبدو ان اصرار المغاربة على ان يدعوا عبد الله المهدي بصيغة التصغير ( عبيد الله ) داخل في نطاق موقفهم منه .

(33) البيان المنسرب ج 1 ص 159 .

من هذا الحين ومنعوا من المجلس والفتيا ، فكان من يأخذ عنهم ويتذاكر معهم انما يكون سرا وعلى خوف وريبة « (34) .

واذا كان بعض الفقهاء الافارقة قد مال للفاطميين حتى غدا من دعائهم ، ونعني القاضي ابا حنيفة النعمان الذي اخذه معه المعز الى مصر، وكان يعد حجتهم في المذهب ، فان جمهور الفقهاء كان يتخذ موقفا مضادا على غرار ما فعلوا مع ابي عبد الله الشيعي ، فقد « اظهر الفقهاء لعنه والبراة منه وحرصوا الناس على قتاله وافتوهم بمجاهدته » (35) .  
وذهب بعضهم في هذا الموقف الى مدى بعيد كابن التبان الذي رفض الدخول في المذهب الشيعي وقال لداعيه : « لو نشرتي في اثنين ما فارقت مذهب مالك » (36) .

ويذكر في الكشف عن موقف الفقهاء انه « لما وصل عبيد الله ... الى رقادة ارسل الى القيروان من اتاه بابي اسحق ابراهيم بن محمد المعروف بابن البرذون وبابن هذيل ، وكانا من العلماء الخاشعين لله ، فلما وصلا اليه وجداه على سرير ملكه جالسا ، وعن يمينه ا بو عبيد الله الشيعي الذي ولاه الملك وسلم له فيه ، وعن يساره ابو العباس اخوه ، فقال لهما ابو عبد الله واخوه : اشهدا ان هذا رسول الله ، فقالا جميعا بلفظ واحد : والله الذي لا اله الا هو لو جاءنا هذا والشمس عن يمينه والقمر عن يساره وينطقان فيقولان انه رسول الله ما قلنا انه هو . فامر عبيد الله ... عند ذلك بذبحهما وربطهما في اذنان الخيل وان يشق بهما سمات القيروان ، ففعل ذلك بهما » (37) .

ومن انحرافهم ما يكشف عنه هذا الحديث الذي دار بين ابي عبد الله الشيعي والفقير ابي عثمان سعيد بن الحداد ، حيث « قال ابو عبد الله ... القرءان يخبر ان محمدا ليس بخاتم النبيين في قوله : ولكن رسول الله وخاتم النبيين ، فخاتم النبيين غير رسول الله . فقال ابو عثمان : هذه الواو ليست من واوات الابتداء وانما هي من ادوات العطف مثل قوله تعالى :

(34) تراجم اقلية ص 393 ( استخرجها محمد الطالب من مدارك عياض - تونس 1968).

(35) البيان المغرب ج 1 ص 137 .

(36) معالم الايمان ج 3 ص 14 .

(37) البيان المغرب ج 1 ص 282 - 283 .

« هو الاول والآخر والظاهر والباطن » . وقال له مرة أخرى : أن الله أخبر أن أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم يرتدون ، لقوله : « أفان مات او قتل انقلبتم على اعقابكم » . فقال ابو عثمان : هذا انما هو على الاستفهام كقوله سبحانه : « أفان مت فهم الخالدون » (38) .

وبلغ الانحراف الديني مداه حين « ادعى الحاكم من بني عبيد الله الربوبية وجعل رجلا سماه بالهادي يدعو الناس الى ذلك ، وادعى معه منهم النبوة وجعل من نادى فوق صومعة جامع القيروان : أشهد أن معدا رسول الله » (39) .

وكتب حمزة داعي الحاكم كتابا « وقرئ بحضرة الحاكم ... على أهل مملكته ذكر فيه ... : الحمد لمولاي الحاكم وحده ، باسمك اللهم الحاكم بالحق . ثم تمادى فقال : توكلت على الاهي أمير المؤمنين جل ذكره وبه نستعين في جميع الامور » (40) .

لهذا كله ، لا نستغرب من تحالف العلماء والفقهاء السنيين مع ابي يزيد مخلد الزناتي الخارجي ضد الشيعة ، ابتداء من سنة 332 هـ (41) . بل لقد قارنوا بين هؤلاء والخوارج ، في اثبات لزيغهم وتبرير لمحاربتهم ، على حد ما روى ابن ناجي عن المالكي من أن ابا الفضل الممسي « رأى ان الخروج وقطع دولة بني عبيد فرض لأن الخوارج من أهل القبلة ، لا يزول عنهم الاسلام ويرثون ويورثون ، وبنو عبيد ليسوا كذلك لانهم مجوس زال عنهم اسم المسلمين فلا يتوارثون معهم ولا ينتسبون اليهم » (42) . وعنده ان « قتالهم أفضل من قتال المشركين » (43) . وروى « ان ابا عبد الله الاجدابي سأل ابا الحسن بن الحلاف الذي روى مقالة ابي الفضل الممسي في شأن الفاطميين ( قتالهم أفضل من قتال المشركين ) سألته مراجعا : أنت سمعت هذا من ابي الفضل ؟ فقال : نعم . وقبله المالكي ، وهو بين ، لانهم كفار متصلون ببلاد الاسلام ويحكمون فيهم ما يريدون من

(38) نفس المصدر .

(39) نفسه وانظر كذلك ص 285 .

(40) نفسه ص 286 .

(41) انظر : نفس المصدر ص 216 فما بعد .

(42) معالم الايمان ج 3 ص 34 .

(43) نفس المصدر .

قتل او ضرب او سجن او غير ذلك بخلاف كفار منفصلين عن بلاد الاسلام » (44) .

وقد بقي النفوذ الفاطمي متمثلا في بربر صنهاجيين هم : بنو زيري الذين لم يتوقف المغاربة عن محاربتهم ، وخاصة في عهد يوسف بن زيري ، وهو موقف سيخف في عصر المنصور الذي كان ميالا لسياسة المهادنة والمسالمة ، فقد قال : « ان ابي وجدي كانا يأخذان الناس بالقهر ، وانا لا آخذ احدا الا بالاحسان » (45) .

وقد كان لسياسة المنصور اثر في تجميع الفقهاء المالكيين لقواهم ، مما سيجعلهم ينتصرون أيام المعز بن باديس .

وتجدر الإشارة بالنسبة للمغرب (46) انه في اعقاب انهيار دولة الادارسة وبداية الغزو الفاطمي للشمال الافريقي في مستهل القرن الرابع ، ظهرت محاولات لاقامة مراكز شيعية هنا وهناك ، كما حدث في فاس نفسها حيث كان الفاطميون واعوانهم يقيمون حكم الائمة ولو في فترات متقطعة .

ويبدو ان المغرب في هذه الفترة كان موزعا بين قوتين او اتجاهين : الاموي الاندلسي وكان يواليه الزناتيون ، والفاطمي ويسانده الصنهاجيون . وكانت لهاتين المجموعتين من القبائل امارات حاجزة او عازلة من شأنها ان تحول دون تسرب الخطر للطرف الآخر . وهذه ظاهرة نلاحظها حتى بعد عودة الادارسة فيما يسمى بدولتهم الثانية على يد القاسم كنون ، فقد كانوا يوالون الجهة المتغلبة ، فهم مرة مع شيعة افريقية ، وهم مرة اخرى مع اموي الاندلس .

وتجدر الإشارة كذلك الى انه حتى منتصف القرن الخامس كانت توجد في المغرب مراكز شيعية ، وبالذات في مدينة تارودانت حيث كان يوجد « قوم من الروافض يقال لهم البجلية منسوبين الى عبد الله البجلي الذي كان قدم الى السوس حين قدم عبيد الله الشيعي لافريقية ، فاشاع

(44) نفسه ص 35 .

(45) اتحاف اهل الزمان لابن ابي الصياف ج 1 ص 133 ( تونس 1963 ) .

(46) انظر : وحدة المغرب المذهبية ص 16 - 17 .

هناك مذهبه ، فورثوه بعده جيلا بعد جيل وقرنا بعد قرن ، لا يرون الحق الا ما فى ايديهم ، فقاتلهم عبد الله بن ياسين حتى فتح مدينتهم عنوة وقتل بها من الروافض خلق كثير ، فرجع من بقي منهم الى السنة « (47) .

### ثانيا : اسباب انتشار المذهب المالكي :

1 - لا شك ان انتماء (48) مالك للمدينة المنورة ، مركز الاسلام الاول وعاصمة الرسول عليه السلام ، جعل المغاربة ينظرون له من زاوية خاصة ، معجبين بعلمه وفضله ، ومقتنعين بأنه اقرب الى روح الشريعة من فقهاء العراق او الشام او اى من الامصار ، ومفضلينه بالتالي « لجمعه ادوات الامامة وتحصيله درجة الاجتهاد وكونه اعلم القوم بل اهل زمانه واصفاق اهل وقته على شهادتهم له بذلك وتقديمه . وهو القدوة والناس اذ ذلك ناس والزمن زمان ، ثم للآثر الوارد فى عالم المدينة التي هي داره ، وانطلاق هذا الوصف والاضافة على السنة الجماهير له وموافقة احواله الحال الذي اخبر فى الحديث عنه وتاويل السلف الصالح له انه المراد به « (49) .

والحديث المشار اليه هو قوله عليه السلام : « يوشك ان يضرب الناس اكباد الابل فى طلب العلم فلا يجدون عالما اعلم من عالم المدينة » (50) .

(47) القرطاس لابن ابي ذرع ص 88 ط. حجرية والروافض من شيعة الكوفة الغالين، ونستطيع ان نضمهم مع الامامية ، وهم الذين رفضوا بيعة زيد بن علي بن الحسين ، ولم يرضوا ان يخرجوا معه سنة احدى وعشرين ومائة ، بعد ان تبين لهم انه ينهى عن الظن فى الصحابة وانه لا يبرا من الشيخين ابي بكر وعمر .

(48) قد يثار من اسباب اخذ المغرب بالمذهب المالكي اشتراك مالك مع العرب الوافدين فى النسبة اليمنية اذ هو من ذي اصبح المنتسب لبني قحطان من اهل اليمن ، وكذلك معظم العرب الوافدين الى المغرب . واذا كان هذا الافتراض صحيحا الى حد بالنسبة للمغرب الاقصى ، فانه غير صحيح بالنسبة للانديلس او افريقية ، فضلا عن ان مثل هذه العصبية مستبعدة فى مجال العقيدة والفقہ .

(49) المدارك ج 1 ص 67 . وانظر من ص 80 الى 104 ما ذكره عياض حول جوانب تقدم مالك فى سبب الاجتهاد .

(50) انظر : الكلام حول هذا الحديث فى المدارك ج 1 ص 68 الى 74 . ولعل مما يدخل فى نطاق تفصيل مالك لانتسابه الى المدينة ما ذكره المقدسي فى احسن التقاسيم من ان فريقيين من الحنفية والمالكية تناظرا يوما امام السلطان فقال لهم : من اين كان ابو حنيفة ؟ قالوا من الكوفة . قال : وماك ؟ قالوا : من المدينة . قال : عالم اهل المدينة يكفينا وامر باخراج اصحاب ابي حنيفة وقال : لا احب ان يكون فى علمي مذهبان ( نشر شارل بيلال - الجزائر 1950 ) .

ومن مظاهر الإعجاب بمالك وتقديره أن عبد الله بن غانم كان مرة يقرأ الموطن مع جماعة فقال له أحدهم : « أيعجبك هذا من قول مالك ؟ فقام ابن غانم وألقى الكتاب من يده وقال : أو ليس وصمة علي في ديني وعقلي أن أرد على مالك قولة قالها ؟ والله لقد أدركت العباد الذين يتورعون ... فما رأيت بعيني أروع من مالك » (51) .

ويبدو لي أن في طليعة الصفات التي حبيت مالكا إلى المغرب أمانته العلمية التي اكتسبته ثقتهم ، وكانت هذه الأمانة تتمثل في اعترافه الصادق بعدم درايته حين لا يهتدي إلى جواب مهما كانت ظروف السؤال داعية إلى عدم الرد . فقد « سأل رجل مالكا عن مسألة وذكر أنه أرسل فيها من مسيرة ستة أشهر من المغرب ، فقال له : أخبر الذي أرسلك أنه لا علم لي بها . قال وما يعلمها ؟ قال : من علمه الله . وسأله رجل عن مسألة استودعه أياها أهل المغرب فقال : ما أدري ما ابتلينا بهذه المسألة في بلدنا ولا سمعنا أحدا من أشياخنا تكلم فيها ولكن تعود فلما كان من الغد جاءه وقد حمل ثقله على بقله يقودها فقال : مسألتي ؟ فقال ما أدري ما هي ، فقال الرجل : يا أبا عبد الله تركت خلفي من يقول : ليس على وجه الأرض أعلم منك . فقال مالك غير مستوحش : إذا رجعت فأخبرهم أنني لا أحسن » (52) .

2 - لذلك ، ولما نتج عن تداخل الآراء والمذاهب من اضطراب عقدي وفكري وسياسي ، اتجه الفقهاء المغاربة وطلاب العلم منهم إلى المشرق وإلى الحجاز خاصة ، للاخذ عن مالك وتلاميذه بحثا عن الإسلام الواضح الصافي ، ورغبة في تلقي السنة عن تابعي التابعين ومن أتبع له أن يتعلم منهم ، بعيدا عن الشوائب والخلافات التي داخلت الدين في الأمصار الإسلامية الأخرى نتيجة التطاحن السياسي وتفريق الآراء واختلاف المذاهب .

ونرجح أن يكون هذا هو السبب في كون « رحلتهم كانت غالبا إلى الحجاز ، وهو منتهى سفرهم ، والمدينة يومئذ دار العلم ، ومنها خرج

(51) المدارك ج 1 ص 158 وانظر كذلك رياض النفوس ج 1 ص 145 .

(52) المدارك ج 1 ص 180 - 181 .

الى العراق ، ولم يكن العراق فى طريقهم فاقترضوا على الاخذ عن علماء المدينة ، وشيخهم يومئذ وامامهم مالك وشيوخه من قبله وتلميذه فرجع اليه اهل المغرب والاندلس وقلدوه دون غيره ممن لم تصل اليهم طريقته « (53) ، على انهم كانوا عارفين - كما رأينا - ببقية المذاهب ، بما فيها ما كان يفد من العراق .

ويذكر الرواة ان « رجلا من اهل المغرب جاء مالك بن انس فقال : ان الاهواء كثرت قبلنا فجعلت على نفسي ان انا رأيتك ان آخذ بما تأمرني به . فوصف له مالك شرائع الاسلام : الصلاة والزكاة والصوم والحج ، ثم قال : خذ بها ولا تخاصم احدا » (54) .

ويحق لنا هنا ان نذكر بأنه « لما صار مذهب كل امام علما مخصوصا عند اهل مذهبه ، ولم يكن لهم سبيل الى الاجتهاد والقياس فاحتاجوا الى تنظير المسائل والالحاق وتفريعها عند الاشتباه بعد الاستناد الى الاصول المقررة من مذاهب امامهم ، وصار ذلك كله يحتاج الى ملكة راسخة يعتد بها على ذلك النوع من التنظير او التفرقة واتباع مذهب امامهم فيهما ما استطاعوا وهذه الملكة هي علم الفقه لهذا العهد ، واهل المغرب جميعا مقلدون لمالك » (55) .

وقد تعددت الرحلة من المغرب الى الحجاز للاخذ عن امام دار الهجرة ، بدءا من سجلماسة التي روى « ان احد الاعلام بها ... اخذ عن الامام مالك بالمدينة ورجع اليها ودرس العلوم بها » (56) .

أما على صعيد كل الشمال الافريقي والاندلس فقد رحل العديد من العلماء والفقهاء وأخذوا مباشرة عنه ، ويذكر من الذين روى عنه من الافارقة (57) : البهلول بن راشد وعطي بن زياد وأبو مسعود عبد الرحيم ابن أشرس وعبد الله بن فروخ وأبو محرز القاضي محمد بن عبد الله وعبد الله بن ابي حسان اليحصبي وعبد الله بن غانم القاضي . ويذكر من

- 
- (53) مقدمة ابن خلدون ص 440 ( ط . الاميرية ) .  
(54) المدارك ج 2 ص 47 .  
(55) مقدمة ابن خلدون ص 440 .  
(56) الدرر البهية لادريس العلوي ج 1 ص 63 ( طبعة حجرية ) .  
(57) المدارك ج 2 ص 178 - 179 .

الاندلسيين : محمد بن يحيى النيسابوري وحفص بن عبد السلام السرقسطي وزباد بن عبد الرحمان المعروف بشبظون وجعفر بن محمد وسعيد بن عبدوس وسعيد بن ابي هند . يضاف اليهم (58) من الطبقة الاولى كذلك : الغازي بن قيس ويحيى بن مضر القيسي ، وكذلك يحيى بن يحيى (59) .

وعند ابن القوطية (60) ان اول من ادخل مذهب مالك الى الاندلس هو الغازي ابن قيس ايام عبد الرحمن الداخل ، فى حين يرى المقري ان زياد بن عبد الرحمن هو : « اول من ادخل مذهبه الاندلس وكانوا قبله يتفقهون على مذهب الاوزاعي » (61) . وكان قد « سمع من مالك الموطن ، ويعرف سماعه بسماع زياد » (62) .

اما بالنسبة للمغرب ، فيذكر عياض ان علي بن زياد « هو اول من ادخل الموطن وجامع سفيان المغرب وفسر لهم قول مالك ولم يكونوا يعرفونه ، وكان قد دخل الحجاز والعراق فى طلب العلم ، وهو معلم سخنون » (63) . وكذلك معلم البهلول بن راشد واسد بن الفرات ، وان كانا قد رحلا الى الحجاز ، وكذلك رحل سخنون ، ولكن « كانت افريقيا قبل رحلة سخنون قد غمرها مذهب مالك بن انس لانه رحل منها اكثر من ثلاثين رجلا كلهم لقي مالك بن انس وسمع منه » (64) .

واستمر المذهب يزدهر بعد ذلك على يد جماعة من الفقهاء ، أبرزهم اسد بن الفرات الذي كان يمزج بين مذهبي ابي حنيفة ومالك كما يتضح من ( الاسدية ) التي يبدو فيها ميله الى النظر والاستدلال ، الا انه مع ذلك كان اميل الى اتباع امام دار الهجرة . ثم جاء سخنون فالف ( المدونة ) التي جاءت فى الواقع لتدارك بعض ما جاء فى ( الاسدية ) وتكميلها ، وهي فى الحقيقة اهم كتاب فى الفقه المالكي بعد الموطن .

(58) المصدر ج 3 ص 114 و 126 .

(59) الفتح ج 2 ص 9 و 46 ( ت احسان عباس - بيروت .

(60) افتتاح الاندلس ص 35 ( طبعة مدريد 1926 ) .

(61) الفتح ج 2 ص 45 .

(62) نفس المصدر .

(63) المصدر ج 3 ص 80 .

(64) المصدر ج 4 ص 51 .

ويمكن القول بأن المذهب استقر نهائيا على مستوى العلماء والجماهير في افريقية ، ومنها انتقل الى الاندلس والمغرب ، او لعله استقر في افريقية والاندلس ، وعبرهما عرف ازدهاره في المغرب ، وغدا لشدة اقترانه وارتباطه به مذهبا مغربيا او يكاد .

3 - فلكم ان تبادل الوفود والبعثات بين الاقطار الثلاثة كان يشكل عاملا من أهم عوامل ترسيخ المذهب على المستوى العلمي ، خاصة بعد ان تأسس جامع القرويين في فاس سنة 245 هـ وغدا مركز اشعاع في المنطقة .

وقد سار هذا التبادل في اتجاهين :

اولهما : من المغرب الى القيروان والاندلس وكذا المشرق . ومن بين الذين يمثلونه في هذه المرحلة المبكرة دراس بن اسماعيل ت سنة 357 هـ ، وابو جيدة اليزناسني ت سنة 365 هـ وعبد الرحيم الكتامي المعروف بابن المجوز ت سنة 413 هـ .

ثانيهما : من الاندلس والقيروان الى المغرب . فبالاضافة الى الهجرات المتقطعة قصدت فاسا في هذه الفترة وفود منظمة كان فيها العديد من العلماء والفقهاء ، سواء من هذا الاقليم او ذاك . اما القيروانيون « وكانوا ثلاثمائة اهل بيت » (65) ، فقد وفدوا حوالي سنة 189 هـ واقاموا في العدة اليسرى وعمروها حتى عرفت بعدوة القرويين . واما الاندلسيون « وكانوا جما غفيرا يقال اربعة آلاف اهل بيت » (66) ، فنزلوا بالعدة اليمنى وعمروها حتى أصبحت تسمى عدة الاندلس ، وكانوا قد هاجروا من بلادهم على اثر ثورة الربض التي قامت ايام الحكم بن هشام سنة اثنتين ومائتين « لانه في صدر ولايته كان قد انهمك في لدائه ، فاجتمع اهل العلم والورع بقرطبة مثل يحيى بن يحيى الليثي صاحب مالك واحد رواة الموطأ عنه ، وطالوت الفقيه وغيرهما ، فثاروا به وخلصوه وبيعوا بعض قرابته ، وكانوا بالربض الغربي من قرطبة وكان حلة

(65) الاستمضاء ج 1 ص 73 ( الطبعة الاولى ) .

(66) نفس المصدر .

متصلة بقصره ، فقاتلهم الحكم فغلبهم وافترقوا ، وهدم دورهم ومساجدهم  
ولحقوا بفاس من ارض العدو والاسكندرية من ارض المشرق » (67) .

4 - اذا كنا فى نقطة سألقة - هي الثانية فى أسباب انتشار  
المذهب المالكي - قد عقبنا على قول ابن خلدون الذي ذهب فيه الى أن  
المغاربة لم يتعرفوا الى غير فقه المدينة ، معتبرا ذلك فى طبيعة أسباب  
أخذهم به ، فلاننا نعرف - على حد ما كشفنا فى مقدمة هذا البحث -  
أنهم اطلعوا على أهم المذاهب الاخرى ، بما فيها غير السنية ، وقد ناقشناها  
فى القسم الخاص من هذا البحث بأسباب أخذ المغرب بالفكر السنني،  
ونود أن نضيف أن من عوامل اقتناعهم بمذهب مالك وانتشاره بالتالي ، ما  
عاشه مع بقية مذاهب السنة من احتكاك وصراع وما كان له تجاهها من  
مواقف انتهت بانتصاره .

فقد كان الفقهاء المالكيون يأخذون على الفقهاء الاحناف تواطؤهم مع  
امراء الدولة الاغلبية التي كانت قد اتخذت الحنفية مذهباً رسمياً لها الى  
جانب الاعتزال ، وما نتج عن هذا التواطؤ من سلوك تبريري جعلهم  
يتساهلون فى اصدار الاحكام الشرعية ، مسايرة منهم لحياة الترف  
والرفاه التي كان يعيشها الاغلبية تقليداً لخلفاء بغداد . ثم ان الفقهاء  
المالكيين عانوا من تعسف الاحناف فى فرض بعض الآراء التي خالفوهم  
فيها كتحويل النيذ الذي اضطر محمد بن سحنون الى أن يؤلف كتاب  
( الاشرية ) (68) .

وقضية تحليل النيذ جعلت ابن اللباد يقول : « بلغني . . . أن رجلاً  
اعرفه كان ينتحل مذهب أبي حنيفة رأى فى نومه النبي عليه السلام ،  
فسلم عليه وصافحه ، فأردت معانقته فأعرض عني ، فقلت فى نفسي : ما  
أراه الا لاستحلال النيذ . فقال قائل : وددنا لو سألناه ما ينتحل ، فقال  
عليه السلام : الا ان الحق فى قول مالك ما يتعداه ، فصار الرجل الى  
مذهب مالك وترك مذهبه » (69) .

(67) النفسح ج 1 ص 339 .

(68) ذكره عياض فى المدارك ج 4 ص 207 .

(69) المدارك ج 2 ص 157 .

ومثل تطيل النبيد قضية القول بخلق القرءان ، وهو القول الذي مال اليه امرء الاغلبة وفقهاؤهم ، تأثرا بالاعتزال . وقد أصابت سحنون من جراء ذلك محنة شديدة حين أراد احمد بن الاغلب ان يفرض القول بخلق القرءان واستدعى سحنون « وجمع له قواده وقاضيه ابن أبي الجواد وغيره ، وسأله عن القرءان فقال سحنون : أما شيء ابتدئه من نفسي فلا ، ولكنني سمعت من تعلمت منه وأخذت عنه كلهم يقولون : القرءان كلام الله غير مخلوق . فقال ابن أبي الجواد : كفر فاقتله ودمه في عنقي . وقال مثله غيره ممن يرى رايه . وقال بعضهم : يقطع أربعا ويجعل كل ربع بموضع من المدينة ، ويقال هذا جزاء من لم يقل بكذا . فقال الامير لداود بن حمزة : ما تقول أنت ؟ قال : قتله بالسيف راحة . . . ولكن قتل الحياة ياخذ عليه الضمنا ، وينادي عليه بسماط القيروان لا يفتى ولا يسمع أحدا ويلزم داره » (70) .

أما مذهب الشافعي فمن أسباب الابتعاد عنه ما ذكر المقدسي اذ قال : « رأيت أصحاب مالك يبغيضون الشافعي ، قالوا : أخذ عن مالك ثم خالفه » (71) .

وزاد بأن « سائر بلاد المغرب الى مصر لا يعرفون مذهب الشافعي رحمه الله ، إنما هو أبو حنيفة ومالك رحمهما الله . وكنت يوما إذاكر بعضهم في مسألة فذكرت قول الشافعي فقال : أسكت من هو الشافعي ؟ إنما كان بحران : أبو حنيفة لاهل المشرق ومالك لاهل المغرب ، افتتركما وتشتغل بالسافية » (72) .

وأما مذهب ابن حنبل فظعن فيه لاخذه بالحديث الضعيف . فقد ذكر عياض : « وقال احمد : الخبر الضعيف عندي خير من القياس . وبدية العقل تنكر هذا ، فلا خير في بناء على غير أساس » (73) .

(70) المسدرك ج 4 ص 71 .

(71) احسن التقاسيم ص 42 .

(72) نفسه .

(73) المسدرك ج 1 ص 92 .

ونصل الى مذهب داود لنجد أن ابن الحداد « تكلم يوما في مسألة ،  
فقيل له : أن داود قال فيها كذا وكذا ، فقال : لو كان نومي كيقظة داود  
ما تكلمت في العلم » (74) .

### ثالثا : اسباب استمرار المذهب (75) :

1 - لا شك أن ظاهرة مساندة السلطة للمذهب واعتمادها عليه  
كانت في طبيعة الاسباب التي جعلته يستمر . فباستثناء الموحدين ، كانت  
جميع الدول الحاكمة في المغرب تمززه وتتقوى به . واذا كانت هذه  
الظاهرة قد بدأت منذ الادارة فانها في عهد المرابطين ستتلور في ابعاد  
سياسية محددة واضحة ، سوف تجعل من المالكية ليس مجرد مذهب ،  
ولكن حركة تقود نضالهم وتكيف طبيعة هذا النضال وتحدد شروطه  
وغاياته ، وتجعلهم يحققون الاصلاح الديني ويحققون في نفس الوقت  
الاسلام المبسط الواضح في صيغة ثورية كانت رهنا بمرحلة نضالية  
محددة الاهداف (76) .

وارتباط المذهب بالسلطة يتناقض مع ما اشتهر عن فقائه من  
القرب من الشعب ، والبعد عن اولي الامر الحكام ، ورفض المناصب التي  
يسندونها اليهم الا بشروط ، على حد ما فعل سحنون الذي لم يقبل  
تولي القضاء الا بعد أن وافق محمد بن الاغلب على الشروط التي تقدم  
بها . هذا حين يتعلق الامر بحكام يسيئون السلوك ويعيثون بحقوق الناس  
ويعيشون في مستوى عال من البلخ والترف غالبا ما يكون على حساب  
الامة . أما حين يتعلق الامر بحكام مستقيمين ، فان الفقهاء يساندونهم ،  
على غرار ما حدث في العهد المرابطي ، وخاصة أيام يوسف بن تاشفين  
الذي شهد له حتى خصومه بالورع والتقوى والعدل والاستقامة .

ويدخل في نطاق مساندة السلطة للمذهب ما تم في عصر هشام بن  
عبد الرحمن بن معاوية بالاندلس حين « اخذ ... الناس جميعا بالتزام  
مذهب مالك وصير القضاء والفتيا عليه ، وذلك في عشرة السبعين ومائة

(74) المصدر ج 5 ص 80 .

(75) انظر : وحدة المغرب الذهبية ص 26 - 27 - 28 - 29 .

(76) انظر : الادب المغربي من خلال نواجره وقضاياها ج 1 ص 88 .

من الهجرة فى حياة مالك رحمه الله تعالى ، وشيخ المفتين حينئذ صمصعة بن سلام امام الازاعية وراويتهم . وقد لحق به من اصحاب مالك عدة فالتزم الناس بها من يومئذ هذا المذهب وحموه بالسيف عن غيره جملة « (77) .

وفى نفس هذا النطاق يدخل قول ابن حزم : « مذهبنا انتشرا فى مبدا امرهما بالرياسة والسلطان : مذهب ابي حنيفة فانه لما ولي قضاء القضاة ابو يوسف يعقوب صاحب ابي حنيفة . . . كانت القضاة من قبله ، فكان لا يولي قضاء البلدان من اقصى المشرق الى اقصى افريقية الا اصحابه والمنتتمين اليه والى مذهبه ، ومذهب مالك بن انس عندنا فى بلاد الاندلس ، فان يحيى بن يحيى كان مكينا عند السلطان مقبول القول فى القضاة ، فكان لا يطي قاض فى اقطار بلاد الاندلس الا بمشورته واختياره ، ولا يشير الا باصحابه ومن كان على مذهبه ، والناس سراع الى الدنيا ، فاقبلوا على ما يرجون بلوغ اغراضهم به ، على أن يحيى بن يحيى لم يل قضاء قط ولا اجاب اليه وكان ذلك زائدا فى حلالته عندهم وداعيا الى قبول رايه لديهم « (78) .

ومن مساندة الدولة للمذهب محاربتها المستمرة للاتجاهات المنحرفة التي من شأنها أن تشوش عليه وعلى عقيدة المفاربة ، على حد ما فعل يوسف بن تاشفين حين قضى على البورغواطيين ، والمولى اسماعيل حين حارب طائفة العكاكرة المنحرفة ، وجملة الحسن الثاني حين وضع حدا للبهائيين ، وهم زائفون باجماع اهل السنة والشيعة .

نعود الى الملاحظة التي ابدينا فى اول هذه النقطة حول الموحدين ، فقد وضع لهم المهدي بن تومرت مذهباً مزيجاً من الامامية والاشعرية والظاهرية والاعتزال وآراء الامام الفزالي . وهو مذهب انتهيما من دراسته (79) الى ان المهدي كان زعيماً سياسياً قبل ان يكون مصلحاً

(77) المسند ج 1 ص 26 - 27 . وربما كان من دوافع ميل هشام الى المذهب ما علمه من الحوار الذي دار بين زياد ومالك حول سلوك هشام ، ذلك انه « لما وصفه زياد بن عبد الرحمن لمالك بن انس قال : ليت الله تعالى زين موسماً بمثل هذا « (الفسح ج 1 ص 337) .

(78) وفيات الاعيان ج 6 ص 144 - 145 ، وانظر كذلك الفتح ج 2 ص 10 .

(79) انظر : الامير الشاعر ابو الربيع سليمان الموحدي ( الفصل الاول من الباب الاول - ابتداء من ص 11 - دار الثقافة - الدار البيضاء 1974 ) . وانظر : كذلك وحدة المغرب المذهبية ص 19 - 20 - 21 - 22 .

دينيا ، وانه لتحقيق هدفه فى اقامة دولة بعد نصف حكم المرابطين القائم على المذهب المالكي ، توسل بالمذهبية الدينية ، ولكن فى اتجاه آخر . ونميز فى مذهبه جانبين :

**اولهما :** سياسى وكان يسمى منه الى الاقتناع بشرعيته والتثبيت لحكمه . وفيه اعتمد على المبادئ الشيعية الامامية ، ولا سيما العصمة والمهدوية ، واستغل فى ذلك حب المقاربة القوي لآل البيت وعدم جدة الافكار الشيعية عليهم .

**ثانيهما :** فكري ديني فقهي تطبيقي ، وكان المهدي فيه سنيا ، واكاد اقول مالكيًا يسير على خط النخبة والجماهير . ونعتقد ان اضطهاد الموحدين للفقهاء المالكيين لم يكن بسبب الخلاف المذهبي الفقهي بقدر ما كان بسبب الموقف السياسي الذي كان لهم من الدولة الموحدية ومن البدع التي توسلت بها . ولعلنا نذكر ثورة الفقهاء فى سبته بزعامة القاضي عياض سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة . وقد تراجع الموحدون انفسهم عن مبادئ مذهب المهدي ، بدءا من المنصور الذي حاول وضع كتاب مختار من كتب الصحاح يلقي به كتاب المهدي ، الى المأمون الذي نبذ العصمة والمهدوية وفكر ابن تومرت عامة .

وبانتهاء الدولة الموحدية عاد المذهب المالكي الى سالف عهده ، بل عاد اقوى مما كان ، بما اكتسب من خبرة ومرونة أتاحا له ان يطرح نفسه وقضاياه فى خط اجتهادي ، ومن خلال مقاييس جديدة ، فى محاولة للتوفيق بين الحكم الشرعي وواقع الحياة المتحرك .

2 - ومع ذلك ، اى مع مساندة الدول التي تعاقبت على حكم المغرب للمذهب ، فما كان له ان يستمر لو لم يكن يحمل فى طبيعته خصائص ومقومات تساعده على ذلك . ويمكننا ان نذكر فى هذا الصدد :

**اولا :** طبيعة المذهب نفسه ، فهو لا يقوم على الراى والقياس بقدر ما يقوم على النص والنقل وعلى الاثر والرواية ، فضلا عن واقعيته القائمة على اعتماد عمل اهل المدينة ، باعتباره نوعا من الاجماع .

وهو فى هذا يوافق مزاج المغاربة الذى ينفر من الغموض والابهام ومن التعقيد والتأويل ، ويميل الى البساطة والبسر ، والى السهولة والوضوح ، والى الواقعية والعمل الملموس .

وربما كان ابن خلدون يقصد الى هذه الطبيعة حين ذهب الى ان « البداوة كانت غالبية على اهل المغرب والاندلس ، ولم يكونوا يعانون الحضارة التى لاهل العراق ، فكانوا الى اهل الحجاز اميل لمناسبة البداوة . ولهذا لم يزل المذهب المالكي غضا عندهم ولم يأخذ تنقيح الحضارة وتهذيبها كما وقع فى غيره من المذاهب » (80) . والا فلسنا نتصوره يصف الحياة الاندلسية بالبداوة مع ما بلغته فى مضمار الحضارة وان فى هذه المرحلة المبكرة .

**ثانيا :** تجدد المذهب باستمرار ، انطلاقا من مبداي المصالح المرسلية والدرائع ، وما تعطيناه من مرونة وقابلية للتكيف مع اية بيئة وفى اى عصر ، وحل مختلف القضايا والنوازل الطارئة ، ويكفى ان نشير الى الخطوة التجديدية الكبيرة التى خطاها فى عهد المرينيين بعد خروجه من محنة العصر الموحدى ، والى الحركات الاصلاحية التى عرفها فى ظل الدولة العلوية والتى كانت تهدف الى انقاذ الفكر المغربى من الجمود الذى وقع فيه ايام السعديين بسبب كثرة الملخصات التى وضعت لاجمال المسائل الفقهية وتقريبها . وقد كانت هذه الحركات تسمى الى ارجاع الدين لبساطته وبسره ، خاليا من اى تعقيد .

فسيدي محمد بن عبد الله دعا الى نبذ المختصرات الفقهية والى الرجوع للكتاب والسنة وآراء السلف الصالح ، ووزع منشورا بذلك على القضاة ، ووضع لتوضيح اتجاهه كتاب ( الفتوحات ) . كذلك دعا المولى سليمان الى الاصلاح فى تائر بالحركة الوهابية وتجاوب مع صديقه الامير ابن سعود الذى كانت له معه علاقات متينة ، واتجه فى دعوته الى الانتصار للسنة ومحاربة البدع الضالة وكتب فى ذلك خطبا توجيهية .

**ثالثا :** نضالية المذهب وجماهيريته والتحام فقهاؤه بالقضايا الوطنية ، وتقدمهم في ميدان الجهاد . ولا أدل على ذلك من قيام دولة المرابطين القوية على أكتاف فقهاء المذهب ، كما لا أدل عليه من الدور الذي نهض به المغرب في أعماق القارة الافريقية قائما على نشر الاسلام من خلال المذهب المالكي وما يواكبه من تصوف مستند الى الكتاب والسنة .

ويمكننا ان نضيف للتمثيل على طليعية الفقهاء في الذود عن حرية الوطن ومحاربة العدوان الاجنبي ما كان لهم في معركة وادي المخازن من مواقف ، ولعلنا ان نشير كذلك الى الحركة السلفية التي تزعمها المصلح الكبير الشيخ ابو شعيب الدكالي ومن سار على نهجه من امثال المرحوم محمد بن العربي العلوي وغيره من تلاميذ الشيخ ، وهي الحركة التي كان لها الفضل الكبير في توعية الجماهير ، ومنها اثبتت الحركة الوطنية التي ناضلت في سبيل تحرير البلاد من الاستعمار .

\* \* \*

وبعد ، فلعلنا من خلال هذا العرض الذي حاولنا فيه ابراز اهم اسباب انتشار المذهب المالكي واستمراره في بلادنا ان نكون وفقنا الى استخراج هذه الاسباب وتحليلها والاستنتاج منها . ولا شك ان عنصر الوحدة في نطاق الصمود والتحدي يعتبر اهم ملمح يمكننا ان نستنتجه ، وهو ملمح كشفت قضية الصحراء عن فعاليته وجدواه ، سواء بالنسبة لاقناع العدالة اللولية بوحدتنا الترابية او بالنسبة لتعبئة الامة للذود التلقائي عن هذه الوحدة .

ونحن مطالبون اكثر من اي وقت مضى لتمثل هذا الملمح ، لا سيما والعالم الاسلامي - والمغرب في طليعته - معرض باستمرار لالوان من المحن والاختبارات . وهو واقع ينذر بكل توقع خطير اذا لم تكن مسلحين لمواجهة ورده بعقيدة قوية ثابتة تشد في رباطها الوثيق الموحد كل افراد الامة الاسلامية .

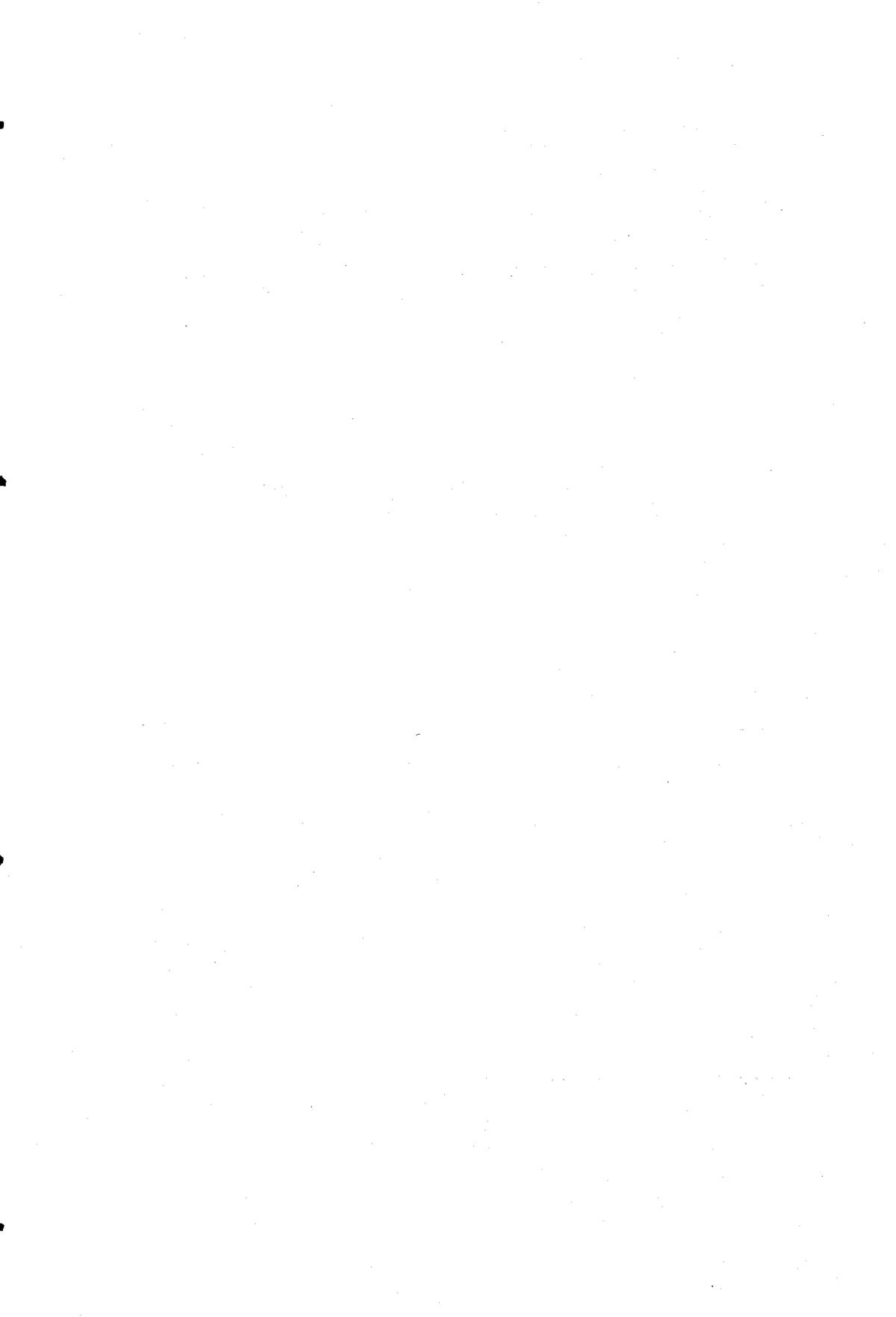
وان يتسنى لنا - نحن أفراد هذه الامة - أن نقيم هذا الرباط ، في عصر كالذي نعيش فيه يتميز بصراع المسكرات وحروب الفكر والتحديات، اذا نحن لم نسع الى وحدة نابغة من روح الاسلام (81) ومؤسسة على ارضية مشتركة نلتزم داخلها بحد أدنى من المبادئ والمفاهيم والمقولات، وننظر الى الحياة والى المجتمع والى مستقبل الدين من خلال رؤية شمولية تنطلق من الوعي بالامكانيات البشرية والمادية لامتنا والظروف النابعة منا والتي يفرضها الواقع علينا سواء فى الداخل أو الخارج .

وإذا كانت مثل هذه الوحدة لا يمكن أن تكون ايجابية الا اذا تجسدت على بساط يلتقي فيه كل رأى وكل ابداع وكل اجتهاد وكل نقد ، فانها فى نفس الوقت تقتضى الحاماً محكماً بين الخصوصيات الاقليمية وعناصر الوحدة ، كما تقتضى تقريبا بين المذاهب المختلفة ، بتنقيتها من الشوائب ومن المظاهر التي لم يعد لوجودها داع او مجال ، وبتصفيها من الخلاف القائم فى بعض الجزئيات والقضايا التطبيقية ، وبالاتفاق على عدد مسن الاسس والمبادئ والغايات .

ونعتقد اننا نستطيع استخراج هذه الاسس بالنظر فى الاصول التي اعتمدها المذاهب المختلفة ، ولا سيما تلك التي اتفق عليها جميع الائمة ، وبالنظر كذلك فيما تفردت به بعض المذاهب من مبادئ تنسم بالمرونة والقابلية للتكيف والامتصاص ، وتكون قادرة بالتالي على اعطاء الفقه الاسلامي طاقات وامكانات للتطوير والتجديد والتوحيد .

---

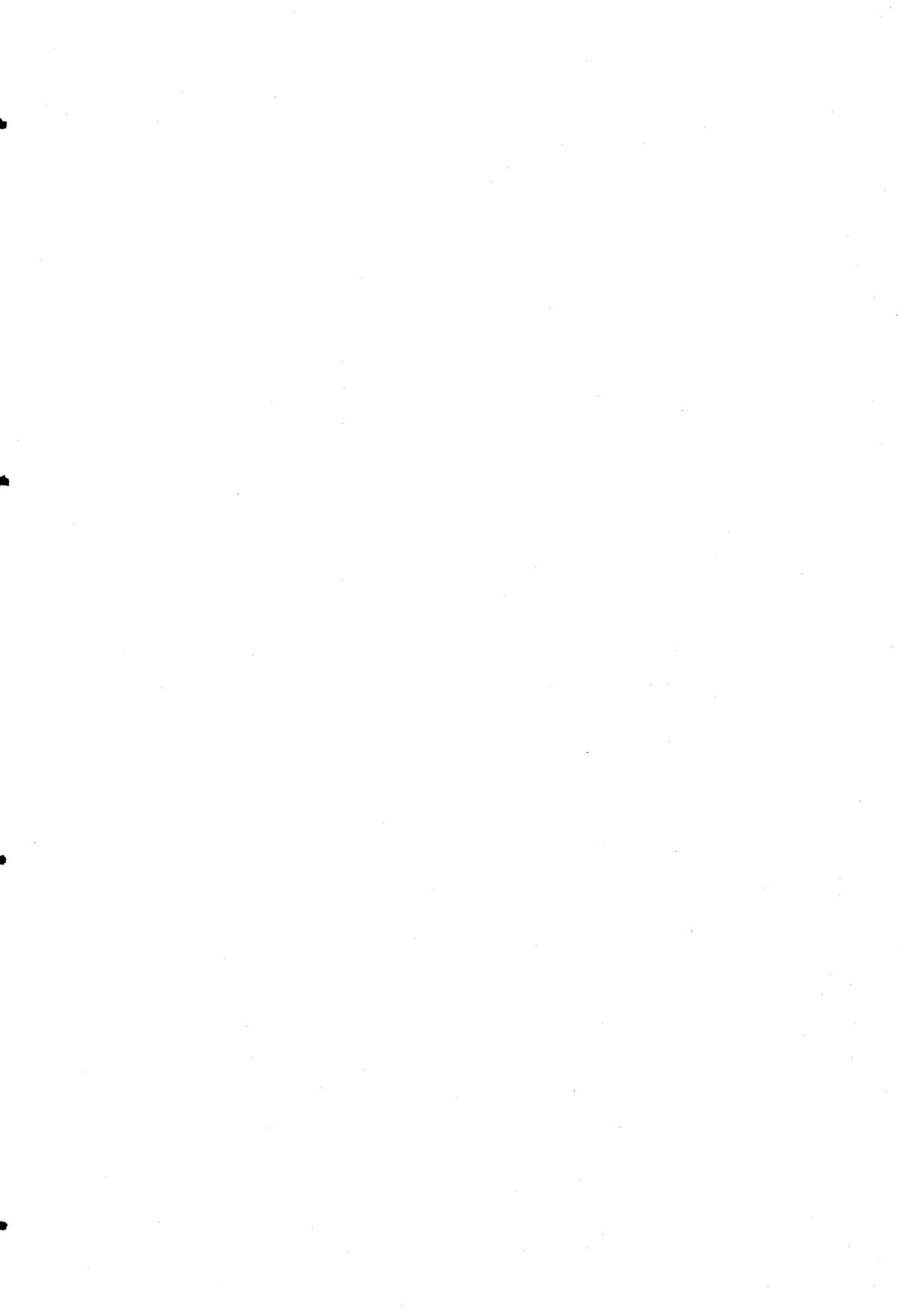
(81) انظر : الفكر الاسلامي والاختيار الصعب ، ابتداء من ص 75 ( دار الرشاد -  
الدار البيضاء 1979 ) .



## الاستاذ الحاج مالك سي

محصل على اجازة فى الشريعة والقانون من جامعة  
الازهر بالقاهرة ، متخصص فى الفقه المقارن .

( السنيـفـال )



## الإمام مالك فقيها ومحدثنا

### للاستاذ الحاج مالك سي

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي خلق الانسان علمه البيان ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد النبي المهداة للاكوان ، وعلى آله وصحابه ينابيع الحكم والعرفان .

حضرة صاحب المعالي سعادة وزير الاوقاف والشؤون الاسلامية ،  
أصحاب الفضيلة العلماء ،  
اخواتي وأحبابي في الله ،

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته ، وبعد :

فانه ليبلغ بي الشرف والسعادة ، غايتها اذ تحتاج الى هذه الفرصة الطيبة للمشاركة الفعلية في هذا الاسبوع الاسلامي الكبير ، اسبوع امام دار الهجرة النبوية الشريفة ، الامام مالك بن انس رضي الله تعالى عنه ، هذا الاسبوع الذي يجد بحق من الايادي البيضاء التي ما فتىء حضرة صاحب الجلالة امير المؤمنين مولانا الحسن الثاني نصره الله ، منذ اعتلائه عرش اجداده العلويين الكرام ، يقدمها للامة الاسلامية ، توطيدا لمكانتها بين سائر الامم ، وحفاظا على تراثها الروحي والفكري ، هذا التراث الزاخر بجميع المقومات الاخلاقية والفكرية لهداية الانسانية الحائرة في متاهات المذاهب الفكرية والنظم السياسية المعاصرة لبعدها عن جوهر الرسالات السماوية في نقائها وروحانيتها وسموها .

وأنا إذ أفف امام جمعكم الكريم هذا نيابة عن العالم الجليل فضيلة الشيخ مولانا الحاج عبد العزيز سي التجاني ليسعدني غاية الاسعاد ، ان أرفع اليكم جميعا اطيب تحياته وصادق متمنياته لكم بالنجاح الباهر في اسبوعنا هذا ، حتى تتمكن من ازالة بعض الشبه والاوهام التي يحلو لبعض المتعصبين ان يلصقوها بالمذاهب الاسلامية بحجة الرجوع الى السلفية وتحكيم القرآن والسنة في مناحي حياتنا المختلفة وهي كلمة حق أريد بها باطل ، ذلك ، لان تلك المذاهب في حقيقتها وجوهرها ان هي الا روح الدين الاسلامي الحق ، فها هو ذا امام دار الهجرة النبوية الشريفة الامام مالك ابن أنس رضي الله عنه يقول : اذا خالف كلامي كلام رسول الله فارموه وجه الجدار .

وهذا ما تعلمون جميعا هو الشعار الذي رفعه جميع ائمتنا الاعلام الذين احموا تلك المذاهب لخدمة الاسلام ورسالته السامية فجازاهم الله عن الامة الاسلامية خيرا .

وهذه أيها العلماء الافاضل مقدمة ما كان لي بد من ان اتقدم بها بين هذا الموضوع الذي اشارك به على جهد المثل في أعمال اسبوعكم العظيم ، والمورد هو الامام مالك « فقيها ومحدثا » لا شك انكم جميعا تعلمون ان المصدر الاول للفقہ الاسلامي على اختلاف مذاهبه وتعدد ائمته ، هو الكتاب والسنة ، ذلك لان القرآن الكريم هو سجل الشريعة الاسلامية المتضمن كل قواعدها وأصولها ، ما فرطنا في الكتاب من شيء ، وان كان مع ذلك لا يشتمل على اكثر فروعها ، فكانت السنة النبوية الشريفة بمثابة مذكرة ايضاحية لكتاب الله ، وهو القرآن الكريم ، يفصل مجمله ويطلق مقيد به دليل قوله تعالى « ونزلنا اليك الذكر لتبين للناس ما نزل اليهم » فمن هنا فصلت السنة النبوية هذه الفروع وبينت الكثير منها ، واضعة الاعلام التي يستأنس بها لايجاد حكم ما يجد للناس من أحداث في حياتهم .

ولم يكن لاحد بالفا ما بلغ من العلم والمعرفة ان يحيد عن هذين الاصلين الجوهرين للشريعة الاسلامية ، لانهما عمودهما والمرجع الذي يرجع اليه ..

ذلك لان الشريعة دين نعبد الله بها ، وأمرنا بالاحتكام اليها دون الاعتماد على العقل المجرد أو التجارب الانسانية .

ونحن لا نلغي بما ذهبنا اليه ، دور العقل العظيم وعمله الايجابي في استنباط الاحكام النقلية وتعرف المقاصد الشرعية من جملة النصوص والتماس العلة او الحكمة في كل نص شرعي جاء بحكم حتى يمكن تطبيق هذا الحكم في كل موضع يشبهه لاشتراكهما في العلة المثبتة للحكم الاصيلي، وذلك كما تعلمون هو دور القياس الذي يلتقي في ساحته الواسعة الشر بالعقل التقاء كريما ، وذلك لعدم تناهز الحوادث مع تناهز النصوص.

ومن هنا اختلفت المناهج الفقهية لاختلاف عقول مؤسسيها في الطريق التي يستنبطون بها الاحكام الشرعية مع تمسكهم جميعا بالنصوص ، ومن هنا نرى من بينهم من يقتصر على المقايسة بين احكام النصوص والحوادث المستجدة دون أن يكون هناك نص يشملها ويحدد حكمها .

ونرى من بينهم من يعتقد بالعقل ويحتكم اليه حيث لا نص .

ومن هنا كان من طبيعة الاشياء ان تتعدد الآراء وتختلف المذاهب اختلافا في ائتلاف لانها كلها تصب في مصب واحد وتتغير غاية واحدة .

ولقد كان الامام مالك رضي الله عنه يقول : « لا يؤخذ العلم من اربعة، ويؤخذ من سواهم ، لا يؤخذ من سفيه ، ولا يؤخذ من صاحب هوى يدعو الى بدمته ، ولا من كذاب يكذب في احاديث الناس .

وان كان لا يهتم على حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولا من شيخ له فضل صلاح وعبادة ، اذا كان لا يعرف ما يحمل ويحدث الناس، فكان رضي الله عنه اذا اطمأن الى راوي الحديث ، ولم يكن من هذه الاصناف الاربعة قبل النقل واعتمد عليه مولاه « مولده » .

ولقد ذهب ارجح الروايات الى ان امامنا ، رضي الله عنه ، ولد هام 93 هـ بالمدينة المنورة، على ساكنها افضل الصلاة والسلام، من ابوين عربيين،

وقبائل يمنية ، فأبوه ينتهي نسبه الى قبيلة ذي اصبح ، واسمه أنس بن مالك ابن أبي عامر الاصبحي ، أما امه فينتهي نسبها الى قبيلة الازد، واسمها العالية بنت شريك الازدية .

### طلبه العلم :

اتجه الامام مالك رضي الله عنه اول نشأته الى حفظ القرآن فحفظه ثم الى طلب العلم حيث جلس في مجلس ربيعة وهو فقيه اشتهر في المدينة الراي حتى لقب بريعة الراي بين اهل المدينة ، وهذا بتوجيه من امه حيث قالت له محرصة ، اذهب الى ربيعة فتعلم من علمه قبل ادبه ، وما ان تلقى منه والباديء الاولية وهو حدث صغير ، حتى شرع متنقلا في مجالس العلماء بالمدينة يتفرس في وجوههم الصلاح والورع والتقوى قبل العلم ، ملتما من بينهم شيئا يخصه بفضل من الملازمة حتى يكون عالما مرشدا وهاديا ، حتى قيض الله له من بين هؤلاء العلماء ، ذلك الشيخ الجليل ، وهو ابن هرمز فظفر بنشدته ولازمه ومقدما له ولاءه واخلاصه ومحبته، وفي شيخه هذا قال رضي الله عنه ، جلست ابن هرمز ثلاث عشرة سنة في علم لم ابته لاحد من الناس ، ولقد تلقى عنه الادب والحكمة .

ولعل ذلك هو ما جعله يتهيب الفتوى ، ويوثر قول لا ادري اذا ازدحم عليه المستفتون .

ولقد قال في ذلك سمعت ابن هرمز يقول : ينبغي للعالم ان يورث جلساءه قول لا ادري . . ولكأني به وهو يفتن الى الوسائل الملتوية التي يستعملها المتعصبين الذين تنطوي قلوبهم على الخبث وسوء النية وهم الذين يتخذون العلماء وسيلة يتخاصمون بها ويجادلون بالحق وبالباطل ، وأولئك شر الناس ، وما زال العلماء مبتلين بأمثالهم ، عصمنا الله وأياكم من فتنهم ، ولقد قال ابن وهب ، وهو من تلامذ الامام مالك ، كان الامام مالك يقول في اكثر ما يسأل عنه لا ادري .

ومن العلماء الكبار الذين تلقى عنهم في أول أمره سيدنا نافع وهو مولى عبد الله بن عمر ، وفيه وفي ملازمته يقول : كنت آتي نافعا نصف النهار وما تظلني شجرة من الثمر ، اتحين خروجه ، فإذا أخرج أذعه ساعة كأنني لم أره ، ثم أتعرض له فأسلم عليه وأدعه حتى إذا دخل أقول له كيف قال ابن عمر في كذا وكذا ، فيجيب ، وكان فيه حدة ، ونرى من هنا أدبه وصبره على العلم وجدته في طلبه ، وبذله المال والنفوس والنفيس، وخير دليل على تركه هذا الخصال الحميدة في نفسه ، صبره على الهجير ، ثم توقيه حدة الشيخ متحليا بالصبر حتى يأخذ عنه علم عبد الله بن عمر .

ومن العلماء الأفاضل الذين تأثر بهم الإمام رضي الله عنه ابن شهاب الزهري ، فلقد أخذ عنه علم سعيد بن المسيب ، وكثيرين من التابعين حيث كان ابن شهاب رضي الله عنه راويا وناقلا عنهم جميعا ، مما جعله مرجعا يرجع إليه في علم الرواية .

ومما يروى عن الإمام مالك رضي الله عنه أنه قال شهدت العيد فقلت هذا يوم يخلو فيه ابن شهاب ، فأنصرفت من المصلى حتى جلست على بابهِ فسمعت يقول لجاريتهِ ، انظري من الباب فنظرت ، فسمعتها تقول ، مولاك الأشقر مالك ، فقال أدخله فدخلت ، فقال : ما أراك أنصرفت بعد إلى منزلك ، فقلت لا ، فقال : هل أكلت ؟ ، قلت : لا ، قال : اطعم ، قلت لا حاجة لي فيه . قال : فماذا تريد ؟ قلت تحدثني . قال : هات الألواح ، فأخرج الواح ، فحدثني بأربعين حديثا . قلت : زدني . قال : حسبك ان كنت رويت هذه الأحاديث فانت من الحفاظ .

ومن هنا نفهم ان امام المدينة ابتدا اول امره يعلم الرواية معنيينيا برواية احاديث الرسول صلى الله عليه وسلم ، حتى تفوق فيه ثم يعلم فتاوي الصحابة ، وبذلك اقام اساسه الذي بنى عليه فقهه .

ولقد بلغ به أدبه واحترامه لاحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم حدا لم نر احدا يضارعه فيه ، ذلك مما جاني كتاب المدارك انه سئل ، اسمع عن عمر بن دينار ؟ فقال رأيتُه يحدث والناس قيام يكتبون، فكرهت

ان اكتب حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وانا قائم ، ولقد كان رضي الله عنه حريصا على ان يتلقى علم الرواية ، خصوصا احاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ممن يوثق بهم ، فكان يتتبع الرواة عن الرسول صلى الله عليه وسلم ، وعن اصحابه وينتقي الثقة المتفقيين ، وكانت له فراسة قوية يدرك بها دقة فهم الرجال وقوة عقولهم ، ومدى رسوخهم في علم الفقه ، وكان يقول ان هذا العلم دين ، فانظروا عمن تاخذونه منه ، لقد أدركت سبعين ممن يقولون : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، عند هذه الاساطين فما أخذت عنهم شيئا على بيت مال لكان أميننا الا انهم لم يكونوا من اهل هذا الشأن ، وهنا ان دل على شيء فانما يدل على تورعه وتشبته فيما ياخذ من أفواه الرجال منسوبة الى النبي صلى الله عليه وسلم ، ذلك لان من بين هؤلاء من أخذ عنه الامام مالك رضي الله عنه الفقه والرأي ، وأخذ عن الآخر الحديث وآثار الصحابة .

ولم يكن تلقيه عن هؤلاء الاعلام يخلو من الفحص والتمحيص ، ثم المناقشة العلمية لتمييز الزيف من الصحيح ، ولعل ذلك هو ما جعل ابن هرمز يوليه اهتماما كبيرا ورعاية يخصصه بها دون غيره من الذين يتلقون عنه في مجلسه بل كان يخصصه بكثرة المحادثات العلمية ، ولقد سئل ابن هرمز ذات يوم فقيل نسالك فلا تجيبنا ، ويسالك مالك وصاحبه عبد العزيز بن سلمة فنحيبهما .

فما كان رواه ، كان يقول حل في بدني ضعف ، ولا آمن ان يكون قد دخل على عقلي مثل ذلك ، وانتم اذا سلمتوني عن الشيء فأجبتكم قبلتموه ، ومالك وعبد العزيز ينظران فيه ، فان كان صواا قبلاه ، وان كان غيره تركاه .

### جلوسه لالقاء الدروس :

كانت المدينة المنورة على ساكنها افضل الصلاة والسلام موئل الشريعة الاسلامية، ومرجع العلماء ، ولقد قال فيها عبد الله بن عمر قولته المشهورة : ان كنتم تريدون المشورين « أى في الدين » فعليكم بدار الهجرة

النبوية ، ولقد اختلت المدينة المنورة هذه المكانة لكونها موطن الشرع ومبعث النور ومعقد الحكم الاسلامي الاول ، ففيها كانت تستنبط من هدى القرآن والسنة النبوية الشريفة أحكاما تصلح للحضارات والمدنيات ، لكل مساهمتين الكلمتين من معاني .

في هذه المدينة وفي المسجد النبوي الشريف اختار امامنا حلقته وكان مجلسه هو الذي كان يجلس فيه أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ، فكان الداخلى الى مسجد رسول الله فى النصف الثانى من القرن الثانى لهجرة النبى صلى الله عليه وسلم ، يجد شيخا مسنون اللحية أشقر الوجه طويلا فيه سمة ومهابة ، لا يستطيع احد التحديق فيه لما خلق الله عليه من سمة الهيبة والوقار .

وذلك هو امام دار الهجرة المحتفل به اليوم مالك بن انس رضى الله عنه .

### « الامام مالك فقيها ومحدثا » :

ولقد كان رضى الله عنه فقيها ومحدثا ، نال شرف الامامة فيهما بشهادة معاصريه حتى كان يقال فيه ، لا يفتى ومالك فى المدينة ، وهل هناك شرف اسمى واعلى من هذه التزكية ؟ كلا ..

ومع ذلك كله فلقد كان حريصا على اتباع السنة ، ومنهاج السلف الصالح ، مستدلا بقول عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه من رسول الله صلى الله عليه وسلم وولاية الامور من بعده سننا ليس لاحد بعده تبديلها ولا النظر فى شيء خالفها من اهتدى بها فهو مهدي ، ومن استنصر بها فهو منصور ، ومن تركها اتبع غير سبيل المؤمنين ، قوله ما تولى فصله جهنم وساءت مصيرا ..

ومع انتشار ظاهرة الاخذ بالرأى والاعتداد به دون استعمال العقل المجرد ، فكان رضى الله عنه يقول : « ان الايمان قول واعتقاد وعمل » ،

ويكفي دليلا على شرف امامته في الحديث ان رواياته عن النبي صلى الله عليه وسلم تعد السلسلة الذهبية حتى قال في ذلك الامام البخاري رضي الله عنه ان اوثق الرواية مالك عن نافع عن عبد الله بن عمر .

ولقد كان يأخذ بهذا المنهج في استنباط الاحكام الشرعية ، ان يأخذ اولاً بالقرآن وهو كتاب الله ، فان لم يجد فيه نصا للحكم ، اتجه الى السنة وتشمل السنة عنده احاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وفتاوي الصحابة واقضيتهم وعمل اهل المدينة ثم القياس ، وهو اثبات مثل حكم معلوم في معلوم آخر لاشتراكهما في العلة عند المثبت . كما كان رضي الله عنه يعد الذرائع أصلاً من الاصول التي يجب الاخذ بها ، ومؤداها ان ما يؤدي الى حرام يكون حراماً ، وما يؤدي الى حلال يكون حلالاً ، بمقدار طلب هذا الحلال ، وكذلك ما يؤدي الى مصلحة يكون مطلوباً ، وما يؤدي الى مفسدة يكون حراماً ، الى آخر ما قصده من مبادئ للاستنباط الاحكام الشرعية ، فجزاه الله خيراً ما جرى به العاملين المحسنين .

وفي الختام اتمشرف بتقديم وافر الشكر ، وعميق التقدير والاحترام ، على ما ابداه لنا من حسن الرعاية وجميل العناية ، حتى تتمكن جميعاً من ايجاز الاعمال العظيمة ، التي تنتظرنا والمتمثلة في تقديم الرسائل والمبحوث المعدة لهذا الاسبوع ، تخليداً للذكرى امام دار الهجرة النبوية الشريفة ، على ساكنها افضل الصلاة والسلام ، ربنا آتينا من لذلك رحمة وهى لنا من امرنا رشداً .

هذا وبالله التوفيق ، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

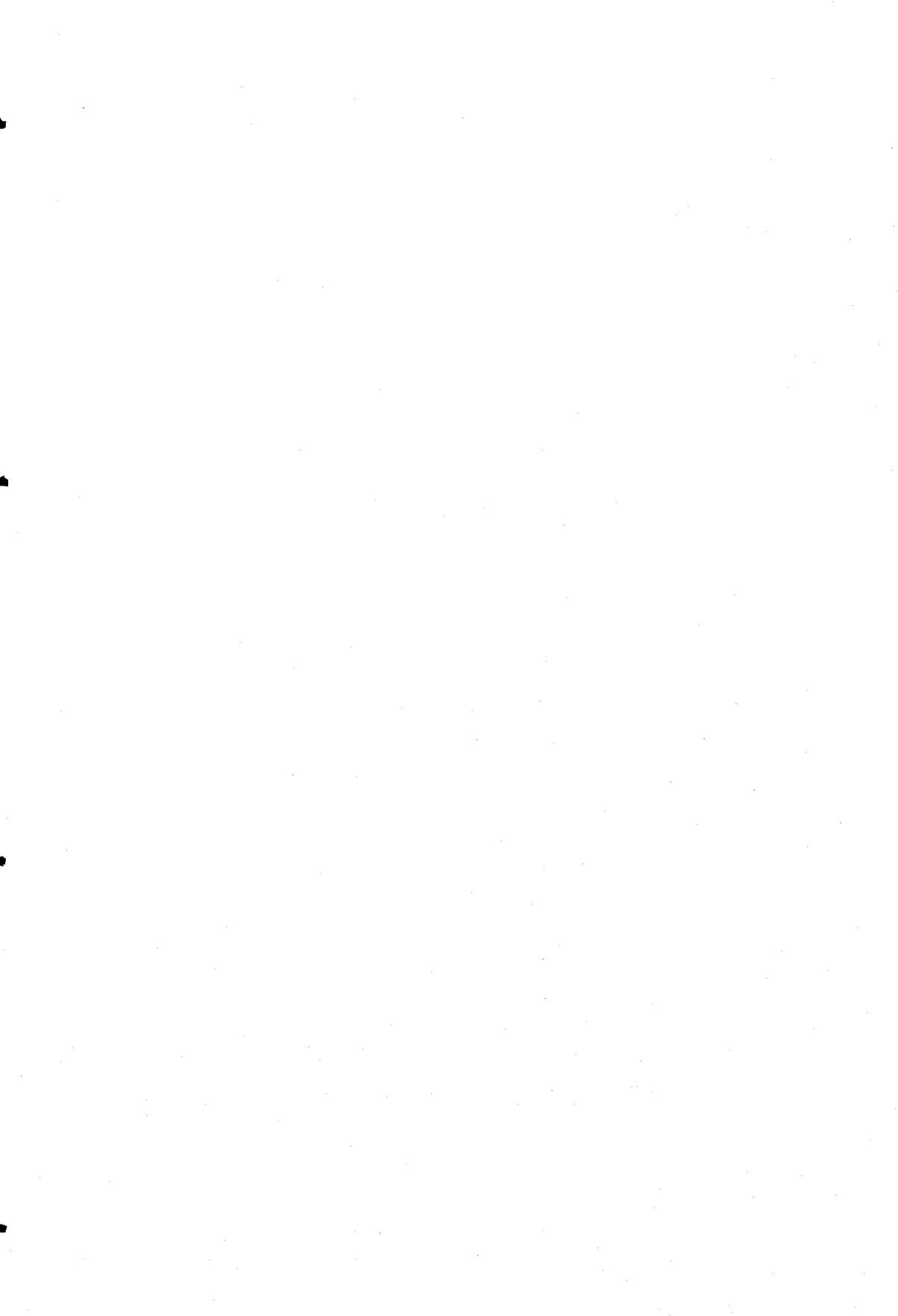
« انما يخشى الله من عباده العلماء » .

- قرآن كريم -

## الاستاذ احمد شاعري الزيتوني

محصل على الاهلية ، التحصيل ، العالمية ،  
متخصص في الفقه والحديث .

( الملكة المغربية )



## ذكرى الامام مالك بن انس امام الائمة

### للاستاذ الشاعر الزيتوني

بسم الله الرحمن الرحيم      وصلى الله وسلم على سيدنا محمد وآله وصحبه

ان الامم التي تعني باقامة الذكريات لمن مضى من عظمائها لدليل على حيويتها وانسلاخها من الجمود والركود ، وانها لجادة ، ولماحة الى المعالي ، وجديرة بتسنم ذروة الكمال ، وان وزارة الاوقاف والشؤون الاسلامية لمستوجبة للشكر العاطر ، على ما تبذل من جهود مشكورة ، ومسامح محصودة في سبيل استئثار همم المفكرين وارباب الاقلام ، فانهم عروق الامة النابضة ، وشرايين حياتها المحركة .

على ان الفضل كل الفضل في ذلك يرجع اولا الى امير المؤمنين الحسن الثاني المحرك الاول الذي يجد وشعبه على السير في المنهج القويم ، والصراف المستقيم ، ليبلغ - عن قريب ان شاء الله - مرتبته اللائقة به بين عظام الامم ، وان ذكرى الامام مالك لمن احسن المواضيع الحساسة في تشحيذ الهمم وتلقيح نشاط الامم ، فان مالكا رحمه الله لمن الشخصيات العالمية في عالم الفقه والقانون ، كفرنسا وايطاليا وغيرها ، وذلك معلوم عند كل من اشتغل بعلم القانون ، واطلع على استمداد علماء الحقوق من اجتهادات مالك ، تلكم الاجتهادات المستنبطة من اصول الشريعة الاسلامية ، مسلمين كانوا ام غير مسلمين .

### ترجمته

### من هو الامام مالك

هو ابو عبد الله مالك بن انس بن مالك بن ابي عامر الصحابي الجليل ، ومالك هو امام دار الهجرة النبوية الحميري اليمني الصبحي نسبة الى ذي اصبح وكلمة ذو كذا تدل على لقب الملك عند حمير ، وهو امام الائمة ، وعالم مدينة الرسول على ساكنها افضل الصلاة والسلام ، وسنرى كيف

ادرك مالك الملك المؤيد بفضل الاسلام ، لا كملك حمير بل كل ملك دنيوي يتلاشى أمام ملك مالك .

ولد الامام مالك سنة ثلاث وتسعين ، - على الصحيح - وتوفي سنة تسع وسبعين ومائة ، فكانت مدة عمره المبارك ستا وثمانين سنة .

ومن أوصافه الجسيمة ، أنه كان مديد القامة ، أبيض اللون ، أشقر ، عظيم الهامة ، أصلع الرأس جميل الثياب .

والاشهر أن مالكا عربى الاصل ، وهو من ذى اصبح ، ولم يكن من الموالي كما زعم ذلك ابن اسحاق ، ذلك الزعم الذى كان سببا في تكذيب مالك لمحمد بن اسحاق - والطعن فيه .

### منزلة الامام مالك العلمية

والامام مالك احد الائمة الاربعة ، بل استاذهم الذين اتفقت كلمة الامة الاسلامية على امانتهم وفضلهم وحراستهم لسنن رسول صلى الله عليه وسلم وتأسيسهم للفقه الاسلامى .

وهم : مالك بن أنس ، وأبو حنيفة النعمان ، ومحمد بن ادريس الشافعى ، واحمد بن حنبل ، وقد وقع اتفاق الامة الاسلامية على وجوب الاقتداء بأحدهم على كل مسلم ليست له مؤهلات ترشحه للاجتهد وأخذ الاحكام من كتاب الله وسنة رسوله صلوات الله عليه مباشرة .

وقد قال كثير من العلماء كسفيان بن عيينة ، وعبد الرزاق ، قالوا في حديث ابى هريرة يوشك أن يضرب الناس اكباد الابل يطلبون العلم ولا يجدون أعلم من عالم المدينة ، قالوا أنه مالك بن أنس فهو امام الفقهاء والمحدثين ، وكفى الامام مالك فخرا أن يتخرج عليه الائمة مثل الامام الشافعى الذى أقر بفضل مالك عليه اذ قال أسناني ، عنه أخذت العلم ، وهو الحجة بيني وبين الله تعالى ، وما أحد أمن علي من مالك ، اذا ذكر العلماء فمالك النجم الثاقب ومعلوم أن الامام احمد بن حنبل تخرج بدوره عن الامام الشافعى ، فهو تلميذ تلميذ مالك ، رحم الله جميعهم ، واما الامام ابو حنيفة النعمان فقد حكى غير واحد أنه لقي مالكا وأخذ عنه ابو حنيفة رغم تقدم سنه عن مالك ولا يستغرب ذلك ، فقد أخذ عن مالك من هو أكبر سنا من ابى حنيفة كابن شهاب الزهرى ، وربيعه الراى ، وغيرهما ، وقد ألف العلماء في الاحاديث التى رواها ابو حنيفة عن مالك رضى الله عنه منهم الدارقطنى والخطيب البغدادي والزركشى والسيوطى وغيرهم ، واما امامة مالك في الحديث وتوفقه في ذلك الميدان ، فاشهر من أن يتحدث عنه فقد قال سفيان بن عيينة : انا كنا نقبح

أثار مالك في الحديث ونظير الى الشيخ ، ان كتب عنه والتركه وما مثلى  
ومثل مالك الا كما قال الشاعر :

وابن اللبون اذا ما لز في قرن لم يستطع صولة البزل القناعيس  
ناهيك بشهادة ابن عيينة هذه وهو على جلاله قدره وامامته ، لم يستغن عن اقتفاء  
آثار مالك ، وقد صرح الامام النسائي بأن مالكا أنبل المحدثين بعد التابعين  
وأجلهم وأوثقهم وآمن على الحديث ، وأقلهم رواية عن الضعفاء ، وقال عبد  
الرحمان بن مهدي - في المقارنة بين مالك وسفيان الثوري والاوزاعي - :  
سفيان الثوري امام في الحديث ، وليس بامام في السنة ، والاوزاعي امام  
في السنة وليس بامام في الحديث ، ومالك فيهما جميعا ، كيف وقد أخذ عن  
تسعمائة شيخ فافتي ، ما أفنى حتى شهد له سبعون اماما أنه أهل لذلك ،  
وكتب بيده مائة ألف حديث وجلس للدروس وهو ابن تسعة عشر عاما ،  
وصارت حلقة أكبر من حلقة مشايخه في حياتهم ، وكان الناس يزدحمون  
على بابيه لاخذ الحديث والفته كازدحامهم على باب السلطان ، وله حاجب يأذن  
أولا للخاصة ، فاذا فرغوا اذن للامة .

#### • تأيب وتثبيت مالك في نقل العلم ونشره .

كان مالك رحمه الله اذا جلس للفقهِ جلس كيفما اتفق ، واذا أراد الجلوس  
للحديث الشريف اغتسل وتطيب ولبس ثيابا جودا ، فتعمم وقعد على منصفته  
بخشوع وخضوع ووقار ، ويبخر المجلس بالعود من اوله الى آخره ،  
تعظيما لحديث رسول الله صلوات الله عليه قِراءة واقراء ، نرى فيه شخصا  
قد هيأته العناية الربانية ، وطهرته حسا ومعنى ، ورشحته لتحمل الشريعة  
الاسلامية والفقهِ الاسلامي في جو من الطهارة والتعظيم ، رواية ودراية  
لتبليغ الشريعة المحمدية الطاهرة الى أوطان المسلمين المختلفة كما جاء  
بها سيدنا محمد عليه وعلى آله الصلاة والسلام ، تصديقا لقوله تعالى : ( انا  
نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون )

ووردت حكايات عديدة وروايات مختلفة كلها تدل على شدة تعظيم مالك  
رحمه الله للحديث النبوي الشريف من أئمة التابعين وتابعيهم ، فلا  
وتثبته فيمن يأخذ عنهم الحديث الشريف من أئمة التابعين وتابعيهم ، فلا  
يأخذ الا عن اختارهم وارتضاهم لديانتهم ، ورسوخهم في العلم ، والغوص  
في الفهم والصلاحية للرواية وتوفر شروطها المعتمدة ، وقد ثبت عن مالك  
أنه ترك الرواية عن أناس صالحين متدينين ، وذلك لعدم معرفتهم ببعض  
الشروط المعتمدة في الرواية ، فان مالكا لا يروي الا عن أمثال نافع بن ابي  
رؤيم ونافع مولى ابن عمر ، وأبي الزناد عبد الله بن ذكوان القرشي ، وزيد

ابن اسلم والزهرى ، وعبد الرحمان بن القاسم بن محمد بن ابي بكر ، وايوب  
السختياني ، وعائشة بنت سعد بن ابي وقاص ومن على شاكلتهم .

وهذا ما جعل ابا الحسن الدارقطني يقول : لا نعلم احدا تقدم او تاخر  
اجتمع له ما اجتمع لمالك ، ومما ذكر نعلم سر نجاح مالك واتقبال الناس على  
علمه ، وامثال اوامره ، واتقاء غضبه وتوخي رضاه ، ويريد مالك رحمه  
الله ان يؤدب - بسلوكه - طلبة ورواة الحديث النبوي ، وفاتلي شريعة  
الاسلام من الاقطار الاسلامية المختلفة ، تاديبا علميا وعمليا وسلوكيا ، حتى  
انه قد بلغ به ذلك السلوك اللائق مع الحضرة المصطفوية انه لا يركب فى  
المدينة المنورة رغم ضعفه وكبر سنه ، تهبيا للركوب فى ارض ضمت الجسد  
الشريف .

ومن تعظيم مالك للحديث النبوي الشريف ما حكاه فى ترتيب المدارك  
عن عبد الرزاق قال : بينما نحن فى المسجد الحرام فقبل لنا هذا مالك ،  
فالتقيناه داخلا من باب بني هاشم وعليه رداء وقميص صنعاني ، فطاف  
بالبيت ، وخرج لناحية الصفا ، فصلى ركعتين ثم اتحبى ، فلما فرغ  
احتوشناه - احطنا به - كما يصنع اصحاب الحديث ، فلما جلسنا قام من  
بيننا كالمغضب ، فجننا مشايخنا فقالوا اي شيء كتمتم عن مالك ، فاخبرناهم  
بالقي فعل ، فقالوا : الذي فعلتم لا يتحملة مالك ، فلما كان من الغد جننا واحدا  
واحدا وعلينا السكنة فحدثنا وقال : ، الذي فعلتم امس فعل السفهاء .

هذا ولو كان ذلك الموقف من مالك مع اولئك الطلبة وحدهم لهان امره ،  
اما وموقف مالك فى فرض احترامه ، وهو متحدث عن رسول الله صلى الله عليه  
وسلم لا يختلف باختلاف الطبقات ، فموقفه ذلك مع الطلبة وغيرهم ، هو  
عين موقفه مع الخلفاء والملوك والامراء ، فقضيته مع المهدي الخليفة العباسي  
وابنه من بعده هارون الرشيد اشهر من ان تفكر ، فقد جاء فى ترتيب المدارك  
برواية ابن نافع انه لما دخل مالك على هارون رفع مجلسه ، وقال لابنيه ،  
قوما فاجلسا بين يمي عمكما فقاما فجلسا بين يمي مالك ، ثم التفت الى  
هارون فقال : ان الله رفعك وجعلك فى موضعك الذي انت فيه ، فلا تكن اول  
من يضع عز العلم ، فيضع الله عزه ، وللتفت هارون الى ابنيه وقال لهما  
قوما ، فاذا مضى عمكما آتيا منزله فاسمعا منه ، فلما انصرف مالك ركبا  
اليه ونزلا ودقا الباب فلم يفتح لهما ، فجلسا على الباب والريح تضرب  
وجوههما بتراب العميق ، فلما أيسا انصرفا .

ولهذه الواقعة سوابق ولواحق ، منها ما وقع للخليفة المهدي العباسي  
- كما فى ترتيب المدارك ، حينما دخل المدينة وزاره مالك وأمر ابنيه موسى  
وهارون ان يسما منه كتبه فبعثوا اليه ولم يصلهم ، ثم سأل المهدي عن

سبب الامتناع ، فقال يا امير المؤمنين العلم اهل ان يوتى ويوقر ، وعندما استخلف هارون الرشيد ورغب في السماع من مالك ولكنه علم انه لن ياتيه اذا ما استدعاه ، فتوجه الخليفة هارون بنفسه الى منزل مالك ، لكنه لم ياذن له في الدخول من حينه ، فوقف في بابه مليا ، وبعد دخول الخليفة الرشيد ، عاتب مالكا على سلوكه ذلك ، فقد اعتبره الرشيد غير مناسب لمقام امير المؤمنين ، فاجابه مالك بانني استوقفتك ريثما اتوضأ ، وذلك لعلمي بانك تريد سماع حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقد قيل في هذه الحادثة او في اخرى شبهها ، ان الخليفة رغب من مالك ان يخصه بالمجلس ، وأن يخرج من عنده من طلاب الحديث ، فأعمله مالك بأن بركة العلم لا تبقى مع ذلك التصرف .

### تسوية مالك بين طلبة العلم واخذه تدريجيا

ويؤخذ مما تقدم وما يأتي ذكره أن من مباهي مالك في نشر العلم التسوية بين طلبته في المجلس بدون فرق في الطبقات ، وأن العلم انما يؤخذ تدريجيا ولا يؤخذ دفعة واحدة ، وذلك لعمرى ، لئلا يشير الى منعه القرآن الكريم ، قال تعالى : ( قالوا أنؤمن لك واتبعك الارذلون ) وقال سبحانه : ( عسى وتولى أن جاءه الاعمى ) الآيات ، وقال عز من قائل : ( واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي ) والاية ، وقد غاب القرآن الكريم على من رأى أخذ العلم جملة واحدة بقوله : ( وقال الذين كفروا لولا نزل علينا القرآن جملة واحدة ، كذلك لنثبت به فؤادك ، ورتلناه ترتيلا ) وهكذا كان سلوك مالك رحمه الله في رفع قيمة العلم والاعتزاز به ، وحمل الناس وتربيتهم على اختلاف طبقاتهم - من امير ومأمور - على احترامه واجلاله ولم يشذ عن ذلك حتى من كان في مثل درجته في العلم ، وفي كل ذلك لم يخرج مالك - كما رأينا - عن توجيه القرآن الكريم وهديه .

فقد جاء في ترتيب المدارك انه دخل بنية بن الوليد على مالك فقال الناس : اليوم ننتقم بابي محمد ، نسأل مالكا مسائل نكتبها عنه ، فسأله عن ست مسائل فاجابه عنها كلها ، وسأله بعد ذلك عن مسألة ، فقال مالك : أكثرت خذوا بيد الشيخ ، فجاء نفسان ( شخصان ) فأخذه بضبعه فأخرجاه ، ولا يستغرب ذلك من مالك رحمه الله فقد قال بعض العلماء - أظنه مالكا نفسه - ليس العلم بكثرة الرواية ، ولكنه نور يقذفه الله في قلب من يشاء من عباده وأن مالكا لم يكن مجرد رلو من رواة الحديث ، ثم يشحن أدمغة آخرين بأزيد ما يمكن من الاحاديث والمسائل الفقهية وكثي ، ولكن مالك علاوة على ذلك وفي نفس الوقت مرب ومدرّب على العمل بالعلم ، وكان يقول في جوابه عن بعض المسائل : ( دعها حتى تقع ) .

فليت شعري هل من قيمة لمجرد حشو الادمغة وأرهاقها بمعلومات غير معمول بها ، او ليس في ذلك فتح باب لبعض المفاسد يجب على العالم التقزّه عنها ، وذلك كمظنة التباهي ، والتفاخر بالمعلومات غير المفيدة الا لغضب الله ليس مجرد الاكثار منها وقلة العمل بها مظنه لامهالها ؟ أو الاستخفاف بها ؟ أو قلة اتقان روايتها ؟ وان مالكا نفسه لم يكن ليحدث بكل ما سمع ، فقد جاءت عنه - روايات أنه وجد بمنزله بعد وفاته كتابا لم يسمع عنه انه حدث بها ، فمنها ، ما ذكر عتيق بن يعقوب أنه دخل منزل مالك بعد وفاته مع ابنه ففتح صناديق مملوءة كتباً ، فقرأها فذكر نحوه ، يعني لم يحدث بها طول حياته - ثم فتح صندوقا آخر فأخرج منه اثني عشر ألف حديث للزهري ، وفتح آخر فأخرج منه ما فيه من حديث أهل المدينة ، فما رأيت فيها شيئا مما ذكر به أصحابه في حياته ، وقد جاء عن مالك نفسه أنه قال : اذا حدثت الناس بكل ما سمعت ، اني اذا أحق .

وبملاحظة ما سبق من شدة التحري من مالك في الرواية ، وأنه لا يروي الا على من توفرت فيهم الشروط المعتبرة ، وبملاحظة ذلك تعرف قيمة تلك الكتب من الصحة والاعتبار .

هذه لمحة خاطفة في ذكر مرتبة مالك رحمه الله بين المحدثين من حلة السنة النبوية ، فانه قل من يداني فيها مالكا أو يشق له غبار ، باعتراف أئمة الحديث انفسهم وشهادتهم بتفوقه في ذلك الميدان .

### مرتبة مالك الفقهية

اما في ميدان الفقه والفتوى ، فان مالكا فيهما امام الأئمة بلا منازع ، وقد تقدم ذكر مرتبته بين الأئمة الاربعة المتفق على وجوب الاقتداء بأحدهم في الدين على كل مسلم مخلص لله ، وارادة اتباع شرايع الاسلام الذي هو الدين الوحيد المقبول عند الله تعالى ، فان العمل في مهد الاسلام المستقيم ، وفي ضوء تعاليمه المثلى ، لا يتأتى على الوجه الصحيح الا للمجتهد أو المقلد لمن بلغ درجة الاجتهاد ، لان أخذ الاحكام من الكتاب والسنة مباشرة يحتاج الى شيء غير قليل من الاستعداد ، الشيء الذي لا يتأتى لكل واحد ، والتمكن من ذلك مع استفراغ الوسع ليس في متناول الجميع ، ولهذا قال صاحب جوهره التوحيد

ومالك وسائر الأئمة  
كذا أبو القاسم مداة الامة

فواجب تقليد حبر منهم  
كذا حكى القوم بلفظ يفهم

وهذا على خلاف ما نسمع اليوم مع الاسف من أن كل من يعرف القراءة والكتابة في امكانه أن يقتني كتب الحديث الوفيرة في المتاجر ، ويأخذ منها الاحكام الشرعية مباشرة ، ومعنى هذا أنه يجوز لكل من هب ودب أن يكون مجتهدا كبقية الائمة الاربعة ويرفقهم ، وفي الرد على هذه الفوضى كتب الدكتور سعيد رمضان البوطي استاذ بجامعة دمشق ، كتب مؤلفا عنونه بما يلي ، اللامذهبية اعظم بدعة تهدد الشريعة الاسلامية .

وإذا أردنا أن نلقي بعض الاضواء لنتبين مرتبة مالك في ميدان الفقه والفتوى فلنقتأل أولا في مناظرة وقعت بين الامامين : محمد بن ادريس الشافعي ، ومحمد بن الحسن الشيباني الحنفي ، مناظرة في أي الامامين أعلم ؟ ابي حنيفة أم مالك ؟ كما جاء في ترتيب المدارك ، قال الشافعي لمحمد ابن الحسن : الانصاف تريد أم المكابرة ؟ قال الانصاف ، قال الشافعي : ناشدتك الله من أعلم بكتاب الله وناسخه ومنسوخه ، قال محمد بن الحسن : اللهم صاحبكم ، قال الشافعي : ناشدتك الله فمن أعلم بسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ قال له : اللهم صاحبكم ، قال الشافعي : فمن أعلم بأقوال أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : اللهم صاحبكم ، قال الشافعي ، فلم يبق الا القياس ، قال محمد : صاحبنا أقيس ، قال الشافعي : القياس لا يكون الا بهذه الاشياء ، فعلى أي شيء نقيس ؟ وزاد الشافعي قائلا : وصاحبنا لم يذهب عليه القياس ، ولكن كان يتوقى ويتحرى ، ويريد التاسي بمن تقدم .

فهذه المناظرة البريئة الواقعة بين هذين الامامين العظيمين الشافعي والشيباني صاحب ابي حنيفة النعمان رحم الله الجميع ، قد سجلها التاريخ ، وقد أسفرت نتيجة تلك المناظرة عن شفوف مرتبة امام دار الهجرة مالك على سائر الائمة الاربعة المعروفة في العالم الاسلامي رضي الله عن جميعهم ،

أما توقى مالك وتحريه في الرواية والفتيا ، واردة التاسي بأمثل المتقدمين عليه فمسيء قد تواترت به الاخبار عن مالك ، فمنه ما ذكر أنفا من أنه لم يحدث الناس بكل ما سمع من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم على الرغم من كونه لا يروي الحديث الا عن توفرت فيه شروط أخذ الحديث عنه في نظر مالك نفسه ، عملا بالحكمة القائلة : ( لا ينبغي أن تقول كل ما تعرف ، ولكن ينبغي أن تعرف كل ما تقول ) ولما يروي عن مالك نفسه : ( ليس العلم بكثرة الرواية ، وانما العلم نور يقتضيه الله في قلوب من شاء من عباده ) وهذا علاوة على أن مالكا لم يفت حتى علم أن الناس قد رشحوه ، ورواؤا فيه الاهلية للفتيا ونشر العلم ، ويقول مالك عن نفسه : ما أفقتيت حتى شهد لي سبعون محنكا : اني أهل لذلك ، والمحنكون يعنون بهم : - حسب تعبير ذلك العصر - ائمة العلم ، وكبار العلماء ، وذلك ما يعبر عنه بالاجازات ، أو

الشهادات الرسمية على حد تعبيرنا في العصر الحاضر ، وقد ذكر صاحب ترتيب المدارك قضايا تدل على ورع مالك وشدة تحريه في أجوبته على المسائل المهمة ، وأنه في كثير من الأحيان لا يستنكف أن يجيب أسس بقوله : لا أدري وذكر أيضا فيمن ذكر أنه سأل رجل عن مسألة استودعه إياها أهل المغرب ، فقال ، ما أدري ما ابتلينا بهذه المسألة في بلدنا ، ولا سمعنا أحدا من أشياخنا تكلم فيها ، لكن تعود ، فلما كان في الغد جاءه وقد احتمل ثقله على بقلته يقودها فقال : مسالتي ؟ فقال ما أدري ما هي فقال يا أبا عبد الله ، تركت خلفي من يقول : ليس على وجه الأرض أعلم منك ، فقال مالك - غير مستوحش - إذا رجعت فأخبرهم أنني لا أحسن ، وقد وقع لمالك كثير وكثير من أمثال هذه القضية ، حسب ما جاء في ترتيب المدارك للقاضي عياض رحمه الله .

ولعل ما اشتهر به الامام مالك رحمه الله من شدة التحري والتثبت في دين الله لافرق في ذلك بين ما يتعلق برواية الحديث النبوي ، وبين الفتيا في المسائل الفقهية ، قلت : لعل كل ذلك كان سببا في اغراء الناس من كل أصقاع العالم الاسلامي شرقا وغربا ، اغراهم بالتوجه الى أخذ الحديث والفقه وآداب الاسلام عن عالم المدينة دار الهجرة النبوية ، وأن في ذلك لاحد المعجزات النبوية واعلام الرسالة النبوية ، فقد وردت احاديث ، منها حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يخرج ناس من المشرق الى المغرب في طلب العلم فلا يجدون عالما أعلم من عالم المدينة أو عالم أهل المدينة ، وقد مضى بالمدينة علماء كثيرون من أمثال سعيد بن المسيب ونافع وربيعه ، ولكن لم يكن أحد منهم مقصودا من المشرق والمغرب مثل ما قصد مالك رحمه الله الجميع .

### سبب اشتهار الأئمة :

هذا ولا أريد أن يفهم مني السامع الكريم أنني أريد حصر علم الشريعة الاسلامية في شخص مالك ولا في بقية الأئمة الاربعة ، فان الكتاب الكريم والسنة النبوية الطاهرة ، بحر لا تدركه الدلاء ، فضلا عن دلو مالك رحمه الله ، قال تعالى : ( ولو أن ما في الأرض من شجرة أقلام والبحر يمده من بعده سبعة أبحر ما نفدت كلمات الله ) ولا ينبغي لمالك ولا لغيره من سائر المخلوقات العلوية والسفلية ادعاء الاحاطة بالعلم الا الله تعالى وحده ، فقد كانت القرون الثلاثة الفاضلة تزخر بالأئمة المجتهدين من الصحابة ( والتابعين وتابعيهم كمالك وغيره من أئمة الاسلام ، فقد رتب أولئك الاعلام الشريعة المحمدية ويسروا للمسلمين التفقه في الدين ، ومهدوا لهم العمل بشرائع الاسلام ، وقد لا يسهل على غالب الناس ممارسة أدلة الكتاب والسنة ، وأخذ

الاحكام منها مباشرة ، فانه لا يتيسر للكل معرفة ما عم منها وما دخله التخصيص ، والناسخ والمنسوخ ، والاجماع ، ومعرفة الصحيح من الاثار من سقيمها وادرك مقاصد الشريعة ، الى غير ذلك ، فقد كفى اولئك الائمة من علماء الشريعة ، ومصايح الامة مشاق الخوض والسير في تلك المهامة وقد وضعوا القواعد ، ودونوا الفقه ، وسهلوا الصعاب وعبدوا الطريق الى معرفة احكام الله تعالى ، غير ان اجتهادات ومذاهب اولئك الائمة من اهل القرون الثلاثة الفاصلة لم يبلغنا منها بطريق صحيح متواتر الا فتاوح الائمة الاربعة ، مالك وأبي حنيفة والشافعي وابن حنبل ، وذلك لتوافر طلبتهم شرقا وغربا بين الذين بلغوا درجتهم في الاجتهاد ، وقاربوها ، وكانوا ذوي عدد كادوا لا يحصون جيلا بعد جيل بحيث لا يزيد تلك المذاهب مرور القرون ، وتعاون العلماء على فحصها وتدقيقها ، وفحص أدلتها من الكتاب والسنة ، والقياس الصحيح واجماع الامة ، لا يزيدها كل ذلك الا المتانة والصحة والاطمئنان اليها حتى أصبح كل مذهب عبارة عن مورد من موارد الشريعة المطهرة قد تضافرت عليه جهود علماء كثيرين ، وفي كل جيل منهم عدد غير قليل يمهدون مسالك المذهب ويوضحونه ويسهلون العمل على مقتضاه ، حتى أصبحت الامة الاسلامية وقد اتفقت على وجوب اتباع اجتهادات واحد من اولئك الائمة العظام ، وفي نفس الوقت لم يدعوا سد باب الاجتهاد في وجه من توافرت لديه مؤهلات ممن جاء بعدهم ، لكنهم سهلوه بما وضعوا من علم اصول الفقه ، ووضعوا فيه قواعد لاستنباط الاحكام الفقهية من أدلة الكتاب والسنة .

غير أن الشيء الذي يحز في القلوب والنفوس ، ولا تتسع له صدور المسلمين هو ما يحاوله البعض من نبذ تلك المذاهب كلها واغراء كل من هب ودب الى أخذ الاحكام مباشرة من الكتاب والسنة ، تشويشا وفتنة للمسلمين فيما تقرّر لديهم من الاحكام ، وفي ذلك - كما ترى - أحداث فوضى في الدين ، وفي الشريعة الاسلامية ومن ثم أيضا يظهر صواب كتاب : ( موقف العقل والعلم والعالم من رب العالمين وعباده المرسلين ، على من زعم حيلولة علمي الفقه والكلام بين المسلمين ، وصلتهم بالكتاب والسنة حيث قال في رد ذلك الزعم : والجواب أن السلف من علماء الاسلام الذين دونوا الفقه والكلام ، لم يرفعوا الكتاب والسنة من متناول المسلمين المحاولين ان يستنبطوا اصول دينهم وفروعه منهما ، ان استطاعوا الاستنباط ، واستجمعوا ما يجعلهم اهلا له ، فان كانوا يراجعون الفقه والكلام دون الكتاب والسنة يراجعونها لسهولة الاخذ منها ، وعدم سهولة الاخذ من الكتاب والسنة التي هو شأن العلماء الراسخين ، وماذا كان يعمل هؤلاء الذين لا يسهل عليهم الاخذ والاستنباط من الكتاب والسنة لو لم يجحدوا الفقه والكلام في متناولهم ،

لا جرم أنهم كانوا يحاولون الاخذ من الكتاب والسنة غير مستاهلين لذلك  
فيضلون ويضلون -

### تأثر المذاهب الاربعة بعضها ببعض :

ومن حكمة الله تعالى أنه سبحانه لما علم أن أولئك الائمة الاربعة هم  
الذين سيقتدي بهم المسلمون في أمور دينهم ، الى أن يرث الله الارض ومن  
عليها ، فإنه تعالت حكمته وزع فيهم الاختصاصات المختارة اليها في السير  
المستمر على نهج الحياة الاسلامية ، بحيث يتيسر - بمراعاتها - استخراج  
حكم لكل قضية تتجدد كيف ما كانت طبيعتها ، الى أن يرث الله الارض ومن  
عليها فبعضهم له مزيد اختصاص في رواية السنن النبوية ونقدها وتمحيصها ،  
كمالك وأحمد بن حنبل ، وبعضهم له دراية بأصول الفقه وتعقيد القواعد  
كالشافعي ، وبعضهم له مزيد قوة الملكة في الرأي والقياس كأبي حنيفة  
وعلماء العراق ، وذلك ليعلم أن الشريعة الاسلامية باقية ما بقي الدهر ،  
وأن القضايا التي تحدث باستمرار اما أن يوجد لها نص صريح من الكتاب  
أو السنة أم لا ، فان وجد والا فالقواعد المستنبطة من نفس الكتاب أو من  
نفس السنة تستخدم لايجاد الحكم الشرعي ، وقد حدثنا التاريخ - كما  
اشار الى ذلك الاستاذ أحمد أمين في كتابه : ضحي الاسلام - حدثنا التاريخ  
بثبوت تلاقي كثير من أولئك الائمة وأخذ بعضهم من بعض ، فمن ذلك أن  
كتاب المدونة وهي من أمهات كتب المذهب المالكي ، والتي جمعها أسد بن  
الفرات تلميذ مالك - قد طعمها وأثرها - أثناء وجوده بالعراق - بأراء علماء  
العراق ، ثم رجع بها الى القيروان ، ومن ثم أخذها منه الامام سحنون  
وعاد بها الى مصر لعرضها على ابن القاسم ، وأصلح منها مسائل وبوبها ،  
ثم رجع بها الى القيروان ، ومنه انتشرت في اقطار المغرب ، كالاندلس وغيره ،  
وان محمد بن الحسن الشيباني صاحب أبي حنيفة له رواية شهيرة لموطأ  
مالك ، وله تأثير أيضا على مذهب أبي حنيفة النعمان ، ومعلوم أن علم أصول  
الفقه الذي يقرأه الجميع من وضع الامام الشافعي .

انظروا ايها السادة كيف تأثرت المذاهب الاربعة بعضها ببعض ، وتعاونت  
على تنظيم وتسهيل الاحكام الشرعية على عموم الامة الاسلامية ، وحقق  
اولئك السلف الصالح بفضل اخلاصهم لله تعالى من توحيد الامة الاسلامية  
والعروية ، وجمع شملها ، والتعاون على ابلاغ الدعوة الاسلامية الى البشرية  
رغم بعد المسافة شرقا وغربا ، وحققوا ما لا يحلم به أهل عصرنا هذا ،  
عصر الطائرة والاقمار الصناعية والصواريخ العابرة للقارات - والتلفزة والبرق ،  
وغير ذلك من وسائل التقارب المادية وكثرة المؤلفات والمحاضرات والمجامع  
العلمية ، والمؤتمرات ، الى غير ذلك مما لم يخطر ببال اولئك الائمة الذين

ليس لديهم من الوسائل المادية غير الايمان بالله تعالى والاخلاص لوجهه الكريم ، والرغبة الملحة في نشر تعاليم الملة المحمدية ، واعلاء منار الاسلام ، وقد كانوا صرحاء مع الخلفاء وولاة الامور ، فلا مؤاربة ولا نفاق ، ولا مهاودة في تنفيذ احكام الله ، فسعد الولاة بالعلماء ، وسعد العلماء بالولاة ، وتضافرت جهود الجميع في سبيل اعلاء كلمة الله ، فاعلى اله امرهم واستخلفهم في الارض كما استخلف الذين من قبلهم ، ويمكن لهم دينهم الذي ارتضى لهم ، وبدل لهم من بعد خوفهم امنا ، وحققوا للمجتمع الاسلامي العربي من الخير ما تعذر تحقيقه على من بعدهم .

### سبب اختيار المغاربة لمذهب مالك :

بقي علينا ان نتعرف الى الاسباب التي من اجلها تمذهب المغرب بمذهب امام دار الهجرة مالك رحمه الله ، دون سواه من المذاهب ، فأتقول ذاكرا لبعضها ، ان من تلك الاسباب مرونة مذهب مالك وسهولته وتوخيه لرفع الحرج والمشقة ، وعنايته بتحصيل المصلحة ، ومنها ان الشباب المغربي الذين يسافرون في ذلك العصر لاداء فريضة الحج وزيارة دار الهجرة ، والمسجد النبوي ، والقبر الشريف يجدون الامام في الحرم المدني وهو في حالة التفرغ لا بلاغ دين الله للناس بواسطة من قصده من الطلبة أبناء الاسلام ، وهم من اولئك الذين يتوفرون على رصيد كبير من الاخلاص ، والتدين والفتنة والذكاء والامانة ، ومن الاسباب ما اشرت اليه في مقال قد نشرته مجلة الكلمة التي كانت تصدر بأكادير وذلك في عددها الاول ، وهو ان المغاربة من طبعمهم التحري التام ، وشدة التروي قبل اعتناق مذهب او ديانة ، فلا يندفعون من اول وهلة حتى تنقشع عنهم كل الشبهات ، ووسائل الاحتمالات ، والمذاهب الاربعة وان كانت كلها على صواب وهي جميعها تغترف من بحر الشريعة المحمدية ، الا ان مذهب مالك في نظر المغاربة - هو من صميم الحق الذي لا يتوهم ان تحوم حوله أية شبهة ، وذلك لأمور منها أن مالكا رحمه الله استقر في دار الهجرة ومهد الاسلام ، ونقطة انطلاقة ، ومعايشة أهل المدينة - وعلمهم صار من قواعد مذهب مالك - معايشتهم لصاحب الشريعة صلوات الله وسلامه عليه ، ومنها : ما عرف عن مالك من شدة التحري والتروي في نقل رواية السنة النبوية ، وما عرف عنه من بالغ التثبت في الفتاوي الفقهية ، مع كثرة إسناده الى الكتاب والسنة ، وقلة اعتماده على الرأي ، قال الشيخ الطالب بن الحاج : عقد عياض في المدارك بابا لترجيح مذهب ، يعني مالكا ، وبيان الحجة لوجوب تقليده ، ورجح ذلك من طريق النقل ، والاعتبار .

## قواعد مذهب مالك سبعة عشر :

ونذكر - في الختام - الأدلة وقواعد مذهب مالك الذي بنى عليها مذهبه ، وهي سبعة عشر قاعدة ، أولها : نص الكتاب - القرآن الكريم - الثانية عموم دليبه المعبر عنه بظواهر الكتاب .

الثالث : دليل الخطاب المعبر عنه بمفهوم المخالفة ، وهو يجري في الشرط والغاية والحصر والعدد والعلّة والوصف والظرف واللقب والاستثناء ، ودليل الخطاب حجة شرعية ما لم يكن له مانع شرعي .

الرابع : تنبيه الخطاب المعبر عنه بفحوى الخطاب ومفهوم الموافقة .

الخامس : مفهوم الكتاب ، والمراد بالمفهوم عنده دلالة الاقتضاء ، وهذه الخمسة من القرآن الكريم ، يزداد لها مثلها من السنة الصحيحة ، فتلك عشرة كاملة ، الحادية عشر : الإجماع . الثانية عشرة : القياس . الثالثة عشرة : عمل أهل المدينة . الرابع عشرة : قول الصحابي . الخامس عشرة : الاستحسان . السادس عشرة سد الذرائع . السابع عشرة : الاستصحاب .

ومن أراد مزيد ايضاح لهذه القواعد وتفصيلاتها وأمثلتها فعليه بمنظومة الشيخ أحمد بن محمد بن أبي كف بشرحها ، عنوان الكتاب : ايضاح المسالك في أصول الامام مالك للشيخ يحيى بن محمد المختار بن الطالب عبد الله الشنقيطين ، رحم الله الجميع .

الا ان فقد العلم في فقد مالك  
فلا زال فينا صالح الحال مالك

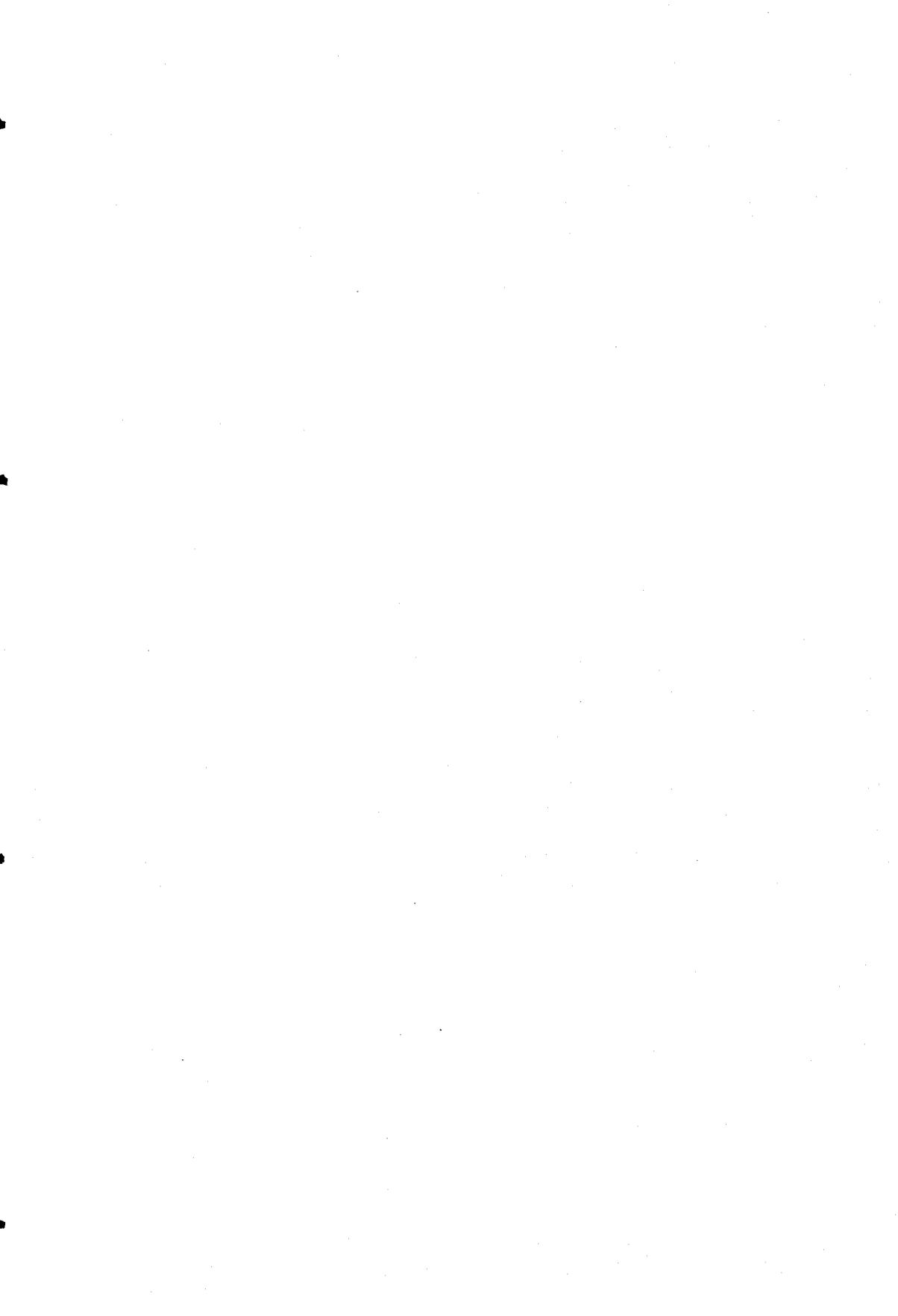
فلولاه ما قامت حقوق كثيرة  
ولولاه لاكتسدت علينا المسالك

- أبو المعافى -

**الاستاذ محمد عبد الكبير العلوي**

محصل على شهادة دبلوم الدراسات الاسلامية العليا في الحديث  
متخصص في الحديث .

( الملكة المفريية )



## علماء شنقيط والمذهب المالكي

### للاستاذ محمد عبد الكبير العلووي

عرفت شنقيط المذهب المالكي وتمسكت به أول ما اعتنقت الاسلام الصحيح على يد زعيمها الروحي الفاتح عبد الله بن ياسين الجزولي احد فقهاء المذهب الذين ابلاوا بلاء حسنا في نشر الاسلام واستئصال جذور الوثنية والاحاد .

وكان عبد الله بن ياسين تلميذا لفتيه مالكي معروف بالزهد والصلاح هو الشيخ وجاج من علماء سوس وهذا آخذ ايضا عن أبي عمران الفاسي احد شيوخ المذهب المبرزين .

وقد كانت الصحراء وبلاد السودان الغربي تعتنق الاسلام ولا تعرف عن فروع الشريعة الاسلامية ولا عن قضايا العبادات والمعاملات الا شيئا قليلا ، فلما قدم عبد الله بن ياسين اليها في القرن الخامس الهجري اراد ان يصحح عقائدها ويفقه ذوبها ويطبق فيها الشريعة الاسلامية ، فما كان منها الا ان ارتدت وخرجت على دعوته فانقطع رضي الله عنه للتوعية والتدريس واقام رباطا امه المئات من الطلبة الذين اخذوا عنه المذهب المالكي وتكونت منهم النواة الاولى للدولة المرابطية .

ولما توفي عبد الله بن ياسين خلفه في الزعامة الروحية ونشر العلم والثقافة وفي منصب القضاء والافتاء الامام محمد بن الحسن الحضرمي الاعماتي دفين آزوكي قرب مدينة آطار الحالية .

ولما توفي هذا الاخير خلفه قاضي مالكي آخر هو ابراهيم الاموي احد علماء المذهب كذلك .

فمن هؤلاء الشيوخ الثلاثة من اقطاب المذهب اخذت قبائل شنقيط علمها وثقافتها .

وقد اشتهرت هذه القبائل بالدراسة والحفظ فكان الغلام فى قبيلة المجلسين يحفظ المدونة قبل بلوغه ، وكانت توجد فى قبيلة الجكنيين ثلاثمائة فتاة تحفظ الموطأ فضلاً عن غيره من المتون .

وفى القرن السادس الهجري وصل الى شنقيط الشريف عبد المومن مؤسس قرية تيشيت وجد شرفائها ومعه الحاج عثمان جد بعض الاسر فى مدينة وادان وكانا قد قرءا على القاضي عياض وخرجا من اغمات .

فعلى هذين العالمين ايضا قامت حركة علمية واسعة .

ورغم انفتاحهم على العالم الاسلامي ورحلتهم السنوية الى الحج واتصالهم بمختلف الشخصيات العلمية التي تعتنق شتى المذاهب فانهم ظلوا يتمسكون بالمذهب المالكي ولا يقبلون به بديلا وكان لسان حالهم ينشد :

اتاني هواها قبل أن أعرف الهوى فصادف قلبا خاليا فتمكنا

اما هذا المذهب فقد استوعبوه ودرسوا اصوله وفروعه واستظهروا متونه المطولة والمختصرة ووضعوا على مختصراته مختلف الشروح والحواشي والتعليق ونظموا كثيرا منها .

ولا يمكنني أن أستعرض فى مثل هذا العرض الموجز فهرس الشروح القيمة التي وضعها الشناقطة على مختصر الشيخ خليل وغيره من كتب المذهب ، الا انني اشير الى بعض قليل منها :

1 - فمن ذلك مثلا شرح الحاج عثمان الواداني فى القرن التاسع الهجري المعروف بموهوب الجليل على مختصر خليل وهو شرح مهم .

2 - شرح والد الديمالي للمختصر ويعرف بمعين والد .

3 - شرح محض بابا بن عبيد الديراني ويعرف بالميسر الكبير ،  
وله الميسر الصغير كذلك ، وكلاهما في غاية الاهمية .

4 - شرح حبيب الله بن القاضي الايجيبي ويعرف بمعيين  
حبيب الله .

5 - الشرحان المهمان لوامع الدرر وثمان الدرر أحدهما للعلامة  
محمد بن محمد سالم المجلسي وثانيهما لابنه العلامة عبد القادر بن محمد  
سالم .

الى غير ذلك من شروح المختصر والرسالة وغيرهما من كتب  
فروع المالكية .

ورغم ما كان بين القوم من تباين في الآراء داخل المذهب ورغم  
احتدام الصراع في كثير من القضايا فان جمهور العلماء ومحققيهم في  
شنقيط لم يجيزوا لانفسهم ان يحتجوا لرأي او يفتوا في مسألة الا  
بالمذهب المالكي .

واقدم كمثال على ذلك نازلة راجع الحبس التي وقع الخلاف فيها  
بين نخبة من اكابر علماء شنقيط في أوائل القرن الثالث عشر الهجري  
حيث يقول شيخ الاسلام حرمة بن عبد الجليل العلوي (1) .

مراجعتنا في راجع الحبس قد غفل      وساق نصوصا لا تساعده فزل  
رمى ما حكى المواق من قول مالك      فاشوى مصاب القول فاستنوق الجمل

ويقول ابيديج (2) من علماء شنقيط ايضا :

يا صاحبي قفا بالمنهل الصافي      وسلما الحكم للقاضي بانصاف

الى ان يقبول :

فحجة الشيخ في بهرام ناهضة      لو كان يكفيكما ما كان في الكافي

(1) توفي بعد الثلاثين من القرن الثالث عشر الهجري  
(2) توفي حوالي الاربعين من القرن الثالث عشر الهجري

ويرد عليه العلامة بابا بن احمد ييب العلوي (3) بقصيدة يقول فيها :

فحجتي وصحابي غير داحضة      من نص بهرام والتوضيح والكافي  
فمالك ان تصف عما يقول فا      ني لست عن قوله يوما بصياف

ويرد العلامة محض بابا بن عبيد الديماني (4) على ايح بقصيدة  
يقول فيها :

رووه عن مالك نصا وواقفه      نص الامام بن عبد البر في الكافي  
والانقراض الذي يحجوه حجته      انى فى الام (5) لام نسلها ضاف

وهكذا يتشبت كل واحد من هؤلاء بالمذهب المالكي معتمدا على  
مرجع من مراجعه فيحتج هذا بما رواه المواق من قول مالك ويحتج هذا  
بما فى بهرام وما فى الكافي ويرد عليه هذا بما فى الكافي وما فى التوضيح  
ويحتج هذا بما فى المدونة وما فى الكافي .

وتلك صورة واضحة عن تعلق القوم بالمذهب المالكي .

ومما يعطينا صورة عن تمسكهم بالمذهب المالكي ودفاعهم عنه ما  
لقيه بن حبيب الله اليعقوبي من نقد وتجريح وردود قاسية من لدن كافة  
العلماء فى بلادهم .

وقد كان لابن حبيب الله اليعقوبي (6) هذا نفوذ روحي كبير ومكانة  
مرموقة بين علماء شنقيط حتى عدوه احد اربعة علماء لم يبلغ احد مبلغهم  
فى شنقيط . فلما ظهر منه الميل الى الاجتهاد والاعتماد على غير فروع  
المذهب اقيمت عليه الدنيا واقعدت ، ورمى بالضلال والابتداع حتى قال  
مدافعا عن نفسه :

لو كنت بدعيا لما كان الصواب      عندي الاحاديث الصحاح والكتاب

- (3) توفي بعد الاربعين من القرن الثالث عشر الهجري
- (4) كان حيا الى حوالي منتصف القرن الثالث عشر الهجري
- (5) الام هنا هي المدونة .
- (6) توفي اوائل القرن الثالث عشر الهجري .

ومما انتقدوا عليه تساؤله الذي يقول فيه :

1 - ما وجه نسبة ما اخترعه الاربعة المشار الى اختراعهم بصفة الفعل وتردد المتأخرين لعدم نص المتقدمين واختلاف شراح المدونة في فهم الفاظها ما وجه نسبة هذه الاقوال الى مالك وجعلها مذهبا له وبينه وبين قائلها مائتا سنة وزيادة الى ان يقول :

ومذهب الانسان ما صرح به ولم يرجع عنه الى ان مات لا ما قاله من ولد بعده بمائتي سنة .

2 - ما الفرق بين ابن القاسم والشافعي حتى جعلتم الاول من حملة مذهب مالك والثاني مذهبا مستقلا وكلاهما شيخه مالك وكلاهما تابع مالكا في مسائل وخالفه في حياته في مسائل .

3 - ما وجه تحريم الانتقال من مذهب الى مذهب بل ما وجه تحريم تقليد الاربعة دفعة واحدة .

4 - ما وجه مدحكم للخلاف وقولكم كل مجتهد في الفروع مصيب ومن قلد عالما لقي الله سالما ، الاختلاف بين العلماء رحمة ، وقد ورد ذمه في القران والحديث . قال الله تعالى : « وان هذا صراطي مستقيما فاتبعوه » . . الآية . وقال : « واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا » وحبل الله كتابه كما جاء في الحديث الى ان يقول في تحريم الخلاف . قال الله تعالى : « ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا » . . الآية . الى ان يقول وقال صلى الله عليه وسلم : ( انه ستكون فتن كقطع الليل المظلم ، قيل فما النجاة منها يا رسول الله : قال كتاب الله ) . . الحديث . الى آخر كلامه في هذا الصدد . ويبدو ان بعض علماء شنقيط قد قال بمنع الخروج من مذهب الى مذهب وهو ما لم اطلع عليه الا ان ذلك ما يفهم من كلام اليعقوبي هنا ، ولا غرابة في ذلك فان تشبث القوم بالمذهب المالكي وتمسكهم بفروعه لا مزيد عليهما .

وقد انتدب للرد على ابن حبيب الله اليعقوبي سيدي عبد الله بن الفاضل المتوفى في اواخر القرن الثاني عشر الهجري والى رسالتين في

تخليه خصص احدهما للرد على آرائه فى علم الكلام والاخرى للرد على خروجه عن الفروع المالكية واستشكالاته المتقدمة على خليل ، ولم أقف منها الا على قوله : وأصحاب مالك الذين قد حث فيهم أكثرهم أهل القرن الثالث وآخر القرن الثاني كما انتدب للرد عليه أيضا علامة شنقيط محض بابا بن عبيد الديرمانى الذى ألف رسالة فى تخليته .

ولما مات رحمه الله انتقده شيخه المختار بن بونا الجكنى (7) . وقد خصص الكنتى جزءا من رسالته جذوة الانوار للرد عليه حينما بلغه عنه انه قال :

ان مالكا انما ياتى بالاقوال الظنية .

وهكذا تحاملوا عليه رحمه الله مع علمه وورعه واتهموه بالابتداع والضلال مع صحة عقيدته وتمسكه بالكتاب والسنة .

وهكذا جلب عليه خروجه عن المذهب المالكي ودعوته الى الاستغناء عن كتب الفروع المجردة من الدليل محنة قاسية مما جعله يعيش وحيدا فى آرائه ونظرياته غريبا بين أهله وعشيرته .

ولا يمكننى فى مثل هذا العرض الموجز ان اتحدث عن كل الذين خدموا المذهب المالكي أو دافعوا عنه .

ولكنى أريد فقط ان أتعرض لذكر شخصيات قليلة امتازت فى خدمتها للمذهب المالكي برأى أو دعوة لم يشاركها فيها غيرها من علماء شنقيط .

### سيدي عبد الله العلووي :

ومن هؤلاء سيدي عبد الله العلووي (8) الذى بذل النفس والنفس فى تحصيل الكتب وجمعها والى ذلك يرجع الولاى السبب فى رحلته (9) .

(7) هو شيخ المشائخ فى شنقيط وقد توفي أوائل القرن الثالث عشر الهجري .

(8) توفي سنة 1233 هـ .

(9) فتح الشكور فى اعيان علماء التكرور .



سائر المذاهب للحديث الصحيح يوشك ان يضرب الناس اكباد الابل في طلب العلم ولا يجدون عالما اعلم من عالم المدينة وترجيح السلف الصالح له على مذهب غيره مع حسن تصرفه في كل فن من القراء والحديث والعربية والاصول وغير ذلك ، وأيضا فان ما سواه من المذاهب مفقود في انحاء المغرب . أه .

وقد كاد ان يجعل فصل التقليد في الفروع مقدمة تمهيدية لترجيح مذهب مالك ، وحثمية تقليده حيث يقول : ان المفتي يحرم على غيره العمل بفتواه اذا لم تجتمع فيه ثلاثة أمور : الدين والعلم والورع لعدم الثقة بمن عدت فيه خصلة من الثلاث ويعرف حصول تلك الامور بالاخبار المفيدة للعلم أو الظن وكذلك اذا حصل العلم أو الظن باشتهاره بها كانتصابه والناس يستفتونه .

الى آخر المبحث الذي يقول فيه :

اذا وقع التفاوت في العلم مع الاستواء في الدين والورع فان بعض العلماء يوجب الاخذ بقول الاعلم وان كان التفاوت في الورع والدين مع الاستواء في العلم تعين الادين لان لزيادة الدين والورع تأثيرا في التثبيت في الاجتهاد وغيره .

وبعد ان يأتي بقول من اجاز تقليد المفضول مع وجود الفاضل ، ويقرر ان كل مذهب من مذاهب المجتهدين قد جعله الله وسيلة يتوصل بها الى دخول الجنة لان كلا منهم على هدى من ربه وان تفاوتوا في العلم والورع يقول :

وموجب تقليد الارجح وجب لديه بحث عن امام منتخب

ويشرح هذا البيت قائلا : يعني ان ابن القصار من المالكية وابن سريج والفزالي من الشافعية والامام احمد ممنوعوا تقليد المفضول مع وجود الفاضل .

ويأبى الا ان يجعل مما تقدم من شروط المفتي وخلاف العلماء في جواز تقليد المفضول مقدمات يتبعها بنتائج ترجح تقليد مالك وترجيحه على غيره فيقول :

إذا سمعت فالامام مالك صح له الشأو الذي لا يدرك

ويشرح هذا البيت قائلاً : أى اذا سمعت ايها الطالب لعلم هذه المسألة وجوب تقليد الارجح من المجتهدين فاعلم أن الامام مالكا رحمه الله تعالى ثبت ان له الشأو اي السبق فى العلوم والغاية التي لا يدركها مجتهد غيره من عصر التابعين فمن بعدهم .

ويأتي بعد هذا البيت بيت آخر يرجح به مذهب مالك فيقول :

للأثر الصحيح مع حسن النظر فى كل فن كالكتاب والأثر

ويشرحه قائلاً : يعني أن مالكا ثبت له الفضل على غيره ممن ذكر لاجل الحديث الصحيح ، يوشك أن يضرب الناس اكباد الأبل فى طلب العلم ولا يجنون عالماً أعلم من عالم المدينة ، ثم ما ثبت له من حسن النظر فى كل فن من الفنون ككتاب الله العزيز وآثاره صلى الله عليه وسلم وكالعربية والاصول وغير ذلك مع جمعه لمسائل الاتفاق والاختلاف وهذا لا ينكره مؤلف ولا مخالف الا من طبع لاله على قلبه فى التعصب .

ويقول : وهو القدوة فى الحديث وأول من ألف فأجاد ورتب الكتب والابواب وضم الأشكال وأول من تكلم فى غريب الحديث وشرح فى الموطأ كثيراً منه وله فى تفسير القرآن كلام كثير مع تجويده له وطبسط حروفه وروايته له عن نافع القارىء ، قال بعضهم :

ما رأيت أنزع بآية من مالك بن أنس مع معرفته بالمعمول به من الحديث والمتروك وسيرة الرجال .

هذا فى كتابه نشر البنود على مراقبي السعود ، اما فى كتابه نيل النجاح على غرة الصباح فانه وان مال الى ترجيح الصحيحين على الموطأ أبى الا ان يحكم بصحة مراسيله حيث نقل قول أبى زرعة : لو حلف أحد بالطلاق على أن ما فى الموطأ من حديث كان صحيحاً لم يحنث ، ونقل كلام ابن حجر والسيوطي اللذين صححا ما قاله أبو زرعة ثم قال :

فاذا علمت ما تقرر علمت أن أقول شيخنا البناني بالحنث بما فيه من المراسيل غير صحيح .

وليس كتابه طرد الضوال والهمل عن الكروع فى حياض مسائل العمل الا دفاعا عن المذهب ودعوة الى التمسك به حيث رأى المنتسبين للعلم يفتون بغير المشهور اعتمادا على عادات وأعراف لا يقرها الشرع الحنيف وفى ذلك يقول : والعرف اذا لم يكن عن دليل فهو جهل لا يجوز العمل به .

ويدعو فى هذا البحث الى ما قاله الحطاب من ضرورة اجتهاد المفتي فى المفتق عليه من المذهب فان لم يجد فالاقوى من الخلاف فان لم يجد فالشاذ من المذهب فان لم يجد فليُنظر الخلاف خارج المذهب .

وهكذا يمنع عليه الافتاء خارج المذهب الا حينما لا يجد مندوحة عن ذلك فيتحتّم عليه الاخذ بأقوال العلماء خارج المذهب .

ويرد سبب العمل بغير المشهور الى أن شيوخ المذهب المتأخرين كأبي عبد الله بن عبيد وأبي الوليد بن رشد والقاضي أبي بكر بن العربي وأبي الحسن اللخمي وأقرانهم لهم اعتبارات وتصحيحات لبعض الروايات والاقوال عدلوا فيها عن المشهور وجرى باختيارهم العمل بما اقتضته المصلحة .

وينقل سيدي عبد الله فى هذا الصدد أقوال علماء المذهب المتلخصة فى ضرورة العمل بغير المشهور مراعاة للمصلحة فاذا انتفت المصلحة وجب العمل بالمشهور والرجوع اليه .

ويرد على الفقهاء الذين تصدروا للتدريس والافتاء فأفتوا بغير المعتمد من المذهب فيقول : فان معولهم مختصر الشيخ خليل وكم من مطلق فيه مقيد فى غيره وعام مخصص فى غيره وقد يمشی على غير المعتمد وأن كان قليلا فيقتصر الحافظ له بقوله مبينا لما به الفتوى وقد يخالف ما مشى عليه من المشهور ما به العمل وما به العمل مقدم على المشهور وكذا تراهم لا يعرفون المنطوق من المفهوم ولا النص من الظاهر ولا الصريح من المحتمل ولا صيغ العموم والاطلاق الى غير ذلك من الابحاث الاصولية التي لا بد منها لكل فقيه .

وكما دعا سيدي عبد الله الى ضرورة معرفة اصول المذهب وقواعده فانه ايضا دعا الى ضرورة الحفاظ على فروع المذهب حيث يقول بعد

كلام فى نوازله : لكن العمل بالقواعد انما يكون بعد امعان النظر فى الفروع  
وعدم دليل على النازلة والا قدم العمل بما فى الفروع .

### الشيخ المختار الكنتي :

ومن الذين خدموا المذهب المالكي خدمة خاصة ودافعوا عنه الشيخ  
سيد) المختار الكنتي المتوفى أوائل القرن الثالث عشر الهجري .

وقد عرف عنه كما يقول ابنه : انه كان يرد الفروع الى أصولها وما  
عرى منها عن أصل أظهر ضعفه وشذوذه وقد قامت على يده دعوة الى  
العمل بالكتاب والسنة وعرض أقوال الفقهاء عليهما كما اشتهر بالتعصب  
للمذهب المالكي وقد لخص مذهبه فى بائيته المشهورة التي يتحدث فيها  
عن تحصيل العلوم والاعتكاف عليها فيقول :

واياك ترضى باقتناص فروعها  
فان الاصول كالقواعد تقتضي  
فمن لم يقيد بالكتاب علومه  
ولا تقتصر ان الحديث بيانـه  
بغير ارتشاف من مشاربها العذب  
طمانينة للقلب والنجح بالارب  
بغى وطفى واستبدل البسر بالرطب  
وتفسيره فقه الاثمة لا الشعب

الى أن يقول :

ومن يترك الفقه المهذب رغبة  
ولكن تفقه وانتق الحق مذهبا  
الى غير تحقيق من القول واضح  
فقد رام تجهيلا وعن رشده يذب  
وميزه بالذكر الحكيم ولا تـؤب  
تداوله التحقيق والسلف النجب

فهو فى هذه القصيدة يدعو الى العمل بالكتاب والسنة وعرض  
اقوال الفقهاء عليهما ويحث على الاعتناء بالمتون الفقهية التي تعرض لها  
الاثمة بالدرس والتمحيص فهذبوها وعلقوا عليها وبهذا يقف الكنتي موقفا  
وسطا بين تلك الطائفة من علماء شنقيط التي دعت الى الاعتماد على  
الاصليين الاساسيين كتاب الله وسنة رسوله ورفض كل قول من أقوال  
الاثمة ومتقدمي الفقهاء لا يعتمد على دليل .

وبين تلك الطائفة التي منعت النظر فى الكتاب والسنة وقالت ان العمل بما فى المتون الفقهية المتداولة وحده السبيل المستقيم .

ويظهر تعصب الكنتي للمذهب المالكي فى نظمه الذي يقول فيه :

فاحكم بأن مذهب الامام  
والافضل اتباع هذا المذهب  
وما أتى قولاً لاهل المذهب  
يفتى به ان وافق الاصولاً  
مرجح من لادن الاعلام  
كما هي الحال بأرض المغرب  
ولم يكن قول امام المذهب  
وان يخالف لم يكن مقبولاً

الى آخر نظمه الذي يبرز مدى تعصبه للمذهب ودفاعه عنه ودعوته اليه .

وقد قال احد منافسيه هذين البيتين لما الف الكنتي هداية الطلاب :

قبضت على ديني بنص خليل  
وان سألوني عن دليلي وحجتي  
وان لامني فى ذلك كل خليل  
أقول خليل حجتي ودليلي

فأجابه الكنتي :

قبضت على ديني بهدي رسولي  
تمسكت بالاصلين آياً وسنة  
على انني والحمد لله لم أكن  
فما هو الا جامع المذهب الذي  
وتلك لعمرى حجتي ودليلي  
فلم اك اصفى فيهما لعذول  
لاترك بين الناس نص خليل  
نماه الى الاصلين كل نبيل

ونجده كذلك يدافع عن أرجحية الموطأ فى الصحة على غيره من كتب الحديث فيقول فى أحد أنظامه المفيدة :

وأحكم بأن كتب الأئمة  
أما الصحيحان فذان فضلاً  
وكان بعض السادة الكرام  
وذلك ما أراه وهو الاصول  
وقد أتى مصنف التمهيد  
جميعها نافعة مهمة  
عند الهداة الاكرمين فضلاً  
مفضلاً موطأ الامام  
وهو السبيل الاقوم المحبب  
بوصله فى جامع فريد

صنفه في وصله وجمعه فأسند الكتاب غير أربعة

ويدافع عن المرسل مشيراً إلى أنه قد يكون أصح من المتصل فيقول:

وربما يكون ما قد أرسلنا أصح مما قد أتى متصلاً  
لان من أرسل قد تكفلاً مؤكداً صحة ما قد أرسلنا  
ومن أتى بسند متصل فقد أحالك عليه فاعقل

وهو رأي قال به بعض رجال علوم الحديث إلا أن الأكثر على خلافه ولم يحمل الكنتي على القول به إلا دفاعه عن مراسيل الموطأ ، ولم يكن في حاجة إلى ذلك لان مراسله قد أسندها ابن عبد البر سوى الاحاديث الأربعة التي أسندها غيره كما سيأتي بيانه في محله أن شاء الله .

ويأبى الكنتي إلا أن يخصص جزءاً من رسالته جذوة الأنوار للرد على ابن حبيب لله يعقوبي حيث يقول : وقد بلغني أن ابن حبل (12) طعن في مالك بن أنس أمام الأئمة وعالم دار الهجرة وحامل لواء السنة وزعم أنه إنما يأتي بالاقوال الظنية كسائر المجتهدين وجميع الأئمة وليس كذلك ولكنه الذي نص رسول الله صلى الله عليه وسلم عليه بجوامع كلمه بقوله : يوشك الناس أن يضربوا أكباد الأبل فلا يجدوا عالماً مثل عالم المدينة . وبعد هذا الحديث يسوق الكنتي أقوال العلماء الذين ارتأوا أن المعنى به مالك بن أنس رضي الله عنه ويقول :

فلما ثبتت من ولاية مالك رضي الله عنه بنص النبي صلى الله عليه وسلم ولما ظهر على يديه من الخوارق وباجتماع صالح المؤمنين على صدقه وفضله وجب تصديقه والمصير إلى قوله وتكذيب ابن حبل فيما قاله من تكذبه والطعن عليه صريحاً . ١ هـ

والحقيقة أن ابن حبل رحمه الله لم يكذب مالكا رضي الله عنه وحاشاه بل أن غاية ما قال أن مالكا يأتي بالاقوال الظنية ، ومن المعروف

---

(12) ابن حبل هو الاسم الشائع الذي يطلق على ابن حبيب الله يعقوبي .

ان الاحاديث التي لم تتواتر لا تفيد الا الظن ولم يكن ابن حبل يقصد  
بالقول مالك ما رواه في الموطأ من الاحاديث المرسله او المنقطعة وانما  
يقصد كلامه في الموطأ وغيره من الاقوال المنسوبة اليه . ولكن الكنتي  
لا يقبل ان ينزل كلام مالك الى باقي الائمة المجتهدين وهو قول متناه في  
التقدير والاحترام والتلقي لكل ما يقوله مالك بالقبول والقطع .

ونجده حريصا على ان لا يعمل او يفتي الا بما له اصل في المذهب  
حيث يقول في اجوبته المهمة : واما قولك : واما اصل بيعنا لهذا الملح  
بالطعام نسيئة ، فالجواب ان المشهور في ذلك المنع الا ان يكون يدا بيد  
للحديث الوارد في الطعام وبعد اتيانه بهذا الحديث المشتمل على قوله  
صلى الله عليه وسلم : والطعام بالطعام ربي الا مثلا بمثل يدا بيد يقول  
الكنتي معلقا على ذلك :

وفى مذهب مالك ان الملح سبيله سبيل الطعام لاتيان الشارع به في  
نسق الربويات من الحبوب والثمار ولان النبي صلى الله عليه وسلم قد نص  
في حديث آخر انه مصلح للطعام وان الطعام لا يصلح بدونه فكان بذلك  
سبيله سبيل الطعام الى ان يقول :

وذهب ابو حنيفة وبعض المالكية وبعض الشافعية الى ان سبيله  
سبيل النقدين الذهب والفضة فيمنع بيع بعضه ببعض نسيئة وفضلا  
وليس ذلك فيما بينه وبين الطعام . اذ حقيقة الطعام ما تقوم به البنية  
ويختل نظامها بعدمه وليس هذا الوصف موجودا في الملح بل هو سم  
قاتل اذا اكثر الانسان منه ولانه جاء في نسق النقدين لاتفاقه معهما في  
المعدنية وكونه حجرا مثلهما وكونه لا يقتات ولا تقوم به البنية كما انها لا  
تقوم بهما مع ان قوام العالم بهما كما ان اصلاح الطعام ربما كان بالملح  
وربما كان بدونه الا انه اذا كان المصلح من جنس الطعام غلب جانب  
الربوية فيكون حكمه حكم الطعام كالفلل والتوابل وغير ذلك من مصلحات  
الطعام فصار بيع الملح بالطعام باعتبار هذين المذهبين من باب الشبهات  
فالورع تركه ومن اضطر الى استعماله قلده هذا المذهب الاخير من غير  
اتباع للرخص فيلقى الله بحجة ولا يكون مقتحما للنهي ولا خارقا لمذهب  
مالك . فمن نظر الى هذه الفتوى عرف شدة تورعه وحرصه على ان لا  
يفتي الا بمشهور المذهب ولولا القول المروي عن بعض المالكية لما قبل ان

يعتمد على ما ذهب إليه أبو حنيفة وبعض الشافعية ولما قبل الاعتماد على المصلحة المحققة في هذه القضية بالنسبة لاهل الصحراء والسودان .

وقد تميز كتابه هداية الطلاب بتتبع خليل في كل ما خالف فيه المشهور أو الراجح في المذهب وزاد عليه بمسائل كثيرة .

### الشيخ محمد محمود :

وممن عرف عنه الدفاع عن مالك الشيخ محمد محمود التركيضي الشنقيطي (13) صاحب الصيت الذائع في الشرق والغرب محدث شنقيط وأديبها ولغويها الكبير .

فقد حمل قلمه في مسألة اعراب : ان لم يجد الا هي الواردة في الموطأ فرد على القائلين بعدم جريانها على قوانين اللغة العربية ردا عنيفا تارة بالسب والشتيم شعرا ونثرا وتارة بالرد العلمي المدعم بالحجج والشواهد النحوية واللغوية .

وأصل هذا الخلاف ان اللكنوي من علماء الهند قد استشكل قول الامام مالك في باب الايمان والندور من موطنه : وعليه هدي بدنة او بقرة او شاة ان لم يجد الا هي فظنها خارجة عن قواعد اللغة العربية وتبعه في ذلك تلميذه أحمد البرزنجي فألف فيها رسالة تسمى اصابة الداهي في اعراب ان لم يجد الا هي يقول فيها :

قد وقع في كلام الفرزدق ما هو وكلام الامام في وجه الاعراب سيلن ومن حيث الاشكال متلوحان وذلك انه قال :

اليك أمير المؤمنين رمت بنا صروف النوى والهوجل المتعسف  
وعض زمان يابن مروان لم يدع من المال الا مسحت أو مجلف

وياتي البرزنجي في رسالته هذه بوجه لاعراب ان لم يجد الا هي تتلخص فيما يلي

(13) توفي في أوائل هذا القرن .

i - أن نقيسها على بيت الفرزدق الذي رفعوه بفعل محذوف دل على معناه الفعل المذكور وتقديره لم يبق وعلى هذا يكون الضمير الواقع بعد الا مرفوعا بفعل محذوف دل على معناه الفعل المذكور وتقديره لم يتيسر أو لم يحصل مثلا لان معناه ومعنى لم يجد واحد كما أن معنى لم يدع أي يترك ومعنى لم يبق واحد عندهم لما بين الفعلين المذكور والمقدر في كل من الموضوعين من اللزوم في التحقيق والثبوت فدلالة أحد الفعلين على معنى الآخر التزامية لا وضعية .

2 - أن نشغل العامل وهو يجد بفعل محذوف ونرفع هي بعد الا على انه مبتدا حذف خبره ويكون التقدير ان لم يجد شيئا أو هديا الا هي موجودة اي لكن الشاة موجودة .

3 - أن نجعل يجد في العبارة المذكورة مسندا الى ضمير الشاة ومفعول الفعل يكون ضميرا محذوفا يعود على الشخص المعبر عنه بمن في أول الكلام ولا ينافي ذلك عدم تانيث الفعل .

وبعد ما كتب البرزنجي هذه الرسالة أرسل الى الشيخ سالم بوحاجب من علماء تونس فاستشكل هو أيضا اعراب أن لم يجد الا هي وكتب فيها رسالة طويلة يقول فيها :

ان مالكا رضي الله عنه ليس من ارباب السليقة العربية الذين يلتزم في كلامهم عدم الحياة عن قوانينها بل هو من الائمة الذين يحتج بأقوالهم دون استعمالهم لكن حمل كلام مثله على موافقة قواعد اللسان واجب ما أمكن الى أن يقول :

وغاية ما يلزم انه لحن مالوف لا يتغير به المعنى وقد نصوا على ان الصلاة لا تبطل باللحن الذي لا يغير المعنى فأحرى في كلام البشر .

وقد حاول الشيخ سالم بوحاجب في هذه الرسالة ان يجد وجهها تحمل عليه الكلمة وتتلخص رسالته الطويلة فيما يلي :

1 - أن تحمل على انابة ضمير الرفع عن ضمير النصب كما وقع عكسه في المقالة الزنبورية برواية الكسائي .

2 - أن يسلك بالعبارة طريقة التخريج على التوهم فيكون رفع الضمير في عبارة الموطأ مبنياً على توهم أن يجد نطق بصورة المبنى للمفعول أي يوجد فارتفع الضمير بملاحظة ذلك التوهم .

وقد اورد مثالين للتوهم هما :

1 - قراءة من قرا ومن وراء اسحاق يعقوب بنصب يعقوب قال : وذلك انه لا يصح عطفه على اسحاق المجرور بالباء في قوله : وبشرناه باسحاق اذ يلزم عليه الفصل بين العاطف والمعطوف على مجرور وهو ممتنع فلا تقول مررت بزيد واليوم عمرو فلذلك قالوا بالتوهم واعتبروا كانه قال بدل بشرناه وهبنا له لتقارب المعنى باعتبار القصد .

2 - قول الشاعر : لبيك يزيد ضارع لخصومة .

قال فان يبك بعد ان اخذ مرفوعه وهو يزيد نائب فاعل يجوز ان يلحظ بصيغته الاصلية فيرفع به ضارع على الفاعلية وبذلك يستغنى عن التقدير الذي يذكرونه وان كان اوفق بالقواعد .

هذا ملخص الرسالة الطويلة التي كتبها الشيخ سالم بوحاجب في هذا الصدد وهي رسالة قائمة في معظمها على التوهم .

وقد كتب الشيخ محمد محمود التركي الشنقيطي عدة رسائل في هذا الصدد ، الاولى في الرد على البرزنجي يقول فيها :

قلت لم يصب احمر برزنج في قوله ان كلام الفرزدق في بيته وكلام الامام مالك في موطنه سيان ومن حيث الاشكال متناوحيان والله يعلم واولوا العلم يعلمون ان بيتي الفرزدق هذين هما وكلام الامام مالك الذي هو ان لم يجد الا هي ليسا في وجه الاعراب بمتساويين ولا نـم حيث الاشكال متناوحيان لان كلام الامام مالك ليس فيه اشكال أصلا وانما الاشكال في بيت الفرزدق وكيف يكون المشكل مساويا لغير المشكل الى ان يقول : هذا كلام سكران لم يصح من نشوة سكره وكيف يتصور رفع هي التي هي ضمير الشاة المنفصل بتقدير لم يتيسر او يحصل وكيف

يقاس أو يناظر بين لم يدع في بيت الفرزدق المسند الى مسحت وهو اسم ظاهر بعده وبين ان لم يجد الا هي في كلام مالك المسند الى ضمير مستتر راجع الى ما قبله وكيف يتصور أن يرفع لم يتيسر أو لم يحصل على زعمه الدال عليه الفعل الذي قبله وهو يجد رافع الضمير المستتر معاذ الله أن يرفع المدلول عليه ضميرا مؤنثا بارزا ويرفع الدال عليه ضميرا مستترا مذكرا راجعا الى ما قبله ، هذا ما لا يقوله عاقل صاح ولا يصدر الا من حشاش مدمن السكر ، ولا يسطره في الكتب مدعيا أنه كلام من العلم يعارض به كلام امام الأئمة مالك الا مجنون قد رفع عنه الشرع التكليف .

ويرد على قوله بجواز جعل يجد في العبارة المذكورة مسندا الى ضمير الشاة ومفعول الفعل يكون ضميرا محذوفا يعود على الشخص المعبر عنه بمن في أول الكلام .

فيقول : هذا كلام لم يتصوره قائله ولا يصح أن يتصوره سامعه لاختلاله ولعدم عقل قائله وكمال جهله وقلة فهمه .

وكتب رسالة ثانية يرد فيها على الشيخ سالم بوحاجب وغيره ممن لحن مالكا يقول فيها :

والصواب وهو الحق المتفق عليه أن ابا عبد الله مالك من الأئمة الذين يحتج بأقوالهم واستعمالهم فكلامه موافق لقواعد اللسان العربي لم يخرج عنها حتى يحتاج الى حمل حامل يحمله على وفاقها .

ويخصص جزاء من هذه الرسالة للحديث عن امامة مالك في اللفظة العربية واقتداء النحويين به حيث أخذوا عنه جمع دجال على دجاللة سماعا لا قياسا كما نقله عبد الله ابن ادريس الاودي وأبو حيان وغيرهما من أئمة النحو واللفظة .

ويتساءل الشيخ محمد محمود الشنقيطي كيف يمكن الاحتجاج بقول مالك دون استعماله اذ من الاحتجاج بالاقوال الاحتجاج بالاستعمال .

وتثور ثائرته وهو يستعرض كلام خصومه فيصفهم بالجهل المركب وعدم المعرفة بصفات مالك الى ان يقول : كأنهم لم يسمعوا جوابه لمن

سار اليه من مسافة شهر ليسأله عن مسألة فلم يجبه فطالب عليه المقام فقال للامام مالك رضي الله عنه : ما اقول للناس سرت اليك من نحو مسافة شهر لاسألك عن مسألة واحدة فلم تجبني ، فقال له قل لهم مالك لا يحسن هذه المسألة وهو لا يتكلم بما لا يحسن .

وبعد حديث طويل في سيرة مالك ومناقبه وثناء السلف الصالح عليه يأبى الشيخ محمد محمود الشنقيطي الا أن يستثير العجب من اولئك الذين جراوا على تلحين مالك فيصفهم بالجهل والتخبط والهديان ويجزم بأنهم اصحاب بدعة وهوى فيقول :

اذ من سيرته الذائعة بين اهل العلم والحق سلفهم وخلفهم انه مما عارضه ولا خاض في مخالفته الا ذو هوى وبدعة وزندقة .

وقد الف رسالة أخرى في اعراب ان لم يجد الا هي اشار في مستهلها الى انه لم يسبق لفطاحل العلم والادب وشيوخ الأئمة وائمة وائمة الذين شرحوا الموطأ وتدارسوه وتعاطوه فيما بينهم ان تعرض واحد منهم الى اعراب هذه الكلمات ولا الى القول بأنها خارجة عن مقتضى الظاهر غير اللكنوي والبرزنجي والشيخ سالم بوحاجب ، وتتلخص رسالته الطويلة فيما يلي :

1 - ان هذه الكلمات الخمس قد اشتملت على جملتين : جملة فعلية شرطية وجملة اسمية لا محل لواحدة منهما من الاعراب لكونهما استأنافيتين ، فالكلمات الثلاث الاولى ان الشرطية ولم الجازمة ويجد الفعل المضارع اللازم المجزوم بلم هي الجملة الاولى الفعلية الشرطية وجواب الشرط محذوف استغناء عنه بالشرط لعلم السامع به لدلالة ما قبله عليه (14) .

وتفسير معنى فعل الشرط وتقدير الجواب ان لم يجد اي ان لم يستغن الناظر فعلية شاة فهذه الجملة الاسمية هي الجواب المقدر

---

(14) واستشهد على ذلك بقول ابن مالك :  
والشرط يفني عن جواب قد علم والعكس قد ياتي ان المعنى فهم

المحذوف لدلالة ما قبله عليه وهو قوله : وعليه هدي بدنة أو بقرة أو شاة ان لم يجد الا هي ونظيره من كتاب الله تعالى قوله عز وجل : « ان ذكرتم » هذه جملة شرطية حذف جوابها لفظا للعلم به استثناء منه بالشرط لدلالة ما قبله عليه وهو قوله تعالى : « قالوا طائركم معكم ان ذكرتم » وجملة الجواب المحذوف تقديرها تطيرتم .

2 - ان الا زائدة للتوكيد وقد احتج لذلك بقول ابن مالك :

والغ الا ذات توكيد كـ لا تمرر به الا الفتى الا الملا

واستشهد لفسو مجيئها هكذا في كلام العرب نظمه ونشره بعدة امثلة منها :

مالك من شيخك الا عمله الا رسيمه والا رمله

الشاهد في الا الثانية والثالثة زيدت الثانية قبل البدل والثالثة قبل المعطوف .

وما الدهر الا ليلة ونهارها والا طلوع الشمس ثم غيارها

وقول علقمة :

فلم ينج الا شطبة بلجامها والا طمر كالفنائة نجيب  
والا كمي ذو حفاظ كأنه بما ابتل من حد الظباء خضيب

فالا الثانية والثالثة زائدتان .

ومن ذلك قول الشاعر :

حراجيج ما تنفك الا مناخة على الخسف او نرميها بلدا قفرا

فقد زيدت الا هنا على قول ابن جني قبل مناخة وهي منصوبة بتنفك .

ومن ذلك قول الفرزدق :

هم القوم الا حيث سلوا سيوفهم  
وقول الشاعر :

أرى الدهر الا منجنونا بأهله  
وقول الشاعر :

الا هي الا هي فدعها فانها  
اتاك وعيد دونها ونسور  
الا هي الا هي فدعها فانما  
تمنيك ما لا تستطيع غرور

فلا زيدت هنا مرتين في هذين البيتين قبل الخبر وهو هي ضمير  
رفع منفصل مؤنث مثل زيادتها قبل هي في عبارة الامام مالك المذكورة .

وبعد هذه الشواهد الشعرية يحتج لزيادتها بالآية الكريمة : « ومثل  
الذين كفروا كمثل الذي ينعق بما لا يسمع الا دعاء ونداء صم بكم عمي  
فهم لا يعقلون » ، مدعما ذلك بتفسير ينسبه الى الشريف المرتضى في  
اماليه ملخصه ان المراد : ومثل الذين كفروا في دعائهم الاصنام التي يعبدونها  
من دون الله كمثل الذي ينعق دعاء ونداء بما لا يسمع صوته والدعاء والنداء  
على هذا ينتصبان بينق والا توكيد للكلام ومعناها الالغاء .

ويحتج لزيادتها أيضا بالآية الكريمة الاخرى : « وجعلنا في قلوب  
الذين اتبعوه رافة ورحمة ورهبانية ابتدعوها ما كتبناها عليهم الا ابتغاء  
رضوان الله » لقول ابن العربي في الاحكام قوله تعالى : « ورهبانية  
ابتدعوها ما كتبناها عليهم » من وصف الرهبانية وان قوله ابتغاء رضوان  
الله متعلق بقوله ابتدعوها وقد زاغ قوم عن منهج الصواب فظنوها رهبانية  
كتبت عليهم بعد ان التزموا .

ويختم الرسالة الطويلة في هذا الصدد بان هي ضمير فصل مؤنث  
راجع الى شاة فهي مبتدأ حذف خبره جوازا للعلم به لدلالة ما قبله عليه  
وتقديره عليه ، كدلالته على جملة جراب الشرط السابق ذكره وتقدير  
جوابه وهو ان لم يجد فعليه شاة وجملة هي عليه هذه هي الجملة الثانية

من الجملتين اللتين اشتملت عليهما الكلمات الخمس اللواتي هن ان لم يجد  
الا هي (15) .

هذا ملخص رسالته الطويلة في هذا الصدد .

ولم يكتف الشيخ محمد محمود بالرسائل التي كتبها ردا على خصومه  
دفاعا عن مرتبة امام الائمة وانما اضاف الى ذلك قصائد كثيرة مستجادة  
هاجمهم فيها واقذع في انتقادهم ونقدهم وتجريحهم معا لا يتسع المجال  
لعرضه الان .

ومن ذلك قوله في احدى هذه القصائد وقد بلغ منه الغضب مبلغه :

لقد احدثتم في العلم زيفا	تجاوزتم بع السبع الطباقا
قدفتهم مالكا اثمما وقدمما	ابد العالمين هدى وفاقا
رميتهم مالكا باللحن زورا	فسوقا كان منكم او نفاقا
تخذتم علمه لعبا ولهوا	وتفترقون في اللعب افتراقا
فحرفتمم والفتتم هراء	على اوراقكم حبرا مراقا

الى ان يقول :

نشرتكم افككم ثم اضجعتكم وعاتقتكم جهالتكم عناقا

ويقول في قصيدة خاصة بالبرزنجي وقد ثارت ثائره لتلحين مالك  
رضي الله عنه :

بل انت احمر برزنج الذي ظهرت	للناس سوءته مكشوفة الحجب
اذ صلت صول عم كذابة اشهر	ملحنا مالكا سكران ذا طرب
وعنك اعرضت حينما كي تنيب الى	صدق وترجع عن افك فلم تنيب

(15) وقد استشهد على جواز حذف الخبر بقول ابن مالك :  
وحذف مالم يعلم جائز كما تقول زيد بعد من عند كما

وقد لقي الشيخ محمد محمود هذا من خصومه وجزاء دفاعه عن مالك  
محنة قاسية وأخرج من المدينة المنورة فاستقر بمصر وهو يحسن إلى  
الحجاز وإلى جوار رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث يقول في إحدى  
قصائده :

أحن إلى الرسول فيعتريني      إذا ليلى دجاما يعتريني  
فيتقد اشتياقي في فؤدي      فيطربني إليه ويردهيني  
أن على المهاد بعيد وهن      فيزعج من يضاعفني أنيني  
إذا ما الليل جن علي وحدي      أوه آهة الوصب الخزين

**حبیب الله الشنقيطي :**

ومن هؤلاء حبیب الله بن ما يابی الجكني الشنقيطي (16) فقد ألف  
في الدفاع عن الموطأ وترجيحت وأثبت صحته على سائر كتب الصحاح  
حيث نظم نظمه دليل السالك إلى موطأ الامام مالك ووضع عليه حاشية  
مختصرة سماها اضاءة الحالك على دليل السالك .

وقد افتتح نظمه هذا بأبيات يلخص فيها ما سار عليه كثير من  
المنتهمين للعلم من تأخير الموطأ عن رتبة الصحيحين في الصحة حتى أن  
بعضهم أخره عن كتب الحديث الستة وحتى غدا البعض يعده من جملة  
الكتب الضعيفة .

ويرد حبیب الله الجكني الشنقيطي هذا المذب الشائع إلى موقف  
ابن الصلاح الذي جعل أول من ألف في الصحيح محمد بن اسماعيل  
البخاري وقيد قول الشافعي في الموطأ بأن ذلك قبل وجود الصحيحين  
ففسا هذا القول بفشو مقدمة ابن الصلاح واقبال الناس عليها وتلقاه بعد  
ذلك الحافظ العراقي ونشره في الفيته التي لقيت هي أيضا اقبالا منقطع  
النظير وجاء بعد ذلك ابن حجر الذي قلده صاحب المقدمة وتبعهم في ذلك  
سيدي عبد الله العلوي في غرة الصباح .

(16) كان حيا إلى منتصف هذا القرن .

وبعد استعراض هذه الاقوال يبدأ حبيب الله في تقديمها والرد عليها ليثبت صحة الموطأ وأرجحيته على غيره من كتب الصحيح بما فيها الصحيحان ، ويأتي في هذا النظم بمقدمة يثبت فيها أن أول من ألف في الصحيح الإمام مالك فيقول :

أول من ألف في الصحيح مالك الإمام في الصحيح

ويعلق على هذا البيت في اضاءة الحالك بأن قول العراقي :

أول من ألف في الصحيح محمد وخص بالترجيح

قول مردود عليه وقد رجع عنه ابن حجر في نكته على الفية العراقي.

ويأتي بفصل خاص بصحة الموطأ وبيان ان المتصل فيه اخرجته الشيخان غالباً او أحدهما أو جميع الكتب الستة الا ندورا كحديث الشهداء سبعة سوى القتل في سبيل الله .

وبعد ان ذكر اخراج الكتب الصحيحة لمراسيله واسناد ابن عبد البر لما فيه من البلاغات وشبهها الا اربعة احاديث يأبى الا أن يؤكد صحة هذه الاحاديث فيعزو الى شيخ الجماعة بفاس العلامة محمد كنون صاحب التعليق على الموطأ ان قصور المتأخرين عن وجود هذه الاحاديث موصولة غير قاذح في صحتها لاحتمال عثور الاقدمين على سند متصل لها ويعزو الى الشيخ صالح الفلاني اتصال اسانيد هذه الاحاديث حيث يقول صالح الفلاني في حواشيه على الشيخ زكريا الانصاري في شرحه لالفية العراقي:

وما ذكره العراقي من ان من بلاغاته ما لا يعرف مردود بأن ابن عبد البر ذكر أن جميع بلاغاته ومراسيله ومنقطعاته كلها موصولة بطرق صحاح الا اربعة احاديث وقد وصل ابن الصلاح هذه الاربعة في تأليف مستقل وهو عندي وعليه خطه فظهر بهذا بأنه لا فرق بين الموطأ والبخاري ، وضح ان مالكا أول من ألف في الصحيح كما ذكره ابن عبد البر وابن العربي القاضي والسيوطي ومغلطاي وابن ليون وغيرهم . ه . .

ويعلق حبيب الله الشنقيطي على هذا الكلام قائلا : والمعجب من ابن الصلاح رحمه الله كيف يطلع على اتصال جميع أحاديث الموطأ حتى أنه وصل الأربعة التي اعترف ان عبد البر بعدم الوقوف على طرق اتصالها ومع هذا لم يزل مقدما للصحيحين عليه في الصحة مع أن الموطأ هو أصلهما ، وقد انتهجا منهجه في سائر صنيعه وأخرجا أحاديثه من طريقه وغاية أمرهما أن ما فيهما من الأحاديث أزيد مما فيه .

ويقول : وقد صرح ابن مرزوق الأكبر المعروف بالجد في كتابه جني الجنتين بعد أن تكلم على أحاديث مالك الأربعة التي لم يسندها ابن عبد البر وهي في الموطأ بما نصه :

توهم بعض العلماء أن قول الحافظ أبي عمر ابن عبد البر يدل على عدم صحتها وليس كذلك إذ الانفراد لا يقتضي عدم الصحة لا سيما من مثل مالك وقد افردت قديما جزءا في أسناد هذه الأربعة الأحاديث ه .

ثم بين أن الحافظ ابن أبي الدنيا قد أسند اثنين منها في إقليد التقليل ولم يعينهما هنا .

ويأتي حبيب الله الشنقيطي بأبيات يقول فيها :

فبان من ذا أنه ليس أصح منه البخاري ولا عنه رجح  
كمسلم لكن الذين اشتهدوا بجمع ما فيه ويريد كثر

فيرد شهرة البخاري ومسلم إلى جمعهما ما في الموطأ وزيادتهما عليه لا إلى الصحة والترجيح .

ويأتي بأبيات محصلها أنه إذا كان كل ما اتصل أسناده في الموطأ قد أخرجه الشيخان أو أحدهما يكون القائل بصحتها عليه متعصبا إذ لا يمكن أن يكون الشيء أصح من نفسه .

ويعقد فصلا في رد دليل ابن حجر ومن وافقه على أصحية صحيح البخاري على موطأ الإمام فيأتي فيه بأبيات محصلها أنه إذا كان الإمام مالك لم يجرد الصحيح .

حيث أدخل في كتابه المراسيل والمنقطعات فكذلك البخاري لما فيه من التراجم والمقطعات المذكورة في متن الصحيح .

ويدعم هذا القول بما نقل عن علاء الدين مغلطاي من أنه لا فرق بين الموطأ في مراسيله ومنقطعاته وبين البخاري في تراجمه ومعلقاته .

ويدعمه أيضا برأي ابن مرزوق أن الصواب اطلاق قول الشافعي في الموطأ وابقاؤه دون تقييد بما قبل وجود الصحيحين حيث يقول - أي ابن مرزوق في نظمه - في علوم الحديث :

وقول شافعيما أصح ما	بعد كتاب الله من تحت السما
موطأ لمالك قد أولا	لأنه قبلهما قد جعللا
قلت بل الصواب اطلاق الامام	اذ مالك نجمهم على التمام

ويعزو الشنقيطي الى كل من ابن عبد البر وابن العربي والسيوطي اختيار أصح الموطأ على ما سواه ويعزز ذلك بقول ابن ليون التجيبي في الفيته :

وعلم الصحة للبخاري	ومسلم تاليه لاتمـار
ثم الموطأ وهذه الصحاح	جزما وذا ترتيها لابن الصلاح
ومسلم بالغرب قد يقدم	كذا الموطأ بعضهم يقدم

فأفاد حكاية بأن الموطأ أصح من الصحيحين .

وينهي الشنقيطي هذا الفصل بأبيات يشرحها في اضاءة الحال ك  
ويذكر فيها اقرار ابن حجر بالعجز عن تصحيح بعض ما في البخاري  
ورجوعه عن أصح البخاري على الموطأ وموافقته لمغلطاي بأن ما في  
الموطأ من المراسيل والمنقطعات يشبهه ما في البخاري من التراجم  
والمعلقات .

ويأتي بفصل يذكر فيه الاحتجاج بالمرسل ليشير الى أن مالكا لم يكن وحده الذي يحتج بالمرسل ، فأبو حنيفة يحتج به وأحمد في إحدى

الروايتين عنه ، وأما الشافعي فيحتج به إذا اعتضد بعاضد وذلك ما يتوفر في الموطأ الذي لم يبق فيه مرسل الا وقد اتصل اسناده .

وقد قال الشافعي قولته فيه وهي قوله دالة على قوة ما راسل من الموطأ لان الشافعي لا يقبل من المراسيل الا ما كان له عاضد ولانه قد قرأه على الامام مالك فلا يمكن أن يجهل ما فيه من المراسيل فاطلاق الشافعي الصحة في الموطأ دليل قوي على اتصال مراسيله عنده .

وبعد بحث طويل في هذا الصدد يورد حجة القائلين بأن البخاري لا يذكر المعلقات للاحتجاج بها بخلاف مالك المحتج بالمرسل فيرد عليهم بأنه لا يعقل أن يورد ذلك غير محتج به بل الحق والصواب أن كل واحد ذكر ذلك محتجا به .

ثم يشير الى أنه لم يصرح واحد من هؤلاء بشرط في كتابه وان ما حصل من ذلك ما حصل بالاستقراء وبجزم أنه لا فرق بين ايراد مالك للمرسل وللمتقطع محتجا بهما وبين ايراد البخاري للترجمة والمعلق محتجا بهما .

وفي معرض صحة الموطأ يقول :

ومن بايمان الطلاق قد حلف أن صح ما فيه بحث ما اتصف

ويعلق على هذا في اضاءة الحالك فينقل عن الزرقاني ما نصه :  
ورجح ابن يونس قول ابن القاسم ولا حنت على من حلف على صحة جميع ما في الموطأ ويحث في غيره . هـ .

وينقل عن سيدي عبد لاله بن الحاج ابراهيم العلوي عدم حنت من حلف على صحة ما في الموطأ .

ويعقد فصلا في زيادة الادلة التي اوجبت له الترجيح والتقديم مشيرا الى أن سلف الامة قبل ابن الصلاح قد جعله أصح كتب الحديث وأرجحها وحتى بعد ابن الصلاح لقول مغلطاي السابق وابن حجر والسيوطي وغيرهم فيقول :

حازت أصول العلم والبراعه  
وبعضهم قال له الترجيح  
مما ابتداء للبخاري نسبه  
من اهل الاجتهاد عصر انقضى  
والرأي الاختصار في العبارة  
وشيخه ومن لرأيه انتصر  
رجوعه عما عليه عـولا

وأطلقت صحته جماعه  
قالت موطأ مالك صحيح  
واعترضوا ما ابن الصلاح انتخبه  
وهو الصواب وعليه قد مضى  
وقد تقدمت لذا الاشارة  
لكننا كنا حججنا ابن حجر  
وقد تقدم الذي دل على

الى أن يقول :

منتقدا ما ابن الصلاح قد ذكر  
عاش ورده بتحقيق حـري  
واحمد ابن حنبل قد صححه

نمفلطاي سابق لابن حجر  
ثم السيوطي بعد نجل حجر  
والشافعي قبل كل رجحه

ويتعرض في هذا الفصل الى الذين تعصبوا للبخاري وجعلوا رفع  
الموطأ الى رتبته حطا للبخاري فيقول :

ورب ذي خلف لنا تعصبا  
كان في تسوية الموطأ  
وعن سوى نهج اللجاج قد أبى  
مع البخاري للبخاري حطا

الى غير ذلك من الفصول التي اوردها في هذا النظم مع التعليق  
عليها بشرحه المختصر دفاعا عن المذهب المالكي وانتصارا للموطأ .

وقد لقي دليل السالك هذا وشرحه اضاءة الحالك اقبالا من لدن  
رجال الحديث في الشرق والغرب وتلقته طائفة من متبصري العلماء  
بالقبول اعترفوا بأصحية الموطأ على ما سواه من كتب الحديث وعادوا الى ما  
كان عليه السلف قبل ابن الصلاح وتقاريط الكتاب خير شاهد على  
ذلك .

تلك بعض الشخصيات الشنقيطية التي امتازت بالدفاع عن المذهب  
وامامه ، فنالت بذلك شهرة واسعة واكتسبت نفوذا علميا في شنقيط .

وأود قبل اختتام هذا العرض ان اذكر بعض المسائل التي خالفوا فيها مشهور المذهب وهي :

1 - قراءة الحزب جماعة ، قال سيدي عبد الله حينما سئل عن ذلك : انما يعمل بالضعيف لمصلحة اقتضت في نظر مجتهد المذهب ترجيحه على المشهور ، والمصلحة سماع العام والخاص كلام الله فيلين القلب القاسي ويتذكر الغافل والناسي مع ما فيه من وفور الاجر وانحطاط الوزر الى ان يقول : وقد عمرت بقراءة الحزب المساجد في المشارق والمغرب ووقفت عليه الاوقاف واجريت عليه الخراجات والامة لا تجتمع على ضلالة .

2 - قراءة البسمة في الصلاة : فان منهم من نظر الى قول مالك بكراهتها وقول الشافعي بوجوبها فقراها سرا ومن علمائهم من قراها جها ، وقد تركها كثير منهم سرا وجها اقتداء بقول مالك رضي الله عنه :

3 - القبض والرفع : وقد عرفت شنقيط الارسال منذ عرفت المذهب المالكي ومنذ انتشر فيها مختصر الشيخ خليل وظل القبض والرفع فيها مهجورين لا يكاد يعمل بهما الا اشخاص قليلون حتى كان عهد باب ابن الشيخ سيديا في أوائل هذا القرن فدعا اليهما قائلا :

القبض والرفع مما صح من سنن عن النبي بلا نسخ ولا وهن  
فلا تكن يا صحيح العقل متبعاً آثار أشياء لم تخلق ولم تكن

وفي منتصف هذا القرن الف شيخ الاسلام الشيخ ابراهيم انباس كتابه في القبض والرفع المسمى ( رفع الملام عن قبض او رفع اقتداء بسيد الانام ) فكان له تأثير قوي وتلقته نخبة من اجلاء العلماء واقبلت على العمل به جماهير غفيرة .

والف بعد ذلك الشيخ محمد بن أبي مدين رحمه الله كتابه المسمى ( الصوارم والاسنة في الذب عن السنة ) .

وهو كتاب دعا في مقدمته الى العمل بالكتاب والسنة وعرض اقوال العلماء عليهما وخصص الجزء الاكبر منه الى قضية البسمة والقبض والرفع .

وقد انقسم علماء شنقيط حول مسألة القبض والرفع الى الطوائف التالية :

الاولى : طائفة اعترفت بسنيتهما ودافعت عن ذلك وطبقته وعملت به ولم ترض ان توصف بالخروج عن المذهب المالكي في هذه المسألة فقالت : ان القبض هو الراجح في المذهب المالكي اعتمادا على ما في الموطأ وما في الكافي لابن عبد البر وما في غيرهما من كتب المذهب .

واذكر على سبيل المثال في هذا الصدد قول العلامة احمد محمود بن العباس العلوي مقرظا رفع الملام :

يا امة المصطفى هل بعده رسل	جاءوا لتتبع ما قصوا وما اثروا
ان لم يكن بحديث المصطفى عمل	لم تلف فائدة في الكتب تعبير
ولو فرضنا بأن الفرع طاقتنا	بل ما لنا غيره والاصل مفتفر
ليس قال بذا في كل طائفة	احبارها وأولوا احكامها الاخر

ونجد الشاعر محمد عبد الله بن السيد يقول عن رواية ابن القاسم المذكورة في المدونة والتي جعلوها حجة تقابل ما جاء في الموطأ من احاديث القبض :

ورواية بن القاسم المدلى بها	ابدى الدليل سقوط مدلولاتها
اذ مالك يرويه أي رواية	بأبلى سبل الطعن بعد اباتها

ونجد علامة شنقيط وأستاذها ومؤرخها المختار ابن حامد الديماني يقول :

القبض والرفع عن خير الوري ثبتنا  
الى ان يقول :  
وصحبه قبضوا قطعوا كما رفعوا

ومالك جاء عنه القبض مثلهم      والرفع فهو لهم في دينكم تبع  
اذ مالك نهجه قفو النبي فلا      تراه عن قفوه ينهى ولا يسزع  
فلم يخالف رسول الله مالكننا      حاشاه بل لرسول الله يتبع

فهؤلاء ممن تأكدت عنده سنية القبض والرفع فعمل بهما .

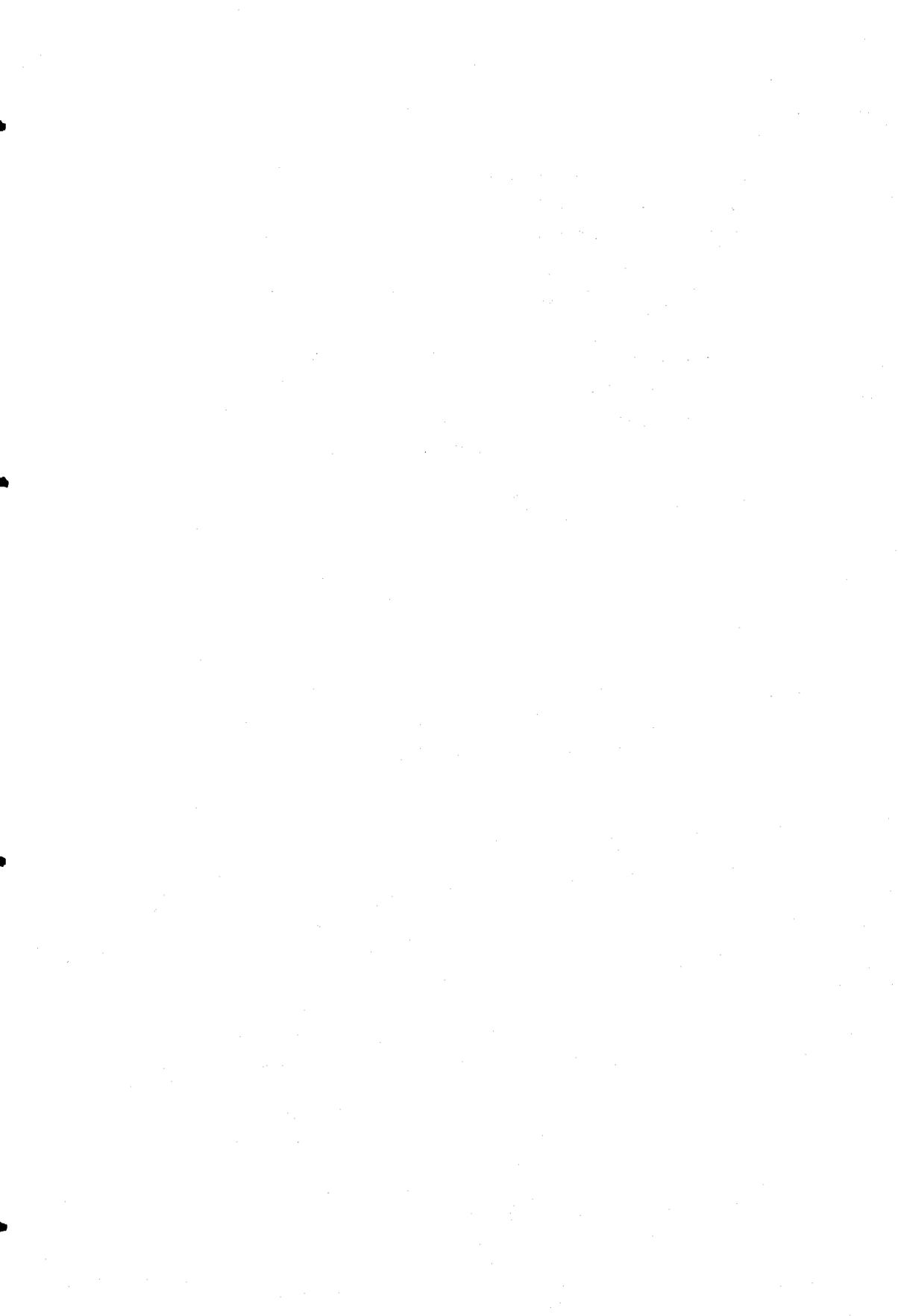
ثانيا : طائفة اعترفت بسنية القبض الا ان تشبثها بالمشهور من  
المذهب جعلها تلتزم الارسال وتترك القبض ، واذكر على سبيل المثال من  
هذه الطائفة هلامة العصر ونادرة الدهر الداعي المجدد الشيخ محمد عبد  
الرحمن بن السالك العلوي الذي يقول مقرظا رفع الملام :

القبض عنه من الملا رفع الملا      م فلا ملام عليه من بعد الملا  
الى ان يقول :

واقبض او ارفع كل ذلك سنة      عن خير من بالدين ارسل مكملا

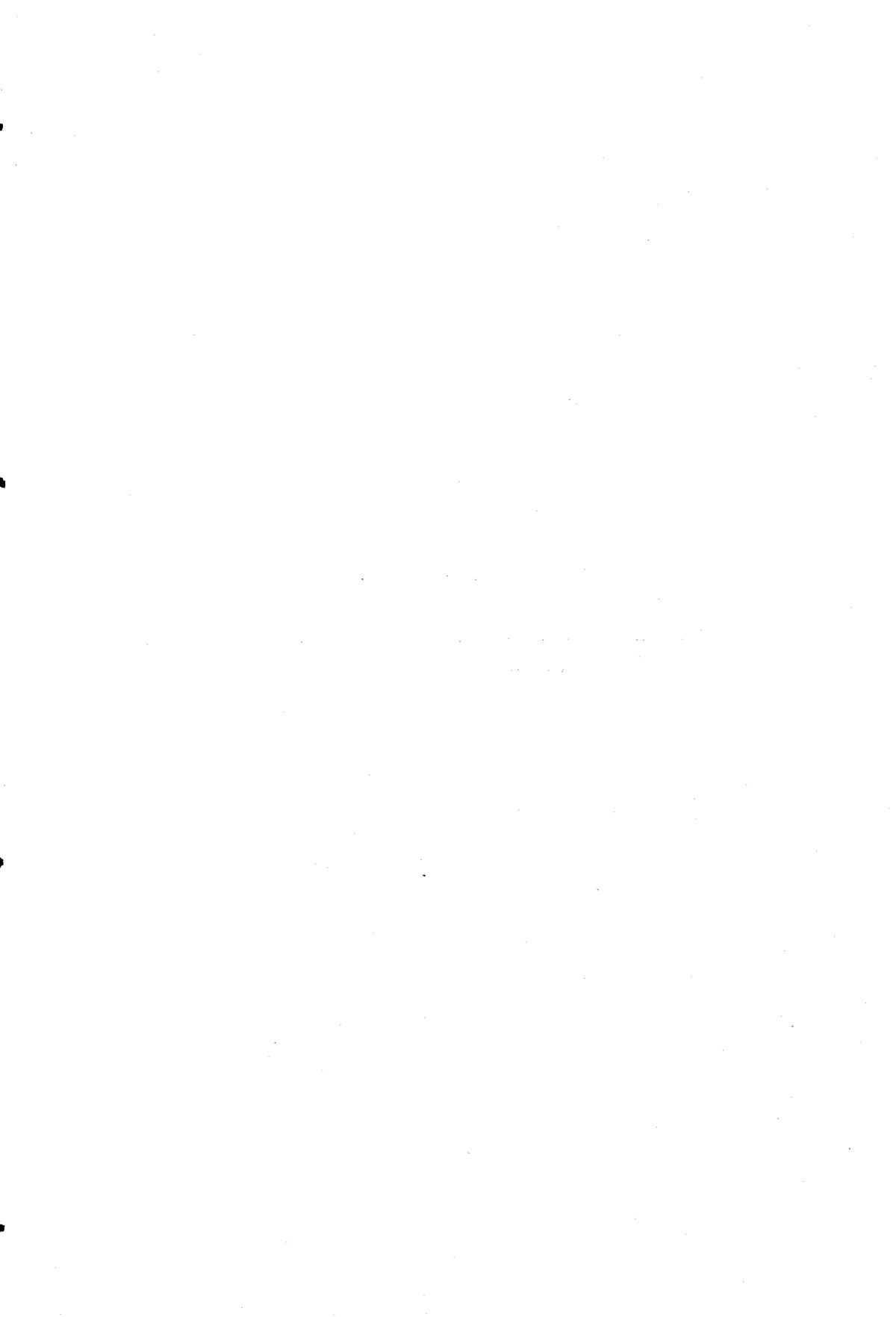
ورغم هذا الاختناع والاعتراف بسنية القبض والرفع فانه مع ذلك  
ظل رحمه الله متشبثا بالارسال لا يكاد يقبض ولا يرفع ، تمسكا بالمشهور  
من المذهب المالكي والتزاما بما عليه السواد الاعظم من المنتمين للمذهب .

وخلاصة هذا العرض ان علماء شنقيط قد التزموا المذهب المالكي  
وتشبثوا به ولم يقبلوا به بديلا ، فان خرجوا عن مسألة فرعية منه اعتمدوا  
على اصل من اصوله ، وان عملوا بغير المشهور لجأوا الى مقابل ترجمه  
مصلحة اقتضت ذلك وان ظهر من بين علمائهم من يميل الى التحرر من  
التقليد ورفض الفروع المجردة من الدليل انهالوا عليه بالنقد والترجيح  
وبدعوه وضلوه .



## الاستاذ ابراهيم ابن الصديق

محصل على اجازة فى الشريعة ودبلوم الدراسات  
الاسلامية العليا ، متخصص فى الحديث وعلومه .  
( الملكة المغربية )



## مالك المحدث

بقلم : الاستاذ ابراهيم ابن الصديق

تقديم

اضفى رسول الله صلى الله عليه وسلم على المحدث الثقة ، حلة من الجمال والرونق والوجاهة في الحديث الذى رواه الائمة : أحمد في المسند ، ولترمذى ، وابن ماجه ، وابن حبان في صحيحه والرامهرمزي والخطيب في شرف أصحاب الحديث ، وابن عبد البر في ، جامع بيان العلم ، وغيرهم ، عن عدد من الصحابة رضى الله عنهم أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : ، ، نضر الله امرأ سمع مقالتي ، أو سمع منا حديثا ، فحفظه ووعاه وأداه كما سمعه . . . . . ))

ومعنى النضارة التى خص بها صلى الله عليه وسلم حامل حديثه ، هى الحسن والبجعة ورفعة القدر والمنزلة بين الناس حتى يبرى عليه رونق الرخاء والنعمة . قال سفيان بن عيينة : ، ، ما من أحد يطلب الحديث الا وفي وجهه بهجة صورية أو معنوية لقول النبي صلى الله عليه وسلم : نضر الله امرأ سمع منا حديثا قبله .

ولا خلاف - فيما أعلم - بين من فسر هذا الحديث من العلماء أن المراد بدعاء النبي صلى الله عليه وسلم بالفضلة التى بينوا معناها بحسب ما تقدم ، هو المحدث . واذا كانت معانى النضارة تكتمل في محدث باجماع الاراء ، ففى الامام مالك بن انس المحدث الحافظ الثقة ، الذى لم تتفق الامة على توثيق رجل في الحديث سواه ، اذ من المعلوم أن مدراك النقاد في تقديم للرجال متفاوتة ، والاسباب الحاملة على التليين متعددة ، وان كان المحدثون قد وضعوا مقاييس دقيقة ، وقواعد ثابتة ، لا يسمع بمقتضاها كلام من تكلم

في مثل الزهري وعلي بن المديني والشافعي وعبد الرزاق ، والبخاري وغيرهم من الائمة الكبار ، الذين لم يمسلم واحد منهم من ناقد ولو أن كلامه غير مقبول فيهم بحسب أصول أهل الحديث ، فإن مالك بن أنس هو المحدث الوحيد الذي يستثنى من الاختلاف بين النقاد حوله ، وقول ابن اسحاق : « اعرضوا على علم مالك فأنا ببطاره » لم يعتبره أهل الصنعة بمقاييسهم كلها طعنا ولا تجريحا ، ولذلك قال الحافظ الذهبي - وهو من أهل الاستقراء التام في ، تذكرة الحفاظ ، : « وقد اتفق لمالك مناقب ما علمتها اجتمعت لغيره ، وذكر منها : اتفاق الامة على انه حجة صحيح الرواية ، وتجمعهم على دينه دينه وعادته » . وقبله قال الامام النوري في « تهذيب الاسماء واللغات » : واجتمعت طوائف العلماء على امامته وجلالته وعظم سيادته وتبجيله وتوقيره ، والاذعان له في الحفظ والتثبيت وتعظيم حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، .

فباجماع الراء يمكن اعتبار الامام مالك هو المحدث الاكمل ، والحافظ الامثل ، الذي استحق عن جدارة لقب « أمير المؤمنين » في الحديث ، كما اطلق عليه أقرانه من الحفاظ . فكان تجسيما للنضارة التي تجمع أوصاف البهاء والكمال الجسماني والخلقى طبقا لما نعته به المشرع الاعظم صلوات الله وسلامه عليه .

وهكذا اوصف الامام مالك بالوسامة والجمال التكويني الذي يلزم فسي الغلب راحة العقل وجودة التفكير ، وحاز من الجلالة والهيبة والوقار ما لم يحزه غيره من العلماء حتى كان كالسلطان له حاجب يأذن عليه ، وقال الاخزون عنه : انه أشد من الملوك وقد تربح على كرسي المجد بالمدينة نحو ستين سنة ، أسند ابن أبي حاتم في « تقدمه الجرح والتعديل » عن أبي مصعب تلميذ الامام قال : « كانوا يزدحمون على باب مالك فيقتتلون على الباب من الزحام ، وكنا نكون عند مالك فلا يكلمنا ، ذا ، ولا يلتفت لنا الى ذا ، والناس قائلون برؤوسهم هكذا ، وكانت السلاطين تهابه وهم قائلون مستمعون ، وكان يقول في مسالة : لا ، أو نعم ، ولا يقال له من أين قلت ذا ، .

وخليق بهذا الذي اقترن اسمه بالحديث النبوي ، ونال بخدمته غاية الشرف والمجد ، أن يكون سيد من يكرمه ويجله ، إذ لم يبلغ أحد من الاعزاز للحديث والاعتزاز به مبلغ الامام مالك ، كان في مرحلة طلبه للعلم اذا وجد حلقة احد شيوخه غاصه ولم يجد مكانا للجلوس انصرف اجلالا لحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يسمعه أو يكتبه وهو واقف ، وبعد تصدده للحديث لم يكن يسمع في شارع ولا في مكان عام ، وأذا استشعر من تلميذ سوء أدب مع الحديث النبوي أخرجه من مجلسه ، وهو الذي أدى الانتقال الى الخلفاء ليسمعوا عليه الحديث ، وأصر على حضرهم اليه ، أكراما للفظ النبوي أن يمتنن أو يحط من قيمته ، ولم يكن يبرز ليقرا عليه الحديث الا وهو على اكمل هياة واحسن سميت ، ويجلس هو ومن يحضر مجلسه على الضجاع

والنمارق الفاخرة ، يقول تلميذه مطرف بن عبد الله : ، كان مالك إذا أتاه الناس خرجت اليهم الجارية فنقول لهم : تريدون الحديث أو المسائل ؟ فان قالوا المسائل خرج اليهم فاتاهم ، وان قالوا الحديث قال لهم اجلسوا ، ودخل مغتسله فاغتسل وتطيب ولبس ثيابا جددا ، ولبس ساجه ، وتعمم ووضع على راس طويلة ، وتلقى له المنصة ، فيخرج اليهم وقد لبس وتطيب وعليه الخسوع ، ويوضع عود فلا يزال حتى يفرغ من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقال خالد بن نزار : ، سألت مالكا عن شيء وكان متكئا فقال حدثني يحيى بن سعيد بن المسيب ، ثم استوى جالسا وتجلل بكسائه فقال : استغفر الله ، فقلت له في ذلك ، فقال ، ان العلم أجل من ذلك ، ما حدثت عن رسول الله وأنا متكى ، ، ويذكر القاضي عياض في ، المدارك ، ، عن عبد الله بن المبارك قال : ، كنت عند مالك وهو يحدثنا فلدغته عقرب ست عشرة مرة ، ومالك يتغير لونه ويصبر ولا يقطع حديثه ، فلما فرغ من المجلس وتفرق الناس ، قلت يا أبا عبد الله : لقد رأيت اليوم منك عجبا ، قال : انما صبرته اجلا لحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فاذا كان مالك قد أحاط الحديث الشريف من الناحية المظهرية بالاغزاز والتكريم اللذين رثينا جزءا صغيرا منهما ، والا فترجمته حافلة بالكثير من النماذج ، فهو من ناحية المخبر ، وهي الراجعة الى حفظه وتوثيقه وانتقاء روايته واختبارهم ، أشد تكريما ، وأكثر تضحية من لدع العقرب .

ومن هذا المنطلق يمكن صوغ هذا العرض الموجز عن ، الامام مالك الحديث ، في أربع نقاط هي : اولا : مالك الحافظ ، ثانيا : مالك الناقد ، ثالثا : مالك الحجة ، رابعا : آثار مالك للحديثية .

وقد كان التعرض - ولو باختصار - لراء مالك الحديثية وتأصيلاته الاصطلاحية من لوزام هذا البحث لولا أن ذلك يحتاج الى بسط لقواعد وجلب لمقارنات لعل المناسبة وازدحام المهرجان بالعروض والبحوث لا يسمحان بالاسهاب المطلوب لتناول القواعد والاصول مهما كانت مختصرة ومركزة ، الا انه قبل تناول النقاط الاربعة يجب التعرف على رأي المحدثين في مالك الحافظ الناقد الحجة ، بعد أن تيقنا اتفاقهم على توثيقه ، إذ التوثيق وحده لا يوحى بمفاهيم الامامة وبلوغ الذروة في المعرفة ، وذلك ما تتضمنه الشهادات التالية من اهل الحديث في مالك وكل من يرجع فيهم الى اربابه ، وكل صانع يقوم داخل اطار صنعه . وفي هذا المجال نجد المحدثين بعد أن ترددوا فترة بين رجلين أي منها يحمل مواصفات « عالم المدينة » في الحديث الاتي قريبا هو مالك بن انس ام العمري الزاهد عادوا فاتفقوا على أن المواصفات تنطبق على مالك وأنه المقصود بالحديث فقد روى سفيان بن عيينة عن ابن جريح عن ابي الزبير عن ابي صالح عن ابي هريرة رواية أي يرفعه الى النبي صلى الله عليه وسلم : ، يوشك أن يضرب الناس أكباد الابل يطلبون العلم فلا يجدون أحد أو عالما أعلم من عالم المدينة ، ، قال الحاكم في المستدرک وأثره الذهبي .

« هذا الإسناد على شرط مسلم ، ، وقد أخرج الحديث عدد من الأئمة منهم أحمد في المسند (2/99) والحميدي شيخ البخاري في مسنده (2/485) والترمذي وقال حسن صحيح وعزاه عياض للنسائي وقد طعن الحافظ المغربي الكبير أبو الحسن بن القطاني الفاسي في كتابه « بيان الوهم والإيهام » من تصحيح الترمذي للحديث بأنه من رواية مدلسين ، ويقصد ابن جريج وأبا الزبير المكي وكذلك أحد المعاصرين وهو الإسناد ناصر الدين الألباني في تعليقه على مشكاة المصابيح وقال لن الحديث ضعيف للعلة نفسها .

والواقع ان الحديث اشتهر بين نقاد الحفاظ كسفيان بن عيينة وعبد الرحمن ابن مهدي وأحمد بن حنبل وعبد الرزاق وابن أبي حاتم وغيرهم وصححوه جميعاً كما صححه الترمذي ووافقوا سفيان بن عيينة وعبد الرزاق على ان المراد بعالم المدينة هو مالك قال الامام أحمد في المسند : «وقال قوم هو العمري قال فقدموا مالكا وأورد القاضي عياض شواهد للحديث عن أبي موسى الأشعري وجابر ، ومتابعات لأبي صالح عن أبي هريرة من غير طريق أبي الزبير مما يزرع معه صحة الحديث سندا مع ما يؤيده من واقع مالك الذي ينطبق عليه الحديث انطباقا تاما كما قال بعض العلماء . » إذا اعتبرت كثرة من روى عن مالك من العلماء ممن تقدمه أو عاصره أو تأخر عنه على اختلاف طبقاتهم واقطارهم وكثرة الرحلة اليه والاعتماد في وقته عليه دل بغير مرية على أنه المراد بالحديث ، إذ لم نجد لغيره من علماء المدينة ممن تقدمه أو جاء بعده من الرواة والآخرين الا بعض من جدها له ، وقد جمع الرواة عنه غير واحد وبلغ بهم بعضهم في تسمية من علم بالرواية عنه سوى من لم يعلم ألف راو ، واجتمع ممن مجموعهم زائد على الألف وثلاثمائة . ويدل كثرة تصدهم له على كونه أعلم أهل وقته ، وهو الحال والصفة التي أئذربها عليه السلام ، لم يسترب السلف أنه هو المراد بالحديث ، وعد هذا الخبر من معجزاته وآياته عليه السلام مما أخبر به من الكائنات فوقعت كما أخبر به عليه السلام .

وقد نقل الخطيب البغدادي في «شرف أصحاب الحديث» عن محمد بن حاتم ابن المظفر قال له : «وهذه الأمة انما تنص الحديث من الثغر المعروف في زمانه المشهور بالصدق والامانة عن مثله حتى نتناهي أخبارهم ، ثم يبحثون اشد البحث حتى يعرفوا الاحفظ فالاحفظ والاضبط فالاضبط ، والاطول مجالس لمن فوقه ممن كان أقل مجالسة ، ثم يكتبون الحديث من عشرين وجها وأكثر حتى يهذبوه من الغلط والزلل ويضبطوا حروفه يعوده عدا .»  
ومعلوم أن عدالة الامام مالك قد استفاضت بين الناس حتى دخلت في حيز المقطوع به ، كما قال الحافظ العراقي في الفيته في المصطلح .

وصححو استغناء ذي الشهرة عن تزكية كمالك نجم السفن والضبط يعرف عندهم بمقارنة روايات الراوي وفحصها على حسب ماتقدم في قول ابن المظفر وهم سواء في البحث عن عدالة الراوي أو ضبطه ، وهما رأس مال الحديث قد

اتوا بما أبهر وحير من حيث الانصاف والبعد عن المجاملة والمحابيات كما قال الخطيب الحافظ ، ، فليس أحد من أهل الحديث يحابي في الحديث أباه ولا أخاه ولا ولده ، وهذا على بن المهديني وهو امام الحديث في عصره ، لا يروى عنه حرف في تقوية أبيه ، بل يروى عنه ضد ذلك ، .

وعلى هذا الاساس فحص المحدثون حديث مالك واخبروه وقارضوا رواياته ، وعدوا الفاظه وحروفه ، فكان حكمهم عليه هو تلك الشهادات المشرقة التي تتبعها وجمعها أحد أئمتهم الكبار وهو عبد الرحمن بن أبي حاتم الرازي في مقدمة كتابه «الجرح والتعديل» الذي يعتبر أصلا يرجع اليه كل من ترجم للإمام مالك المحدثين فلنقتطف منه نبذا صحيحة أسندها على أصولهم ، وهي تبين لنا كيف قوم المجتمع الحديثي مالك بن أنس وحديثه .

قال الامام الشافعي : اذا جاء الحديث عن مالك فشد به يدك ، وقال عبد الله بن أحمد بن حنبل قلت لابي : أيما أثبت أصحاب الزهري قال : مالك أثبت في كل شيء ، وقيل لاحمد بن حنبل : رجل يريد أن يحفظ حديث رجل بعينه ، فقال : يحفظ حديث مالك ، وقال يحيى بن معين : مالك أثبت اصحاب الزهري وهو أثبت في نافع من أيوب وعبيد الله بن عمر وليث بن سعد وغيرهم قال عمرو بن علي الفلاس (وهو احد النقاد الكبار) : أثبت من روى عن الزهري ممن لا يختلف فيه : مالك بن أنس ، وقال وهيب بن خالد : أتينا الحجاز ، فما سمعنا حديثا الا تعرف وتنكر ، الا حديث مالك بن أنس ، وقال ابو حاتم الرازي : مالك بن أنس ثقة امام الحجاز وهو أثبت اصحاب الزهري ، واذا خالفوا مالكا من أهل الحجاز حكم لمالك ، وهكذا تمامي ابن أبي حاتم في ترصيع جبين هذا الامام بشهادات ائمة الحديث وحفاظه فحاز عن جدارة لقب أمير المؤمنين في الحديث وبلغ رتبة الامامة العظمى فيه فهذا قرينه سفيان بن عيينة يقول مالك امام ويقول علي بن المهديني مالك امام ، ويقول يحيى بن سعيد القطان : كان مالك اماما في الحديث وكيف لا يكون امام من كان سفيان الثوري يزلحهم قلامته على بابيه .

ولا نكون منساقين مع «المنقبية» كما حاول بعض المعاصرين أن يهون بهذه العبارة من شأن تقديس المحدثين لمالك ، اذا قلنا أنهم اتخذوه شعارا لهم ، ورمزا لاتباع السنة واجتناب البدعة ، فقد عقد ابن أبي حاتم «باب ما ذكر من استحقاق محبي مالك بن أنس السنة . وأسند فيه عن عبد الرحمن بن مهدي قوله : اذا رأيت حجازيا يحب مالك بن أنس فهو صاحب سنة » . ونقل القاضي عياض في ، «المأدرك» ، عن أحمد ابن حنبل : «اذا رأيت الرجل يبغض مالكا فاعلم انه مبتدع ، وعن ابي داود : أخشى عليه البدع » . ولم يرفعوا مالكا شعارا للحديث عبثا أو مصادفة ، فهم يعتبرونه أمين الله على وحيه وسنة نبيه كما أسند ابن عبد البر في مقدمة ، «التمهيد» ،

عن الامام النسائي قوله : ،، امناء الله عز وجل على علم رسول الله صلى الله عليه وسلم : شعبة بن الحاج ، ومالك بن أنس ، ويحيى بن سعيد القطان ، وما أحد عندي بعد التابعين أنبل من مالك بن أنس ، ولا آمن على الحديث منه ، ، ويقول وهيب بن خالد : « ما بين شرقها وغربها أحد آمن على ذلك ( يعني الحديث ) من مالك » .

### مالك الحافظ :

نبح الامام مالك في الحديث في مقتبل عمره اذ يحدثنا شعبة بن الحجاج ، انه دخل المدينة ونافع حي، ولمالك حلقة، فقد بدأ يحدث في حياة شيخه نافع مولى ابن عمر المتوفى سنة 120 ومعلوم أن مالكا ولد في سنة 93 أو 94 ، فيكون قد حدث بمسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو في نحو الخامسة والعشرين من عمره ، وذلك مجلس لا يسمح به في ذلك العصر الا لمن اكتمل علمه واستفاض فضجه كما اشتهر مالك آنذاك بمعرفة الحديث واتقان روايته وجمع أطرافه ، يقول عبد الله بن لهيعة المصري : قدم علينا بكر بن سودة فقلت له : من خلفت لعلم أهل الحجاز ؟ قال : غلام من ذى أصبح ، يعني مالك ابن أنس . والموضوعية تقتضي أن يكون مالك حافظ حديث الحجاز وحده، فهو لم يرحل خارجه ، ولم يحصل أحاديث الصحابة الذين غادروا مكة والمدينة واستقروا بالبصرة والكوفة ومصر والشام واليمن وغيرها من الاقطار الاسلامية وينقل الزرقاني في شرح «الموطأ» عن الخطيب أن الرشيد سأل مالكا فقال و لم نر في كتابك يعني (الموطأ) ذكرا لعلي وابن عباس فقال : لم يكونا ببلدنا ولم ألق رجالهما ، وعلق الزرقاني بأين الرشيد أراد ذكرا كثيرا والا فني «الموطأ» أحاديث عنهما ، وكا نأبو جعفر المنصور أراد أن يحمل الناس على العمل بهما في «الموطأ» فقط ، ويوحدهم عليه فامتنع الامام متعللا بتفرق أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم في الامصار ، وبث ما سمعوا من أحاديث في تلامذتهم بها ، وهو لم يقع له من ذلك الا رواية من كان بالحجاز من الصحابة .

وإذا كانت مفاهيم « الحافظ » عند الحديثين تتغير بحسب الزمان والعرف المتفق عليه أن الاعتبار الاول هو للمعرفة والاتقان لا للسرد والاستظهار ، لان الذي يستظهر المتون والاسانيد دون معرفة بالرجال ولا تمييز لصحيح من سقيم ولا دراية بالعلل والشذوذ والنكارة ، لا يطلق عليه اسم المحدث فضلا عن الحافظ ، قال الحافظ السيوطي معرفا للحافظ والمحدث والمسند :

« أعلم أن أدنى درجات الثلاثة المسند بكسر النون وهو من يروي الحديث باسناده سواء كان عنده علم به أو ليس له الا مجرد رواية ، ثم نقل عن الرافعي وغيره : إذا أوصى للعلماء لم يدخل الذين يسمعون الحديث ولا علم لهم بطرقه ولا باسما الرواة والمتون ، لان السماع المجرد ليس بعلم ، وقد منع الامام مالك نفسه من الأخذ بمن لا يعرف هذا الشأن ومراده كما بينه القاضي عبد

الوهاب : اذا لم يكن يعرف الرجال من الرواة ولا يعرف هل زيد في الحديث سمي او نقص ، وقال قولته المشهورة : ليس العلم عن كثرة الرواية ، وانما هو نور يقذفه الله في قلب من يشاء . وقال عبد الرحمن بن مهدي : الحفظ الاتقان ، ويقول أبو زرعة الرازي : الاتقان أكثر من حفظ السرد .

ومع ذلك فلا بد من اعتبار الاستيعاب واستظهار المون والاسانيد الى جانب الاتقان حتى يصدق المحدث اسم الحافظ . فاذا نظرنا الى هذين العنصرين المعنويين في جميع الاعصار وجدنا انهما موافران في مالك بأجل مظاهرهما ، رغم اقتصار بضاعته على حديث الحجاز . فهو قد استوعب حديث الحجاز استيعابا تاما ، ثم اتقنه ووجده وتمقن علله وخفاياه ودقائقه ، وشرح رجاله حتى قال كثير من النقاد : لولا مالك لذهب علم الحجاز وان اسناد الحديث في الحجاز انتهى الى مالك وبهذا الاعتبار قال له شيخه الزهري : انت من أوعية العلم وأنت لنعم المستودع ، وقال سفيان الثوري : مالك أحفظ أهل زمانه ، وابن حنبل : مالك حافظ متثبت من أثبت الناس في الحديث ، وابن معين : كان مالك حافظا ، أما الحفظ بمعنى الاستظهار فقد كان في المقام الثاني كما تقدم لانه بعد انتشار الكتابة والتقيد كان الاعتماد على ضبط الكتاب في المقام الاول ومع ذلك فقد كان مالك ذا حافظة قوية شأنه شأن أقرانه من أئمة الحديث كالسفيانيين والليث والاوزاعي وغيرهم ، وهو أمر بديهي في المحدثين بحيث يعتبر المؤهل الاول لولوج مدرستهم ويذكر ابن عبد البر وابن حجر عن مالك قوله : «قدم علينا الزهري فاتيناه ومعنا ربعة فحدثنا بنيف وأربعين حديثا ، قال : ثم أتينا من الغد فقال : أنظروا كتابا حتى أحدثكم منه ، رأيتم ما حدثكم أمس ، أي شيء في أيديكم منه ، فقال له ربعة : ما هنا من يرد عليك ما حدثت به أمس ، قال : من هو ؟ قال ابن أبي عامر ، قال : مات ، فحدثته بأربعين حديثا منها ، فقال الزهري : ما كنت أظن أنه بقى أحد يحفظ هذا غيري .

## مالك النقاد :

ويعتبر هذا العنوان محور امامة مالك وقمة مجده وسيادته في علم الحديث الشريف ، وخلافا لما قاله أبو الحسن بن القطان الفاسي الحافظ : أنا أقبل رواية مالك لا رايه في الاحاديث والرجال ، فان من عداه من الحفاظ حتى المعاصرين منهم لمالك قبلوا رايه وقلدوا حكمه النقدي على الاسانيد والتون ، وربما كان هو المحدث الوحيد الذي اتبع رايه فيما يخص حديث أهل الحجاز ورواته في ذلك العصر ، ولا نزاع في أنه أول من التزم الصحة في الحديث المسند المتصل قبل البخاري ، بقطع النظر عن المفاضلة بين صحيح البخاري و «الموطأ» بما أشتمل عليه من سند وغيره ، وللخروج من النزاع الذي لا يتسع له المجال الآن ، يقال : ان مسند حديث الموطأ صحيح

كله وقد اختار البخاري نفسه أظلمه فضمنه صحيحه ، أما ما عدا المسند فللكلام عليه موضع آخر ، وربما كانت شروط مالك في الرواة أشد من شروط البخاري زيادة على انه يمتاز بضيق دائرة مرويه ، حيث اقتصر على رواية أهل مكة والمدينة ، وهو اعرف بهم من غيره واطول ملازمة وصحة لهم بالاضافة الى قرب المسافة بينه وبين الصحابة ، وقد قال الخطيب : أصح طرق السنن ما يرويه أهل الحرمين مكة والمدينة فان التضييس عندهم قليل والكذب ووضع الحديث فيهم عزيز ، وقد كان يستخدم ما منحه من جاه ونفوذ وسلطة للتوثيق من الحديث حتى لا يستطيع احد ان يحدث في دائرة نفوذه بحديث موضوع ، قال ابن أبي اويس وابو مصعب : ما كان يتهيا لاحد بالمدينة أن يقول قال رسول الله صلى الله عليه وسلم الا حبسه مالك ، فاذا سئل فيه قال : يصحح ما قال ، ثم يخرج .

وإذا كان شعبة بن الحجاج هو أول من جاهر بنقد الرجال بتركيز والحاح باعتبار وجوده في العراق موطن المذاهب والنحل فان معاصره مالكا هو أول من وضع اساس ذلك النقد التي طبقتها شعبة فمن بعده ، فقد أصنف ابن عبد البر عن مالك قوله : لا يؤخذ العلم من أربعة ويؤخذ من سوى ذلك ، ولا يؤخذ من سفهيه ولا يؤخذ من صاحب هوى يدعو الناس الى هواه ، ولا من كذاب يكذب في أحاديث الناس وان كان لا يتهم على لحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولا من شيخ له فضل وصلاح وعبادة ، اذا كان لا يعرف ما يحدث ، وبناء على ذلك كان يتخير الرواة الذين يأخذ عنهم ، أو ينصح بالآخذ عنهم ، قال بشر بن عمر : نهاني مالك عن ابراهيم بن أبي يحيى ، قلت : من أجل القدر نتنهاني عنه ؟ قال : ليس في دينه بذاك ، وقال للقطان عن نفس الزلوي : ليس ثقة في دينه .

وقد اشتهر عنه قوله : « ان العلم دين فانظروا عمن تأخذوا دينكم ، لقد أدركت سبعين ممن يحدث قال فلان : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، عند هذه الاساطين وأشار الى مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فما أخذت منهم شيئا ، وان أحدهم لو أئتمن على بيت المال لكان أمينا ، لانهم لم يكونوا من أهل هذا الشأن ، وقدم علينا ابن شهاب ، فكننا نزدحم على بابه » .

على أن اشتهار شعبة بأنه أول من تكلم في الرجال ، انما كان بسبب كثرة المتكلم فيهم بالعراق ، والا فقد قال ابن حبان في « الثقات » : وكان مالك أول من انتقى الرجال بالمدينة ، وأعرض عمن ليس بثقة في الحديث ، ولم يكن يروي الا ما صح ولا يحدث الا عن ثقة ، ، فلا عجب بعد هذا أن يعتبر ملك فيلسوف النقد الذي ينتقد حتى شعبة في نقده ، فقد روى ابن حاتم عن

يحيى بن معين قوله : « بلغنا عن مالك أنه قال : عجبنا من شعبة هذا الذي ينتفي الرجال ، وهو يحدث عن عاصم بن عبيد الله » .

وقد أسلموا مقاليد نقد الرجال الى مالك فلم يجترئوا على تجريح من أخذ عنه أو ثقته، وهكذا قلده أحد بن حنبل ويحيى بن معين والبخاري وغيرهم في ذلك، سئل أحمد عن جعفر بن محمد فقال ما أقول فيه وقد روى عنه مالك ، وسئل ابن معين عن طلحة الايلي وجماعه فقال : حدث عنهم مالك وقتل الاثرم : سألت أحمد عن عمر بن أبي عمر مولى المطلب فقال : يؤيد أمره مالك ابن أنس فقد أخذ عنه وهكذا اكتفى البخاري من تعديله برواية مالك عنه . وهذا سفيان بن عيينة يعلنها صراحة : « انما كنا نتبع آثار مالك وننظر الى الشيخ ان كتب عنه والا تركناه » . وقد اعترفوا جميعهم بان مالكا لم يكن يروى الا عن ثقة . ويطون أي مجاملة . يقول امام أهل الجرح والتعديل يحيى بن معين : « كل من روى عنه مالك فهو ثقة الا عبد الكريم » ، وعبد الكريم هذا هو ابن المخارق البصري نزيل مكة شذ عن نقد الامام اذ لم يكن حجازيا ، وهذا يؤيد احاطه برواة الحجاز ، ومع ذلك احتاط للامر ولم يضيع الحزم بالنسبة الى هذا الراوي فيحدثنا ابن عبد البر أنه لم يخرج عنه حكما انما ذكر عنه ترغيبا ، وقد وثق الامام من نفسه في ناحية النقد هذه وعد ذلك مصدر فخره ، وان كان في غير ذلك أكثر تواضعا ، فقد سأله بشر بن عمر عن رجل فقال : هل رأيت في كتبي ؟ قال : لا قال : لو كان ثقة رأيت في كتبي ، وقد أيد ابن المديني ادعاء الامام هذا حيث قال : لا أعلم مالكا ترك انسانا الا انسانا في حديثه شيء .

يقول الشعبي عن نقاد الحديث : لو أصبت تسعا وتسعين مرة وأخطأت مرة لعدوا علي تلك الولحة .

فتسليمهم مقاليد النقد الى مالك لم يصدر عن مجاملة أو مساهل أو اغضاء عن حقوة ، فقد نقدوه عندما اغتر بعبد الكريم بن أبي المخارق ولم يسالموه أو يسكتوا عنه ، فهم أهل لخصاء وتدقيق وعد للحروف والكلمات وضعوا لذلك مناهج بلغت من الدقة والصرامة والموضوعية ما يجعل ادعاء منخوذ شيء مهما صغر عن استقراءهم ضربا من المحال ، والعجب من الاستاذ المرحوم محمد أمين الخولي كيف استسأغ أن يقول : « وعلى هذا يكون ما ضخم من عبارات القائلين عن نقد مالك سند الحديث ورجال المتن قد تأثر بالنزعة المنقبية قليلا أو كثيرا » ، وأول ما يصدمنا من هذه العبارة كلمة « رجال المتن » ، فهي تعبير جديد في مصطلح أهل الحديث لم يعرفه المحدثون من قبل هذا الاستاذ ، فان كان لم يتحقق بعد من المبادئ الأولى لاصطلاحهم فكيف يتأمل لخرق اجماعهم ، ومع ذلك يقال : اذا كان الائمة الكبار من شيوخ مالك يعرضون عليه مسموعهم ليصححه ثقة منهم بمهارته في النقد كابن هرمز الذي كان في آخر عمره لا يسمع الا مالكا وحده متملا بانّه ان كان مايلقيه اليه

صواباً قبله وان كان غير صواب تركه ، بينما غيره يقبل منه كل شيء ،  
ففي دخل للمتنبية في ذلك ؟

وهنا يجب الوقوف عند عبارة أخرى للاستاذ الخولي ، فهو بعد أن جرد  
أهل ذلك العصر جميعاً من إمكان تقديمهم للمتن ، مع أن المعروف أن نقد المتن  
من أهم أسس مذهب أبي حنيفة ، قال : « ولذلك لا نطمع في أن نجد أثراً  
يذكر لنقد مالك المتن » .

ولعله غاب عن الاستاذ أن مبدأ الخلاف بين مالك والشافعي هو هذه  
المسألة بخصوصها فالشافعي يقول إذا صح الحديث فهو مذهبي ، أي دون  
اعتبار لأي شيء آخر غير ثبوت الحديث ، بينما راعى مع الصحة أشياء  
أخرى بنى عليها مذهبه منها موافقته للأصول ولعمل أهل المدينة . وبناء  
على ذلك لم يأخذ بعشرات الأحاديث الصحيحة كحديث كل ذي باب من  
السباع حرام أخرجته في الموطأ ولم يحرم أكل ذي ناب من السباع أو مخلب  
من الطير بل كرهه لأنه يخالف قول الله تعالى ، ، قل لا أجد في ما أوحى لي  
محرمات إلاية ، وكذلك حديث خيار المجلس لأنه لم يكن عليه عمل أهل  
المدينة ومثلهما كثير من الأحاديث الصحيحة التي يطول الحال لو وقع  
تتبعها . وإذا لم يكن نقد المتن هو هذا فماذا يعني الاستاذ بنقد المتن ، وقد  
قال مالك نفسه : سمعت من ابن شهاب أحاديث كثيرة ما حدثت بها قط  
ولا أحدث بها لأنه ليس عليها العمل ، وصح أنه وجد عنده بعد موته نحو  
أثني عشر ألف حديث من أحاديث أهل المدينة لم يحدث إلا بثلاثها ،  
وقال : إذا أحدث الناس بكل ما سمعت أنني إذا أحق ، ونختم الحديث عن  
مالك الناقد بعبارة علي بن المديني المشهورة : لولا أن الله يبعث في الإسلام  
في كل زمان مثل مالك وشعبة والأوزاعي لكانوا قد أدخلوا في حديث رسول  
الله صلى الله عليه وسلم ما ليس منه .

**مالك الحجة** : تقدم أن المحدثين القدامى لم يقلدوا في تصحيح الحديث  
أحداً غير مالك وفي ذلك يقول الشافعي : من أراد الحديث الصحيح فعليه  
بمالك ، والثوري : ما أقدم على مالك في صحة الحديث أحداً ، والقطان :  
ما في القوم أصح حديثاً من مالك يعني الأوزاعي والسفياي ، وابن معين ،  
أخذ المتقدمون عن مالك وثقوه وكان صحيح الحديث ، وكان يقدمه أصحاب  
الزهرى ، وروى الخطيب في « الكفاية » عن يحيى بن بكر أنه قال لأبي  
زرعة الرازي : « ليس ذا زعزعة عن زوبعة ، إنما ترفع الستة فتتنظر إلى  
رسول الله صلى الله عليه وسلم والصحابة ، حدثنا مالك عن نافع عن ابن  
عمر ، ولذلك جعل البخاري أصح الأسانيد : مالك عن نافع عن ابن عمر ،

وقال أبو داود ، حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم مالك عن نافع عن ابن عمر ، ثم مالك عن الزهري عن سالم عن أبيه ، ثم مالك عن أبي الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة ، ولم يذكر شيئا غير ذلك ، ونقل الحافظ السيوطي عن الحافظ العلاءي أن أصح حديث في الدنيا أخذ عن الشافعي عن مالك عن نافع عن ابن عمر .

### آثار مالك الحديثية :

كان عند الامام من حديث أهل المدينة نحو اثني عشر ألف حديث حدث بثلاثها أي نحو أربعة آلاف حديث ، احتوى الموطأ منها بأوسع رواياته على ستمائة حديث وكسر كما سيأتي .

والاحاديث التي حدث بها وليست في ،، الموطأ ،، تعرف بغرائب مالك ، وهذه تسمية اصطلاحية في مقابل احاديث الموطأ التي تواترت عنه باعتبار ما سمعها منه من الجمع الجم .

وقد جمع عدد من العلماء غرائب مالك وقوموها صحة وحسنا وقصفا ، بالنسبة الى الرواة عنه ، لانه اذا كان الراوي عنه ثقة فحديث مالك صحيح بلا شك ولا خلاف .

فللدارقطني « غرائب مالك » وصف بانه كتاب ضخم ، والف الحافظ الاندلسي قاسم بن أصبغ البيهقي القرطبي « غرائب مالك » وجمع الطبراني الاحاديث التي حدث بها مالك خارج « الموطأ » وكذلك حافظ ابن عساكر وكتابه في عشرة أجزاء ، وله أيضا « عوالي مالك » في خمسين جزءا والف الحافظان أبو بكر بن القمري ودعلج السجزي « غرائب مالك » أيضا ، ولأبي القاسم الجوهري ، وابن الجارود « سند مالك خارج الموطأ » ولمحمد ابن المظفر السمعاني الحافظ كتاب « فيما وصله مالك مما ليس في الموطأ » وللقاضي أبي بكر بن السليم « كتاب التوصل مما ليس في الموطأ » ولأبي عبد البر كتاب في حديث مالك خارج « الموطأ » ولا شك ان هذه الآثار التي يوجد القليل منها تحتوي على ذخيرة ثمينة من الاحاديث الصحيحة والحسنة أو الضعيفة المنجبرة باعتبار حال الرواة عن الامام ، اذ لم يجتمع لعالم من الرواة والتلاميذ ما اجتمع له ، كما قال الحافظ السيوطي « الرواة عن مالك فيهم كثرة بحيث لا يعرف لاحد من الائمة رواة كرواته » وقد أفردهم عدد من الناس بالتصنيف وفي « طبقات المفسرين » للحافظ الداودي : « حدث عنه أئمة المذاهب المتبوعين : أبو حنيفة والشافعي ، والاوزاعي وسفيان الثوري ، ومن الخلفاء أمراء المؤمنين : المنصور ، والمهدي ، والهادي ، والرشيدي ، والامين ،

والمأمون ، ، ويقول الدارقطني : « لا أعلم أحدا ممن تقدم أو تأخر اجتمع له ما اجتمع لمالك ، روى عنه رجلان حديثا واحدا بين وفاتيهما نحو مائة وثلاثين سنة ، الزهري شيخه توفي سنة أربع وعشرين ومائة ، وأبو حذافة السهمي توفي بعد الخمسين ومائتين ، روى عنه حديث الفريفة بنت مالك في سكنى المعتدة » قال الحافظ الداودي : « وهو أول من صنف تفسير القرآن بالاسناد على طريقة « الموطأ » ، تبعه الاثمة ، فقل حافظ الا وله تفسير مسند ، وله غير « الموطأ » كتاب « المناسك » و « التفسير المسند » لطيف ، فيحتمل أن يكون من تأليفه وأن يكون علق عنه .

أما آثاره غير الحديثية ، فقد أستوعبها القاضي عياض في « المدارك » ، « الموطأ » وأخذ أثر حديثي للإمام مالك رضي الله عنه ، هو « الموطأ » يقول العلامة المحقق الشيخ الطاهر بن عاشور رحمه الله : « أن أهل العلم ورجال السنة ، اتفقت كلمتهم على أن « الموطأ » ألفه الامام مالك رحمه الله وكتبه بيده ، وأنه أول كتاب ألف في الاسلام من الكتب التي ظهرت بين أيدي الناس ، وإن التوفيق الذي بعث مالكا رحمه الله على تدوين « الموطأ » للطف رباني جعله مثالا لحملة سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم كيف يحق لهم حملها وإبلاغها الى الامة ، مما استخلصه من طرائق شيوخه ، فقد رسم مالك بهذا الكتاب طويقته التي تبعها وفوه بها في مجالس حديثه ودروس علمه ، هي طريقة التمهيص والتصحيح في الرواية ، وتمييز من يستحق ان تحمل عنه السنة ، وتبين محامل الآثار المروية ، ولم يكن هم الامام حشد الروايات وجمعها بقدر ما كان يريد اثبات النافع .

وقد أخبر تلامذة مالك بأن اصل « الموطأ » كان نحو عشرة آلاف حديث ، ولم يزل يختب منها الموافق لاصول مذهبه ، حتى وصل الحديث المسند فيه الى ما هو موجود .

فاوسع رواياته ، وهي رواية مطرف بن عبد الله تشتمل على 607 حديث مسند ، أما الرواية المشهورة للآن ، وهي رواية يحيى بن يحيى الاندلسي فعدد الحديث المسند فيها 519 .

وعن نسخ « الموطأ » وروايته يقول القاضي عياض : « الذي اشتهر من نسخ « الموطأ » ، مما رويته أو وقفت عليه ، أو كان في روايات شيوخنا رحمهم الله ، أو نقل منه أصحاب اختلاف الموطآت نحو عشرين نسخة ، وذكر بعضهم أنها ثلاثون نسخة » .  
وقال ابن عبد البر : والروايات في مرفوعات « الموطأ » متقاربة في النقص والزيادة وإنما اختلاف رواياته في الاسناد والارسال والقطع والاتصال ،  
وعلى كثرة شروح « الموطأ » ، كما قال القاضي عياض : « لم يعتن

بكتاب من كتب الحديث والعلم اعترفوا الناس بالموطأ ، يوجد شرح ظريف لعثمان بن يعقوب الاسلاميول الكماخي من علماء القرن الثاني عشر الهجري سماه المهيا في كشف أسرار الموطأ ، وضعه على روايات الموطأ المختلفة ، وهو موجود بدار الكتب المصرية .

لعل الجانب الحديثي من جوانب الامام مالك المتعددة ، وهو أخصبها وأكثرها مادة باعتبار ما كتب حوله وسطر من مؤلفات تعد بالعشرات ، في عدوتي المغرب والاندلس وهدما فكيف ببقاقي أقطار العالم الاسلامي .

وقد تناولنا من هذا الجانب باقتضاب بالغ رؤوس مسائل تستدعي انتفاضة وإسهابا ، وكان بودنا - كما تقدم - أن ننفذ من العمومات التي تم بها الحديث عن « مالك المحدث » كما يقتضي ذلك المقام الى خصوصيات أصول مالك الحديثية ، ومذهبه في الرواية ، وفي مساء الاصطلاح كالمفاضلة بين العرض والسمع ، ورايه في الاجازة والمناولة ، وصيغ الاداء المعبر بها عن أنواع تحمل الحديث ، وتفصيل مذهب في المرسل ، والرواية بالمعنى ، وكيفية تحريه في اداء الحديث بحيث يحافظ على التاء والياء ، حتى أن البخاري يأتي في ، ، صحيحه ، ، بأحاديث مالك بعد غيرها ، لان روايات مالك تبين ما أجمل في الروايات الاخرى ، الى غير ذلك .

ولكن ذلك يحتاج الى كتاب خاص ، أو بحث جامعي ، ولنختتم عرضنا المتواضع هذا بما قاله ضياء الدين أبو القاسم عبد الملك بن زيد بن ياسين الدولعي المتوفى سنة 598 في كتابه « الرسالة المصنفة في بيان سبل السنة المشرفة » :

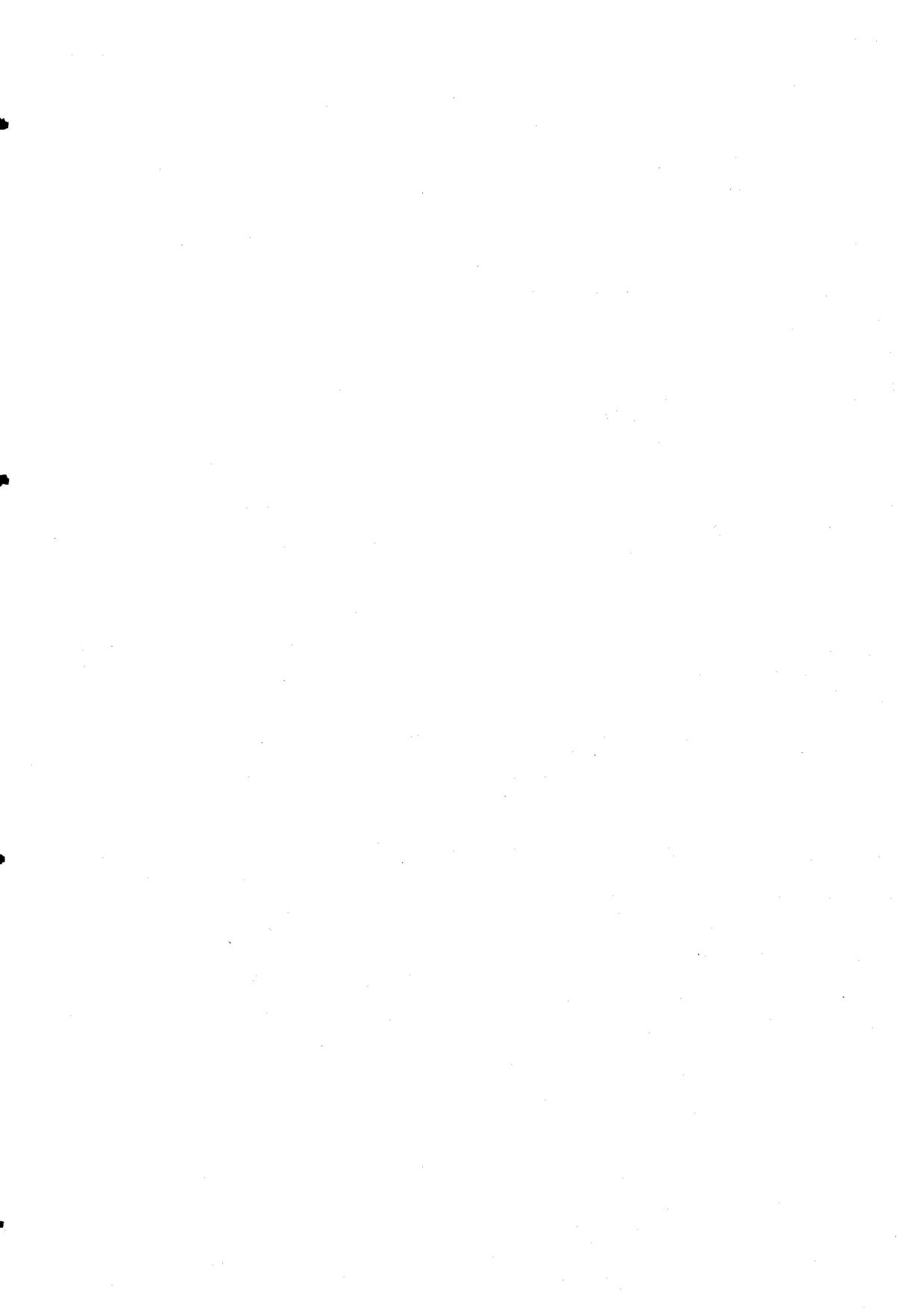
« أخذ مالك على تسعمائة شيخ منهم ثلاثمائة من التابعين ، وستمائة من تابعيهم ، ممن اختاره وارتضى دينه وفقهه وقيامه بحق الرواية وشروطها . وخلصت الثقة به ، وترك الرواية عن أهل دين وصلاح لايعرفون الرواية » . وعلو الرواية .

وبما ختم به الحافظ الذهبي ترجمته من « تذكرة الحفاظ » حيث قال : « وقد اتفق لمالك مناقب ما علمتها اجتمعت لغيره ، أحدها : طول العمر ،

وعلو الرواية وثانيها : الاهن الثاقب والفهم وسعة العلم ، وثالثها : اتفاق الامة على أنه حجة صحيح الرواية ، ورابعها : تجمعهم على دينه ، وعدالته وأتباعه السنن ، وخامستها : تقدمه في الفقه والفتوى وصحة قواعده . . . . عاش ستا وثمانين سنة . . . .

توفي في ربيع الاو لسنة تسع وسبعين ومائة ، رحمة الله عليه ، .

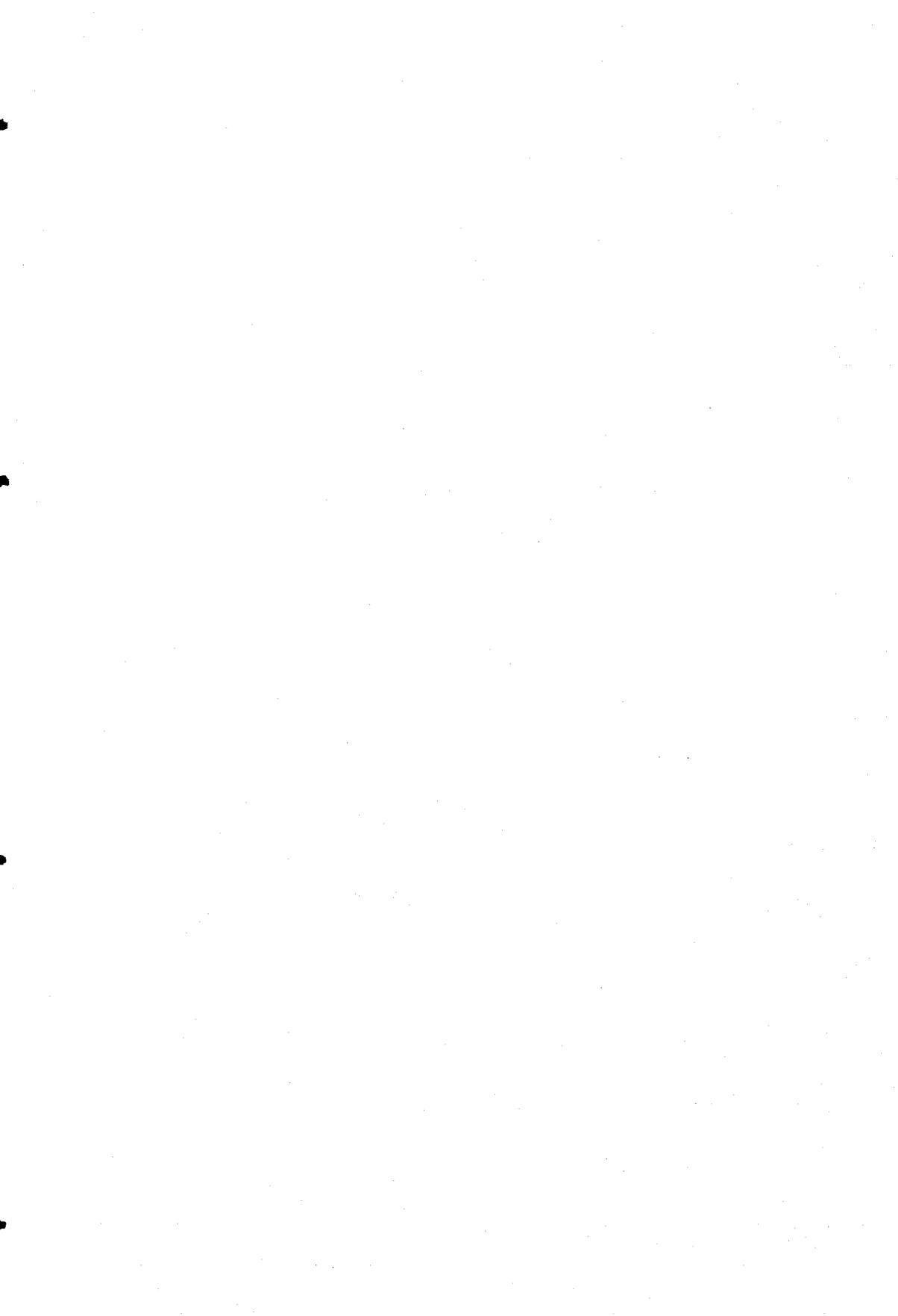
وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما والحمد لله رب العالمين .



**الاستاذ التهامي الراجي**

محصل على دكتوراة الفولة فى القراءات  
متخصص فى علوم الحديث .

( الملكة المفريفة )



بسم الله الرحمن الرحيم

## نافع أستاذ مالك

بقلم : الدكتور التهامي الراجي الهاشمي

### ( 1 ) توضيح لأبدا منه :

الذين شاركوا مشاركة فعالة في تكوين شخصية الطالب مالك بن انس أساتذة أجلاء يعرفهم كل من درس حياة هذا الامام الفذ ، منهم على الخصوص « نافعان » كان لكل منهما أثر حميد في نفس الطالب لم ينسه أبدا .

أما الأول ففقيه بارع ومحدث ثقة ، واسمه نافع بن سرجس أبو عبد الله الديلمي ، توفي سنة 120 هجرية على قول ، في السنة التي أتم فيها مالك السابعة بعد الأربعين من عمره . كان نافع بن سرجس هذا ، حسب ابن حزم القرطبي الظاهري من « أهل الفتيا » . ويقول المهتمون بالحديث الشريف : « أصح الإسانيد مالك عن نافع عن ابن عمر » . أما حين يتصل الامام الشافعي ، رضي الله عنه ، بهذه السلسلة ، فإنها تسمى عند المهتمين بهذا الفن ، بـ « سلسلة الذهب » .

لهذا الذي أشرت اليه بكل اختصار لازم مالك نافعاً هذا ملازمة خاصة ، وما تظله الشجر من الشمس كما يحلو لترجمي مالك أن يقولوا . ولقد اتصل به مالك مبكراً ، يحكي لنا هو نفسه عن هذا فيقول : ( كنت

آتي نافعاً مولى ابن عمر وأنا يومئذ غلام ، ومعى غلام لي ، فينزل الي من درجة له ، وهو الذي كان يقوده حين كف بصره من منزله بالقيسغ الي المسجد النبوي فيسأله ويحدثه ) .

ورغم هذه المنزلة الرفيعة التي كانت لنافع بن سرجس هذا عند سائر مواطنيه ، ورغم التقدير الطيب الذي كان يحظى به من طرف مالك ابن انس ، تقدير يجسمه قوله : « كنت اذا سمعت حديث نافع عن ابن عمر لا ابالي الا اسمه من أحد غيره » . فان مالكا رضي الله عنه لم يورد له في موطنه الا حوالي ثمانين حديثا على خلاف في عددها .

وأرجو الا يرد علي راد محاولا الطعن في منزلته الرفيعة هذه بدعوى انه كان يجلس بعد الصبح في المسجد النبوي فلا يكاد يأتيه أحد . ذلك اننا نعلم أن كثيرا من العلماء الكبار الذين أثروا تأثيرا بليغا في جيلهم والذين كانت لهم منزلة عالية في فئهم لم ينجحوا في التدريس لاسباب لا علاقة لها بزادهم العلمي ولا بسلوكهم الاخلاقي . اما بالنسبة لصاحبنا فاننا نعرف سبب انفضاض الطلبة من حوله ، انها اللكنة ثم صغر النفس وان كانت هذه الصفة الاخيرة غير واضحة التحديد عندنا ، وما اعتقد انسي ساقف بكم اكثر في هذه النقطة ، اذ انها لا تدخل في ميدان اهتمامنا ، ذلك ان نافعاً الذي نقصده بحديثنا هو نافع الثاني ، نافع بن أبي نعيم القاريء الذي توفي قبيل مالك بن انس بعشر سنوات فقط . لقد كان من أقرانه هو واسماعيل بن جعفر وعيسى بن وردان وسليمان بن مسلم بن جماز وكلهم أخذوا القراءة عن الامام نافع عرضا وسماعا .

## 2 ) اخذ مالك عن نافع القراءة والحديث كذلك :

اذا تحدث الناس عن نافع بن أبي نعيم تحدثوا عن القاريء لان شهرته بنيت أولا وقبل كل شيء على القراءة ، لقد كان فعلا أحد القراء السبعة . قرا حسب ما يخبرنا به أبو قررة موسى بن طارق على سبعين من التابعين ، لكنه اهتم بالحديث أيضا . يخبرنا ابن عدي (1) أن نافعاً رضي الله عنه ترك لنا نسخة من مائة حديث لنافع عن الاعرج كما ترك لنا نسخة

(1) بفتح العين وكسر الدال وتشديد المثناة بعدها ، نقولها لمن لم يسمعها جيدا .

أخرى بها أكثر من مائة حديث عنه عن أبي الزناد عن الأعرج . كما أنه ترك لنا في « التفاريق » قدر خمسين حديثاً ، ولا يعرف له المهتمون على شديد حرصهم في هذا الفن حديثاً واحداً منكراً .  
ولعل رادا يرد علي قائلًا : فإذا كان نافع محدثاً أيضاً كما تقول ، فلماذا لا نرى عند مالك أيضاً أثراً يذكر للاحاديث التي يمكن أن يكون رواها عنه . أبادر فأقول : لعل ذلك يرجع إلى ظاهرة عرفت عندهم في القرن الثاني ، وهي أن يكون الرجل من كبار الفقهاء وهو مع ذلك متروك الحديث ، ثم انني أسأل : ألم يكن ابن هرموز ، وأقصد أبا بكر بن يزيد الأصم ، المتوفى سنة 148 هجرية من كبار الفقهاء ومن الذين لهم مالک سنوات ومع ذلك فلا تكاد نجد في موطأ مالك حديثاً أخذه عن ابن هرموز مع أنه لا يترك مناسبة تمر دون أن يشني عليه . وكلما قال : على هذا أدركت أهل العلم ببلدنا : أو عندما يقول : « والأمر عندنا كذا » فإنه يقصد ( ابن هرموز ) و ( ربيعة الراي ) ابن أبي عبد الرحمن فروخ الذي لم يزد ما أخذ عنه مالك ، هو الآخر ، من أحاديث عن اثني عشر مروياً ، ما بين مسند ومرسل وبلاغ رغم ملازمته الطويلة له .

### 3 ( مالك محترم لآراء أستاذه نافع ) :

ورغم أن مالكا كان ، كما لا يخفى على أحد ، صاحب الرأي السيد الذي لا يخطيء ، فقد كان رحمه الله لا يجراً على الاعلان عن رأيه في نازلة يعلم أن أستاذه نافعاً له فيها نظر . لقد سأله مثلاً أبو سعيد عبد المالك بن قريب الأصمعي عن البسملة فأجابه مالك رضي الله عنه : سلوا عن كل علم أهله ، ونافع امام الناس في القراءة . وما كان لمالك رحمه الله أن يكون رأياً مخالفاً لرأي من صلى في مسجد الرسول صلى الله عليه وسلم ستين سنة دون انقطاع لم يعارضه طيلة هذه المدة المديدة أحد من التابعيين في قراءة .

### 4 ( نافع مقرئ المدينة بدون منازع ) :

لقد أقرأ الإمام نافع رضي الله عنه الناس في المدينة دهراً طويلاً نيفاً عن السبعين سنة وانتهت إليه رئاسة القراءة في هذه المدينة المباركة ، مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم وصار الناس إليه . وبالقراءة التي

اشتهر بها الامام نافع رضي الله عنه والتي رواها عنه الامام مالك عرضا وسماعا تمسك الناس . وبهذه القراءة نقرأ نحن هنا بالمغرب ، نقرأها بأحد الروايتين عنه ، رواية ورش رضي الله عنه . وهكذا تكون نحن هنا في المغرب ، مطبقين كأحسن ما يكون التطبيق لعلم اهل المدينة في سائر نشاطنا الديني ، العبادات منه والمعاملات وأجل به من عمل ارتضاه المغاربة لانفسهم من أمد بعيد .

قام الامام نافع بالقراءة بعد التابعين امام مئات من طلبته من ضمنهم الامام مالك بن أنس وكان أهل لان يقوم بهذه القراءة ، لانه كان عالما بوجود القراءات متبعا لآثار الائمة الماضين .

## 5 ( قراءة نافع سنة ولا غرابة في ذلك :

اخبرنا سعيد بن منصور انه سمع مالكا ابن انس يقول : قراءة اهل المدينة سنة . قيل له قراءة نافع . قال نعم . قال اليث بن سعيد حججت سنة ثلاث عشرة ومائة وامام الناس في القراءة بالمدينة نافع ، وقال عبد الله بن احمد بن حنبل سألت ابي اي القراءة احب اليك ؟ قال : قراءة اهل المدينة ، وهي طبعا وبالدرجة الاولى قراءة نافع ، ولا غرابة في ان تكون قراءة من رأى في منامه الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم يقرأ في فيه سنة تتبع . يروي لنا ابو عمرو الداني فيقول : قال رجل ممن قرا على نافع ان نافعا كان اذا تكلم يشم من فيه رائحة المسك . فقلت له يا ابا عبد الله تتطيب كلما قعدت تقرىء الناس ؟ قال : ما أمس طبيا ولكي رايت فيما يرى النائم النبي صلى الله عليه وسلم يقرأ في فمي . فمن ذلك الوقت أشم من في هذه الرائحة . ولا غرابة أيضا في ان تكون قراءة من صافحه رسول الله صلى الله عليه وسلم قراءة متبعة يخبرنا المسيبي ، فيقول : قيل لنافع ما أصبح وجهك واحسن خلقك ! قال : فكيف لا اكون وقد صافحني رسول الله صلى الله عليه وسلم وعليه قرأت القرآن ( اي في المنام ) .

## 6 ( لم يحجم مالك عن الاخذ عن المعنين بسبب قبح وجهه :

اريد هنا بهذه المناسبة ان ازيل ليساً من ترجمة الامام مالك رضي الله عنه ، تلميذ الامام نافع . لقد اعتاد المترجمون له ان يقولوا لنا ان

قبح وجهه هو الذي جعله ينصرف عن الفناء الى طلب الفقه . يروي بعض المترجمون أن مالكا قال في كهولته : « نشأت وأنا غلام فأعجبني الأخذ عن المعنين ، فقالت أمي : يا بني ان المعني اذا كان قبيح الوجه لم يلتفت الى غناؤه فدع الفناء ، واطلب الفقه .. فتركت المنين ، وتبعت الفقهاء فبلغ الله بي ما ترى ... »

وكيف ما كان السبب الذي صرفه عن الفناء فان ميله الى تجميل الصوت ووجهه الى سماع الجميل من الانغام لن ينعدم قطعاً بسبب أعراضه هذا .

وما اعتقد ان معني القرن الثاني كانوا يتقنون تلك القواعد البالغة الدقة في تصوير الصوت واحكامه وتجميل بنائه .

( أقصد بالبناء كالفنة وترقيق الرأء واللام وتفخيمهما وغير ذلك من البنى اللطيفة التي اتقنها نافع وتعلمها مالك ) .  
اقول ما اعتقد أن معني القرن الثاني اتقنوا هذه القواعد مثل ما اتقنها نافع اولاً ثم مالك من بعده عرضاً وسماعاً ..

لكن الحقيقة غير ذلك ، لقد كان الفلام حسن الوجه ، لا قبيحه وكان اشقر ، واسع العينين شديد البياض . فهل هناك جمال في الرجال أفضل من هذا ؟ لا نعتقد ذلك . لقد كان الفلام أذن جميلاً ذا مزاج فني ، ولكنه رغم ذلك ابتعد عن الفناء . وابن الحقيقة أخيراً ؟ إذ ان مالكا ادرك ، على صغر سنه ، ان تعاطيه لهذا الفن يسقط من مروءته ، وان في هذا الفن الذي يجد ، ما في ذلك من شك صدى في نفسه المطمئنة الطيبة الطاهرة ، القول في الحل والحرام واستنتج من ذلك كله ان المعازف حرام .

ولم يكن مالك الاول ولن يكون الاخير الذي استهواه فن ، مالست النفس اليه أولاً ، ثم حادت عنه بعد ذلك خوفاً من الوقوع في الشبهة التي يجب الترفع عنها . ما مالك الى الفناء ثم اختار الفقه ، ومال الشافعي الى الشعر ثم اختار الاصول ، ومال ابو حنيفة الى فنون مختلفة ثم اختار أخيراً ما تعلمون .

## ( 7 ) اشبع نافع ميل مالك في حلال وفوز عظيم :

المزاج الفني فطرة لا بد ان تثبت في نفس المرء مدى الحياة ،

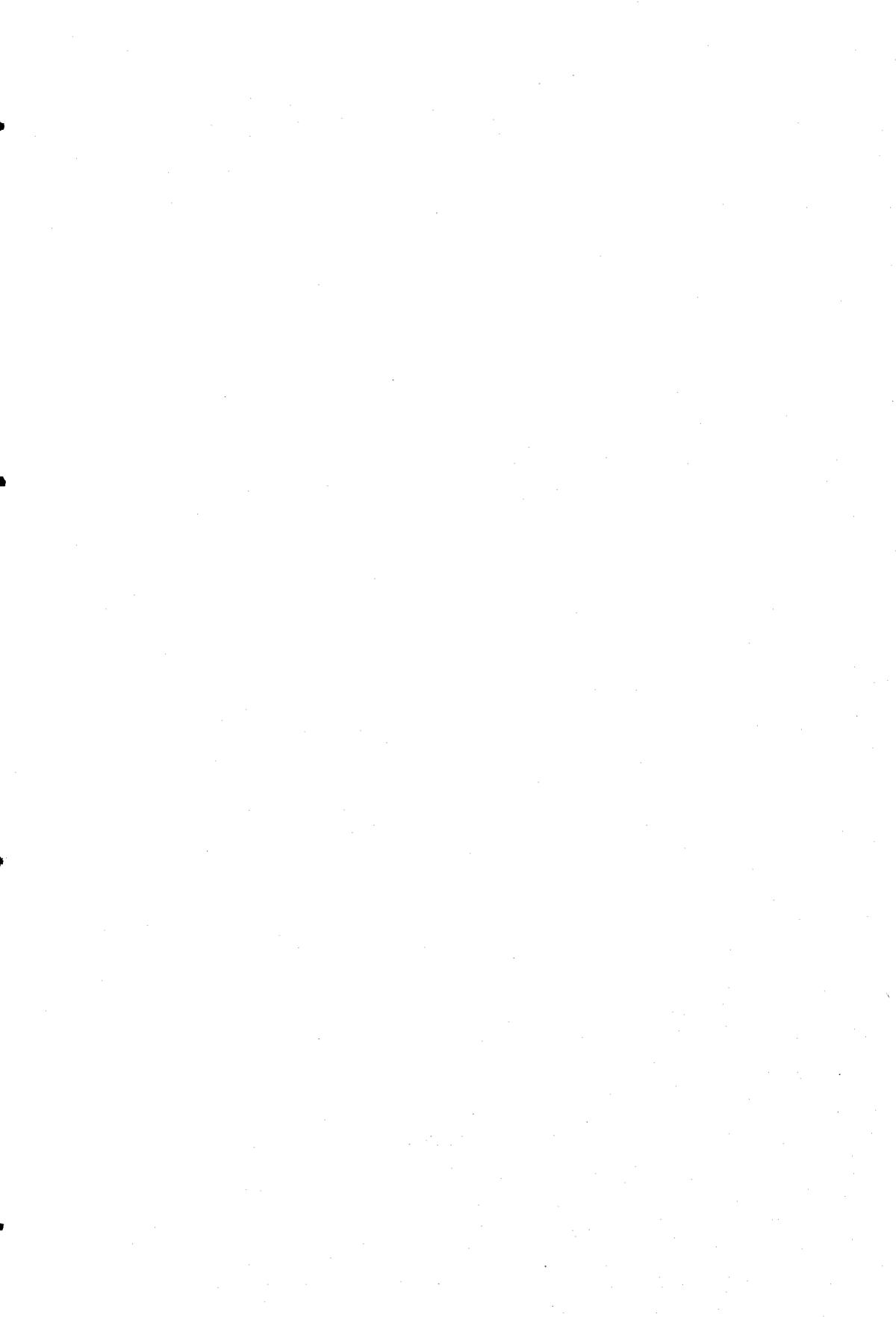
والعاقل من يستغلها فيوجهها الوجهة التي يرضى بها الحق سبحانه وتعالى . وهذا التوجيه السليم الذي مارسه على نفسه امامنا رضي الله عنه هو الذي نسميه التيارات الفلسفية الحديثة في تبجح مقبوت وهو عندهم ، او على الاصح في المصطلح الفرويدي تحويل وظيفة غريزية نازلة واولية الى اخرى رفيعة الخلق وسامية المغزى . محبة مالك اذن للصوت الجميل ثابتة فيه . فكيف السبيل الى تحويل هذا الميل الى عمل صالح مفيد في الدنيا والاخرة ؟ لن يطول بحثه عن هذا كثيرا . فما عليه الا ان يستمع الى ما يقوله الناس عن الامام نافع وجمال ترتيله وصلاحه وروعه . ثم يقصده ويقرا معه من بين ما يقرا : ( ويقولون لولا انزل عليه آيات من ربه ، فقل انما الآيات عند الله وانما انا نذير مبين . او لم يكفهم انا انزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم ، ان في ذلك لرحمة وذكرى لقوم يؤمنون ) ويرى له ويروي معه احاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم في احسن الصوت بالقراءة ( ما اذن الله لنبي كاذنه لنبي يتفنى بالقرءان ) و ( ان هذا القرءان نزل بحزن فاذا قرأتموه فابكوا ، فان لم تبكوا فتباكوا ، وتفنوا به فمن لم يتغن به ، فليس منا ) . لا شك ان الترتيل سيزداد جمالا حين يكون على طريقة قراءة اهل المدينة ، قراءة نافع استاذ مالك رضي الله عنهما .

## 8 ) واخيرا فكرة عمل اهل المدينة :

واما الفكرة الدائعة التي امتاز بها مالك رضي الله عنه ، وهي فكرة « عمل اهل المدينة » التي سيتحدث لكم عنها علماءنا الاجلاء بتفصيل ، فقد كان فضل بلورتها في ذهنه وجعلها منتجة خلاقة تجد الحل الملائم لما يستعصى على المسلمين من امور لاساتذته الذين كونوه وعلى رأسهم الامام نافع رضي الله عنه ، لانه هو المقنن لقراءة اهل المدينة ، تلك القراءة التي يصفها الامام مالك نفسه بانها سنة وجب اتباعها والمصير اليها ، ولا غرابة في ان تكون فكرة اهل المدينة سنة ثم وليدها من بعدها وهو « عمل اهل المدينة » قويا متبعا وملزما ، ولاسباب كثيرة اهمها نصيب المدينة المنورة من توزيع المصاحف . لقد كان لها فعلا حظا مرموقا في موضوع توزيع المصاحف الشريفة التي وقع الاجماع عليها . فاذا كان

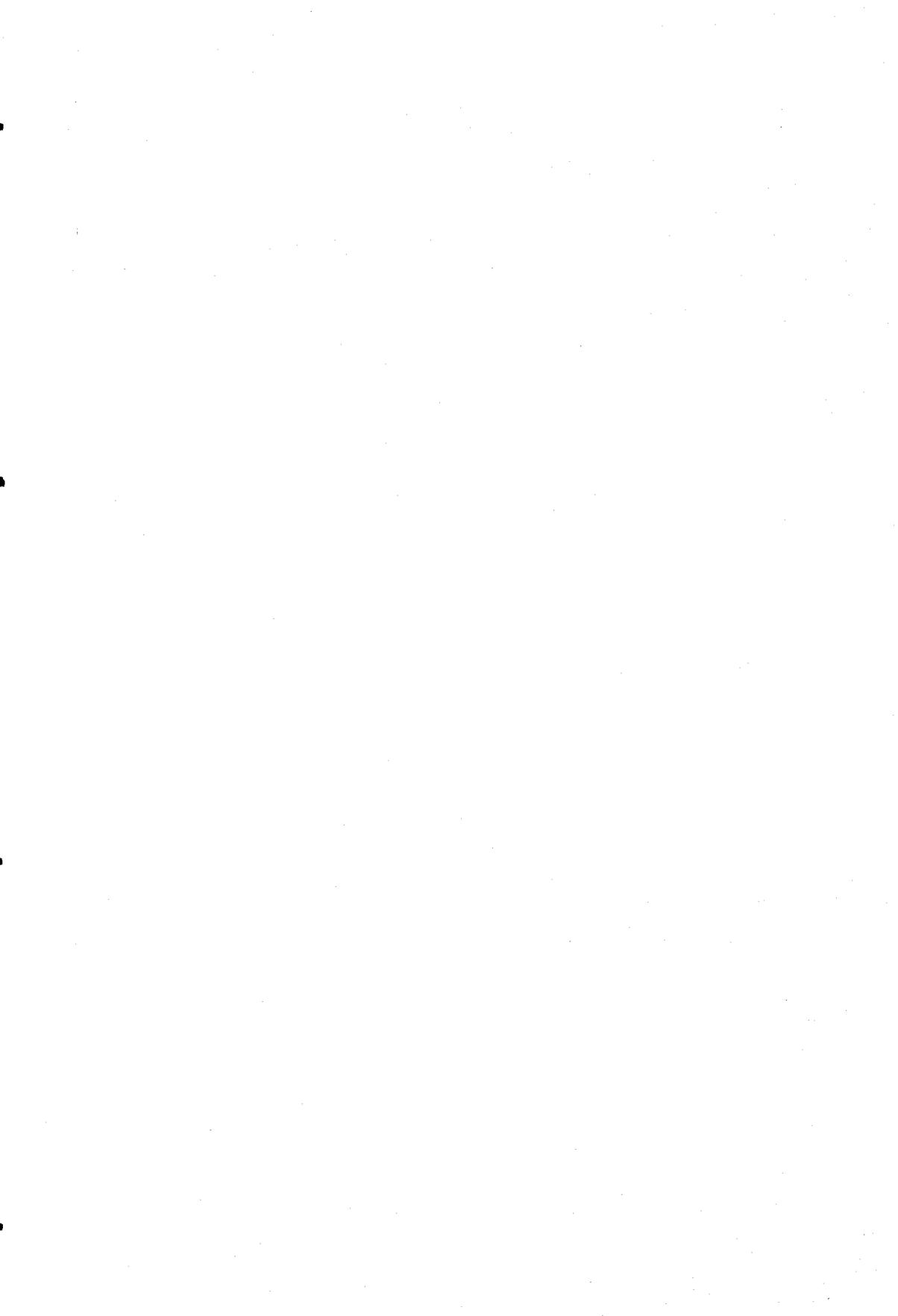
حظ الامصار الاسلامية المفتوحة في ذلك الوقت كالبصرة والكوفة والشام والبحرين وغيرها مصحفا واحدا فان نصيب المدينة المنورة كان مصحفين ؛ مصحفا ترك بها رسميا ، ومصحفا أمسكه عثمان لنفسه ؛ وهو الذي يسمى مصحف الامام ، فلا غرابة اذن ان تكون هذه القراءة نقصد قراءة نافع التي رواها عنه مالك بن انس سنة ، ولا غرابة في ان يتأثر بها أكثر من غيرها الامام مالك بن انس رحمه الله .

« من العومنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه  
فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر ، وما بدلوا تبديلا »  
- قرآن كريم -



## الاستاذ محمد حماد الورياغلي

محصل على دبلوم الدراسات العليا لدار الحديث  
الحسنية ، متخصص في العلوم الاسلامية والعربية .  
( الملكة المفريية )



## أثر الشخصية المفريية فى فقه مالك :

### للاستاذ محمد الوريغليسي

جاء الإسلام إلى الشمال الإفريقي فى موجات متلاحقة ، بدأ من حملة عبد الله بن سعد بن أبي سرح فى عهد عثمان بن عفان رضى الله عنه إلى أن تم له الاستقرار فيه نهائيا على يد موسى بن نصير فى عهد الوليد بن عبد الملك بن مروان فدخل المغاربة فى الإسلام ودانوا بعقائده وامتثلوا لأحكامه .

ومع الزمان لم يكتف المغاربة باعترافهم للإسلام فى حق أنفسهم ، بل أدخلوا راية الإسلام بأيديهم فأخلوا يعملون على نشره فى أقطار أخرى شمالا وجنوبا ، فمير طارق بن زياد وهو مغربي ، بجيش مغربي بحر الزقاق إلى الأندلس وقضى فيها على « للدريق » سلطان البلاد ، ومكن فيها للإسلام ، وأخضع شعوبها لأحكامه ، فبقى الإسلام فيها ينتشر ويتمدد فى الانتشار إلى أن جاوز شبه جزيرة إيبيريا إلى جنوب فرنسا كما هو معروف ، كما اهتم المغاربة مع الزمان أن ينشروا الإسلام جنوبا

في وقت مبكر ، فعندما قامت الدولة المرابطية كان لها في بدايتها جناحان ، جناح امتد نحو الشمال ، تحت امرة يوسف بن تاشفين ، وجناح امتد نحو الجنوب تحت امرة ابن عمه ابي بكر بن عمر اللمتوني ، فدخل الصحراء القاحلة وتوغل في بلاد السودان ، مبشرا بكلمات ربه واثقا بنصره حتى وصل الى حدود غينيا ، وهكذا امكن لرؤية الاسلام ان تخفق لأول مرة فوق السينغال ومالي والنيجر ، وتبع ذلك انتشار العلوم الاسلامية والعربية التي ما فتئت جامعة القرويين تغذي أبناء هذه الاقطار بلبانها حتى يومنا هذا .

وهكذا اصبح المغرب منطلق الاسلام شمالا وجنوبا ، ولا زال منطلقه عبر التاريخ الى الآن ، ولا يبعد ان يكون بعض الحاقدين عليه لمكانته في الاسلام ، وكونه منطلقا للاسلام الى اقطار اخرى هم الذين عملوا على خلق موريطانيا سابقا ، وعلى ضم اجزاء اخرى منه للجزائر ، ويعملون الآن على خلق موريطانيا - اخرى تحت اسم « البوليزاريو » والهدف منها جميعا واحد ، وهو فصل المغرب عن افريقية ، واضعافه على متابعة رسالته ، وخلق عراقيل في طريق نهضته .

### الفقه والسياسة :

جاء الاسلام بعقيدة وشريعة ، والعقيدة تعني ان لا اله الا الله وان محمدا رسول الله ، والشريعة تعني تسييس المسلمين في اطار الاسلام وعقيدة التوحيد بما يصلح شؤونهم ويرفع من وزنهم بين الامم ، ويمكن لهم في الارض ، ويوفر لهم الامن والاستقرار ، في كل بلد حسب ما يناسبه ، ومن ثم كانت العقيدة واحدة لا تتغير ولا تختلف باختلاف البلدان او الاجيال او الاعصار ، واما الشريعة فهي اعمال ، ومن الاعمال ما هو تابع لطبيعة السكان واعراف القوم واقتصاد البلاد وسياسة الناس ، فان الفقه والسياسة لفظان لمعنى واحد ، واسمان لمسمى واحد ، قال الفزالي في احياء العلوم رقم 15 : ( خلق الله الدنيا زادا للمعاد ، ليتناول منها الناس ما يصلح للتزود ، فلو تناولوها بالعدل لانقطعت الخصومات ، وتعطل الفقهاء ولكنهم تناولوها بالشهوات فتولدت عنها الخصومات ، فمست الحاجة الى سلطان يسوسهم واحتاج السلطان الى قانون يسوسهم به ، والفقيه هو العالم بقانون السياسة ، وطرق التوسط بين الخلق اذا

تنازعوا بحكم الشهوات ، فكان الفقيه معلم السلطان ، ومرشده الى طريق سياسة الخلق وضبطهم ، لينتظم باستقامتهم أمورهم فى الدنيا .

وبما أن الفقه أعراف واقتصاد وسياسة ، كان فى فروعه يختلف بعضه عن بعض تبعا لاختلاف البيئات ، فبيئة العراق غيرها فى مصر ، وطبيعة مصر غيرها فى المغرب ، فهذه الاقطار كلها تدين بالاسلام متحدة فى العقيدة وفى اصول التشريع ، ولكن فى الفروع كان بينها بعض الاختلاف ، نظرا لاختلاف البيئة كما سبق ، وهذا أمر طبيعي ، ومثاله مذهب الشافعي القديم فى بغداد والجديد فى مصر ، مع انه شخص واحد ، وعلم واحد ، وذوق واحد ، ومع ذلك كان الاختلاف ، ومن هنا نفهم ان الاحكام تابعة لاعراف البلاد لا لاجتهاد الشخص ، ولطبيعة المشاكل لا لعلم المرء ، ولذا قال الله تعالى : « لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا ، ولو شاء الله لجعلكم امة واحدة ولكن ليلوكم فيما آتاكم فاستبقوا الخيرات » . ( 50 - المائدة ) ، قال قتادة ، شرعة ومنهاجا ، اي سبيلا وسنة ، والسبل تختلف ، والسنن تتعدد ، وفى الصحيح : ( نحن معاشر الانبياء ابناء علات ابونا واحد وأمهاتنا شتى ) ، وهذا كما يصدق على الاختلاف بين الانبياء يصدق على الاختلاف بين الاقطار كما سبق ، وبما ان الفقه تابع للسياسة ، كان المذهب الفقهي الذي كان يسود المغرب فى البداية هو مذهب ساسته او مذهب الولاة الذين ياتون من الشرق ، ومذهب التابعين الذين جاؤوا مع الولاة لتعليم الناس مبادئ الاسلام ، وتفاصيل الشريعة ، جاء فى تاريخ ابن الفرضي رقم 1/146 : ( ان عمر بن عبد العزيز أرسل عشرة من التابعين يفقهون أهل افريقية ، منهم حبان ابن ابي جبلة ، وحبان ابن ابي جبلة هذا روى عن عمرو بن العاص ، وعن عبد الله بن عباس ، وعبد الله بن عمرو ، توفى بافريقيا سنة 122 هـ ) . وقال ايضا فى رقم 1/150 من المصدر نفسه : ( اخبرنا الخطاب بن سلمة قال اخبرنا قاسم بن أصبغ قال : دخل الاندلس من التابعين حنش بن عبيد الله الصنعاني ، صنعاء الشام لا صنعاء اليمن ، وعلي بن رباح وأبو عبيد الرحمن الحبلي وموسى بن نصير ) ، ومعلوم أن مذهب التابعين هو مذهب الصحابة رضوان الله عليهم ، كانوا يعملون بالكتاب والسنة والاجتهاد ، وهي اصول التشريع لجمهور المسلمين الى الآن .

وعند ما أخذت المذاهب تتكون أخذ ينتشر فيه بقطر الاندلس مذهب الاوزاعي ، وهو مذهب سني بحت ، يحاذي مذهب ابن عمر ( ض ) ،

ومعلوم ان مذهب الاوزاعي ظهر وانتشر فى الشام ارض الاوزاعي نفسه ، ومن الشام كان الولاة ياتون للمغرب وعاصمة الخلافة الاسلامية كانت دمشق ، فكان ملائما ان ينتشر فى المغرب مذهب الدولة او مذهب اهل العاصمة دمشق ، والمغاربة دائما يدينون بدين ملوكهم وهذه الحكمة هم الذين قالوها كما فى ابن خلدون اخذا من مذهبهم انفسهم .

وبعد ما انتقل الحكم من دمشق الى بغداد ومن الامويين الى العباسيين هرب اثناء الانقلاب عبد الرحمن الداخل الاموي الى المغرب فاستقل بالاندلس عن بغداد ، ثم هرب مولاي ادريس الاكبر فاستقل بالمغرب الاقصى ، ومن ثم اخذ المغاربة بما فيهم اهل الاندلس واهل المغرب الاقصى يستقلون بانفسهم عن الخلافة فى الشرق ، واخذوا يديرون شؤونهم بانفسهم ، وفى هذه الاثناء كانت الاندلس تغلب عليها الاوزاعية ، والمغرب كان نهبا لمذاهب شتى ، منها الاوزاعي والكوفي والخارجي والبرغواطي والشيعة الذي يقال طلع قرنه مع نشوء الدولة الادريسية . ولكن بما ان الاسلام جاء بفريضة الحج والتعلم معا ، وفريضة التعلم سابقة لفريضة الحج بدليل ان اول آية نزلت فى كتاب الله تعالى كانت « اقرأ باسم ربك » - ظل المغاربة - يذهبون الى الشرق ليحجوا وليتعلموا معا ، فكانت منذ ان تمكن الاسلام فيه افواج من المغاربة تتجه الى الشرق تترى ، لاغراض مختلفة عبادة وتعلما وتجارة وسياحة فتعلموا فى مصر والحجاز ، وفى الشام وفى العراق ، مختلف المذاهب وسمعوا مختلف المصنفات ، ونقلوها معهم الى المغرب ، ولكن المغاربة اختاروا منها ان يعملوا فى شريعتهم على مذهب - مالك بن انس ( ض ) امام دار الهجرة ، لانه يمثل فقه السنة والمدرسة السلفية ، فهو عاش فى المدينة وتعلم علوم اهل المدينة ، والمدينة فى عصره عاصمة اهل السنة والجماعة ، اذ فيها عاش النبي ( ص ) حتى مات ، وفيها كان مجمع الصحابة كلهم ، ومنها تفرق بعضهم الى غيرها من البلدان ، وفيها كان الفقهاء السبعة ، والرسول ( ص ) عين الرحمة ، ومنبع العلم ، ومصباح المصايح ، وبعد وفاته ظلت المصباحية تتمثل فى الكتاب والسنة حيث قال فيهما : ( لن تضلوا ما تمسكتم بهما ) ، والدين ورثوا مسؤولية حمل هذا المشعل ليضيء على الافاق الاخرى هم الصحابة رضوان الله عليهم ، ومن بعدهم التابعون ، وهكذا ، وهؤلاء مقرهم جميعا المدينة وان خرج منها بعضهم الى مختلف الافاق فهو قليل بالنسبة لمن بقي فيها ، وحتى الذين اضطرتهم

ظروفهم ان يخرجوا لم ينقطعوا عنها ، بل ظلوا حياتهم يذهبون ويجيئون ،  
وحبلهم متصل بالمدينة باستمرار .

ومعلوم ان الناس فيهم عامة وعلماء ، والعلماء متفاوتون في العلم ،  
ونخبتهم دائما قليلة باعتبار السكان ، وبما ان السكان في ذلك الوقت كانوا  
قليين كانت النخبة قليلة ، وهذه النخبة جلها عاشت في المدينة كل او  
جل حياتها ، سواء في عصر الصحابة ، او التابعين او تابعي التابعين ، وفي  
عهد ما قبل مالك تجمعت علوم اهل المدينة كلها في الفقهاء السبعة ، وهم  
سعيد بن المسيب ، وعروة بن الزبير ، والقاسم بن محمد ، وخارجة بن  
زيد ، وابو بكر بن عبيد بن عبد الرحمان ، وسليمان بن يسار ، وعبيد الله  
ابن عبد الله ، وقد نظمهم قائل فقال :

اذا قيل من في العلم سبعة ابحر      روايتهم ليست عن العلم خارجة  
فقل هم عبيد الله عروة قاسم      سعيد أبو بكر سليمان خارجة

ثم تجمعت في مالك بن أنس رحمه الله وحده ، جاء في المدارك  
رقم 1/159 ( قال علي بن المدني أخذ عن زيد واحد وعشرون رجلا ، ممن  
كان يتبع رايه ويقوم به ، منهم قبيصة وخارجة بن زيد وعبيد الله بن عبد  
الله بن عتبة وعروة بن الزبير وأبو سلمة والقاسم بن محمد وأبو بكر بن  
عبد الرحمن وسالم وسعيد بن المسيب وابان بن عثمان وسليمان بن يسار .

ثم صار علم هؤلاء كلهم الى ثلاثة ، ابن شهاب وبكير بن عبد الله بن  
الاشج المخزومي وأبي الزناد ، وصار علم هؤلاء كلهم الى مالك بن أنس ،  
وكان ابن مهدي يعجبه هذا الاسناد ه . ومن ثم كان مالك وحده يمثل  
علم الجيل الثالث كله ، او علم الحجاز كله ، او مدرسة اهل السنة كلها ،  
ومن ثم جاء الحديث عن ابي هريرة ( ض ) أن رسول الله ( ص ) قال :  
يوشك ان يضرب الناس اكباد الابل في طلب العلم فلا يجدون عالما  
اعلم من عالم المدينة .

وبما ان الحجاز فيه محج المسلمين جميعا ، لقوله تعالى : « واذن  
في الناس بالحج ياتوك رجالا وعلى كل ضامر ياتين من كل فج عميق  
ليشهدوا منافع لهم ويذكروا اسم الله في أيام معلومات » ( 26 - سورة

( الحج ) . وبما ان المدينة هي مجمع السنة ومدرسة علوم القراءان والحديث واجتهادات الصحابة ( ض ) ، وبما ان الاسلام فرض العلم طريقا للعبادة فى الاسلام كان طلبة العلم ياتون الى الحجاز والى المدينة بالخصوص من مختلف الافاق ، التي تدين بالاسلام ، ويأخولون عن علماء الحجاز وعلماء المدينة وخصوصا مالك بن انس ( ض ) ، ثم يصعدون عنها الى بلدانهم ، حاملين معهم علوم اهل المدينة ، لينشروها فى بلدانهم هذه العلوم التي تتمثل فى الاخذ بالسنة ، والمحافظة على الجماعة ، ولكن لم ينجح من طلبة مالك فى فرض مدرسة مالك على اهل بلدهم ويستغنون به عن المذاهب الاخرى مثل ما استطاع ذلك طلبة المغرب ، فهم ذهبوا الى الشرق - وجاؤوا بفقهاء مالك وموطأ مالك ، ومسائل مالك ، فنشروها فى بلدانهم وتجمعوا كلهم فى اطاره ولم يسمحوا لمذهب آخر ان يزاحمه بينهم . وما المراد بالمذهب هنا؟ المذهب لغة الطريق ، ومكان الذهاب ، ثم صار عند الفقهاء حقيقة عرفية فيما ذهب اليه امام من الائمة فى الاحكام الاجتهادية ، ويطلق عند المتأخرين عن ائمة المذاهب على ما به الفتوى من باب اطلاق الشيء على جزئه الاهم ، نحو قوله ( ص ) الحج عرفة ، لان ذلك هو الاهم عند الفقيه المقلد ، والمذهب بهذا المعنى لم يكن موجودا ولا معروفا بين المسلمين بهذا التحديد فى عهد مالك ، وانما هو كان فقيها من الفقهاء ينشر علم السنة وفقه الصحابة والتابعين لله ، واداء لواجب العالم المسلم ، وما كان مالك يدعو احدا ان يتمسك بمنهجه هو فى الاجتهاد ، ولا كان عنده هو منهاج معين فى الاجتهاد وانما كان منهاج فى ذلك منهاج علماء المدينة بدون تخصيص واحد منهم . وانما ذلك حدث بعد ذلك عند ما كانت الظروف فى حاجة لهذا النوع من الالتزام لمنهاج معين فى الفقه والتشريع ، وهذا جاء متأخرا بعد الجيل الرابع .

وايا ما كان فالمفارقة التزموا بمذهب مالك فى وقت مبكر لمصلحة فى توحيد قانون البلاد ، ومن اوائل من اخذ عن مالك والتزم العمل بمذهبه من القيروان هم عبد الله بن فروخ الفارسي ( 115 - 175 ) ، وعلي بن زياد العبسي المتوفى سنة 183 ، وعبد الله بن غانم القاضي ( 128 - 190 ) ، ومن الانلس زياد بن عبد الرحمن شبطون المتوفى سنة 199 ، ومحمد بن بشير القاضي المتوفى سنة 198 ، ويحيى بن يحيى الليثي المتوفى سنة 234 جاء فى تاريخ الفكر الاندلسي رقم 418 ،

ومن الثابت على أى حال أن مذهب مالك ثبت فى الأندلس وعلا أمره فيه على أيام هشام الرضى ( 89 - 179 ) ، بسبب المكانة الرفيعة التى حظى بها يحيى بن يحيى الليثى عنده ، وكان يحيى من تلامذة مالك المباشرين ، وكان متعصبا له ولمذهبه وكان هشام يشاوره فى القضاة ، فلم يكن يولى إلا المالكي ه . . وجاء فى افتتاحية تاريخ ابن القوطية رقم 35 ، قال : ( ومن بين من أسسوا المالكية بالأندلس يحيى بن يحيى الليثى وعيسى بن دينار وشبطو ) ه .

وجاء أيضا فى تاريخ الفكر الأندلسي رقم 194 : ( من أقطاب المالكيين بالأندلس عبد الملك بن حبيب ( 179 - 138 ) رحل الى الشرق ودرس مذهب مالك وصار من أنصاره وكان من أكبر العاملين على تحويل أهل الأندلس الى المالكية ، بعد أن كانوا أوزاعية ) .

ومن أوائل من أسس مذهب مالك فى المغرب الأقصى هم دراس بن اسماعيل الفاسي ، المتوفى سنة 337 هـ ، قال فى النبوغ رقم 1/50 : ( دراس بن اسماعيل الفاسي سمع من شيوخ فاس ورحل الى المشرق فحج وجال فى الأندلس وإفريقية والإسكندرية ولقى فيها علي بن أبي مطر وسمع منه كتاب ابن المواز وحدث به بالقيروان ، سمعه منه أبو محمد بن أبي زيد ، وأبو الحسن القاسبي وغيرهما ، ودخل الأندلس أيضا مجاهدا وتردد بها فى الثغر ، فسمع منه أبو الفرج عبدوس بن خلف ، وخلف بن أبي جعفر ، وبغير واحد ، وهو ممن أدخل مذهب مالك الى المغرب ، وكان الغالب على أهله مذهب الكوفيين ) ، وقال أيضا فى نفس المصدر رقم 1/42 : ( ولعل أهم ما نسجله فى الحياة الفكرية فى هذا العصر - عصر الفتوح - التى قلنا أن تأسيس جامع القرويين كان مبدأ الارتكاز لها فى المغرب ، هو ظهور المذهب المالكي فى الفقه ، وسيطرته على المذهب الكوفي ، الذى كانت له الصولة فى المغرب ، وبالتالي قضاؤه على المذاهب الأخرى ، التى كانت منتشرة فى جهات مختلفة من هذا القطر ، كالمذهب الخارجى فى مارة بني مدرار بسجلماسة ، والبرغواطى فى تامسنا ، والشيعي الذى بدأ ظهوره مع الدولة الإدريسية ، وعلى كل حال فإن مذهب مالك لم يتوطد أمره فى هذا العصر كمذهب فقهي فقط ، ولكن كمقيدة أيضا ، فإن التلازم بين طريقتيه فى الفقه والاعتقاد ، وهى اتباع السنة ونبد الراى والتاويل مما يخفى . ثم قال وقد كان الفضل فى

اتجاه المغرب هذا الاتجاه ، رجال من ابنائه البررة ، تحملوا عن ديارهم ،  
ومساقط نؤوسهم ، وضربوا في طول البلاد الإسلامية وعرضها ، طلبا  
للمزيد من المعرفة ورغبة في سعة الرواية ، ثم عادوا الى وطنهم ،  
يتفجرون علما ويلتهبون اخلاصا ، فأخذ عنهم من لم يستطع الرحلة من  
مواطنيهم ، وقاموا جميعا بتأسيس قواعد العلم ، ومعاهد الدين في  
مختلف انحاء البلاد ، وهؤلاء امثال ابي هرون البصري الذي كان اول من  
ادخل كتاب ابن المواز الى الاندلس ، واحمد بن فتح المليبي ودراس بن  
اسماعيل وأبي جيدة بن احمد والاصيلي وغيرهم ) .

### لماذا اختار المغاربة مذهب مالك دون غيره ؟

اولا : مذهب مالك ليس مذهبا لمالك كما سبق وانما هو مذهب  
المغاربة اختاروا أن يعملوا به في بلدهم كافة بالتدرج ، حتى تم لهم ذلك ،  
فاستمر لهم مذهبا الى الآن ، فنسبته الى مالك لا يخلو من تسامح .  
ثانيا : اختاروه لكونه مذهب اهل السنة وفقه الصحابة والتابعين ،

وهذه الاعتبارات لها قداسة خاصة في نفوس المغاربة ، وايضا علوم  
السنة واجتهادات الصحابة والتابعين هي اصل العلوم الاسلامية كلها ،  
نشأت في المدينة ، ونضجت في المدينة ومنها تفرقت الى جميع الافاق .

ثالثا : ولكون علوم اهل المدينة علوما عملية اكثر منها نظرية ،  
وتتمشى مع الفطرة في بساطة وجد ووضوح ، لا تكلف ولا تعمق ، والمغاربة  
يحبون البساطة والوضوح والجد ، ويكرهون النظريات المتطرفة ،  
والتاويلات المتكلفة دائما وهذه طبيعتهم باستمرار . جاء في جردوة  
المقتبس للحميدي رقم 109 ، قال الحميدي : سمعت ابا عبد الله محمد  
ابن الفرج بن عبد الله - الانصاري يقول : سمعنا ابا محمد عبد الله بن ابي  
زيد يسأل ابا عمر احمد بن محمد بن سعدي المالكي عند وصوله الى  
القيروان من ديار الشرق ، وكان ابو عمر دخل بغداد في حياة ابي بكر ،  
محمد بن عبد الله بن صالح الابهرى ، فقال له يوما - هل حضرت مجالس  
اهل الكلام ؟ فقال بلى ، حضرتهم مرتين ثم تركت مجالسهم ولم أعد اليها ،  
فقال له ابو محمد ولم ؟ فقال اما اول المجلس حضرته فرايت مجلسا قد  
جمع الفرق كلها ، المسلمين من اهل السنة والبدعة ، والكفار من

المجوس - والدهرية والزنادقة واليهود والنصارى وسائر اجناس الكفرة؛ ولكل فرقة رئيس يتكلم على مذهبه ويجادل عنه ، فاذا جاء رئيس من اى فرقة كان قامت الجماعة اليه قياما على اقدامهم حتى يجلس ، فيجلسون بجلوسه ، فاذا غص المجلس بأهله وراوا انه لم يبق لهم أحد ينتظرونه ، قال قائل من الكفار ، قد اجتمعتم للمناظرة ، فلا يحتج علينا المسلمون بكتابتهم ولا بقول نبيهم ، فانا لا نصدق بذلك ولا تقربه ، وانما نتناظر بحجج العقل وما يحتمله النظر والقياس ، فيقولون نعم لك ذلك . قال ابو عمر فلما سمعت ذلك لم أعد الى ذلك المجلس ، ثم قيل لي ، ثم مجلس آخر للكلام ، فذهبت اليه فوجدتهم مثل سيرة اصحابهم سواء فقطعت مجالس اهل الكلام ، فلم أعد اليها ، فقال ابو محمد بن ابي زيد ، ورضى المسلمون بهذا من الفعل والقول ؟ قال ابو عمر : هو الذي شاهدت منهم . فجعل ابو محمد يتعجب من ذلك ، وقال ذهب العلماء وذهبت حرمة الاسلام وحقوقه ، وكيف يبيع المسلمون المناظرة بين المسلمين والكفار ؟ وهذا لا يجوز ان يفعل لاهل البدع الذين هم مسلمون ويقرون بالاسلام ، وبمحمد صلى الله عليه وسلم وانما يدعي من كان على بدعة من منتحلي الاسلام ، الى الرجوع الى السنة والجماعة ، فان رجع قبل منه ، وان ابى ضربت عنقه ، واما الكفار فانما يدعون الى الاسلام ، فان قبلوا كف عنهم وان ابوا وبدلوا الجزية فى موضع يجوز قبولها كف عنهم وقبل منهم ، وامان ان يناظروا على الا يحتج عليهم بكتابتنا ولا بنبينا فهذا لا يجوز ، فانا لله وانا اليه راجعون ) هـ .

وهذه قصة اخرى فيها شيء من هذا المعنى ، جاء فى تاريخ ابن الفرضي رقم 1/169 قال : ( خليل بن عبد الملك بن كليب المعروف بخليل الفضلة من اهل قرطبة ، رحل الى الشرق ، وروى بها كتاب التفسير المنسوب الى الحسن بن ابي الحسن ، من طريق عمرو بن فائد ، رواه عنه يحيى بن السمينه وكان يجاهر بالقدر ، وكان فى بدء امره صديقا لابن وضاح ، ثم لما تبين امره لابن وضاح هجره ، وبعد موت خليل هذا عمد الفقهاء الى كتبه فأحرقوها الا ما كان فيها من كتب المسائل ) هـ .

فهاتان القستان تعطيان لنا موقف المغاربة بجميع أقطاره من أهل البدعة من المسلمين ومن الجدل فى العقيدة وعلم الكلام ، وهم تابعون فى ذلك لمدرسة مالك وأهل السنة ، وموقف هذه المدرسة من الممتزلة

معروف يتمثل في الكراهة والشجابه والنفور ، كما ان موقفها ايضا في التفويض معروف ، فقد قال مالك ( ض ) لما سئل عن قوله تعالى : « الرحمن على العرش استوى » ، الاستواء معلوم ، والكيف مجهول ، والسؤال عنه بدعة ، لذا كان المذهب الاشعري في العقيدة هو مذهب المغاربة كلهم ولم يشذ عنها منهم شاذ . قال السبكي في مفيد النعم ومبيد النقم : ( وهؤلاء الحنفية والشافعية والمالكية - وفضلاء الحنابلة يد واحدة ، كلهم على راي اهل السنة والجماعة ، يدينون بطريقة شيخ السنة ابي الحسن الاشعري ، لا يحيد عنها الا رعا من الحنفية والشافعية لحقوا باهل الاعتزال ، ورعا من الحنابلة لحقوا باهل التجسيم ، وبرأ الله - المالكية فلم ير مالكي الا اشعري العقيدة ) ه .

وهذه طبيعة المغاربة دائما عند ما يعتنقون مذهباً يجتمعون عليه ويتعصبون له ولا يسمحون لمذهب آخر يعيش بجانبه ، وهذه الميزة لا تجدها في المشرق ، هناك تجد في المذهب الحنفي مثلاً سنيا ومعتزليا وجهميا ورافضيا ، كما أنك تجد هناك في البلد الواحد حنفيا وشافعيا وحنبليا ومالكيًا ، اما المغاربة فلا تجد فيهم هذا التشتت في العقيدة او التفرق في المذهب ، ويكفيك هليلا على هذا ان المسجد الاموي بدمشق فيه اربعة محارب على ما يقال ، بينما المسجد الجامع في القيروان وقرطبة وفاس محراب واحد ، وصدق رسول الله حيث قال الفتنة دائما تأتي من الشرق ، وبالمفهوم اذا كانت الفتنة تأتي من الشرق فالوحدة والاتحاد يأتي من الغرب ، فقد جاء في صحيح مسلم رقم 18/31 عن ابن عمر ( ض ) انه سمع رسول الله ( ص ) وهو مستقبل المشرق يقول ( الا ان الفتنة هاهنا ، الا ان الفتنة هاهنا من حيث يطلع قرن الشمس ) .

رابعا : اختاروه لانه يجمع بين الراي والنصوص ، والراي فيه اكثر من النصوص ، فموطأ مالك رحمه الله فيه سبعمائة حديث ، وفيه من المسائل ثلاثة آلاف مسألة كما في الرسالة المستطرفة رقم 13 ، والمغاربة يميلون الى الرواية تبركا ، والى الدراية اقتناعا ، ففقههم جامع بين الرواية والدراية ، جامع بين الرواية لانه فقه انقال ويعتمد الرجال ، وجامع للدراية لانه يميل الى المناقشة والكشف عن الحكمة وحصول الاقتناع .

## مقارنة بين المغاربة والمشاركة في العلوم :

المغاربة يحبون العلوم ، ويحبون السنة أكثر ، لأنها مصدر العلوم ، ويحبونها أكثر لأنها مصدر الدين كله ، لذلك كانوا يقصدون الشرق لاجل الرواية ، والبحث عن العلوم في الرواية ، وهو لهم طبيعة استيعابية للعلوم ، ولا سيما الجديد منها ، ويحبون الاطلاع على كل شيء في مجال المعرفة ، ومن ثم كانوا يجوبون الاقطار الاسلامية كلها للاطلاع على ما فيها ، وتعلم ما فيها ، ونقل ما فيها الى بلادهم ، وفي بلادهم يجلسون الى ما نقلوا ينقلون ويختارون منه ما يلائم ذوقهم وبلادهم ومشاكلهم . مثلاً جاء في تاريخ ابن الغرضي رقم 1/290 : ( ان ابا محمد عبد الله بن ابراهيم بن محمد الاصيلي - من اهل أصيلة بالمغرب الأقصى - ذهب الى قرطبة سنة 342 فسمع بها من احمد بن مطرف واحمد بن سعيد في جماعة ، ثم رحل الى وادي الحجاز فسمع بها من وهب بن مسرة ، ثم رحل الى المشرق سنة 351 ودخل بغداد فسمع من ابي بكر الشافعي و ابي علي الصواف وغيرهما ، وتفقه هناك لمالك ، ثم رجع الى الاندلس فشور وقرأ عليه الناس كتاب البخاري رواية ابي زيد المرزوي وغير ذلك ، وجمع كتابا في اختلاف مالك والشافعي و ابي حنيفة ، سماه « كتاب الدلائل على أمهات المسائل » . وكذلك الاندلس لم يكن فيها عالم نبيه لم يجز في الشرق على مختلف مدارس العلوم ويطلع على ما فيها وينقل المؤلفات الجديدة التي لا زالت لم تعرف في بلاده ، ومن اراد ان يتحقق من ذلك فليطالع « تاريخ العلماء والرواة للعلم بالاندلس » للحافظ ابي الوليد - عبد الله بن محمد بن يوسف الازدي ، المعروف بابن الغرضي المتوفى سنة 403 هـ ، وكذلك علماء القيروان فتلك سنتهم ، كانوا يقصدون الى الشرق ويطوفون في مصر والحجاز والشام والعراق ، يجمعون العلوم ويتلقفون المسائل حتى يملؤوا الوطاب ، ثم يعودون الى بلادهم للتعليم والنشر والتأليف ، مثل ابن غانم وابن فروخ وغيرهما ، فأسد بن الفرات عند ما ذهب من المدينة الى العراق لم يكن ذلك منه بدعا ، بل كان تابعا لسنة من قبله من اهل بلده ، فكان قبله علي بن زياد ذهب الى المدينة وأخذ عن مالك موطأه ، ثم ذهب الى العراق وأخذ عن سفيان مسنده ، فكان اول من أدخل الى المغرب الموطأ وجامع سفيان ، وكذلك ابن غانم قبله ، رحل الى الحجاز والشام والعراق فسمع من مالك وعليه اعتماده ، ومن سفيان الثوري ومن ابي يوسف وغيرهم ، انظر المدارك رقم : ( 3/66/80 ) .

فالمقاربة من هنا يتفوقون على الشرقيين ، لانهم ياخذون عن علماء بلدهم وعن علماء الشرق فى جميع اقطاره ، وينقلون ما يروج فيه فى جميع اقطاره ، من علوم ومذاهب وتآليف الى بلادهم ، ثم يتخذون ما يليق بهم ، فهم لهم علومهم وعلوم اهل الشرق وكتبهم ، وكتب اهل الشرق ، اما اهل الشرق فليس لهم الا ما لهم ، ولا ياتون الى المغرب ياخذون عن علمائه الا نادرا ، وان كان علماء المغرب يفنونهم عن ذلك فهم يذهبون الى الشرق لا لياخذوا فقط ، بل وليعلموا ايضا ، جاء فى ابن الغرضي رقم : 1/374 : ( كان محمد بن عمر بن لبابة يقول سمعت ابا زيد عبد الرحمن بن ابراهيم يقول : خرجت الى المشرق ومعى كتاب البيوع من سماع عيسى بن دينار ، فأرثته ابن الماجشون وقرأته عليه فصلا فصلا ، فكان لا يمر بفصل الا قال احسن والله عيساك ) . وفى المدارك رقم : 4/168 : ( قال أبو الفصن السوسي : كنت ربما أقول لمحمد بن عبد الحكم ، قال سحنون فى هذه المسألة كذا وانكر كذا ، فيتلقى ذلك بالقبول ويعظم سحنون ويترجم عليه ، قال وكان ابن المواز لا يتلقى ذلك بالقبول ويقول لي : من هنا خرج العلم ، ومن عندنا اتاكم العلم ، ومثل هذا من القول ) .

### اثر الشخصية المغربية فى مذهب مالك :

تعريف الشخصية أولا : الشخصية باعتبار الفرد ، هي نظام متكامل من مجموع الخصائص الجسمية والوجدانية والنزوعية والفكرية التي تعين هوية الفرد وتميزه من غيره من الافراد تمييزا بينا ، وما يقال عن الفرد يقال عن الاقليم والقطر وسكان القطر وغير ذلك مما يكون متميزا فى نفسه عن غيره بميزات ذاتية ظاهرة لا يشاركه فيها غيره ، وعليه فالشخصية المغربية اذا راعيناها فى الانسان المغربي باعتبار انه القاسم المشترك تعم جميع المقاربة او فى بيئته ، فلا نجدتها فى الارض ولا فى الانسان ، لان البيئة الريفية غير الجبلية ، وبيئة الغرب غير بيئة الاطلس ، وبيئة المغرب الزراعي غير بيئة المغرب الصحراوي ، وقس عليها غيرها ، فلكل بيئة شخصيتها وطبيعتها وافكارها ومثلها العليا ، وكذلك الناس تابعون لبيئتهم ، فناس الريف غير ناس الجبال ، وناس جبالة غير ناس الخلوط وهكذا ، وكذلك يقال عن مناطق افريقية ومناطق الاندلس فهي اشتات ، فاني نجد الشخصية المغربية التي تعم سائر هذه

الاقطار ؟ ، واذا تركنا الأرض وسكان الأرض ، وراعينا اللغة كقاسم مشترك أو الدين ، فانا نجد حينئذ باعتبار اللغة أن هناك قاسما مشتركا واسعا يشمل المغرب والعرب كلهم ، واذا راعينا الدين فنجده أوسع ، لانه يشمل المغرب والعرب والعجم ، فاني نجد القاسم المشترك الذي يشمل المغاربة كلهم ولا يدخل فيه معهم غيرهم ؟، نجد في التشريع ، فالمغاربة أخذوا في الفقه بالمذهب الذي ينسب الى مالك ، وهو مذهب لهم خاصة ، والتزموا العمل بمقتضاه جميعا بما يشمل المغرب والاندلس والقيروان ، ولا يجاوزهم الى العرب في الاقطار الاخرى ولا الى العجم ، إذن فهذا الاطار هو الذي يجمعهم جميعا ويميزهم عن غيرهم .

طيب وهذا مذهب مالك مذهب أهل السنة فما أثر المغاربة فيه ؟ مذهب أهل السنة يمثلته مالك وغير مالك من أهل الحجاز ، والحجاز قطر فقير في مختلف الوجوه ، يعيش على الكفاف ونقل السلع من الشام الى اليمن أو بالعكس ، تجارة فيها أو اجارة عليها ، ومن هنا يكون الحجاز يشبه أرض الحجاز ، في البساطة والكفاف ، لان الفقه صورة للمجتمع ، والمجتمع صورة للأرض التي يعيش فيها والبيئة التي درج عليها ، وكان بجانبه مذهب العراقيين ، والعراق قطر غني فيه فلاحه وتجارة وصناعة ومال وخصوبة وطبعاً تكون مشاكله موسعة جداً وكثيرة جداً ، فكان فقهه كذلك موسع جداً وكثير جداً ، وهذان هما المذهبان اللذان كانا يتقاسمان العالم الإسلامي في الفقه والتشريع آنذاك ، وبما ان المغاربة دأبهم السياحة كما قلنا للعلم والتحصيل ، كانوا يزورون فيما يزورون الحجاز والعراق معا ، فراوا ما في العراق من فقه وفروع ومن توسع فيهما ، وراوا ما في الحجاز من بساطة وكفاف وقلّة مما لا يتناسب مع أهل العراق وفكروا ان قطرهم وهو المغرب الواسع غني جداً أكثر من العراق وواسع جداً أكثر من العراق ، وراوا ان مشاكله ستكون شبيهة بالعراق ، لانه حيث يكون المجتمع واسعاً تكون مشاكله واسعة ، حسب ما فيه من الفنى والخصوبة والازدحام ، ويكون بالتالي الفقه واسعاً ، فرغبوا في أن يكون الفقه لديهم بقدر يغطي مشاكلهم في مجتمعهم الفنى الواسع ، ولا يكون ذلك الا في فقه العراق ، ولكن فقه العراق مؤسس أكثره على الراي ، والمغاربة اختاروا ان ياخذوا بمذهب أهل السنة ، وليس فيه كثرة الفروع مثل ما هي في فقه العراق ، فعملوا على ان يجمعوا بينهما ، فأخذوا مناهج فقه العراق في المسائل والفروع فسعوا في أن يحصلوا الاجوبة عليها من أهل

السنة ، وهذا ما حصل . رحل أسد بن الفرات الى العراق فتنقه على اصحاب ابي حنيفة ونقل كتبهم فقدم بها مصر ، فتلقى مع طلبة مالك وخصوصا ابن القاسم ( 128 - 191 ) فلأزمهم واخذ عنهم اجوبة مدرسة اهل السنة على فروع مدرسة اهل العراق ، وسجل ذلك كله في كتاب أو في كتب عدة فكانت هذه الكتب هي المدونة الاولى أو المختلطة أو الاسدية فرجع بها الى - القيروان فحصلت له بها رئاسة عظيمة ، فتلقاها فيمن تلقاها منه سحنون بن سعيد التنوخي من اهل القيروان ( 160 - 240 هـ ) ، فعاد بها الى مصر ، وعرضها مرة أخرى على ابن زياد فأقر منها ما أقر وأصلح منها ما أصلح ، واتصل بغير ابن القاسم من اصحاب مالك مثل أشهب وابن وهب وعلي بن زياد وابن مهدي وغيرهم فأخذ عنهم أيضا ، ودون ما أخذه عنهم في مدونته تلك ، فكانت هذه المدونة تشتمل على اكثر من أربعين الف مسألة ، وهي أم فقه المغاربة الى الآن قال الحطاب في مقدمة شرحه على خليل : ( والمدونة أشرف ما ألف في الفقه من الدواوين وهي أصل المذهب وعمدته ) . وهو كذلك ، فالتأليف التي جاءت بعدها لم تخرج عن مهيعها ، بل جمعت مسائلها وأضافت اليها ما فاتها من الاسماع والنوادر والنقول ، عن شيوخ المدونة وعن غير شيوخها .

### ابن يتجلى أثر الشخصية المفريية ؟ :

تجلى الشخصية المفريية هنا في كونهم فرضوا منهاجا ثالثا في الفقه والتشريع غير فقه اهل العراق وغير فقه اهل السنة في المدينة ، بل جامعا بينهما وأخذا محاسنهما معا ، فعلوا ذلك بعد ان اطلعوا على المذهبين معا وتمثلوا محاسنهما معا ، فلم يقعد بهما التقليد للاقتداء بأحدهما ، بل عملوا على انشاء مدرسة ثالثة وهي مدرسة اهل السنة مطعمة برياض العقل العراقي .

ثانيا : تتجلى في كونهم خالفوا منهاج التأليف المتبع في الموطأ الى المنهاج المتبع في المدونة ، فالموطأ يأتي بالحديث ثم بأقوال الصحابة أو غير الصحابة ، ثم بالاجتهاد ان كان هناك اجتهاد ، أما المدونة فشيء آخر تأتي بسؤال من سحنون موجه الى ابن القاسم وهذا هو الغالب ، وقد يوجه الى غيره من اصحاب مالك ، فيجيب عنه بما رواه عن مالك

مباشرة ، او بما بلغه عنه ، او بالاجتهاد عما قال مالك ، او بالاجتهاد من عنده ، ثم بعد ذلك ياتي سحنون ببعض الآثار لتأييد هذا الفقه وقد لا يأتي بشيء ، بحيث صار قطب الرحي في المدونة هو الفقه الفرعي ، لا الآثار بخلاف الموطأ .

والسياق الذي يتبعه سحنون في ذكر المسائل ان يأتي الى مسألة مثل بيع اللحم باللحم ، فيسأل عنها ، ثم يشتق منها فروعاً أخرى ، يسأل عن حكم كل فرع ، بقطع النظر عن كونه يقع او لا يقع ، وانما هو يتبع الامكانات العقلية ، فكل فرع يمكن ان يقع عقلاً يسأل عنه فيخبره بحكمه ، مما جعله يملأ بهذه القضية وحدها وما اشتق منها من فروع صفحتين ونصفاً ، انظرها في الرقم : 4/110 . وهذا المنهاج توبع بعد ذلك عندهم في غير المدونة من التأليف ، فتوسعت الفروع جدا بحيث صار الانتاج اكثر من الاستهلاك ، وحتى نسب الى مالك من تلك الفروع اكثر من سبعين الف مسألة ، وحتى اخذوا من الزمان ياتون في الاستفتاء بمسائل شاذة غريبة لا تقبل الاحتمال وأخرى الوقوع ، مثال ذلك جاء في فتاوي عيش رقم : 2/25 : ( ما قولكم في رجل مات وأحياه الله تعالى هل بانت زوجته ام لا ، واذا قلت بانت فهل يجوز له العقد عليها ام لا ؟ واذا قلتم بالجواز فهل ولو في العدة ؟ وهل تكون معه بعصمة جديدة ؟ وهل حكم المرأة اذا ماتت وأحياها الله تعالى حكم الرجل ام لا كيف الحال ؟ افيدوا الجواب ) .

وجاء فيها في رقم 2/36 : ( ما قولكم فيمن قال لزوجته انت طالق ثلاثا ان لم أطاك هذا اليوم ، وحلف بالطلاق الثلاث لا يقتسل ذلك اليوم ، وحلف بالطلاق الثلاث ان يصلي جميع الصلوات في أوقاتها في ذلك اليوم، فما الحكم ) ؟ .

وهذا النوع من الاستشكالات ليست من وحي الواقع وانما هي من حذقة الفقهاء ، واظهار المقطورة في التمكن من الاستطاعة ان ينقذ الناس من المحارج مهما كانت عاصية .

ثالثا : وفي كونهم ركزوا فروع الفقه كلها على مالك وأصحابه الاخذين عنه عملا على توحيد الاحكام ، ومن هنا أصبح منبع العلم ومنبع السنة ، فكل مسألة رويت عنه لو قيست على كلامه كانت من السنة ، فهو لم يبق عالما واحدا من اهل السنة ، بل صار رمزا للمدرسة كلها ،

فالسائل عند ما يسمع الجواب عن مالك لا يبقى يبحث للحكم عن أصل  
آخر من الكتاب والسنة ، بل يكتفي بقول مالك ، بذلك صار يصدق عليه  
قول صاحب الهمزية فى الامداح النبوية :

انت مصباح كل فضل فما تصدر الا عن ضوءك الاضواء

والحقيقة انه كان يمثل مدرسة اهل السنة جميعا ، فعلم مالك فى  
موطنه هي علوم اهل المدينة ، وأصول مالك هي أصول اهل المدينة كلهم  
لا لمالك وحده أو لفردين أو ثلاثة بل هي المدينة ، ولاجيل اهل المدينة  
كلها من أتباع التابعين الى عصر النبي ( ص ) نفسه ، ومن هنا كان لهذه  
المدرسة قوتها ومن الاعتبار حظها الوافر ، فحينما تنسب المذهب الى  
مالك كماله مجتهد وكأنه عمل فردي ومجهود شخصي تخطيء ، وتحول  
القضية عن معناها الحقيقي - الكلي الى معنى فردي ضعيف ، وهذا لا  
ينبغي ، وهذا من دعاية اصحاب المذاهب المضادة لتفريغ مذهب مالك من  
محتواه الحقيقي ، وجعله مذهبا شخصيا أو مدرسة شخصية ، والشخص  
الواحد مهما أوتي من عبقرية وتحصيل وتوفيق ، فهو شخص واحد لا يعدو  
قدره ، لا يكون اعتبار الجماعة ولا قوة الجماعة من أمثاله ، وهذا ايضا  
مخالف للواقع كما رأينا سابقا ، فمالك ليس له فى موطنه من مجهود الا  
التسجيل والجمع والتنقيح لعلوم اهل المدينة العملية المتفق عليها ، أو  
يعمل بها جل فقائها ، ومجهود العمل على نشر علم اهل المدينة وعمل  
اهل المدينة بين الافاق ، أسترسالا فى أمثال أمر عمر بن عبد العزيز ،  
بنشر علوم السنة المعروفة بين اهل المدينة فى الافاق ، ليجتمع عليها  
الناس كافة ، وليقحم بها اهل الأهواء ، ويرجع بها على اجتهاد الآخرين ،  
من اهل الراى والقياس والاستحسان ، وليطلع المسلمون على علوم  
الصحابة والتابعين وعلوم الخلفاء الراشدين ، فعلم اهل المدينة لها صفة  
الشمول والجماعة ، ولها صفة العمل المستمر ، بحيث لم تكن نظريات  
يحتمل ان يصدقها الواقع أو لا يصدقها ، بل هي أعمال معاشة ثابتة  
مستقرة مرت عليها التجربة وأعطت لها صلاحيتها ، ومن ثم كان لها من  
الوثوق والنورانية والقبول مالم يكن لعلوم بغداد ولا دمشق ولا غيرها من  
الامصار ، لما للمدينة من الخصائص والميزات والاعتبارات التي لا يمكن  
أن تكون لغيرها من العواصم ، وأيضا فهي التي تمثل معالم الشخصية  
الاسلامية سواء فى المنهج التربوي والروحي أو فى المعاملات والاهداف  
التي يعمل لها الاسلام ، والطرق التي يتبعها للوصول الى هذه الغاية ، لان

الاسلام فيها نشأ وترعرع واستقر ، ومنها خرج وانتشر فى الافاق ، ومن ثم امر عمر بن عبد العزيز بجمع علوم اهل المدينة ونشرها فى الافاق تمهيدا لخمّل الناس عليها وتوحيدهم على العمل بها حفاظا على الوحدة وخدمة للنظام والاستقرار .

رابعاً : وفى كونهم امنتقوه والتزموا العمل بمقتضاه وتعصبوا لصالحه ، فلم يسمحوا لمذهب آخر يزاحمه ، فكان كذلك ، رغم ان جميع المذاهب التي ظهرت فى المشرق دخلت الى المغرب الا انها عاشت ضمن بعض الافراد ، اما الجماعة فظلت تعمل - بمذهب مالك وحده . جاء فى المدارك رقم 1/15 : ( واما افريقية وما وراءها من المغرب فقد كان الغالب عليها فى القديم مذهب الكوفيين الى ان دخل علي بن زياد وابن اشرس والبهلول بن راشد ، وبعدهم اسد بن الفرات وغيرهم بمذهب مالك فأخذ به كثير من الناس ولم يزل يفسو الى ان جاء سحنون فغلب فى ايامه ، وفض حلق المخالفين ، واستقر المذهب بعده فى أصحابه ، فشاع عن تلك الاقطار الى وقتنا هذا ) . ثم قال : ( واما اهل الاندلس فكان رأيهم منذ فتحت على رأى الازواصي الى ان رحل الى مالك زياد بن عبد الرحمن وقرعوس بن العباس والغازي بن قيس ومن بعدهم ، فجاؤوا بعلمه وابانوا للناس فضله ، واقتداء الامة به ، فعرف حقه ، ودرس مذهبه، الى ان اخذ امير الاندلس اذ ذاك هشام بن عبد الرحمن بن معاوية الناس جميعا بالتزام مذهب مالك ، وصير القضاء والفتيا عليه ، وذلك فى عشرة السبعين ومائة من الهجرة فى حياة مالك رحمه الله تعالى ، وشيخ المفتين حينئذ صعصعة بن سلام امام الازواصي وراويتهم ، وقد لحق به من اصحاب مالك عدة ، فالتزم الناس بها من يومئذ هذا المذهب ، وحموه بالسيف عن غيره جملة ، وأدخل بها قوم من الرحالين والغرباء شيئاً من مذهب الشافعي وأبي حنيفة وأحمد وداود فلم يمكنوا من نشره فمات بموتهم على اختلاف أزمانهم ، الا من تدين به فى نفسه ممن لا يؤبه لقوله ، على ذلك مضى أمر الاندلس الى وقتنا هذا ) .

خامساً : وفى كونهم توسعوا فى القياس حيث لم يقتصروا على ان جعلوا القياس يكون على اصل فى الكتاب او السنة او الاجماع ، بل اجازوا القياس على القياس ، ومعنى ذلك ان الاصل عندهم لا ينحصر فى الكتاب والسنة والاجماع فقط ، بحيث لا قياس الا عليها ، بل جعلوا

الفرع المقيس عليه يصح ان يكون أصلا عند الضرورة أى عند ما يتعذر وجود أصل فيها يقاس عليه فيجوز القياس على الفرع لعله أخرى جامعة بينه وبين الفرع الجديد ، وهكذا يقال عن الفرع الثالث والرابع الى ما لا نهاية له ، واستدلوا لذلك بأمور معقولة جدا ، وفى هذا يقول ابن رشد فى مقدمته رقم 1/22 : ( القياس هو حمل فرع على الاصل - ننبه الى تعميم هذا الاصل - فى اثبات الحكم او اسقاطه لعله يدل الدليل على ان الحكم انما ثبت فى الاصل - لتلك العلة ، وتكون تلك العلة موجودة فى الفرع ، فيقتضى ذلك الحاقه بالاصل فى اثبات ذلك الحكم فيه ، واذا علم الحكم فى الفرع صار أصلا ، وجاز القياس عليه بعله أخرى مستنبطة منه ، وانما سمي فرعا ما دام مترددا بين الاصلين لم يثبت له الحكم بعد ، وكذلك اذا قيس على ذلك الفرع بعد ان ثبت أصلا بثبوت الحكم فيه فرع آخر بعله مستنبطة منه أيضا ، فثبوت الحكم فيه صار أصلا وجاز القياس عليه الى ما لا نهاية له ، وليس كما يقول بعض من يجهل أن المسائل فروع، وهذا خطأ بين ، اذ الكتاب والسنة والاجماع هي أصول - أدلة الشرع ، فالقياس عليها أولا ، ولا يصح القياس على ما استنبط منها الا بعد تعذر القياس عليها ، فاذا نزلت نازلة ولم توجد لا فى الكتاب ولا فى السنة ولا فيما أجمعت عليه الأمة نضا ولا وجد فى شيء من ذلك كله علة تجمع بينه وبين النازلة ، ووجد ذلك فيما استنبط منها ، او فيما استنبط مما استنبط منها ، وجب القياس على ذلك ) . ثم استدلل لذلك بقانون النظريات مع الضروريات وان النظريات بعضها مبني على بعض حتى ينتهي الامر بها الى الضروري على ترتيب نظام الاقرب فالاقرب ، فقال : ( مثال ذلك فى اني أعلم نفسي ضرورة ، فاذا علمتها ضرورة نظرت هل انا محدث او قديم ، فعلمت بالنظر اني محدث ، وعلمي بانى محدث علم نظري مبني على العلم الضروري ، فاذا علمت اني محدث نظرت هل لي محدث أم لا ، فعلمت بالنظر ان لي محدثا ، فالعلم بأن لي محدثا علم نظري مبني على علم نظري ، فاذا علمت بأن لي محدثا نظرت هل محدثي قديم أو محدث ، فعلمت بالنظر انه قديم ، وهو الله رب العالمين ، فعلمي بأنه قديم علم نظري مبني على علم نظري وهو ان لي محدثا ، والعلم بأن لي محدثا مبني على علم نظري وهو العلم بحدوثي ، والعلم بحدوثي مبني على الضرورة وهو العلم بوجود نفسي ) .

سادسا : وفي كونهم اتخذوا مجلسا للشورى في المحاكم ، مهمته مساعدة القضاة في الكشف عن الحكم المناسب ، او الاجتهاد في تشريع الحكم المناسب ، وهذا ما يضمن للتشريع ان يكون يسير بسير الزمان ، ويتطور بتطور الاحداث . في الابحاث السامية رقم 1/179 : (كانت الدولة الاموية بالاندلس تنتقي لمجلس شوري الاحكام اكابر العلماء ، وتصدر لهم المراسيم بالتعيين ، بحيث لا يقدم لذلك الا من صار له التعيين من الخليفة ) وهذا ما تشهد له القصة التالية : جاء في تاريخ ابن الفرضي رقم 1/323 : ( كان عبد الاعلى بن وهب بن عبد الاعلى مولى قريش من اهل قرطبة يكنى ابا وهب كان مشاورا في الاحكام ، يستفتى مع يحيى بن يحيى وسعيد بن حسان وعبد الملك بن حبيب واصبغ بن خليل ، وكان سبب تقديمه للشورى ان عبد الملك كان كثيرا ما يخالف يحيى بن يحيى وسعيد بن حسان في الشورى فشهدوا عند القاضي مجلس الشورى فسلورهم في قضية ، فافتي فيها يحيى بن يحيى وسعيد ، فخالفهما عبد الملك بن حبيب ، وادعى في خلافهما رواية عن اصبغ بن الفرغ ، وكان عبد الاعلى قد لقي اصبغ بن الفرغ ، فاجتمع به سعيد بن حسان ، فسأله عن المسألة هل تذكر فيها عن اصبغ شيئا ؟ فأخبره فيها عن اصبغ بما وافق قوله وقول يحيى ، وبخلاف قول عبد الملك عن اصبغ ، واستظهر في ذلك بالقرطاس الذي سمع من اصبغ ، فاجتمع سعيد ويحيى على ان يسالا القاضي اعادة الشورى في المسألة واحضار عبد الاعلى ، وبيتا مع عبد الاعلى على ان يكذب عبد الملك بن حبيب اذا خالفهما ، ويستظهر بكتابه ورواياته عن اصبغ ، فأحضرهم القاضي وأعاد الشورى في المسألة وحضر عبد الاعلى بما سألهم ، فافتي يحيى بن يحيى وسعيد بفتياهما الاولى ، وافتي عبد الملك بخلافهما وادعى رواية عن اصبغ ، فكذبه عبد الاعلى وأخرج كتابه وأراه القاضي ، فخرج القاضي على عبد الملك فعنفه وخشن له ، وقال له انما تخالف اصحابك بالهوى ، فرفع عبد الملك بن حبيب الى الامير عبد الرحمن بن الحكم كتابا يشكو فيه يحيى وسعيد بن حسان ، ويفرى بالقاضي وانه شاور عبد الاعلى بدون اذلك ، فانكر الامير ذلك واغلق للقاضي ، ولحقت عبد الاعلى غضاضة ، فرفع الى الامير كتابا يذكر فيه ولاءه ، ومكانه من العلم ويصف رحلته وطلبه ، واستشهد بالقاضي ويحيى بن يحيى وسعيد بن حسان ، فأمر القاضي باحضاره للشورى من ذلك الوقت ) .

سابعا : وفي كونهم وسعوا باب الاجتهاد فعملوا بالسياسة الشرعية التي تعني الحفاظ على مصالح الامة بابعاد ما يضر بها ، وجلب ما ينميها ، ويقوي جبهتها الداخلية بالقضاء على الظلم والامتيازات والاستغلالات وتوفير العدل للجميع ، ومن اسباب الاخاء والتعاون بين المواطنين وجميع ما من شأنه يبعث فيهم الثقة والنشاط والامل ، وهذا باب واسع وفي هذا يقول في التبصر رقم 2/132 : ( القسم الثالث القضاء بالسياسة الشرعية ) ، قال والسياسة نوعان : سياسة - ظالمة فالشرع يحرمها ، وسياسة عادلة تخرج الحق من الظلم وتردع اهل الفساد ويتوصل بها الى المقاصد الشرعية ، فالشرع يوجب المصير اليها ، والاعتماد في اظهار الحق عليها ، وهي باب واسع تضل فيه الافهام ، وتزل فيها الاقدام ، واهماله يضيع الحقوق ويعطل الحدود ويجريء اهل الفساد ، والتوسع فيه يفتح ابواب المظالم الشنيعة ، ويوجب سفك الدماء واخذ الاموال بغير الشريعة ، وبهذا سلكت طائفة فيه مسلك التفريط المذموم فقطعوا النظر عن هذا الباب ، الا فيما قل ، ظنا منهم ان تعاطي ذلك مناف للقواعد الشرعية ، وطائفة سلكت هذا الباب مسلك الافراط ، فتعدوا حدود الله وخرجوا عن قانون الشرع الى انواع الظلم والبدع والسياسة ، وتوهموا ان السياسة الشرعية قاصرة عن سياسة الخلق ومصالحة الامة ، وهو جهل وغلط فاحش ، فقد قال الله عز وجل : « اليوم اكملت لكم دينكم » فدخل في هذا جميع مصالح العباد الدينية والدنيوية على وجه الكمال ، وطائفة توسطت وسلكت مسلك الحق ، وجمعوا بين السياسة - والشرع ، فقمعوا الباطل ونصبوا الشرع والله يهدي من يشاء الى صراط مستقيم .

وفي هذا النص ان السياسة الشرعية تعني الحفاظ على المصالح على وجه الكمال ، والمصالح تختلف حسب الزمان والمكان ، وكذلك الاحكام الشرعية تختلف باختلاف الزمان والمكان ، وهذا امر مسلم لا يجادل فيه الا من جهل طبيعة التطور والثبات ، وشاهد ذلك سياسة النسخ وتخصيص العمومات سواء في الشريعة الواحدة او فيما بين الشرائع المتعددة ، كشريعتنا مع شريعة موسى عليه السلام . ومن السياسة الشرعية التزام العمل بمذهب واحد ، والزام القضاة الحكم بالراجح او المشهور او ما به العمل ، لان ذلك يخدم الوحدة الوطنية والوحدة التشريعية والوحدة الاجتماعية ، واشعار الناس المساواة امام القانون بين السيد والمسود والشريف والوضيع ، فلو كان الحكم

موكولا الى اجتهاد القضاة على اختلاف المذاهب لكانت الفوضى ، والبلبلة وعدم الاستقرار ، ولا سيما فى العصور المتأخرة التي ضعف فيها الوازع الديني واستولى حب المادة على النفوس ، ففي مثل هذه الظروف يجب ان يحمل القضاة على الحكم بفقہ واحد وقانون واحد ومسطرة واحدة،حتى لا يبقى لهم المجال للخوض فيما لا ينبغي .

والتزام العمل بهذا النظام سواء فى القضاء ام فى الفتوى استتبع اشياء اخرى مثل تسجيل الفروع الفقهية التي تكون بها الفتوى على شكل اداري يسجلونها ويحفظونها ويعلمونها لاولادهم كما هي بدون بيان مصادرها التي اشتقت منها فى الكتاب والسنة والاجتهاد بل يقتصرون عليها وعلى تداولها ونشرها مختصرة عن اصولها ، وهنا يتجلى انهم عمليون اكثر منهم نظريين ، واستتبع كذلك العناية بالمقود والوثائق والشروط التي تحفظ الحقوق لاهلها ، وسد الباب فى وجه الانكار والتحايل والتلاعب ، ومن هنا نشأ فقه الوثائق وهو فن مهم ، واشتهر فيه المغاربة اكثر من الشريين كما هو معروف .

واستتبع كذلك تنظيم المسطرة القضائية التي يجب ان يخضع لها الترافع امام المحكمة ، وبيان من هو المدعي ومن هو المدعى عليه ، ومن يطالب بالاثبات اولا فاولا ، وبما ذا يكون الاثبات ، والاجل للاثبات ، وم يكون قدره فى مختلف القضايا ، ومتى يكون الحكم والاعداد قبل الحكم ، وهل يعقب او لا يعقب ؟ وكون الحكم يرفع الخلاف ولا يحل الحرام الخ .

هذه كلها قوانين ومناهج قضائية استنبطت للعمل بها اخذا بالسياسة الشرعية ، ورعاية للمصالح العامة ، توفيرا للعدل وتوحيداً للقضاء ، ومساواة بين الناس امام القانون ، وبثا للامن والاستقرار فى البلاد .

واخيرا اذا تتبعنا المراحل التي قطعها الفقه والتشريع لدى المغاربة نجدها كما يلي :

- التزام التمدذهب بمذهب مالك .
- تطعيم مذهب مالك بمذهب اهل العراق كما هو موجود بالمدونة .

— جمع روايات اخرى لم تسجل في المدونة عن مالك واصحابه ، فكانت الامهات الاخرى ، مثل الواضحة والعتبية ، وهذه هي الامهات الثلاث التي انشأها المغاربة في فقه مالك كما هو معروف .

— ترجيح بين الروايات المختلفة ، وتوحيد ما بينها من وفاق وخلاف ، وبيان أسس الخلاف فيما فيه خلاف ، وعقد المقارنة بين الروايات المختلفة فنشأ عنه قانون المشهور والراجح وما به العمل ، وهذه المرحلة اشتهر فيها ابن رشد والخمي والمازري وابن يونس وغيرهم .

— مرحلة اخيرة الزام القضاة بالعمل بالراجح او المشهور او ما به العمل .

وعن التزام مذهب مالك واطهار اثر الشخصية المغربية في فقه مالك في مؤلفات لهم كانت بمثابة الامهات لما بعدها . قال ابن خلدون في مقدمته رقم 377 : (واهل المغرب جميعا مقلدون لمالك رحمه الله ، وقد كان تلاميذه افترقوا بمصر والعراق ، فكان بالعراق منهم القاضي اسماعيل وطبقته . . وكان بمصر ابن القاسم واشهب ، وابن عبد الحكيم والحرث بن مسكين وطبقتهم ، ورحل من الاندلس عبد الملك بن حبيب فأخذ عن ابن القاسم وطبقته ، وبث مذهب مالك في الاندلس ودون فيه كتاب الواضحة ، ثم دون العتبي من تلامذته كتاب العتبية ، ورحل من افريقية أسد بن الفرات فكتب عن اصحاب ابي حنيفة اولا ثم انتقل الى مذهب مالك وكتب على ابن القاسم في سائر ابواب الفقه ، وجاء الى القيروان بكتابه ، وسمى الاسدية نسبة الى أسد بن الفرات فقرأ بها سحنون على أسد ، ثم ارتحل الى المشرق ولقي ابن القاسم وأخذ عنه ، وعارضه بمسائل - الاسدية فرجع عن كثير منها ، وكتب سحنون مسائلها ودونها ، وأثبت ما رجح عنه ، وكتب لاسد ان يأخذ بكتاب سحنون ، فأنف من ذلك فترك الناس كتابه ، واتبعوا مدونة سحنون على ما كان فيها من اختلاط المسائل في الابواب ، فكانت تسمى المدونة والمختلطة ، وعكف اهل القيروان على هذه المدونة ، واهل الاندلس على الواضحة والعتبية ، ثم اختصر ابن ابي زيد المدونة في كتابه المسمى بالمختصر ، ولخصه ايضا أبو سعيد البرادعي من فقهاء القيروان في كتابه المسمى بالتهذيب ، واعتمده المشيخة من اهل افريقية واخذوا به وتركوا ما سواه ، وكذلك اعتمد اهل الاندلس كتب العتبية وهجروا الواضحة وما سواها ولم تزل علماء المذهب

يتعاهدون هذه الامهات بالشرح والايضاح والجمع ، فكتب اهل افريقية على المدونة ما شاء الله ان يكتبوا مثل ابن يونس واللخمي وابن محرز التونسي وابن بشير وامثالهم ، وكتب اهل الاندلس على العتبية ما شاء الله ان يكتبوا مثل ابن رشد وامثاله ، وجمع ابن ابي زيد جميع ما فى الامهات من المسائل والخلاف والاقوال فى كتاب النوادر ، فاشتمل على جميع اقوال المذهب وفروع الامهات كلها ، ونقل ابن يونس معظمه فى كتابه على المدونة ، وزخرت بحار المذهب المالكي فى الافقين الى انقراض دولة قرطبة والقيروان ، ثم تمسك بهما اهل المغرب بعد ذلك الى ان جاء كتاب ابي عمرو بن الحاجب لخص فيه طرق اهل المذهب فى كل باب اقوالهم فى كل مسألة فجاء كالبرنامج للمذهب هـ. ومختصر ابن الحاجب هذا هو الذي شرحه الشيخ خليل فى توضيحه ثم جمعه فى مختصره المعروف ، فصار هو قطب المالكية شرقا وغربا الى الآن والسلام .

... يجب ان نعمل بالايمان الحقيقي الذي جاء به النبي صلى الله عليه وسلم والقائل : « لن يدخل الجنة احدكم بعمله ، قيل ولا انت يا رسول الله ، قال ، ولا انا الا ان يتضمنني الله برحمته ... »

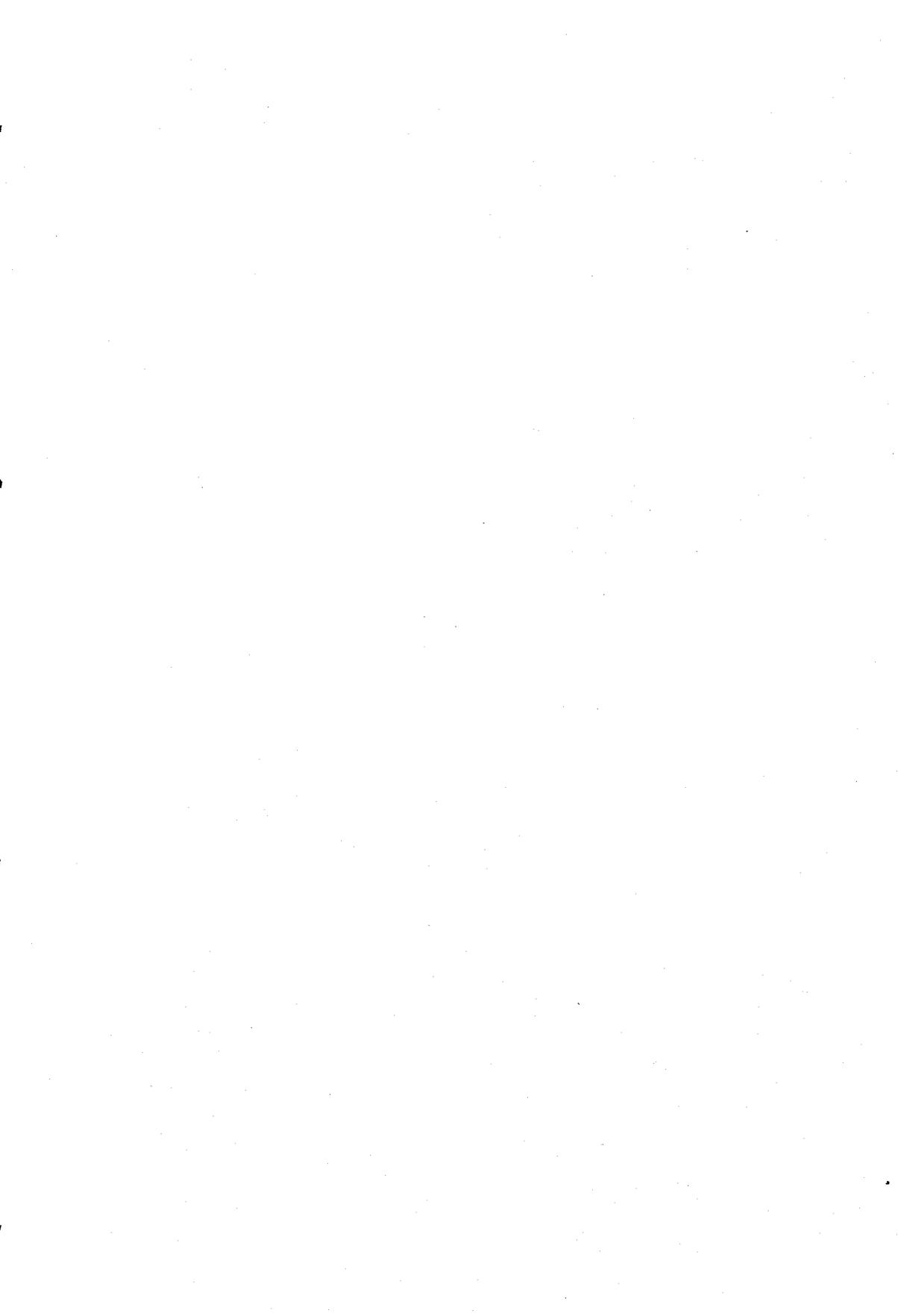
- جلاله الحسن الثاني -



## الاستاذ عبد السلام الانغييري

محصل على دكتوراة في الدراسات الاسلامية العليا  
واجازة في الحقوق ، متخصص في الفقه المالكي  
والقانون الدولي العام .

( المملكة المغربية )



## سيرة الامام مالك مع الخلفاء

للدكتور عبد السلام الادفيسري

ان سيرة الامام مالك السياسية مع الملوك والولاة والامراء لا تقل اهمية عن افكاره الفقهية والحديثية ، لذا فكرت ان اكتب ورقات في هذا الموضوع بالذات .

وتظهر قيمة هذا الموضوع اذا عرفنا العصر الذي عاش فيه الامام مالك ، والخلفاء الذين تدولوا رئاسة المسلمين طيلة حياته الطويلة ، فالامام مالك ازداد سنة 93 هـ على الراجح من الاقوال - وتوفي سنة 179 هـ بالمدينة المنورة وعدد الخلفاء في تلك الفترة من حياته ، ثلاثة عشر خليفة أشهرهم عمر بن عبد العزيز وأبو جعفر المنصور وولده المهدي وحفيده هارون الرشيد ، هؤلاء كانوا يحكمون من الصين شرقا الى فرنسا غربا ، وفي عصرهم أيضا ازدهرت الحضارة العربية الاسلامية ووصلت الى درجة كانت تعتبر في القمة بالنسبة لحضارة العالم في ذلك الوقت ، فقها وفلسفة واقتصادا وطبا وكلاما وادبا الخ . . وفي هاته الفترة التي عاش فيها الامام مالك قضي على اعظم دولة اسلامية كان لها الفضل في فتح العالم القديم ورفع لواء الاسلام الذي كان يرفرف مع نوى لا اله الا الله محمد رسول الله ، واعني بها دولة الامويين . وفي زمانه قامت اعظم دولة علمية لا زلنا نفتخر بحضارتها الى يومنا هذا ، وهي دولة العباسيين ، وفي زمانه انقسمت الدولة الاسلامية الى شرقية وغربية ، حيث تكونت خلافة عباسية في بغداد ، واخرى أموية بالاندلس ، على يد عبد الرحمن الداخل

المضطهد من العباسيين . ثم تكونت أخرى ثالثة بالمغرب على يد المولى ادريس المضطهد هو الآخر من أبناء عمه العباسيين ، ولا شك ان الامام شاهد هؤلاء الخارجين على النظام والمعاملة القاسية التي عوملوا بها ، والضربات التي وجهت اليهم بقسوة ، ودون رحمة ورافة ، ودون تمييز في بعض الاحيان بين صاحب الوزر واهله ، فقد قتل العباسيون الامويين بعد الانتصار عليهم قتالا استثنائيا شمل الصغير والكبير ، انتقاما لما فعله اسلافهم من قبل من الجرائم . بل انهم نبشوا القبور وأخرجوا الجثث من مرقدها وأجلدوها ثم أحرقوها ، وكان أبو جعفر المنصور لا يحترم العهد الذي يعطيه حتى مع أقرب الناس اليه ، كما فعل مع عمه عبد الله بن علي لما خرج عليه الى غير ذلك من الفواجع التي كانت في الفترة التي عاش فيها الامام مالك ( ض ) ، وشاهد بعضها او سمع عنه . فكيف استطاع ان يعيش بين هاته الامواج العاتية التي تعصف بكل من وقف في طريقها ؟ بل كيف استطاع ان يكون مذهبا مطابقا للشريعة الاسلامية السمحة دون ان يغضب السلطة او يقع تنافر منها تجاه آرائه واجتهاداته ، وأخيرا كيف وقف في رد الخلفاء الى جادة الصواب والى التفكير في الخير لاهل المدينة خاصة والمسلمين عامة . بدل التفكير في الانتقام ممن يظن انهم سيشقون عصا الطاعة ؟؟؟ .

هذه الاسئلة قميئة بالجواب عنها ، لانها ستبين لنا شخصية الامام وقدرته العقلية وايمانه القوي بالله وشجاعته النادرة في وقوفه امام كل التيارات التي يمكن ان تعصف بالابرياء ان هي تركت الى هوى الناس .

عندما نرجع الى سيرته مع الخلفاء الذين كان له اتصال بهم ، نجده اتبع معهم الطرق التالية :

1 - طاعة الخلفاء وتجنب العنف مع ارشادهم الى الخير والتشبت بالحياد عندما تقع الاضطرابات .

2 - احترام اهل البيت حبا في الرسول وخوفا من الله مع الصبر على اذيتهم له .

3 - عدم استفلاله الخلفاء في نشر مذهبه وآرائه . هذه اهم النقاط التي سأعالجها في هذا العرض باختصار .

المقصود هنا بالطاعة هو انه كان لا يفكر فى الخروج على الخلفاء الذين استتب لهم الامر وبايعهم الناس جميعا - ما داموا لا يأمرون بمعصية الله تعالى ، اذ لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق عند ذلك . ومن هنا فهو يحاول جرهم الى فعل الخير والى الامر بالمعروف والنهي عن المنكر كلما وجد لذلك سبيلا ، ويعتبر طاعتهم تبعا لطاعة الله ورسوله اقتداء بالآية الكريمة : « يا ايها الذين آمنوا اطيعوا الله واطيعوا الرسول واولي الامر منكم » فالآية الكريمة تشمل الامراء ولكنها تشمل العلماء ايضا حسب بعض التفسيرات، فطاعة الجميع من طاعة الله - ولكن العلماء يلبغون امر الرسول الى الامراء السياسيين ، وهؤلاء ينفذون ما أمر به الرسول ، فالعلماء لا حق لهم فى تطبيق قول الرسول بالقوة ، بل هم يعظون ويرشدون ويعطون الامثلة من انفسهم ويطبقون ما أمر الله به ، فتكون سيرتهم قدوة لغيرهم ، ولا وسيلة اخرى هناك غير هذه ، بينما الخلفاء والامراء او الولاة لهم القوة المادية يلجأون اليها عندما تكون هي الدواء الوحيد للداء الفتاك بالمجتمع . وبذلك فهم يطبقون آراءهم او آراء الفقهاء المطابقة للشريعة الاسلامية . الا ان هاته القوة الموجودة تحت يد السلطة قد تستعمل فى غير موضعها، اما لظفيان من صاحبها واما لوشاية كاذبة قصد بها مختلفها البطش بالبرىء وحده ، او به وبالمتهم معا ، ولهذا نجد الامام مالكا يركز اهتمامه الكامل بوعظ المسؤولين وارشادهم الى ما فيه الخير للمسلمين ، ويحث العلماء على ان يفعلوا مثله حتى يتغلب ويقوى الخير على الشر . فكان يقول : ( حق على كل مسلم او رجل جعل الله فى صدره شيئا من العلم والفقه ان يدخل الى ذي سلطان يأمره بالخير وينهاه عن الشر حتى يتبين دخول العالم من غيره ) وكان يعتبر هذا فضلا عظيما للعلماء ، لذا يجب عليهم ان يزوروا الامراء من اجل ان يكونوا فى صف العلماء ، فيسهل تطبيق ما جاء به محمد ( ص ) ويضرب الامثلة على ذلك من نفسه فيقول بالحرف :

« لولا اني آتيهم ما رايت للنبي ( ص ) ، فى هذه المدينة سنة معمولا بها » وهكذا كان ( ض ) يربط الصلة بينه وبين الامراء للمصلحة العامة لا للمصلحة الخاصة . ولهذا كان له تأثير عليهم وكان كلامه لا يرد عند جميع الخلفاء الذين اتصل بهم ، فها هو يجتمع بالخليفة هارون الرشيد ويحدثه قائلا : « .. ولقد بلغني ان عمر بن الخطاب كان فى فضله وقدمه ينفخ لهم

على الرمادة النار تحت القدر حتى يخرج الدخان من لحيته وقد رضي الناس منكم بدون هذا » وقال لابييه قبله : لما قال له اوصني ، قال اوصيك بتقوى الله وحده والعطف على اهل بلد رسول الله ( ص ) ، وجيرانه ، فانه بلغنا أن رسول الله ( ص ) ، قال : « المدينة بها مهاجري وبها قبيري ومبعثي ، وأهلها جيرانني ، وحقيق على أمتي حفطي في جيرانني ، فمن حفظهم كنت له شهيدا وشفيعا يوم القيامة » وقد أثر هذا الكلام في الخليفة المهدي فقام وطاف بنفسه على دور المدينة واعطاهم العطاء الكثير وقال للإمام : اني محتفظ بوصيتك التي حدثتني بها ، ولئن سلمت ما نبت عنهم ، وهذه الحادثة تبين لنا مدى تاثر الخليفة بكلام الامام ( ض ) وهذا ما شجعه على المضي في طريقه السوي الذي هو طاعة الخلفاء وارشادهم الى الخير ، ولم يكتف بهاته الارشادات والنصائح على المخاطبة وجها لوجه عندما يتصل بهم في مناسبات ، وفي مواسم الحج خاصة ، بل اننا نجده ينصحهم بالمكاتبة ايضا فيرسل اليهم الرسائل تلو الاخرى وهم في أماكنهم الرسمية ، وفيها يوجههم الى ما يقربهم الى الله وينجيهم من عذابه يوم القيامة ، يوم لا ينفع مال ولا بنون ، ولكن عمل صالح يشهد لصاحبه ، كما كان يذكروهم الى ما كان عليه السلف الصالح من الاهتمام بأمور المسلمين ، وبتقوى الله في السر والعلن ، جاء في احدي هاته الرسائل ما يلي :

« ... فعليك بما يقربك الى الله وينجيك منه غدا ، واحذر يوما لا ينجيك فيه الا عملك . وليكن لك أسوة بمن قد مضى من سفك ، وعليك بتقوى الله فقدمه حيث هممت ، وتطلع فيما كتبت به اليك في اوقاتك كلها ، وخذ نفسك بتعاهداها ، والخذ به والتعاهد عليه ، واسأل الله التوفيق والرشاد ان شاء الله تعالى » .

هاته النصائح يقدمها الامام مالك الى الخلفاء مثنيا على خصالهم الحميدة ، ودون ان يطريهم بما ليس فيهم ، وكان يعد الاطراء المخالف للواقع نفاقا وكذبا ويحذر اولي الامر من مغبته ، فقد غضب مرة على البعض اثنى على الوالي في دار مالك وهو حاضر ، فقال مالك : موجها الخطاب للوالي : « اياك أن يفرك هؤلاء بشنائهم عليك ، فان من اثنى عليك وقال فيك من الخير ما ليس فيك أو شك ان يقول فيك من الشر ما ليس فيك فاتق الله في التزكية منك لنفسك ، ولا ترض بها من أحد يقولها لك في وجهك ،

فانك انت اعرف بنفسك منهم ، فانه بلغني ان رجلا مدح عند النبي ( ص )  
فقال : « قطعتم ظهره او عنقه لو سمعها ما أفلح » وقال : ( ص ) « احتوا  
التواب في وجه المداحين » .

وقد اعتاد الخلفاء منه هذا النهج القويم او هذه السيرة الحميدة او  
هذه السياسة الرشيدة والحكيمة ، واقتنعوا في قرارة انفسهم انه لا يريد  
بنلك الا المصلحة لهم وللمسلمين ، ولعل هذا هو السبب في قبول ابي  
جعفر المنصور اعتذاره في عدم اعطاء رايه فيه ، وذلك لما قال له : اى  
الرجال انا ؟ امن ائمة العدل ام من ائمة الجور ؟ فقال مالك : يا امير  
المؤمنين اتوسل اليك بالله تعالى واتشفع اليك بمحمد ( ص ) ، وبقرايتك  
منه الا ما اعفيتني من الكلام في هذا ، فأعفاه « وما اعفاه الا لعلمه علم  
اليقين انه لن يمدحه بالباطل ولن يقول فيه ما ليس فيه ، ولو كان طبعه غير  
هذا لما قبل منه ابو جعفر وهو من هو ، ونجد هارون الرشيد يقبل منه  
اكثر من هذا ، اذ هو يذهب عند مالك الى داره فاذا به يتركه ينتظر ولا  
يأذن له بالدخول ، فاذا سأله عن سبب الابطاء أخبره بأنه توضع للحديث  
لعلمه ان الخليفة انما جاء يريد حديث رسول الله . ذكر القاضي عياض في  
المدارك بسنده : « ان هارون لما حج اتي مالكا فاستأذن عليه فحجبه ثم  
اذن له ، وفي رواية بعضهم : ثم خرج اليه ، فلما دخل عليه قال :  
يا ابا عبد الله : ما حملك على ان ابطأت وقد علمت مكاني ؟ وفي رواية :  
حجبتنا ببابك ، قال : والله يا امير المؤمنين ما زلت على ان توضحات  
وعلمت أنك لا تأتي الا لحديث رسول الله ( ص ) فأجبت ان اتأهب له ،  
فقال : قد علمت ان الله ما رفعك باطلا واخذ بيده ومضى الى قبر النبي  
( ص ) فقال : اخبرني عن مكان ابي بكر وعمر من النبي ( ص ) فقال : كان  
محلها منه في حياته كمحلها منه بعد وفاته » فهذه القصة ثابتة وهي  
تعطينا صورة واضحة عن سخية مالك القوية ، انه عندما يتعلق الامر  
بحديث رسول الله فانه يجعل طلابه سواء حتى ولو كانوا من الخلفاء ،  
والثابت ايضا ان الرشيد ما جاء بنفسه الى دار مالك حتى انقطع امله في  
ان ياتيه مالك الى المقر الموجود فيه ، فقد ارسل اليه ليحدثه بحديث  
رسول الله ، فامتنع لانه يحترم حديث رسول الله ويعتقد ان ذهابه بنفسه  
لاملائه على الخليفة وهو في مكانه فربما ينقص من قيمة الحديث ، ويلح  
بان يكون الخلفاء اولى الناس باعظام حديث رسول الله . قال هاشم بن  
عيسى : لما قدم هارون المدينة دعا مالكا ، فقال له مالك : منكم خرج هذا

العلم وأنتم أولى الناس بأعظامه ، ومن أعظامكم له الا تدعو حملته الى ابوابكم ، قال : قد فعلت يا ابا عبد الله .

وفى رواية أخرى قال له : يا أمير المؤمنين ، ان الله تعالى بعث الينا محمدا ( ص ) وأمر بطاعته واتباع سنته وأن نرعاه حيا او ميتا وقد جعلك فى هذا الموضع لعلك ، فلا تكن انت من وضع العلم فيضعك الله ، الله ، الله ، لقد رأيت من هو ليس فى حسبك ولا نسبك من الموالي وغيرهم يعز هذا العلم ويجله ويوفر حملته ، فانت اخرى ان تجل علم ابن هالك ، ولم يزل يعدد عليه حتى بكى .

فالامام هنا يعلم الخلفاء التواضع واحترام العلم وهذا لا ينقص من قدرهم وقيمتهم ، بل بالعكس يرفعهم ويجطهم فى أعين العامة . وقد ادرك هذا الرشيد من بعد واعترف بانه استفاد من مالك استفادة لم يستفدها من العلماء الذين كانوا يترددون عليه فى داره بالرغم مما هم عليه من العلم العزيز وهذا ما ذكره مالك نفسه قال : ( لما كان بعد مدة قال لي الرشيد : تواضعا لعلك فانتفعنا به ، وتواضع لنا علم سفيان بن عيينة ، فلم ننتفع به وكان ياتيهم فيحدثهم » .

وسفيان بن عيينة احد ائمة الاسلام وهو لا يقل علما وشأنا عن مالك ، قال الامام الشافعي : « لولا مالك وابن عيينة لذهب علم الحجاز » ولكن حسب ما يفهم من كلام الرشيد انه كان لا يعطي لعلمه القيمة التي كان يعطيها مالك لعلمه ، فارتفع هذا عن ذلك . قال مطرف : دخل مالك على هارون فى بعض حجاته فقال له هارون : اريد ان تاتيني تقرا علي كتبك فقال مالك : العلم يؤتى ولا يأتى » .

هذه هي سيرة الامام مالك مع الخلفاء وقد رأينا كيف كانوا يتقبلونها منه بصدر رحب وبكل اعجاب وتقدير . ولكن هل الامام مالك وصل هاته الرفعة وهاته الثقة الكبيرة بسهولة ، ام لم يرتق اليها الا بعد تعب ومحنة ومشقة ؟ .

ان الرجال لا يصلون الى اهدافهم السامية الا بعد تصبب ومحنة وعذاب ، وهذه سنة الله في الارض ، « احسب الناس ان يتركوا ان يقولوا آمنا وهم لا يفتنون ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين » وهذا هو ما وقع بالفعل لمالك ، فهو بالرغم مما وصل اليه من العلم ، وما اتصف به من الاخلاق الرفيعة ، فانه لم ينج من الكائدين الذين كادوا له عيد السلطة في وقت لم تكن فيه الاحوال مستقرة ، لذا لم يشفع له علمه الغزير ولا حياده التام عن المجال السياسي ، فغرب بالسياسات أوجع ضرب ومدت يده حتى انخلت كتفاه ، وكان هذا بأمر من والي المدينة زمن ابي جعفر المنصور ، بتهمة ملفقة وبوشاية كاذبة ، ولم يكتف بضربه ، بل أمر بحمله على بعير والطواف به والتشهير به ، الا ان مالكا كان صبورا وشجاعا في آن واحد ، واستمر على القول بما اعتقده حقا كان يقول اثناء الطواف به ، الا من عرفني فقد عرفني ومن لم يعرفني فانا مالك بن انس بن ابي عامر ، وانا اقول : « طلاق المكروه لا يلزم » طلاق المكروه ليس بشيء ، مما جعل الوالي يأمر بانزاله ويوقف الطواف به ، وما اختلاق طلاق المكروه الا ذريعة للانتقام من اعلم رجل بالمدينة فقد ادعوا ان حديث مالك بحديث طلاق المكروه في وقت فيه ثورة يقصد به الطعن في خلافة العباسيين ، لان الناس بايعوا تحت الاكراه ولذا فهو يوحى اليهم بالخروج على الخليفة وبالتحلل من البيعة المطوقين بها ونصرة محمد بن عبد الله ، النفس الزكية الذي شق عصا الطاعة على ابي جعفر المنصور ، وجدوا هذه الثورة فرصة فكادوا بما شاعوا ، ونحن لا نريد ان نخوض في هذا ، وانما الذي يهمنا هو كيف شق طريقه وسيرته المثلى مع الحكام والخلفاء بالرغم مما حصل له من الظلم ومن الاهانة وهو بريء مما نسب اليه ، وبالرغم مما رآه من مناظر مؤسفة ، فهو الاهانة وهو بريء مما نسب اليه ، وبالرغم مما رآه من مناظر مؤسفة ، فهو رأى رأس محمد النفس الزكية يطاف بها على طبق وسط المدينة قصد ادخال العرب في قلوب سكانها - ثم هو يقول : « لا ينبغي الإقامة بأرض يكون العمل فيها بغير الحق والسلب للسلف » .

ان وجود كل هاته الاحداث لم تحول الامام عن سيرته الرشيدة وسياسته الحكيمة مع اولي الامر ، وهي سياسة الامر بالمعروف والنهي

عن المنكر ، وعدم مقابلة العنف بمثله ، عملا بقول الله تعالى : « ادفع بالتي هي احسن ، فاذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم » الآية . وهاته السياسة جلبت المنفعة لسكان المدينة قبل كل شيء ، اننا نجده بمجرد ان افاق من غشيته التي اصابته اثناء الضرب ، قال : اني جعلت ضاربي في حل مما فعل بي ، ذكر القاضي عياض في الشفا : ان مالكا رحمه الله لما ضربه جعفر بن سليمان ونال منه ما نال وحمل مغشيا عليه ، دخل عليه الناس فافاق فقال : « اشهدكم اني جعلت ضاربي في حل » فسئل بعد ذلك فقال : « خفت ان أموت فألقى النبي ( ص ) فأستحيي منه ان يدخل بعض آله النار بسببي » ، وهذا دليل على أنه كان يحب أهل البيت ويصبر لهفواتهم ولا يريد الانتقام منهم ، فهو متسامح معهم ، وسياسة التسامح هاته هي التي قضت على الامكاند التي هياها له حصومه ، فلم يجدوا بعد ذلك مبررا آخر يزحزح مالكا عن نهجه القويم الذي سار فيه ، ولذا نجد الذين تكلموا في محنة مالك يقولون : « فما زال مالك بعد هذا الضرب في رفعة من الناس وعلو من امره حتى كأنما كانت تلك السياط حليا حلي بها ، ولا شك ان الخليفة نفسه اقتنع ببراءة مالك وتأكد من ان سيرته مبنية على جلب الخير للناس جميعا ، وان الشر بعيد كل البعد عن نهجه القويم ، وهذا ما يفسر لنا الموقف الذي اختاره أبو جعفر المنصور عندما اتصل به ، حيث اعتذر له عما حصل من والي المدينة ، ونفى ان يكون له علم بذلك ، وعرض عليه القصاص منه ، ولكن مالكا نظرا لحبه لاهل بيت رسول الله امتنع امتناعا كليا ، مما جعله يكبر في عين الخليفة وزاد تيقنا وتأكيدا من أن ما قيل فيه هو مجرد وشاية كاذبة فقط ، لذا نجده اعتذر لمالك اعتذارا قويا اعتذر بالايامن المغلظة وهاته ليست من عادة الخلفاء ، قال في اعتذاره :

« والله الذي لا اله الا هو ما امرت بالذي كان ولا علمته ، انه لا يزال اهل الحرمين ، بخير ما كنت بين اظهرهم واني أخالك امانا لهم من عذاب . وانهم اسرع الناس الى الفتن ، وقد امرت بعد والله ان يؤتي به من المدينة الى العراق على قتب ، وامرت بضيق محبسه والاستبلاء في امتهانسه ، فقال مالك : قد عفوت عنه لقرابته من رسول الله ( ص ) وفي رواية اخرى ، ان المنصور اقاده من جعفر فقال له : اعوذ بالله ، والله ما ارتفع منها سوط على جسمي الا وقد جعلته في حل لقرابته من رسول الله (ص) فالعفو على الوالي جاء من كونه من قرابة رسول الله ، وقد سر الخليفة

بهذا الموقف مما جملة يعفو عن أهل المدينة مراعاة لمقام امامهم وقد كانت الكراهية اشتعلت بين أبي جعفر وسكان المدينة اثر خروج محمد بن هبذ الله عليه ، ولما قتل ، عاملهم أبو جعفر معاملة سيئة اذ قطع عنهم الطعام والؤون والبسهم لباس الجوع والخوف ، الخ . فالثقة كانت مفقودة بينهم وبين الخليفة ، والامام مالك اراد ان يعيد الثقة الى مجراها الطبيعي ، واهذا قال له ابو جعفر : اني اخالك امانا لهم من عذاب ، وانهم اسرع الناس الى الفتن ، ولعل الخليفة تيقن من مالك بانه لا يريد الفتن ويكرهها وينزه نفسه عن الاشتراك فيها او التحريض عليها بينما شيخه محمد بن هرمز تورط فيها رغم شيخوخته ، خرج مع محمد النفس الزكية ولما قيل له : والله ما فيك شيء قال : قد علمت ولكن يراني جاهل فيقتدى بي ، ولما وقع الانهزام وجيء به الى عيسى بن موسى القائد المنتصر وساله عن سبب خروجه على الخليفة بالرغم من كبر سنه وعلمه وفقهه ، فأجاب : كانت فتنة شملت الناس فشملتنا وعفا عنه .

فشيخ مالك ذهب مع الفتنة ولكن مالكا لم ينخدع لماذا ؟ لانه يعتقد بأن الخير لا ياتي بالوقوف في وجوه الخلفاء بالسيف بمقدار ما يأمي بالمحبة والصبر مع اقناعهم بالرجوع الى الطريق المستقيم ، ولكن اصحاب السلطة لا يقتنعون بسهولة ولا يقبلون نصيحة كل احد ، الا اذا تيقنوا من نيته الصالحة مع حبه لهم ، وهذا هو ما تحقق في الامام مالك ولمسوه بعد محنته الا اننا لا نفهم من هذا ان مالكا كان يخضع للخلفاء خضوعا مطلقا حتى ولو كان الامر يتعلق بكتمان علم رسول الله ، كلا ابدا ، انه يسير في خط واضح في هذه الناحية وينفذ صبره ولا يقبل من اى كان ان يتدخل فيه ، ولهذا نجده وقف وقفة الاسد في وجه هارون الرشيد لما ارسل اليه يطلب منه الا يحدث بحديث معاوية المتعلق بالسفرجل ، فقد اعتبر مالك هذا تدخلا في الدين وكتمانا لحديث رسول الله فاسرع ينادي على الناس ويجهر بالحديث ويحتج على التدخل السافر من طرف هارون في هذه القضية وتلا قوله تعالى : « ان الذين يكتُمون ما انزلنا من البينات والهدى من بعد ما بيناه للناس في الكتاب اولئك يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون » .

ثم قال : حدثني نافع عن ابن عمر قال : كنت عند رسول الله ( ص ) فأهدى اليه سفرجل فأعطى أصحابه واحدة واحدة وأعطى معاوية ثلاثا

سفرجات وقال له : القني بهن في الجنة . فهنا خالف مالك رأى الخليفة صراحة ، ولم يصبر كعادته ، وإنما أعلن ذلك على الملا بولم يقدر العواقب لان ذلك يتعلق بكتمان العلم والله حرم هذا ، ومالك لا يستطيع تحمل وزره امام الله فرفض رفضا باتا مما جعل هارون يتراجع عن رأيه ويعدل عن مطله لتيقنه ان التعادي في ذلك لا يجدي شيئا مع مالك الذي قال فيه يحيى بن معين ، كان مالك من حجج الله على خلقه .

### 3 - عدم استغلال مالك للخلفاء :

ثم اننا نجد مالكا يتجنب استغلال الخلفاء بالرغم مما وصلت درجته عندهم فلم يستغلهم من أجل ان ينصر آراءه او ينتقم من عالم يعارضه ، ولهذا لم يستغل طلب الخليفة ابي جعفر عندما اراد ان يجعل كتابه الموطأ مرجعا للحكم عند الناس جميعا بطريق الالزام ، بل رفض ولم يقبل نهائيا . جاء في الانتقاء لابن عبد البر : قال مالك بن أنس : « لما حج ابو جعفر المنصور دعاني فدخلت عليه فحادثته ، وسألني فأجبتة ، فقال : اني عزم ان أمر بكتبك هذه التي وضعت - يعني الموطأ - فتنسخ نسخا ثم ابعث الى كل مصر من امصار المسلمين منها نسخة وأمرهم ان يعملوا بما جاء فيها ولا يتعدوها الى غيرها ويدعوا ما سوى ذلك من هذا العلم المحدث . فاني رايت اصل العلم رواية ، رواية اهل المدينة وعلتهم . فقلت : يا امير المؤمنين : لا تفعل هذا ، فان الناس قد سبقت اليهم اقاويل وسمعوا احاديث ورووا روايات واخذ كل قوم بما سبق اليهم وعملوا به ودأبوا به من اختلاف اصحاب رسول الله ( ص ) وغيرهم ، وان ردهم عما اعتقدوه شديد ، فدع الناس وما هم عليه ، وما اختار اهل كل بلد لانفسهم ، فقال : لعمرى لو طاوعتني على ذلك لامرت به » وهذا الموقف الذي وقفه الامام مهم جدا لانه ابان عن سريره النقية وسياسته الرشيدة وضميره الحي وعلو همته وترفعه عما يتسابق الناس اليه من حب استغلال نفوذ ذوي السلطة في المصلحة الخاصة العلمية وغيرها .

واذا فكرنا في الامر جليا فربما وجدنا انتشار مذهب الامام مالك وبقاءه يرجع الى ان صاحبه لم يحاول الزام الناس به عن طريق السلطة الحاكمة ، فلو انه طاوع ابا جعفر والزم الناس بكتابه الموطأ فربما جاء خليفة آخر بعده وقضى على الفكرة اذا رأى كثرة المعارضين تقريبا اليهم

وتزلفا ، كما وقع مثلا للمعتزلة الذين كانوا يودون ان يكون الاعتزال  
الذهب الرسمي للدولة ، ولما احتضنته الدولة بالفعل استغلوها ، وأباحوا  
دماء المعارضين وملأوا السجون بهم ، وما ان مات المامون والعتصم  
اللدان كانا يناصرانهم حتى انقلبت الدائرة عليهم - حيث جاء المتوكل  
وابطل مذهب الاعتزال واضطهد علماءه ، فأمر نائبه بمصر ان يحلق لحية  
قاضي القضاة بمصر ابي بكر محمد بن ابي الليث ، وأن يضربه ويطوف به  
على حمار ، ثم عزله وولى مكانه الحارث بن مسكين من أصحاب مالك .

وهكذا كان استغلالهم للسلطة في فرض آرائهم وبالإلا عليهم . والمتوكل  
قضى عليهم تقريبا الى عامة الناس الذين يؤيدون مذهب المحدثين ولذا  
قال فيه البحري :

يا باني المجيد الذي      قد كان قسوس فانهمدم  
اسلم لدين محمد      فاذا سلمت فقد سلم  
لنا الهدى بعد العمى      بك والغنى بعد العدم

الى آخر ما جاء في قصيدة مدحه بها بالمناسبة المذكورة .

اتيت بهذا المثال المتعلق بالمعتزلة - لقرب عهدهم من مالك ولكون  
المامون من تلامذة مالك ، والا فالأمثلة كثيرة في التاريخ من هذا النوع .

اذن فالامام مالك خيرا فعل عندما امتنع من تلبية رغبة ابي جعفر في  
فرض الموطأ على الناس ، وبذلك ترك الحرية للعلماء في الاجتهاد  
والاستنباط واختيار الفتوى ، وبقي الثناء على مالك من جميع العلماء  
والمفكرين قديما وحديثا .

وهكذا نجد الامام يراقب سيرته مع الخلفاء ويهتم بسياسته معهم ،  
وقد اكتسب تجربة في هذا الشأن وكان يوصي بها احياءه لا سيما ممن  
يرى فيهم النجاة والنبوغ في العلم والذين يتنبأ لهم بقيادة العلم بعده ،  
واحسن مثقال على هذا نصيحته لتلميذه الشافعي لما أراد ان يودعه  
ويرحل عنه ، فانه اعطاه زبدة تجاربه ومنها السيرة مع ذوي السلطان جاء  
في الوصية :

« لا تسكن الريف فيضيع علمك واكتسب الدرهم ، ولا تكن عالة على الناس ، واتخذ ذا جاه ظهرا لثلاث مستخف بك العامة ، ولا تدخل على ذي السلطنة الا وعنده من يعرفك ، واذا جلست مع كبير فليكن بينك وبينه فسحة لثلاث ياتي اليه من هو اقرب منك فيدنيه ويبعدك فيحصل في نفسك شيء .. » .

وهكذا نجد الامام مالكا يعطي الاهمية للسيرة مع ذوي السلطان ، ويعتبر الاتصال والاختلاط بهم ضرورين لما يترتب على ذلك من المصلحة العامة ، ولكن هذا الاتصال يحتاج الى حذر شديد حتى لا يكون هو السبب في النفور والانتقطاع وجر المآسي وذاك ليس من مصلحة الامة في شيء .

وعلى كل حال ، فالامام مالك بعلمه وسياسته وسيرته النقية مع الخلفاء اكتسب التقدير من الجميع ، واحترمه العلماء واحبه العامة وهابه الناس احتراماً له لا رهبة منه ، وفي هذا يقول الامام الشافعي : ما هبت أحداً قط هيبتني من مالك بن انس ، وقال أشهب بن عبد العزيز تلميذ مالك : « رأيت ابا حنيفة بين يدي مالك كالصبي بين يدي أبيه » .

وبعد : فهذه هي سيرة امامنا مالك بن انس مع الخلفاء وذوي السلطة والغرض منها هو الاستفادة قدر الامكان من اخلاقه واخلاقهم ، فالقاء الاضواء على السلف الصالح ضروري لنعرف الكيفية التي كانوا يعالجون بها الامور الصعبة وبذلك نطلع على حكمتهم وصبرهم ولباقتهم ، ولنحاول نحن ان نأخذ بعض اوصافهم مراعين في ذلك الاسلام والمسلمين كما كانوا هم يفعلون ، وفي ذلك خير وأي خير وفي ذلك فليتنافس المتنافسون .

### الكتب التي رجعت اليها :

- 1 - التمهيد لابن عبد البر .
- 2 - ترتيب المدارك للقاضي عياض .

- 3 - الانتقاء لابن عبد البر .
- 4 - الشفا للقاضي عياض .
- 5 - اعلام الموقعين لابن قيم الجوزية .
- 6 - مالك بن انس لعبد الحليم الجندي .
- 7 - تنوير الحوالك للسيوطي .
- 8 - الطبقات لابن سعد .
- 9 - الكامل لابن الاثير .
- 10 - مالك لابي زهرة .
- 11 - مالك بن انس للخولي .
- 12 - ضحى الاسلام لاحمد امين .

ومن يبغ الوصاة فان عندي  
وصاة للكهول وللشباب  
خذوا عن مالك وعن ابن عون  
ولا تردوا احاديث ابن داب

- ابن منادر -



# المناقشات



**مناقشة الدكتور فاروق النبهان لبحوث الاساتذة :  
الشيخ المكي الناصري، الدكتور عبد الهادي التازي ، عبد العزيز بنعبد الله**

اجد من واجبي ان اشكر الاخوة الاساتذة الذين تفضلوا بتقديم  
ابحاثهم . وقد كانت الابحاث فعلا في المستوى الجيد الممتاز الموضوعي ،  
وأود ان اشير الى التكامل الذي لاحظته ، ربما عن طريق الصدفة ، بين  
الابحاث الثلاثة الاولى ، التي تقدم بها كل من الاستاذ الناصري ، والاستاذ  
الدكتور التازي ، والدكتور الاستاذ بنعبد الله .

في الحقيقة فان الموضوعات كانت جيدة وهامة ، ودراسة وثائقية  
حول موضوعات تتعلق فعلا بالمذهب المالكي في المغرب . الدراسة التي  
تفضل بها الاستاذ الجليل السيد المكي الناصري ، طرح فيها دراسة قيمة  
عن الظروف التي رافقت انتشار المذهب في المغرب ، عن الاسباب  
والاعتبارات التي دعت المغرب الى اختيار المذهب المالكي ، اعتبارات  
ادبية وظرفية ومصاحفية وعقائدية ، وكان موضوعيا في اختيار هذه  
العوامل ، وكنت اتوسع ، وآمل في المستقبل ان يقدم لنا الاستاذ الجليل  
دراسة أوسع حول هذه النقاط الجديدة ، وأعتقد انها لم تبحث من قبل ،  
وبخاصة الاعتبارات الادبية والموضوعية ، قد تكون الاعتبارات الموضوعية  
قد درست نظرا لانها ترتبط بصفات ذاتية في المذهب المالكي كارتباطه  
او كاعتماده على الجانب العلمي او أسلوبه في الدراسة وهو املاء الاملاء  
على تلاميذه ، اما النقاط الاخرى فهي نقاط جديدة لم تبحث ، ونتمنى ان

يقدم لنا الاستاذ الجليل فى المستقبل دراسات موسعة ، وبذلك سيستطيع ان يخدم الفكر الاسلامي ، والمذهب المالكي خدمة جليلة . النقطة التي تفضل بها ايضا عن المذهب المالكي يمثل اختيارا قوميا وتراثا قوميا بالنسبة للمغرب ، لم يفصل لنا هذا الجانب ، ثم جاء الدكتور التازي ، فوضح لنا من خلال الوثائق هذه الحقيقة ، وهنا أقول ، هذا هو التكامل فى الموضوع ، الدكتور التازي كان موسوعيا ووثائقيًا فى دراسته لانه قدم لنا اثر المذهب المالكي فى الحياة المغربية الرسمية والشعبية ، وقدم لنا الوثائق سواء من خلال التطبيقات العملية أو من خلال اللباس الذي يلبسه المغاربة ، وكنت أتمنى ان يقدم لنا عن نشأة هذا اللباس المغربي ، هل هناك سببا معنا لاختيار اللون الابيض ؟ هل هناك اثرا ورواية تتعلق بهذا الموضوع ايضا ؟ هذا أضمه الى ما ذكره الاستاذ الناصري من أن هناك تكاملا فى المبحث الاول والثاني . والنقطة الاخرى التي ذكرها الاستاذ الناصري وهي انشاء دار الفقه الحسنية ، وهذا شيء نشكره عليه ، اقول نحن انشأنا قسما للفقه الاسلامي بدار الحديث الحسنية بحيث أصبح الشخص يتخصص فيها فى علوم القرآن والحديث ، والقسم الآخر يتخصص فيه فى الفقه الاسلامي وأصوله ، نظرا للتكامل بين الدراستين ، لا أعتقد ان انشاء دار ودار ، ربما الدار تستطيع ان تستوعب العلوم الاسلامية المختلفة، سواء ما يتعلق بعلوم القرآن والحديث ، أو ما يتعلق بالفقه الاسلامي ، ولكن لو انشأت - طبعًا - دار للفقه الاسلامي فهذا مزيد من الخير ، ونتمنى ان يكون كما تفضل الاستاذ الناصري . الدكتور التازي قدم لنا دراسة عن شعبية المذهب المالكي فى المغرب ، من أين ابتدأت هذه الشعبية ؟

هنا نجد الاستاذ بنعبد الله يجيبنا عن هذا التساؤل ، فيطرح الصراع الذي قام بين المرابطين ، وقبل المرابطين الفاطميين الذين أرادوا ان ينشروا المذهب الشيعي فى المغرب ، ورفضه الشعب المغربي واعتبر ان المذهب المالكي يمثل الاصاله ، وأصاله الفكر الاسلامي ، وبالتالي فقد تطلعت الجماهير المغربية والشعب المغربي بالتراث أو بالمذهب المالكي على الصعيد الجماهيري ، لانه نتيجة الصراع الكبير الذي كان الفاطميون يحاولون به ان يفرضوا المذهب الشيعي ، ورفض المغرب المذهب الشيعي والتزم بالمذهب المالكي ، وتعرض علماء المغرب لاضطهاد فى

عصر الامويين ، وفي المرحلة الاولى من عصر المرابطين ، ولكن المذهب المالكي استطاع ان يصمد ، واستطاع ان ينتصر ، وظل المذهب المالكي هو المذهب المعتمد ، وقد اوضح لنا الاستاذ بنعبد الله في بحث قيم اعتمد فيه على مراجع كثيرة ، وتحدث عن موضوعات كثيرة ، عن نشأة المذهب المالكي في المغرب ، تحدث لنا عن المدونة ، وأصل المدونة الاسدية التي كتبها أسد بن الفرات ثم ، وبعد ذلك ، كيف ان هذه المدونة كانت نتاج تلاقي المدرسة العراقية مع الفقه المالكي ، لان الفروع كتبت على الطريقة العراقية وهي وفقا لمدرسة الرأي في العراق ، فكان الفقه المالكي هو فقه النوازل ، والفقه العراقي هو فقه فرضي ، بمعنى يفترضون اشياء ، فجاء أسد بن الفرات ، وكتب هذه الفروع على الطريقة العراقية، ثم طلب من أبي القاسم ان يجيبه عن رأي المذهب المالكي في هذه الفروع العراقية ، وبالتالي استطاع ان تكون المدونة في الصورة المتقدمة مسن الاسدية التي كتبها أسد بن الفرات ، ثم جاء سحنون فطور هذه المدونة وأدخل عليها تقسيما جديدا وتبويبا جديدا حتى أصبحت من اهم المراجع .

هنا اؤكد الشكر الجزيل للاستاذ عبد العزيز بنعبد الله الذي قدم لنا هذه الدراسة المتكاملة ، وامننى ان تكون هذه الجوانب الثلاثة المتكاملة سواء في نشأة المذهب المغربي ، او في الظروف التي دعت المغرب لكي يختار المذهب المالكي ، او في جانب التطبيقات العملية التي اوردها الدكتور التازي، اتمنى ان تكون هذه الدراسة متكاملة، وقيمة، واعتقد اننا نستطيع ان نخدم الفكر الاسلامي والمذهب المالكي بصورة خاصة ، نخدمه خدمة جلية من خلال تقديم بحث قيم متكامل حول هذا الموضوع ، وشكرا لكم .

العلماء ورثة الانبياء

## تدخل الدكتور محمد علوي المالكي

بسم الله الرحمن الرحيم

والصلاة والسلام على أشرف المرسلين ، سيدنا ومولانا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين

وبعد ، فقد استمعنا واستمتعنا بهذه البحوث الرائعة ، وخصوصا ما قدمه ساداتنا من الباحثين الافاضل من علماء المغرب ، عن دراساتهم حول مذهب الامام مالك وانتشاره في المغرب ، وقد استفدنا كثيرا من هذه البحوث الدقيقة الرائعة .

وأحب ان أشير الى بعض المسائل التي ليست في الحقيقة انتقادات ، وانما هي ملاحظات خفيفة ، او قد تكون استفسارات مني .

فمن ما أشار اليه فضيلة أستاذنا الشيخ المكي الناصري من انه ليس للدولة أي تأثير على انتشار مذهب الامام مالك بالمغرب ، فانا أقول لعل هذا يكون ابتداء ، يعني ان هذا يكون مسلما ابتداء ، لكن أظن أنه لا معارض في ان للدولة تأثيرا كبيرا على استمرار المذهب ، أما في ابتداء تقبله فقد يكون هذا مسلما ، اما في استمراره وانتشاره وترسيخه ، فقد يكون للدولة تأثير كما هو الواقع في الشرق ، اذ أنه لما كانت الدولة العثمانية، كان المذهب الحنفي مسيطرا على المحاكم ، وعلى المدارس ، وعلى عامة الشعب ، حتى ان كثيرا من الشافعيين ، ومن بيوت اشتهرت بالمذهب

الشافعي او بالمذهب المالكي ، انقلبت بتأثير الدراسة الى بيوت حنيفة ، فأخذوا المذهب الحنفي وانفصلوا عن مذهبهم الاصلي الذي هو الشافعي او المذهب المالكي ، بتأثير الدولة ، وهذا لا شيء فيه ، بل هو قد يكون من نعم الله سبحانه وتعالى ، وايضا احب ان أشير الى ما ذكره بعض اخواننا من ان تقبل مذهب ابي حنيفة بالمغرب ناتج عن كونه يعتمد على السنة ، واقول بأن هذا ليس خاصا بمذهب الامام ابي حنيفة ، وهذه العبارة قد تعطي اشارة بأن مذهبا آخر غير مذهب ابي حنيفة لا يعتمد على السنة ، والواقع ان مذهب الامام ابي حنيفة ومذهب الامام مالك ومذهب الامام ابي حنبل ، كل هذه المذاهب سنية كما هو واقع ، فالعبارة - هذه - قد تحدث اشارة او تحدث مفهوما عكسيا كما هو ظاهر عندنا في الانتقاد على مذهب الامام ابي حنيفة ، حتى ان بعضهم اسقطه من دائرة الائمة ، وهذه - بلا شك - فرية او انها كلمة حق باطله - والعباد بالله - فالامام ابو حنيفة ركن من اركان السنة ، وكما اشار الى ذلك احد المتحدثين فان الامام مالك - بالعكس - روى احاديث كثيرة ، وجمعت له احاديث ، وروى مسانيد ابي حنيفة التي جمعها الخوارزمي وهي مشهورة ، والامام ابو حنيفة ، يعتمد كثيرا على الاحاديث ، بل ويقدم كثيرا من الاحاديث الضعيفة او المرسله على آراء الرجال، كما هو معروف عنه ، كذلك اشار الاستاذ التازي الى شعبية المغرب في ارتباطه بالمذهب المالكي ، وذلك بظهور بعض العبارات الشائعة كقولهم : « لا سلام على طعام » وكاعتنائهم بلبس الثياب البيض ، وهذا في الحقيقة منصوص عليه في المذهب المالكي ، او اقول هو من عين السنة النبوية ، فقد اشارت السنة النبوية المروية عن سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، بكراهة السلام على من يتناول الطعام ، او من يستمع الى الدرس ، او من يستمع الى خطبة ، وبتأكيد لبس الثياب البيض ، وبتأكيد دفن الموتى فيها ، ولبسها يوم الجمعة ، كل هذا وارد عن سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فهو سنة نبوية اظهرها الامام مالك ، وهي من السنن المشهورة عن سيدنا رسول الله صلوات الله وسلامه عليه ، كذلك ، ذكر بعض اخواننا عمل اهل المدينة ، وانه مقدم على الحديث او السنة ، فأقول ان

القول بأن أصول الامام مالك ، الكتاب والسنة وعمل أهل المدينة ، لعله يكون فيه أجحاف او جنافية على مذهب الامام مالك ، فتفصيلنا بين عمل أهل المدينة وبين السنة ، يوقنا فى كثير من الإيهام ، فأنا أرى ان يقال بأن أصول مذهب الامام مالك فى الكتاب والسنة ، والسنة تنقسم الى قسمين : عمل أهل المدينة ، والاحاديث المروية ، فان جعل عمل أهل المدينة فى الدرجة الثالثة بعد السنة ، قد يعطى ايضا مفهوما عكسيا بأن عمل أهل المدينة غير السنة ، مع ان عمل أهل المدينة احاديث مروية غير أنها مطبقة ، قد لا تكون لها نصوص قولية موجودة ، لكنها أفعال منتشرة بين الناس منقولة ، فهي سنة تطبيقية موجودة ، لا توجد لها أقوال تؤيدها ، وهذه كان الامام مالك يقدمها ، وحينئذ ، فان القول بأن تقديم عمل أهل المدينة على الحديث الصحيح ، أمر يحتاج الى مراجعة ، لان عمل أهل المدينة - فى نظرنا - هو الحديث الصحيح ، ما دام مرويا عن أتباع التابعين، والتابعين، والصحابة ، غير أنه سنة مجسدة مطبقة، كذلك قول من قال بأن المذهب المالكي سني، ليس فيه شيء من الانحرافات العقائدية، وكل مذاهب العلماء كذلك ، فالامام احمد بن حنبل ، مذهبه من المذاهب السننية المعتمدة والمعتمدة ، وليس فيه شيء من الانحرافات ، حتى ما ينسب الى الامام احمد بن حنبل - مع العلم بأنني مالكي المذهب - من القول فى الصفات او فى غير ذلك ، كل هذا فالامام احمد بن حنبل بريء منه ، بل ان الامام احمد بن حنبل ، نصب قاعدة فى الصفات قد تكون من القواعد الفردية ، ويؤثر عنه قوله فى احاديث الصفات « أمرها » وهذه قولة منسوبة اليه ، وتعتبر من الوثائق الكبرى ، او من الفرائض المعتمدة فى سلامة الصفات عن الامام مالك رحمه الله تعالى .

كذلك بعض اخواننا قال بأن البدعة تنقسم الى حسنة وسيئة ، والحسنة ما فعله بعض الصحابة وأقره النبي عليه ، كصلاة بلال ودعاء رفاعة ، وتقسيم البدعة الى حسنة وسيئة أمر وارد ، والتمثيل عليها بأن الحسنة ما فعله بعض الصحابة وأقره النبي عليه ، غير وارد ، فان ما أقره النبي عليه ، صار سنة مروية ، منقولة ، معتمدة .

وكذلك قول اخواننا بان للموطأ روايات لم تصلنا منها الا روايتان ،  
فأقول بان الاولى ان يقال : لم يطبع منها الا روايتان ، والا فقد وصل منها  
كثير كرواية سويد بن سعيد الحدثاني ، وأخيرا طبعت رواية علي بن زياد  
قطعة منها فى تونس ، ويجري تحقيق رواية ابن القاسم التي لخصها  
الامام القابسي واقتصر فيها على الاحاديث المرفوعة الى النبي صلى الله  
عليه وسلم ، وهذه ايضا جار تحقيقها ، وفى دار الحديث الحسنية - كما  
اخبرنا الدكتور فاروق النبهان - يجري تحقيق كثير من أمثال هذه  
الروايات .

هذ ما عندي ، واسأل الله سبحانه وتعالى التوفيق ، والسلام  
عليكم ورحمة الله .

ما بقي على وجه الارض أحد آمن على حديث رسول الله  
صلى الله عليه وسلم من مالك بن أنس .

- عبد الرحمن بن مهدي -

## تدخل الأستاذ صلاح الدين ادلبي

باديء ذي بدء ، أقدم الشكر للاستاذة الاجلاء الفضلاء ، على كلماتهم التي اتحفونا بها ، والتي افادونا فيها بالمعلومات القيمة التي جمعوها وعرضوها ، ولكنني أود ان أشير الى فكرة حول بعض الاحاديث النبوية التي تروى في فضل مالك ، او في فضل المغرب ، فيما يتعلق عند علماء الحديث بأحاديث الفضائل ، اذا روينا هذه الاحاديث ، وابرزنا اهتمام السلف رضوان الله عليهم بالامام مالك ، فهذا صحيح ، ولكن يجب ان ننتبه الى نقطة وهي اننا نخشى من ان تقع في دوامة من الاحاديث ، فالحنفية يقولون بأن النبي صلى الله عليه وسلم يقول : « سيكون في امتي رجل اسمه النعمان يكنى ابا حنيفة » وهكذا فرغم ان المتحدثين اتفقوا على ان هذا الحديث موضوع ، فان بعض الحنفية قد دافع عنه وقال انه ضعيف فقط ، وليس بموضوع ، والضعيف يعمل به في فضائل الاعمال ، ثم بالنسبة للحديث الذي ورد « لا يزال أهل الغرب » أخشى ان تقع ايضا في الاحاديث التي اصحت ترد في البلدان ، وتضاعف أسانيدھا ويقال بأن الضعيف يعمل به فضائل الاعمال ، كالتنصيب على فضل دمشق - مثلا - وبساتينها المسماة بالفوطة وفضل عسقلان ، ومرو ، وقزوين ، وغير ذلك من الاحاديث ، فأظن - والله أعلم - بأن هذه الاحاديث تمثل نظرة الاكابر والاجلال التي تمتع الامام مالك بها لدى أقرانه وتلامذته من علماء السلف ، وأرجو من السادة الاجلاء العلماء الفضلاء ، ومعظمهم اساتذتي ، ان يتحفونا بزيادة توضيح عن مقدار صحة نسبة هذه الاحاديث

الى صاحب الرسالة محمد صلى الله عليه وسلم ، ولهم مزيد الفضل  
والشكر والسلام .

### تعقيب لرئيس الجلسة الدكتور الحبيب بلخوجة

شكرا للاستاذ صلاح الدين على هذه الملاحظات القيمة التي تتصل  
بنقد السنة النبوية ، ونقد الاحاديث ، لان ما يروى من السنة ليس كله  
مسلماً ، وخصوصاً ما يتعلق بالفضائل والمناقب ، وما تجرأ الناس على  
وضعه ، وبعضهم يريد من ذلك خيراً ، ويرى انه لم يوضع فى تشريع ولا  
لضبط احكام ، ولذلك يتسامح فى هذا ، وهناك من يرى بأن الوضع مهما  
كان نوعه ، ومهما كان الداعي اليه فهو حرام ، وكذب على النبي صلى الله  
عليه وسلم ، وقد قال صلى الله عليه وسلم : « من كذب على متعمداً  
فليتبوا مقعده من النار » على ان البحث العلمي يقتضي من الانسان دائماً  
ان يركز على القضايا العلمية ، من غير ان يكون فى حاجة الى الاحتجاج  
بمثل هذه الاحاديث ، او الضعيف منها على الاقل ، ويكون من الدقة بمكان  
بحيث لا يعتمد الا على النصوص المسلم بها .

تركت فيكم شيئين : لن تضلوا بعدهما كتاب الله  
وسنتي ولن يتفرقا حتى يردا علي الحوض .

- حديث شريف -

## تدخل الاستاذ نوح عبد الرحمن

بسم الله الرحمن الرحيم والصلاة والسلام على اشرف المرسلين

أما بعد ، فقد استمعنا الى الاساتذة العلماء في البحوث القيمة واستفدنا منها استفادة كبيرة ، ولكن هنالك بعض النواحي نريد أن تكون واضحة ، وخاصة في محاضرة الدكتور عبد الهادي التازي في قوله بأن المذهب المالكي شعار من شعارات الدولة في المغرب ، وشبهه بالرأية ثم الاناشيد الوطنية ، في هذا الموضوع بالذات ، أنا أريد توضيحاً من الدكتور عما إذا يقصد بكلمة شعار من شعارات الدولة ؟ وشكراً .

إذا جاءك الأثر عن مالك فشد به يدك

- الإمام الشافعي -

## تدخل الدكتور محمود عبيدات

بسم الله الرحمن الرحيم      والحمد لله رب العالمين  
والصلاة والسلام على سيدنا محمد خاتم الانبياء والمرسلين

انني أزجي شكري للاستاذة الافاضل على ما قدموه من كلمات طيبة،  
فبارك الله فيهم ، ولكن الشكر والاعجاب لا يمنعان من التعليق أو التعقيب،  
فان لي بعض الملاحظات لا بد من الاعتراف بالفضل لذويه ، والاعتراف  
هذا - كما قلت - لا يمنع من ان يكون للانسان بعض المآخذ أو  
التعليقات .

لقد ورد في كلمة الاستاذ الشيخ المكي الناصري بأنه ليس للامام  
الشافعي مثل ما لمالك من المسائل أو الآثار ، وكان قدم في ذلك وقيل  
كل شيء ، ان هؤلاء الائمة يعترف بفضلهم جميعا ، ولكنني اذكر في هذا بان  
الشافعي رحمه الله ، تلميذ لمالك رحمه الله ايضا ، وقد عاشر الشافعي  
أربعا وخمسين سنة ، وهي نصف عمر مالك تقريبا ، وكان له من الآثار ،  
فقد عاشر مالك تسعين سنة تقريبا ، وكان للشافعي من الآثار بغير كتاب  
الام ، كانت له الرسالة ، وهو كتاب مشهور ، وفيها فضل كبير يدل على  
غزارة علم الشافعي وسبقه أيضا ، وكذلك له غريب الحديث ، وله  
مختلف الحديث ، بالاضافة الى ما له من آثار غير هذه الكتب المطبوعه  
والمتداولة بين الناس ، فلا شك ان هذا لا بد من الاعتراف به ايضا .  
ونرجو من الاستاذ الكريم ان يكون على شيء من هذا ، ومعرفته وتعديله  
بذن الله ، لا انتصارا للامام الشافعي ، وانما انتصارا للحق واعترافا  
بالفضل لذويه ان شاء الله .

أما فيما يتعلق بفتوى الاستاذ الدكتور عبد الهادي التازي، او الفتوى التي اشار اليها لبعضهم فيما يتعلق بالزوجة ، ومقاسمتها للزوج، وغير ذلك فهذه الفتوى وان وردت عن بعض القدماء والعلماء الاجلاء ، الا انه ينبغي ان يوقف فيها عند حد الكتاب والسنة ، فقد قرر الكتاب والسنة ، كل منهما على حدة ، ما كان للنساء وما يكون للزوجات بشكل خاص، فيما يتعلق بالميراث ، والنبي صلى الله عليه وسلم يقول : « والمرأة راعية في بيت زوجها ومسؤولة عن رعيتها » ويقول عليه الصلاة والسلام في حديث آخر : « واذا غاب عنها حفظته في نفسها وما له » ، النقطة الثانية في محاضرة الاستاذ التازي القيمة المفيدة ان شاء الله ، فاما ان يكون الاحتساب او الحسبة من اختراع المالكية او من عند المالكية ، فالمعروف بان الامر بالمعروف والنهي عن المنكر من احاديث النبي صلى الله عليه وسلم ، بل سبق الى ذلك الكتاب الكريم كذلك ، وكان على عهد سيدنا عمر ابن الخطاب رضي الله عنه حسبة ، وقيل انه عين الشفاء ، امرأة ، كانت محتسبة الى غير ذلك .

في كلمة الاستاذ عبد العزيز بنعبد الله ، جزاه الله خيرا ، وأبدي اعجابي الكبير بحسن استعراضه لموضوعه وبحثه ، الا ان ما قاله عن الامام مالك ، من ان ابن ادريس لم يرد ان يفرض المذهب المالكي في المغرب ، فكانت هنالك عدة مذاهب الى جانب المذهب المالكي، وعدد هذه المذاهب ، فطبعاً ، هذا يعود الى ان الامام مالك نفسه ، لا يريد مطلقاً ان يتبنى الناس مذهبه ، وان يعتبروه من دون الآخرين ، فهذه نقطة جديرة بالاشارة اليها ، وتسامح الامام مالك الذي اشار اليه الشيخ ابراهيم الحسيني ، وان مالكا كان يكره الخلاف ، فهذا وارد ومعروف عنه ايضا .

فيما يتعلق بالانكار على الداعين الى الغاء المذاهب ، فهذا قول يجب ان يتبناه علماء المسلمين ، فكل هؤلاء لهم صلة برسول الله صلى الله عليه وسلم ، وصدروا عن سنته بعد كتاب الله عز وجل ، لهم شواهدهم وادلتهم، وانوه في هذا المجال بقول احدهم : « اللامذهبية قنطرة اللادينية » كان من لا يريد ان يتمذهب بأي مذهب سيخرج بالنتيجة من هذا الدين وستنقصم عراه عنه ، وهكذا .

واحاديث الفضائل - هذه - تقودني الى كلمة اوردها الاستاذ عبد السلام جبران فيما يتعلق بقوله عن الامام مالك ، لدغته عقرب ست عشرة

مرة ولم يتحرك ، وكان لونه يتغير ، وبينى وبين الامام مالك - من فضل الله - صلة علم ، فقد كانت رسالتي للدكتوراة عن الامام مالك بن انس واثره فى الحديث ، وذلك من اعجابى بالامام مالك والمنهج الذى اختطه لنفسه ، اما ان تقال مثل هذه الاقوال ، وتكررها مع الذين يرددونها ويقولونها، فلا بد ان نعمل عقولنا، ولا بد من ان نخضعها للمنطق ، ليس هذا مما يرفع مكانة مالك فى نظر الناس ، نعم ، كان يعظم حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، بل ويوقره ويجله ، فقد ورد فى وصفه انه كان اذا جلس لحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، جلس على منصة ، وكان يفرق بين الجلوس للمسائل العادية ، وبين الجلوس لحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان يلبس طيلسانا اشبه شيئا بالملوك ، يعنى اجلالا وتوقيرا لحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فليس بعد هذا القول قول ، اما ان يقال للفته عقرب ولم يتحرك ، فكلنا يعلم ما يكون من العقرب واذاها وسمها وغير ذلك ، وورد - وهذه بالطريقة فقط - ان امه حملت به ثلاث سنوات ، هذه ايضا ليست منقبة لمالك ولا يحتج بها ابداء، مع اجلاي وتوقيري لمالك رضى الله عنه .

ولا يفوتني هنا ان اعقب على كلام اخي الدكتور علوي المالكي - جزاه الله خيرا - عن عمل اهل المدينة ، فعمل اهل المدينة كما هو معروف ، يقسم الى قسمين : ما كان من طريق النقل المتواتر ، وهذا هو الذى اخذ به مالك واحتج به ، فهو سنة متواترة يقدمها مالك على خبر الإحاد ، اما ما يتعلق بقول اخي الاستاذ صلاح الدين ادلبي - وجزاه الله خيرا - بالاحتجاج بأحاديث الفضائل ، وقول العلماء بالاحتجاج بها ، فانا استغرب كل الاستغراب ، بان يقول العلماء بالاحتجاج بالأحاديث الضعيفة فى فضائل الاممال ، وعندنا من الاحاديث الصحيحة فى فضائل الاممال ، ما يفنيانا عن اللجوء الى الاحاديث الضعيفة ، ان فى ذلك خطرا كبيرا على سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلماذا نقول ونحتج بالاحاديث الضعيفة ، حتى نشهرها بين الناس ، فيظن الناس عاجلا او آجلا ، بان هذه الاحاديث صحيحة ، فيقع فى اذهانهم ذلك ، لقد آن للعلماء ان يهبوا الى رد الاحتجاج بالعمل بالاحاديث الضعيفة ، لان عندنا غنى من الاحاديث الصحيحة التى وردت فى كتب السنة المشرفة ، واما اذا كان الاحتجاج بالاحاديث الضعيفة ، فالحديث : « يوشك ان يضرب الناس اكباد الابل » فالحديث ، قال عنه الترمذي حديث حسن ، وفى رواية قال عنه حسن

صحيح ، ورواه غير الترمذي ، وتأوله سفيان بن عيينة، وابن جريج، والامام عبد الرزاق ، تأوله كل منهم على مالك بن أنس ، فلا مانع من أن يكون ، اما اذا كان ورد حديث في مالك وهو صحيح عنه ، وينطبق عليه ، فلا يجوز ان نرد هذا الحديث ، لحجة ان الناس الآخرين ، أتباع أئمة المذاهب سيحتاجون بأحاديث أخرى .  
وشكرا ، وبارك الله فيكم .

### تعقيب لرئيس الجلسة الدكتور الحبيب بلخوجة

شكرا لفضيلة الشيخ محمود عبيدات على هذه الملاحظات القيمة الرصينة ، والتي تدعونا جميعا الى وجوب الاخذ بالمنهجية في كلامنا ، وفي بحوثنا ، وفي ما نتقدم به من دراسات ، خصوصا في هذا العصر الذي لم يبق فيه شيء من تلك القضايا الملفقة مقبولا من الدارسين ، ومن الشباب المتطلع الى الحقيقة ، وخصوصا في هذا الميدان ميدان الحقيقة الإسلامية .

ما في القوم أصح حديثا من مالك ، ومالك امام  
الناس في الحديث .

- يحيى بن سعيد القطاني -

## تدخل الدكتور الحبيب بلخوجة

أريد بدوري أن أتقدم ببعض الملاحظات حول الكلمات التي تفضل اخواننا العلماء بالتقدم بها إلينا .

ولا أريد أن أطيل عليكم ، ولكنني أرجو من فضيلة الشيخ سيدي المكي الناصري ، وهو الذي أضطلع بالفقه الاسلامي والفقه المالكي ، وبالقانون والدراسات الحقوقية ، أن يتبع القول العمل ، وذلك فيما أشار إليه من جوانب لا بد من بحثها ، ولا بد من دراستها والعناية بها ، ولعله في إشرافه على بعض الدراسات ، وقيامه بالدور الحقيقي للعالم المسلم في هذا العصر ، بالتركيز والتوجيه والإحالة على المصادر ، يستطيع أن يحقق لنا بجهوده التوجيهية ، الخير الكثير ، في الطلاب الذين يشتغلون بالبحث العلمي في بلادنا المحبوبة المغرب الأقصى .

أما سعادة الدكتور عبد الهادي التازي ، فقد أمتعنا بكلامه ، وحررنا من مناقشته ، لأن الحديث معه يطول في كثير من القضايا ، وكنا نود أن يكون بين ظهرانينا ، لنتمكن من السؤال والاستفسار ، عن كثير من القضايا الجزئية التي وردت في كلمته الطيبة الشاملة .

والاستاذ عبد العزيز بنعبد الله ، مؤرخنا وباحثنا ، الذي نشد إليه الرجال في مناسبات كثيرة ، ونرجع إليه فيما نشره وكتبه من دراسات عميقة وببليوغرافات دقيقة ، في حديثه هذا كان مختصرا ، والعيب للوقت ، لأنه أشار إلى الوحدة المذهبية بين المغرب وصحرائه ، وذكر أن ما يجمع بين المغرب وصحرائه من الناحية المذهبية ، يختلف مع ما يجمع

بين الصحراء وبقية البلدان المجاورة ، كان بودي ان استمع الى شيء اكثر تفصيلا فى هذه الناحية بالخصوص ، لكي تنكشف الحقيقة ، ونصبح على بينة من الامر فيما اراد ان يسوقه الينا ، ولعلنا - بعد حين - سنستمع الى زيادة بيان من سعاداته ، لنخرج بشيء واضح فى هذه القضية .

اما الشيخ ابراهيم الحسيني ، فان دراسته دراسة مفيدة جدا ، تركز على الجانب الفقهي والاصولي ، وتبرز لنا الطريقة العملية لفقهاء المالكية ، فى استنباط الاحكام ، وما اعتمده من الاصول والاسس الثابتة ، ولكني اجد شيئا كثيرا مما افاض فيه القول - وان باختصار ، كما اقتضاه الوقت - مشتركا بين الامام مالك ، او المالكية ، وبين بقية المذاهب ، بقية الاصوليين فى المذاهب الاخرى ، بقية الفقهاء فى المذاهب الاخرى ، فان الحنفية - مثلا - والشافعية ، لهم من هذه الاصول ، ومن هذه الطرق ، ما يتفوقون فيه مع الامام مالك ، او مع المالكية ، وربما اعتبر ان القضايا التي تعود الى اصول الفقه هي سابقة عند هذين الشيخين ، او فى هذين المذهبين ، على ما ظهر فى المذهب المالكي ، ولعلنا بالرجوع الى دراسته القيمة ، نجد ما يشفى الصدر ، ويتم هذه الثغرة ، حتى تتمكن من الاستفادة من هذا البحث الذي تشرفنا بالاستماع اليه .

اما حديث شيخنا المسفيوي ، فانا اعتقد انه تتويج للاحاديث كلها ، لانه يتناول شخصية الامام مالك رضي الله عنه ، الذي هو موضوع هذه الندوة ، وهو وان تقدم الينا بنقول عديدة تتصل باحترام واجلال علماء الاسلام لهذا الشخص ، او لهذا العلم الفكري ، فان كل القول بعد ذلك يكون ترديدا ، لان كل متحدث فى هذا العصر ، يريد ان يتايد - عندما يذكر شخصية لامعة ، واماما كبيرا كالامام مالك - بما قاله اقرانه عنه ، وبما قاله المطلعون على هذه المناقب ، والعارفون بمدى هذه الشخصية العلمية ، ودورها الخطير فى نشر الاسلام ، واقرار التشريع الاسلامي ، بوجه يكون هو حكم الله بين الناس فيما يتعاملون فيه .

وارجو فى الختام من الاخوة الفضلاء والاساتذة الذين شرفونا باستماع الى محاضراتهم ، ان كانت لهم اجابات عن هذه الاستفسارات التي تقدم بها السادة المناقشون ، ان يتفضلوا بالاجابة عنها ، وباختصار .

## تدخل الاستاذ خليفة محفوظي

لاحظت في العرضين القيمين للاستاذين الكبيرين ، الاستاذ السيد عبد الهادي التازي والاستاذ السيد عبد العزيز بنعبد الله ، الاشارة واحيانا التركيز ، على قضية الفتوى التي طلبت في قضية الصحراء المغربية من محكمة العدل الدولية بلاهاي ، فقد ذكر الاستاذ التازي عن القاضي الذي نسبه الى السويد والذي نسبه الاستاذ عبد العزيز بنعبد الله الى بلجيكا ، ان هذا القاضي - يقول الاستاذ التازي - كان ذكيا في سؤاله الذي وجهه او طرحه على الوفد المغربي فيما يخص العلاقة المذهبية بين المغرب والصحراء ولست أدري اين هو موضع الذكاء في توجيه هذا السؤال ؟

اللهم الا اذا كان هو الجانب الذي حاولت استنتاجه من ارادة القاضي وهو احد امرين ، اما ارادة تهميش الملف المغربي ، وذلك بصرفه عن التركيز على الملف المعروض في قضية تبعية الصحراء للمغرب، او وحدة الصحراء المغربية مع المغرب ، وذلك بالدخول الى جانب آخر في صحراء اخرى أي الصحراء الشرقية ، وليس الصحراء الغربية، لان الصحراء الغربية الجنوبية بعيدة كل البعد عن المد ، مد النفوذ التركي فيما يرجع الى المغرب ، قد يمكن ان نفهم ان علاقة ما قد تكون للصحراء الشرقية مثلا في توات مما يلي عين صالح ، مع البعد الساحق بينهما وبين اماكن امتداد النفوذ التركي ، والنفوذ التركي لا يصل هو نفسه الى هذه المنطقة التي اريد ذكرها ، وهي منطقة عين صالح ، ومنطقة المنيعة او الكلعية كما يسميها الفرنسيون والتي يبتدىء منها اختلاط المذهب المالكي بالمذهب الاباضي،

وهذه المنطقة كما يذكر لنا الرحالة الفقيه العياشي في رحلته منطقة لم تكن خاضعة لتركيا - الى دير الجزائر - بدليل ان من فوقها من واد ميزار توجهوا الى الفقيه العياشي واستفسروه في امر تبعيتهم الى دير الجزائر لانه طلب منهم ان يكونوا اتباعا له وان يكونوا تحت طاعته ، فكان جواب العياشي انهم اذا كانوا على حال يحمدونه من امرهم فانه لا تلتزمهم هذه التبعية ، اما بالنسبة للصحراء الجنوبية ، فالامر لا ادري كيف تطرح فيها قضية المذهب المالكي وكونه قريب من تركيا او من محل نفوذها لانها كانت حنفية المذهب ، بل ان اعتناق الدولة لمذهب ما ، كما وقع لتركيا نفسها التي نتحدث عن وجودها في الجزائر ، لم يكن له تأثير في مدينة تلمسان - مثلا - التي سكنتها جالية تركية كثيرة ، ولكنها تحولت من المذهب الحنفي الى المذهب المالكي ، وتلمسان الآن لا وجود للمذهب الحنفي فيها ، مع ان عناصر السكان فيها يتكونون من قسمين ، من الحضرو ومن الكراغلية ، والكرغليون هم الذين ينحدرون من اصل تركي ، وأرجع السبب الى امكانية ان يكون في تركيز المذهب المالكي في الصحراء ، ولعل ما كان يريده القاضي الذي طرح السؤال هو سرب تهميش الملف المغربي ، كما يريد ان يوقعنا في مأزق ، في مدخل آخر وهو اثاره الخلاف المغربي الجزائري على الحدود ولا اقول خلافا لانه بالنسبة لنا لم يكن خلافا وانما هو حق مثبت بالتاريخ والوقائع والوثائق والاحداث بالنسبة الى توات ، وهكذا فلم يكن هنالك اي جوار للمذهب المالكي ولا لغيره مع الصحراء الشرقية ، وقد كانت فيها مراكز للمذهب المالكي - مثلا - كما كان في اتمنطيط ، التي يحدثنا عنها بن عبد الكريم المغيلي في خلافة مع عبد الله العصموني قاضي اتمنطيط في قضية اليهود ، هل هم من اهل الكتاب ام من غير اهل الكتاب ؟ هذا فيما يرجع الى التعقيب عما يشترك فيه الاستاذان عبد العزيز بن عبد الله وعبد الهادي التازي .

وأرجع الى نقطة أخرى فيما يخص الاستاذ عبد العزيز بن عبد الله ، فقد قال بأن هذه التبعية المذهبية في العلاقة الموجودة بين الصحراء والمغرب ، كانت هي الحجة التي اعتمدها المحكمة في اصدار فتاها ، وهذا قول لا اوافق فيه الاستاذ سيدي عبد العزيز بن عبد الله ، لان الملف المغربي كان يحتوي على وثائق مهمة جدا ، اذكر من بينها وثيقة هامة تجسم في رسالة ملكية كتبها السلطان مولاي الحسن الاول الى ملكة

بريطانيا على اثر رسالة تلقاها منها ، استفسرت فيها المغرب عن وجهة نظره فى خريطة كانت الحكومة الفرنسية قد وزعتها ، تبين فيها مناطق نفوذها فى افريقيا الغربية ، واخرجت من ذلك بعض المناطق من الصحراء الجنوبية الحالية ، ورد المولى الحسن الاول برسالة موجودة بالملف ، عثرنا عليها فى وثائق الصدارة العظمى بالمنطقة الخليفة بتطوان ، فهذه الرسالة ، وهى كاملة واضحة وليس فيها بتر ولا تشطيب ، تبين الحدود الكاملة تاريخيا وطبيعيا للمملكة المغربية . على ان هذه الرسالة اتبعت فيما بعد بمراسلات كانت بين ملوك المغرب واوروبا فى هذا الموضوع .

وان من ارادوا تهميش الملف المغربي كانوا يرغبون فى ان ندخل فى صراع مع موريطانيا ، اما المذهب المالكي فقد كان محميا قبل هذا بالمدرسة المالكية فى شنقيط ، وفى بوتيلويوت ، وتيشيت فى موريطانيا حاليا ، كذلك بالنسبة للمذهب المالكي حتى فى المناطق التى هى بعيدة عن الصحراء مما يلى تلمسان - كما ذكرته - فقد كان معززا بمدرسة فقهية مشهورة وهى مدرسة مازونة المشهورة بفقهاؤها ، هذا ما اريد ان اطرحه على الاستاذين ، ووددت ان لو كان الاستاذ التازي حاضرا معنا وشكرا .

لا نعلم احدا انتهى اليه علم اهل المدينة  
الا مالك .

- القاضي التستري -

## تدخل الاستاذ شبيها حمداتي ماء العينين حول عرض الاستاذ عبد العزيز بنعبد الله

كان بودي أن أتدخل فيما أثير حول موطأ الإمام مالك هل هو كتاب فقه وحديث ؟ ولكن من سبقني قد استوفى الموضوع حقه ، ولذلك فسيتصر تدخلي على ما ذكره الاستاذ عبد العزيز بنعبد الله حين تعرض للعرف الحكمي ، قال بأن السلطات الاسبانية حاولت أن تكون قوانين عريضة بالصحراء المغربية .

وأريد هنا أن أؤكد أن الصحراء المغربية ، ظلت متمسكة بمشهور المذهب المالكي ، وما كان يطبق فيها من أعراف ، او قواعد أشبه بالعرف ، كان يوخد من نظم العمل الفاسي ، او من نظم العمل المطلق للرباطي ، أما أن السلطات الاسبانية حاولت أو حملت الناس على الحكم بالاعراف ، فهذا ما لم تعرفه المنطقة ، ولقد تفهم الناس النوايا الحقيقية الاسبانية في أول الامر ، فحملوا أنفسهم على أن لا يعملوا الا بما يعمل به في داخل المغرب ، وخصوصا العادات التي كانت متبعة في مدينة فاس ، وشكراً .

## مناقشة الاستاذ عمر الجيادي لبحث الدكتور عبد الهادي التازي

تدخلي يتعلق بفتوى ابن عرضون فى قضية المرأة ، وهى نقطة  
أثارها الدكتور عبد الهادي التازي ، وكررها استاذي الجليل عبد الغفور  
الناصر .

وبحكم صلتى بابن عرضون ، وباعتباري ابن بلده ، أرى من الواجب  
أن الفت نظر السادة العلماء ، الى ان فتوى ابن عرضون لا تتعلق بالارث ،  
كما اعتقد بعض السادة الفضلاء ، وإنما تتعلق فقط ، بالعمل ، أي العمل  
الذي تقدمه المرأة لزوجها ولا يلزمها ، وشكرا .

## مناقشة فضيلة الشيخ محمد المكي الناصري

### بحث الاستاذ عباس الجراري

أوجه شكري للسيد رئيس هذه الجلسة ، فشرف كبير لهذه الندوة ، ان يكون الدكتور الحبيب بلخوجة ، هو الذي ينوب في رئاسة هذه الجلسات ، لعلمه ، ولمكانته ، ولمقامه في العالم الاسلامي .

انني اؤيد كل التأييد ، الموضوع الذي عرضه الاستاذ الدكتور ، عباس الجراري ، وأنا التقي معه في أكثر ما تقدم به من وجوه ، ومن تحليلات - حفظه الله - .

فقد اشار الى مسألة البداوة ، التي ذكر ابن خلدون ، بأنها من أسباب التقارب بين المغاربة والاندلسيين ، ومذهب أهل المدينة ، وقد حاول - مشكورا - أن يخفف العبء عن ابن خلدون بقوله ، بأن المقصود من البداوة ، ربما هي البساطة ، ولكن - بالصدفة - وأنا أتصفح البحث الذي سيتفضل بالقائه الدكتور محمد المختار ولد أباه ، وهو بحث سياسي قيم ، اكتشفت نصا لابن خلدون ، يفضح هذه القضية ، ويعتبر ان البداوة ليست بساطة في الرأي وفي الفكر ، بل ، بدعوة بمعنى البداوة ، المقابلة للحضارة ، ففي النص الذي نقله الاستاذ محمد المختار ولد أباه ، يقول ابن خلدون - رحمه الله - : « فالأثر ، أكثر معتمد المالكية ، ليسوا بأهل نظر ، وأكثرهم أهل الغرب ، وهم بادية ، غفل من الصنائع »

فرحم الله ابن خلدون في تجنيه على المغاربة ، وان كان هو بلسان حالهم وهم ، امام كثير من المحافل الدولية ، يفتخرون به ويعتزون بكتابه ، وليس هذا اول مظهر من مظاهر التجني ، فكلمة « عرب » ، وعروبة ، كم ثار حولها الجدل ، هل « عرب » بمعنى كذا او كذا ؟ وقد حاول اصدقاءه واجبابه ان يخففوا من وقعها ، « لان كثيرا من العرب ، غفل من الصنائع ، العرب ليسوا اهلا للسياسة الخ . . . » على كل حال ، الموضوع مطروح للبحث ، ويحتاج الى بحث كبير ، وابن خلدون ، كثير من الرفاق والاصدقاء قلما يدرسون له المقدمة من اولها الى آخرها ، فما من باحث ، الا ويقصد الفصل الذي يهمله وينتهي ، ومن درس مقدمة ابن خلدون من اولها الى آخرها ، يجد كثيرا من التجني في هذا الباب ، وهو - نفسه - افريقي ، مغربي ، ولكنه كثيرا ما يتجنى على قومه وبلده ، والسلام عليكم .

رحم الله امراء سمع مقالتي فوعاها  
فادابها كما سمعها .

- حديث شريف -

## مناقشة الاستاذ الحاج مالك سي لبحت الاستاذ عباس الجراري

سيدي الرئيس ، اخوتي في الله :

أريد فقط ، أن احيي بتقدير واكبار ، هذا البحث القيم ، الشامل ، الذي قدمه لنا في هذه الامسية المشرقة ، الدكتور عباس الجراري ، فهو - في الحقيقة - كان في المستوى المنتظر منه ، ويمجيني من بحثه ، هذا الحد الفاصل ، الذي وضعه لنا ، حيث قال : انتشار المذهب المالكي واستمراره ، حيث وضع التخوم الفاصلة - ان صح هذا التعبير الذي اضطر الى استعماله اضطراراً - بين التعاطف السياسي ، والتعاطف الديني ، حيث قال : بأن المفارقة ، كانوا متعاطفين فعلاً ، مع الخوارج ، ولكن هذا التعاطف ، كان تعاطفاً مبصراً ، لا اعمى ، لان هذا التعاطف ، لم يجرفهم الى التعصب الديني ، وانما بقي المفارقة ، أصلاً بملذبههم المالكي ، رغم أنهم ، كانوا متعاطفين مع الخوارج ، من الناحية السياسية.

أيضاً ، اعجبني الكيفية ، التي اختتم بها بحثه ، والتي دعا فيها ، الى ضرورة العمل ، كما ذكر استاذي ، سيدي ابراهيم محمود جوب منذ قليل ، معلقاً على التقريب بين المذاهب المختلفة ، باللجوء الى استعمال الوسائل المرنة ، والقواعد الميسرة ، التي تلتقي عليها المذاهب ، باختلاف مؤسسها ، وأرجو من هذه الندوة ، ان تتبنى هذه الدعوة ، التي قدمها اليها ، الاستاذ عباس الجراري ، وان تعمل هذه الندوة ، على

تحقيقها بالوسائل التي تراها كفيلة وعملية ، ويجب كذلك - من خلال هذه الندوة - ان نفكر بجدية ، في تحقيق هذا الامر ، لاننا غرب افريقيا، وشمالها ، لا نكاد نحس بعنف الصراع ، او التعصب المذهبي - ان شئتم - بسبب الوحدة المذهبية التي ننعّم بها في ظل المذهب المالكي ، بخلاف بعض الدول في الشرق الاسلامي ، او بقية دول العالم الاسلامي ، ونحن هنا ، لا ننكر الانجازات التي تحققت في هذا المجال ، بسبب المؤتمرات والمجامع العلمية ، الا ان جعل ذلك شعارا يخزي به المشتركون في هذه الندوة ، سيكون له اثره ومفـزاه ، في مواجهة التحديات التي تواجه الامة الاسلامية في هذا الظرف العصيب ، وشكراً .

سقى جدنا ضم ( البقيع ) لمالك  
من المزن مرعاد السحاب مبراق  
امام موطاه الذي طبقت به  
اقاليم في الدنيا فساح وآنفاق  
اقام به شرع النبي محمد  
له حذر ان يضيح واشفـاق  
له سـند عال صحيح وهيبـة  
فالكل منه حين يرويه اطـراق  
واصحاب صدق كلهم علم فسل  
بهم أنهم ان انت ساءلت حـداق  
ولو لم يكن الا ابن ادريس وحده  
كفاه الا ان السعادة ارزاق

- ابو محمد جعفري احمد بن الحسين السراج -

## مناقشة الدكتور عباس الجراري لبحث الاستاذ محمد عبد الكبير العلوي

بعد التنويه بالبحث القيم ، الذي قدمه الاستاذ محمد عبد الكبير العلوي ، اود ان اقف معه قليلا ، عند قضية اثارها ، وهي قضية ذات اهمية قصوى ، وتتعلق بالمرابطين ، قال بان الصحراء المغربية ، التي خرج منها المرابطون ، كانت تعيش في الالحاد ، وفي الماجوسية ، وفي الجهل ، الخ ...

هذا كلام ليس الاستاذ عبد الكبير العلوي ، هو اول من قاله . ففي كتب التاريخ ، ان المغرب ، وان الصحراء ، كانت في هذه المرحلة ، بعيدة عن الدين ، ويستدل على ذلك ، بما قاله يحيى بن ابراهيم الكدالي ، حين اراد ان يخرج من المغرب ، في رحلته المشهورة ، قال : « نحن قوم في الصحراء ، نبيع ونشتري ، ولكننا قوم جهال ، ولا ياتينا العلماء » ، في الحقيقة ، فعلى الرغم من ان هذا الكلام ، وارد في كتب التاريخ ، واكاد اقول في جميع كتب التاريخ ، فان دراسة المرابطين ودراسة هذه المرحلة ، من الناحية الفكرية ، ومن الناحية السياسية ، تعطينا عكس ما تناقلته كتب التاريخ ، واكتفي بالاشارة الى بعض العناصر ، فعبد الله ابن ياسين ، كان تلميذا في مدرسة في هذه المنطقة ، وهي مدرسة وجاج بن زلو ، واستاذ هذه المدرسة ، هو ايضا من ابناء المنطقة ، اذن فوجود هذه المدرسة العلمية ، التي خرج منها داعية المرابطين ، لا يمكن

ان تكون فى منطقة يشيع فيها الجهل ، او تشيع فيها قلة الدين ، ثم اننا حين نبحت ، ونعمق البحث ، فى رحلة يحيى بن ابراهيم الكدالي ، نجد انها لم تكن رحلة علمية ، وانما كانت رحلة سياسية ، حقيقة ان المؤرخين قالوا ، بأنه خرج ينظر فى ما وصلت اليه بلدان المشرق فى مضمار الفكر ، وفى مضمار التقدم العلمى والحضارى ، ولكن لا ، يحيى بن ابراهيم الكدالي ، خرج يبحث فى الواقع السياسى للعالم الاسلامى يومئذ ، وعاد وقد اوجد لنفسه ، ولرفاقه من المرابطين ، خلفاء سيساندونه فى قيام الدولة ، وهذا الحلف ، الذى اقامه يحيى بن ابراهيم الكدالي ، هو الذى سيتأكد فى عهد يوسف بن تاشفين ، وهو الذى سيتبلور ، فى تلكم التبعية المعنوية ، التى كانت للمرابطين مع العباسيين ، اذن ، فالقضية ليست قضية جهل ، او قضية فراغ فكري .

ثم قضية الثالثة واخيرة ، - يمكن الاشارة اليها - وهى ان الجنوب المغربى ، كان يعرج بالتيارات الفكرية والسياسية ، فمن الخوارج الى الرواصد ، الى مختلف المذاهب الاخرى ، بل اننا نجد ان يوسف بن تاشفين فى فترة من فتراته ، قضى على الرواصد فى الجنوب ، معنى هذا ، انه كانت هناك ، حركة فكرية مزدهرة ، ولم يكن الجهل مخيما على الصحراء ، وعلى الجنوب المغربى كما يظن ، وشكرا .

علم مالك علم تقى ، ومالك  
امان لمن اخذ عنه من الانام  
- الليث -

مناقشة الدكتور محمد حجي  
لبحثي الدكتور عباس الجراري والأستاذ الوريغلي

أشكر زميلي الدكتور عباس الجراري على كلمته القيمة ، والاحظ انه فند رأي ابن خلدون ، في سبب دخول المذهب المالكي الى المغرب ، أو الى الغرب الاسلامي ، يمكن قبول تعليل البداوة بما فسره ، بأنها البداوة الفكرية أي الفطرة ، ولكن في قضية ذهاب المغاربة الى المدينة بسبب الحج ، اظن انه ربما اذا تمعنا وجدناها صحيحة ، ولا يعني ذلك ، ان ذهاب المغاربة الى الشرق ، والى المدينة بالخصوص ، كان عفويا ، وانما هو بدافع قوي ، دافع ديني ، هو الحج الذي هو فريضة ، واطن ان الاخ ، لم يكمل كلام ابن خلدون ، لانه حينئذ ، يظهر أكثر ، لانه - أي ابن خلدون - يقول مامعناه : « ان المغاربة ، كانوا يذهبون الى المدينة ، لانها مقصد من مقاصد الحج ، ولم يكن العراق في طريقهم ، حتى يذهبوا اليه » ، اذن ، فهنا تعليل بأن قضية المدينة ، كان لها داع مهم ، وهو الحج ، فمن الممكن أن بعض الناس ، كانوا يذهبون الى الحج ، والى أخذ العلم عن مالك معا ، ولا يتصور - اظن - ان من يقطع هذه المراحل كلها ، من أقصى المغرب الى المشرق ، انما يفعل ذلك ، من أجل الاخذ عن مالك فقط - وهو مسلم ، وهو مطالب بالحج - دون أن يؤدي الفريضة ، ويدخل في هذا أيضا ، ما ذكره الأستاذ الوريغلي ، من أن المغاربة ، كانوا يذهبون الى العراق ، والى خراسان ، واستدل على ذلك ، بأسد ابن الفرات ، الذي قال : بانه ، ذهب الى العراق ، وجاء ببعض آراء العراقيين ،

وادخلها فى المدونة ، وأظن أن أسد بن الفرات ، نيسابوري الاصل ، فهو من ذلك البلد ، ولما جاء الى المدينة ، وأخذ العلم عن مالك ، جاء الى افريقيا ، بمدونة مالك ، ولكن ، على أي حال ، فنظرا لما فيها من شوائب ، ولأن بعض مسائلها لم تكن محررة ، فان سحنون - كما هو معلوم - رجع بها مرة ثانية ، وصححها عن ابن القاسم ، وأخذ بمدونة سحنون ، وأهملت مدونة أسد بن الفرات .

يفهم كذلك ، من عرض الأستاذ الوريانلي ، ان المقاربة ، هم الذين كانوا يذهبون دائما ، ولكن ، لتتصور الامر ، فى القرنين الاولين للهجرة ، فأظن بأن هجرة المشاركة الى المغرب ، كانت أقوى من زيارة المغاربة للمشرق ، فأفواج وقبائل وأفراد ، جاءوا من الشرق ، ومنهم أسد بن الفرات وغيره ، ولذلك ، أظن بأن المسألة ، يجب أن تؤخذ على أساس ، ان مذهب الامام مالك ، كان انتشاره هنا ، بسبب المقاربة - واذا قلت ، المقاربة ، فأقصد الغرب الاسلامي كله ، الاندلس والمغرب الكبير - كان ذهابهم الى المشرق ، وأخذهم عن مالك ، ومجيء مشاركة كذلك ، راسا الى المغرب ، وشكرا .

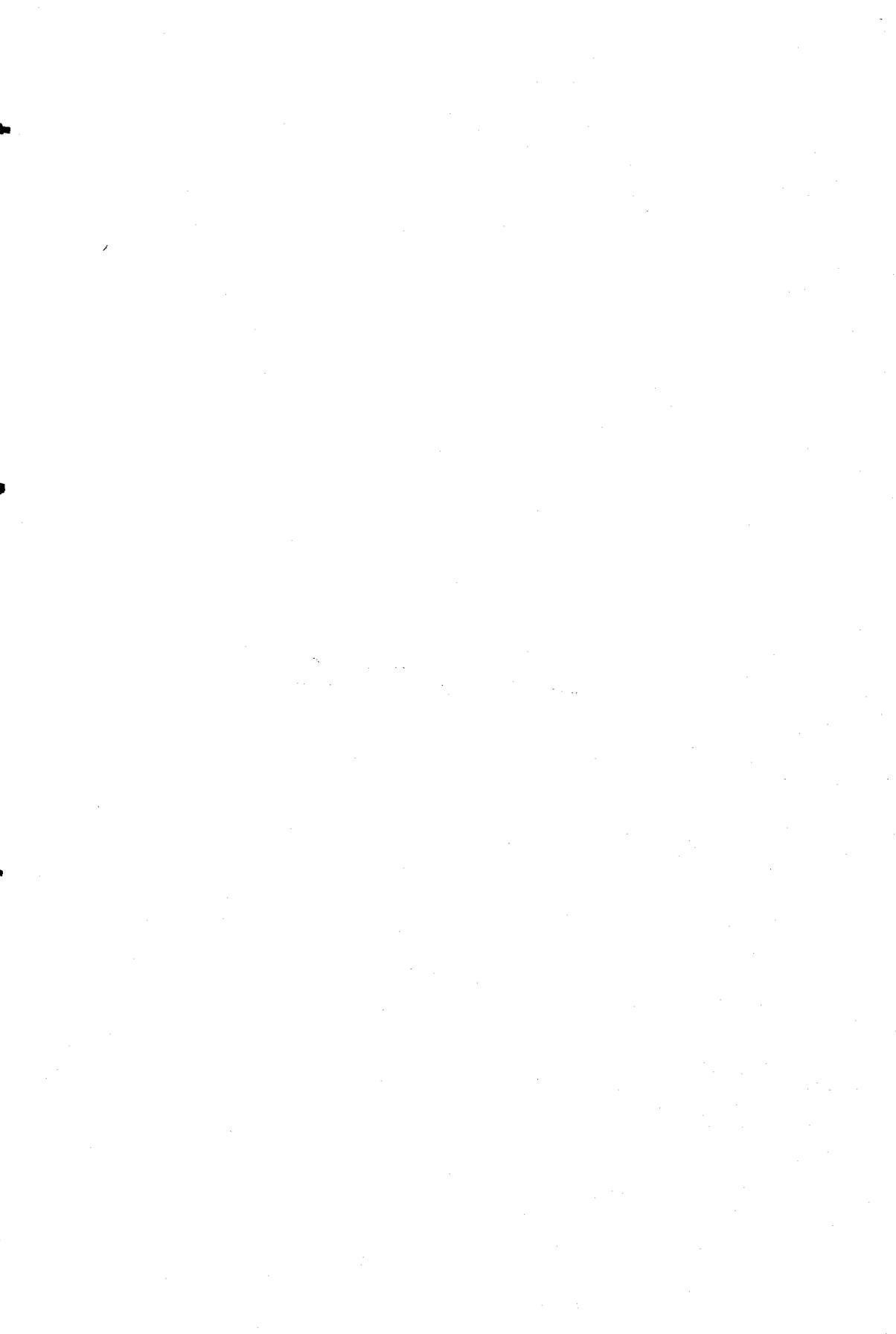
يوشك أن يضرب الناس أكباد الإبل فى طلب العلم فلا يجدون أعلم من عالم المدينة.

- حديث شريف -

مناقشة الاستاذ محمد حماد الصقلي  
لبحث الاستاذ عبد السلام الادغيري

الاخ عبد السلام الادغيري ، حقيقة موضوع المحاضرة ، حول صلة  
الامام مالك بالحكام ، موضوع شيق ، ولكن ، قضية تأييده للمولى  
ادريس ، واعتبار الحكم الذي أسسه في المغرب ، هو الحكم الشرعي ،  
لانه موروث بصفة شرعية ، من محمد النفس الزكية ، وانه يعتبر ، ان  
البيمة لمحمد النفس الزكية ، هي شرعية ، وإخيه ادريس شرعية ، ثبت  
هذا عن مالك ، وعن ابي حنيفة كذلك ، والمحنة التي تحملها مالك ،  
ليست من أجل فتوى الطلاق ، بل هناك ابعاد لها ، لان الطلاق بالاكراه ،  
أخذه المؤسسون للدولة العباسية ، في تحقيق بيعتهم ، فأزال هذا  
الظلم ، لتبقى المشروعية للدولة التي أسسها محمد النفس الزكية ،  
ولذلك ، كان يقول المولى ادريس ، الاب ، والابن ، الذي تجدونه عندنا ،  
لا تجدونه عند غيرنا ، فالدولة الشرعية ، في نظر الامام مالك ، هي الدولة  
التي أسسها المولى ادريس بالمغرب ، وحتى ابو حنيفة ، تحمل المشاق ،  
لانه كان يعتبر أبناء سيدنا علي ، هم الذين يستحقون الخلافة ، وأحيل  
في هذا الموضوع ، على الكثير من الأئمة ، الذين عذبوا في هذا المجال ،  
ومن جملتهم ابو حنيفة ، والامام مالك ، وأحيل على « تفسير المنار » عند  
قوله تعالى : « واذا ابتلى ابراهيم ربه بكلمات فاتمهن » ، والسلام عليكم .

# التعقيبات



## تعقيب الشيخ محمد المكي الناصري

سيدي الرئيس :

حضرات الاخوة الاعزاء :

كم انا سعيد بهذا المجلس الرائع ، فكلكم تلمون ما قاله صاحب « جمع الجوامع » : ( وحصر الشيخ الامام اللذة في المعارف ) . ان مجلسا كهذا المجلس تطمئن اليه النفس ، ويرتاح له الضمير ، والمناقشة بين علماء من هذا الطراز ، ومن هذا المستوى متممة .

جوابا عن ملاحظات الاخ النبهان من طلبه مزيد التوسع في هذا البحث ، انا موافق على هذا الطلب ، وافت نظر جنابه الى الصفحة 17 والصفحة 19 من البحث الذي بين يديه ، فقد قلت في الصفحة 17 : « هناك اعتبارات اخرى نهمك عن تحليلها لضيق الوقت » ، وقلت في الصفحة 19 : « وخير ما نختم به هذه المعجالة » ، فالمجالة « كالثمالة » ، ومعنى ذلك انني عازم على مزيد التوسع في هذا البحث طبقا للتصميم الاصلي الذي وضعته له منذ البداية ، هذا من جهة ، ومن جهة ثانية ، تساءل ما معنى قلبي « ان المذهب المالكي تراث مغربي » ، والواقع انني اشرت الى ذلك اشارة سريعة في الختام ، وقلت : « ان المقاربة ما خدموا شيئا كما خدموا المذهب المالكي ، وان العبقرية المغربية برزت بالخصوص في هذا المذهب » ، اذ لا يوجد للمقاربة اي مجهود معادل في مذاهب ابي حنيفة والشافعي وابن حنبل فهذا

واقع تاريخي ، كما أنه لا يوجد للمغاربة نشاط عظيم ضخم مثل ما يوجد لهم في ميدان الفقه المالكي .

والاخ عبد العزيز بن عبد الله سيتحفنا ويتحفكم ببيليوغرافيا تبين مقدار جهود المغاربة في خدمة المذهب المالكي ، فقد أثروه بفتاويهم ونوازلهم وتطبيقاتهم الخاصة . وقد أمسكت عن التوسع في هذا الموضوع أولا - لضيق الوقت ، وثانيا - لرغبتني في إبقاء هذا المجال مفتوحا امام بقية الباحثين ، فسيحدث الاستاذ محمد حمادي الورياغلي من اخواننا ، وهو من خريجي دار الحديث الحسنية ، عن « آثار الشخصية المغربية في فقه مالك » ، وبعثه موضوع بين يديكم ، وسيحدث كذلك الدكتور عبد الله العمراني ، وهو من اخواننا أيضا وموضوعه « البيئة ( أي المغربية ) وأثرها في صياغة مذهبنا المالكي » ، فهناك والحمد لله أخوة كثيرون لا بد أن يأخذوا حظهم من البحث وابداء ما عندهم من مقدرة وكفاءة ، وأنا ضد الاحتكار في جميع المجالات .

اما ( دار الفقه الحسنية ) التي اقترحت انشاءها ، فانا لا أريد منها الاكتفاء بدراسة نبذ مخلوذة من الفقه كما يدرس الآن في كلية الشريعة ، وكلية الحقوق ، وكما أصبح يدرس أخيرا في دار الحديث الحسنية ، بالإضافة الى علوم القرآن وعلوم الحديث التي هي اختصاصها الاساسي ، فان حظ الفقه فيها سيظل دائما ضئيلا ، وأنا الذي اقترحه نظرا لضخامة المذهب المالكي وسعته ، ولما نريد ان نواجهه بالنسبة للمستقبل ، من اقامة نهضة فقهية اجتهادية ، هو تكوين فقهاء عمالقة من طراز الشاطبي والقرافي وعباس ، يبرزون من جديد في هذا البلد السعيد . وأنا اعتقد ان اقامة ( دار حسنية ) للفقه متخصصة ، تعد الطلبة المتخصصين في هذا المجال للدبلوم والدكتوراه ستكون فتحا كبيرا ، وهي بالخصوص التي يمكن ان تكون من جديد شيوخ الفقه عموما ، وشيوخ المذهب المالكي خصوصا . ولا أخفي عن احد ما وصلت اليه الدراسات الفقهية المتخصصة عندنا في المغرب أخيرا من تدهور وتقهقر .

وبصفتي عضواً في « اللجنة الملكية للتدوين » ومطلماً على دخائل الأمور يمكنني أن أقول أن الذين يستطيعون أن يتحدثوا في جلسات هذه اللجنة حديثاً مقنعاً في الفقه المالكي لا يتجاوز عددهم بضعة أفراد . ولذلك لا ينبغي أن يستمر الأمر على هذه الحال .

والآن انتقل إلى الإجابة عن ملاحظات فضيلة الشيخ الجليل السيد محمد علوي المالكي ، الذي تشرفنا بالاستماع إلى حديثه ، فحول رأيه في تدخل الدولة بالنسبة لاستمرار المذهب ، أريد أن أفت نظر فضيلته إلى أن الإمام مالكا - وهو لا يزال على قيد الحياة - أصبح تلامذته الذين عادوا إلى بلدهم يمارسون منصب الفتوى ومنصب القضاء ويبعثون بأسئلتهم في الموضوع إلى استاذهم الإمام مالك ، والمذهب المالكي لم يرسم بعد . وبديهي أن الدولة لا تستطيع أن ترسم مذهباً إذا لم تكن لديها الأطر الكافية - سابقاً - لذلك المذهب . فالمذهب المالكي لا في الأندلس ولا في المغرب لم يصبح رسمياً إلا بعد أن اختارته النخبة المثقفة عن طواعية وبينه ، واقتنعت به وحملت رأيه . فوجدت الدولة الأطر الكافية للقضاء والفتوى من تلك النخبة الممتازة ، وبعد ذلك أخذت على عاتقها مساندة وتشجيعه . ولقد جاء الفاطميون وحاولوا أن يفرضوا مذهبهم الشيعي بدلاً من مذهب مالك ، وجاء الموحدون فحاولوا في مبدأ أمرهم أن يفرضوا مذهبهم المهدي بدلاً من مذهب مالك ، ولكن باءت محاولاتهم أخيراً بالفشل . وأنا مقتنع كل الاقتناع بأن النخبة المثقفة هي العنصر الأساسي في انتشار أي مذهب ، وسيادة أية فكرة .

ثم يظهر أن فضيلة الشيخ شعر بأن في بعض ما قلته مساساً بمكانة الإمام أبي حنيفة : حاشا لله . لقد بينت في مطلع بحثي بصورة قاطعة مكانة الأئمة جميعاً ، وكونهم فوق كل طعن أو تنقيص . وللحقيقة والتاريخ أذكر أن الذين تصدوا للدفاع عن أبي حنيفة قبل أتباعه هم المالكية ، وعلى رأسهم الحافظ ابن عبد البر في كتابه ( جامع بيان العلم وفضله ) ، فقد دافع عن أبي حنيفة دفاعاً مجيداً ضد مزاعم خصومه . ونحن المالكية نعتبر أنفسنا حراساً أمناء على جميع ما تركه الأئمة من تراث إسلامي ، وندين لهم بالتقدير والإجلال .

وأثار فضيلة الشيخ نقطة أخرى ، وهي علاقة بعض المذاهب  
الفقهية ببعض البدع الاعتقادية . والواقع ان ما نقلته من رسالة الحكم  
المستنصر بالله الى الفقيه أبي ابراهيم التجيبي لا يعني ان أئمة تلك  
المذاهب انفسهم خارجون عن السنة ، وإنما قال : « اننا لم نجد في  
اتباع المذاهب أناسا أسلم من البدع مثل اتباع الامام مالك ، اذ في اتباع  
غيره يوجد جهمية ، ورافضة ، وخوارج ، وشيعة » ، وهذا شيء واقعي ،  
لدرجة ان التاريخ يثبت وجود عدد من المرجئة بين الحنيفة . كما يثبت  
وجود عدد من المعتزلة بين الشافعية ، وهذا لا يمس في شيء مقام الامام  
أبي حنيفة ، ولا مقام الامام الشافعي .

ومن هنا ننتقل الى الاجابة على ما اثاره الاخ صلاح الدين الادلبي ،  
وهو من اعز ابنائنا كذلك ، فقد أعرب عن مخاوفه من الاعتماد على  
الاحاديث الموضوعة والضعيفة في فضائل أئمة المذاهب ، ظنا منه ان  
حديث ( يوشك الناس ان يضربوا اكباد الابل في طلب العلم ، فلا يجدون  
عالمنا اعلم من عالم المدينة ) ، وان حديث ( لا يزال اهل المغرب ظاهرين  
على الحق ، لا يضر بهم من خالفهم حتى تقوم الساعة ) من الاحاديث  
الموضوعة او الضعيفة . ويظهر ان الاخ الادلبي لم يقرأ بحثي قبل حضوره  
الى هذه القاعة ، ولو لم يكن عنده شيء من الكسل او الاهمال لما أورد  
هذا الاشكال . ففي الصفحة الخامسة من بحثي الموجود بين يديه أكدت  
ان الحديث الاول أخرجه مالك نفسه وأخرجه الترمذي وحسنه ، وأخرجه  
النسائي والحاكم وصححه ، ورواه الحافظ ابن عبد البر في كتابه  
« التمهيد » ، بسنده الخاص الى أبي هريرة مرفوعا ، وروى ابن عبد البر  
في نفس السياق بسنده عن سفيان بن عيينة انه قال : ( نرى هذا  
الحديث الذي يروى عن النبي صلى الله عليه وسلم في « عالم المدينة »  
انه مالك بن أنس ) ، واذن فهذا الحديث من صحاح الاحاديث وليس  
بموضوع ولا ضعيف ، كما خيل للاخ الادلبي .

وأما الحديث الثاني الخاص بأهل المغرب ، فقد أكدت انه وارد في  
صحيح مسلم بنفس الرواية التي أوردناها ، وذكره الحافظ ابن حجر في

كتابه ( فتح الباري على صحيح البخاري ) ، منبها الى انه مروى في الصحيحين ، كما رواه الترمذي وأبو داود في سننهما من عدة طرق وبالفاظ متنوعة .

واستدل به شهاب الدين القرافي في مقدمة كتابه « الذخيرة » ، وهو من رجال الفقه والحديث فقال : « ومنها ما ظهر من مذهبه في أهل المغرب واختصاصهم به ، وتصميمهم عليه ، مع شهادته عليه السلام لهم بأن الحق يكون فيهم ، ولا يضرهم من خذلهم الى ان تقوم الساعة فتكون هذه الشهادة - كما يقول القرافي - شهادة للامام مالك بان مذهبه حق ، لانه شعارهم وديارهم ولا طريق لهم سواه » .

اما ان تهتم المذاهب الاخرى بالبحث عما يبشر بظهور ائمتها في الاحاديث النبوية الشريفة ، فهذا شيء مشروع ومقبول ، وفضل الله لا يحجر .

وقد استشهد الحنفية على فضل الامام ابي حنيفة ومكانته العلمية والدينية بقوله صلى الله عليه وسلم : « لو كان العلم عند الثريا ، لتناولها رجال من ابناء فارس » ، وهذا الحديث رواه البخاري ومسلم وأبو نعيم والطبراني ، اما الشافعية فقد وجدوا كذلك للامام الشافعي سندا ثابتا في الحديث النبوي ، وهو قوله صلى الله عليه وسلم : « لا تسبوا قريشا فان عالمها يملأ الارض علما » ، وهو حديث حسن له عدة طرق حسبما نبه عليه الشيخ الكندهلاوي في كتابه : « مقدمة أوجز المسائل على موطأ مالك » ، وليس هذا بغريب ، فرسول الله صلى الله عليه وسلم كان يتلقى الوحي ، ويبشر بكثير من الاحداث والبشائر بتعليم الله اياه ، فلا تتخلف ابدا . وبلاضافة الى هذا كله ، لو راجعت التعبير الذي عبرت به ، والعنوان الذي وضعته للحديثين المشار اليهما في فضل الامام مالك والمذهب المالكي لوجدته واردا هكذا : « اعتبارات أدبية » ، وقلت بعدها مباشرة : « وهذه الاعترافات هي اشبه ما تكون بالمناقب والبشائر التي تنشرح لها الصدور ، وتطمئن بها القلوب » ، ورغم ان كون الاحاديث

الواردة فيها هي احاديث صحيحة لا جدل فيها ، لم ادرجها بصفتها  
« اعتبارات اساسية وجوهرية » وهكذا اكون قد اجبت عن هذا الاشكال  
الذي وقع فيه الاخ الادلبي الجواب الكافي .

واعود فأجيب نيابة عن زميلي ورفيقي الدكتور عبد الهادي التازي  
الذي تغيب عن الجلسة ، فقد استشكل السيد نوح عبد الرحمن من  
النيجر قول زميلنا التازي : « ان المذهب المالكي شعار مثل النشيد  
الوطني » ، والواقع ان هذه العبارة ليس المقصود منها المعنى الحقيقي ،  
وانما مراده ان كل مغربي مغربي ، متى برز امامك ، تصورت انه مالكي  
المذهب ، وهذا امر صحيح ، وليس معنى ذلك ان المذهب المالكي  
مذهب محتكر للمغاربة او فكرة قومية خاصة بهم ، هذا غير صحيح ،  
فالمدب المالكي تراث مشترك لنا جميعا ولكل من ارتضى هذا المذهب  
الطيب .

اما الدكتور الفاضل السيد محمود نادي عبيدات ، الذي انا معجب  
به وبأسلوبه ، وبالدكتوراه التي قدمها ، فيظهر انه اشتم من كلامي أنني  
حاولت التنقيص من مقام الامام الشافعي ، وهذا مخالف لمنطقي كل  
المخالفة ، مخالف اولا للمقدمة التي قدمت بها بحثي ، ومخالف للطريقة  
التي سلكتها في الترجيح ، والمسألة التي اشترت اليها ، وخطقت هذا  
الايهام ، هي نقطة مهمة اول من اهتدى اليها ، هو شهاب الدين القرافي ،  
وهو من هو ، دراسة لمذاهب الفقهاء ، واطلاعا على حديث النبي صلى  
الله عليه وسلم ، اشار اليها في كتابه الذخيرة - وانا في الحقيقة معتن  
بكتاب الذخيرة ، واذا فسح الله في الاجل ، فساعمل على تحقيقه ونشره ،  
فلقد جمعت مخطوطاته من المشرق والمغرب ، وهذه من المساعي التي  
ارجو ان يكون لها اتصال بندوة الامام مالك - فشهاب الدين القرافي قد  
قام بمقارنة بين حجم المسائل التي واجهها الامام مالك باجتهاده ،  
والمسائل التي واجهها الامام ابو حنيفة ، والامام الشافعي ، والامام احمد  
ابن حنبل ، فاستخلص من ذلك ان المسائل التي واجهها الامام مالك

وأفتى فيها بلغت نحواً من مائة وخمسين مجلداً ، وهذا شيء واقعي ،  
فحتى عندما أخذ الحكم الأموي يجمع نصوص مالك ، جمع أكثر من مائة  
مجلد فقط من أسمعته ، بينما المسائل التي عالجها أبو حنيفة والشافعي  
وأحمد بن حنبل بأنفسهم مباشرة كانت قليلة ، إلا أن الحنفية والشافعية  
والحنابلة واصلوا المسيرة ، وخرجوا على أصول أئمتهم بقية مذاهبهم  
كما هي معروفة عند الجميع .

ونبه القرافي إلى أن أكثر ما جاءوا به هو عبارة عن **التخريج على  
أصل الإمام** ، ثم قال رحمه الله : « ومعلوم أن التخريج قد يوافق إرادة  
صاحب الأصل وقد يخالفها حتى لو عرض عليه المخرج على أصله لأنكره ،  
وسكون النفس إلى قول الإمام القدوة أكثر من سكونها إلى أتباعه » ،  
وهذا هو المقصود بالنسبة لهذا الموضوع .

آخر نقطة في هذا التعقيب ، تتعلق بتعليق السيد رئيس هذه  
الجلسة ، أحد نواب رئيس الندوة ، الشيخ الحبيب بلخوجة ، وارث  
سر المرحوم الشيخ الفاضل بن عاشور ، فكلما حضر بيننا ، استحضرتنا  
ذلك العالم الجليل المبقر الذي فقدناه جميعاً .

الشيخ الحبيب بلخوجة تكرم ، فأضفى علي نعوتاً جميلة ، أرجو أن  
أكون عند حسن ظنه فعلاً ، وطلب مني أن أتبع القول بالعمل ، وأنا أقول  
لسماحته ما دمت على قيد الحياة ، فساظل بحول الله وقوته مجتهداً  
لخدمة العلم ، وخدمة الإسلام والمسلمين ، ولذلك عززت اقتراح معالي  
الوزير رئيس هذه الندوة بأن تبقى ندوة الإمام مالك مفتوحة ، لنتعاون  
جميعاً في دائرتها ، فتلاقح العقول هو خير ما نستنتج من هذه التجمعات  
العلمية ، وكما ذكرت لكم أنني مشتغل في أعداد الذخيرة ، والذخيرة ،  
هي فيما أعلم أكبر موسوعة في الفقه المالكي مرتبة ترتيباً منطقياً منهجياً  
جمعاً مانعاً ، وكذلك أنا اشتغل في أعداد طبع القواعد الكبرى لعز الدين

ابن عبد السلام ، طبقا لنسخة نادرة توجد عليها سماعات عدد من كبار  
الائمة .

ويسعدني ان اكون مجندا لخدمة العلم والثقافة ، لا فرق عندي  
بين ندوة الامام مالك ، او اكاديمية المملكة المغربية ، فنحن جنود في  
خدمة الاهداف السامية لملكنا الجليل ، راعي المغرب ، وراعي الاسلام ،  
واستسمحكم ، واشكركم على اهتمامكم ، والسلام عليكم ورحمة الله .

نعي مالك الى حماد بن زيد ، فبكى وجعل يمسح عينيه  
بخرقه وقال : يرحم الله مالكا لقد كان من الدين بمكان  
اللهم احسن علينا الخلافة بعده .

## تعقيب الاستاذ عبد العزيز بنعبد الله

اشكر الاخ ، الاستاذ الكبير الشيخ المكي الناصري ، لانه اجاب عن بعض الاسئلة التي كنت اود الاجابة عنها ، ولود ان اجيب عن الباقي ، ولو انه لا يدخل ضمن محاضرتي ، كاختيار اللون الابيض - مثلاً - ، واختيار اللون الابيض ، كما اشار الى ذلك ابن الخطيب ، في نفع الطيب ، راجع الى قضية طيبة ، لان اللون الابيض ، ينفث الحرارة ، في حين ان الاسود يجمع الحرارة ، ولذلك فان اللون الابيض ، كان يستعمل كثيرا ، في الصيف ، او في الفصول المعتدلة ، في حين ان الاسود كان يستعمل في غير ذلك .

ما اشير اليه حول ابي حنيفة ، وانه لا يقل عن الائمة الاخرين ، اعتناء واستمدادا واقتباسا من السنة ومن الحديث ، فهذا هو الواقع ، وانا موافق عليه ، ولذلك فقد دافعت في حديثي عن هذه الفكرة ، لان ما قيل في المغرب وخارج المغرب ، ينسب الى الامام ابي حنيفة ، انه يعطي في بعض المجالات الاسبقية ، للقياس على الحديث الضعيف ، وهنا اريد ان اؤكد ان الحديث الضعيف ، في مفهوم القرون الاولى ، الثالث والرابع ، ليس معناه الحديث الضعيف ، كما نفهمه اليوم ، فالحديث الضعيف ، كان معناه الحديث الحسن ، فهو حديث مسلم ، فاذا ما قيل - آنذاك - بان العمل بالحديث الضعيف في صالح الاعمال يجوز ، فهو حديث حسن غير موضوع ، والا انصب علينا قوله صلى الله عليه وسلم : « من كذب علي متعمدا فليتبوا مقعده من النار » ، ولذلك اورد الامام احمد بن حنبل ، في مسنده آلاف الاحاديث الضعيفة ، ولكن المفهوم من ذلك

الحسنة ، لانه كان يحفظ ، رحمه الله ، ألف ألف حديث ، ادرج منها فى مسنده نحو الاربعين ألف حديث ، اكمل بعضها ولده عبد الله ، فى حين لم يصح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، كما تعلمون ، الا خمسة آلاف وخمسمائة حديث ، بحيث عبد الله بن عمر ، كان يحفظ 5500 حديث ، ابو هريرة ، كان يحفظ 5300 حديث ، عبد الله بن عمرو بن العاص كان يحفظ اكثر من هذا ، ولكن لم يصل الينا الا 700 حديث ، والامام البخاري ، كان يحفظ 300 000 حديث ، لم يدرج منها الا نحو 5000 او اكثر ، مع حذف المكرر ، ونفس العدد فيما يتعلق بالموطأ او اقل منه ، حتى انهم تحروا حتى فيما يتعلق بالضعيف الحسن ، يعنى لم يستندوا اليه .

اما ما يتعلق بانحرافات الحنفية ، الواقع انه لا يمكن ان نتحدث عن مذهب الامام ابي حنيفة ، ونستعمل كلمة انحراف ، ولكن كلمة انحراف هذه ، جاءت عن المفهوم الخاطيء لمعنى الاحاديث الضعيفة ، التي اوردها الامام ابو حنيفة ، وتخرج منها غيره من الائمة ، فنحن لا فى المغرب ، ولا فى المشرق ، متفقون على ان الامام ابا حنيفة ، لا يقلل سنية عن غيره ، فبعض الناس ، لا داخل المغرب ولا خارجه ، كانوا يعتقدون ان الامام ابي حنيفة كان يستند الى احاديث محدودة ، وهي كل ما ثبت عنه ، فى حين انه يفضل فى المجالات الاخرى ، ان يرتكز على القياس ، وهذا خطأ ، لانني اشرت الى وجود عشرين مسنداً ، للإمام ابي حنيفة .

بالنسبة للوحدة بين المغرب وصحرائه ، أشار السيد الرئيس الى انه ربما لم ينفرد المغرب بهذا ، وربما انصب الامر حتى على اقطار مجاورة اخرى ، الواقع لا ، واؤكد هذا ، لماذا ؟

(تدخل السيد الرئيس ، الدكتور بلخوجة ، مخاطباً السيد المحاضر : اذكركم بانكم اشرتم الى ان هناك تميزاً للمغرب فى علاقته بالصحراء ، وان بقية الاقطار المجاورة لا تشارك فى هذا ، فطلبت منكم زيادة الايضاح فقط ، ولم ادل برأى ) .

وتابع الاستاذ بنعبد الله : من الوجهة التاريخية فان الونداليين لم يدخلوا الى المغرب ، وان الاثراك لم يدخلوا الى المغرب ، فكان المغرب هو القطر الاسلامي الوحيد الذي احتفظ باستقلاله طوال الف عام ، ولكن الشيء الذي وقع ، وقد يكون انطلاقا من هذا الوضع الخاص ، فانه كان هنالك تحرز لجميع المغاربة من ان يتصلوا بمن وجدوا منه المجال مفتوحا في الدولة المجاورة ، وهي الجزائر ، من اباضيات في امزاب ، فكان هنالك ما يسمى بطريق الفقهاء ، وطريق الفقهاء تحدث عنها الرحالة بلملح ، حيث قال : بأن جميع الحجيج ، كانوا يمرون هامشيا بما يسمى بطريق الفقهاء ، حتى يصلوا الى الفزان ، ومن الفزان يدخلون الى الاقاليم الاخرى ، لانهم كانوا يتحرزون من الاتصال بالعناصر الاباضية ، لا العناصر الاخرى ، لانه فيه عناصر اخرى ، شافعية او حنفية ، ولكن لم يكونوا يتحرزون منها ، وانما يتحرزون من غيرها .

فيه سؤال اخير وهو عن كلمة « الذكاء » التي اوردها الاخ الدكتور عبد الهادي التازي ، وقد كان معي في الوفد الذي ذهب الى لاهاي ، والواقع ان هذه الكلمة ، استعملت بصفة رسمية ، ولكن الذكاء كما تعلمون في السياسة مفهومه ، اقرب الى الدهاء منه الى الذكاء ، ربما كان خبثا ايضا ، لان السبب في هذا ، وربما الذين حضروا محكمة لاهاي ، قد لاحظوا هذا ، فالواقع ان هذا السؤال الذي كان هامشيا ، ليس تهميشا ، كان عبارة عن نقطة افاضت الكأس ، لان معظم القضاة هناك ، كانوا مقتنعين بحجج المغرب وبملف المغرب ، كانت هنالك حجج قوية ، اضطررنا الى الاتيان بها ، ولو أننا لم تكن في حاجة اليها ، ولذلك لم نثبتها في ملف القضية ، فالقضية اذن ، لم تكن تهميشية ، لانه لم يكن بيننا وبين موريطانيا ، آنذاك ، اي مشكل ، لان المغرب كان قداتفق مع موريطانيا ، مبدئيا ، ان يكون لها ما لها الآن ، والسلام .

### تدخل للاستاذ شبيهننا حمداتي ماء العيينين

في سنة 1937 ، طلبت السلطات في الصحراء ، ان تسن قوانين وضعية لتحكم بها شؤون المواطنين هنالك ، فاجتمع المواطنون جميعا ،

بقيادة نائب خليفة السلطان ، ( والآن اتكلم على وقائع تاريخية مضبوطة )  
فمنعوا تدوين أي قانون ، إلا إذا كان ممهورا بتوقيع جلالة المغفور له  
محمد الخامس ، وبالتالي ، رد عليهم بالحرف : « لقد طبعت قوانين  
مغربية ، فهذه القوانين ، ان انتم أتيتم بها ، فنحن سنطبقها في الصحراء ،  
وإذا لم تأتوا بها ، فنحن مالكيون على مذهب السنة ، وتابعون للمغرب ،  
ولا يمكن ان يطبق في بلادنا ، إلا المذهب المالكي ، والقوانين المطبقة في  
المغرب » ، وشكرا .

### من ندر جلالة الحسن الثاني

... نريد مغربا في أخلاقه وفي تصرفاته جسدا  
واحدا موحدا تجمعهم اللغة والدين بوحدة المذهب فديننا  
القرآن والاسلام ، وافتنا لغة القرآن ، ومذهبنا مذهب  
الامام مالك ، ولم يقدم اجدادنا رحمة الله عليهم على  
التشبه بمذهب واحد عبثا أو رغبة في انتحال المذهب  
المالكي بل اعتبروا ان وحدة المذهب كذلك من مكونات  
وحدة الاسرة ...

من خطاب جلالتة في مجلس النواب  
بتاريخ 20 ذي القعدة 1399 موافق  
12 اكتوبر 1979

## تعقيب الشيخ ابراهيم الحسيني

بودي ان اجيب فقط ، وباختصار ، عن بعض الملاحظات التي ابداهما بعض السادة المتدخلين ، خاصة الاستاذ علوي المالكي ، الذي تحدث في موضوع عمل اهل المدينة . بالنسبة للذين اعتبروا عمل اهل المدينة كأصل للمذهب المالكي ، ونحن لا نشك في اعتبار الامام مالك لعمل اهل المدينة ، ليس مجردا عن اقترانه بالدليل في الجملة ، فالامام روى احاديث ، ورويت عن غيره ايضا احاديث ، بأسانيد صحيحة ، وترك العمل بها ، نظرا لان هذه الاحاديث لم يصحبها عمل اهل المدينة ، استنادا منه الى ان عمل اهل المدينة ، قد يكون مستندا على اصل ، نقل او لم ينقل ، كالاجماع ، فمثلا ، حديث خيار المجلس ، رواه في الموطأ ، ولم يأخذ به ، وذلك بشهادة الذين أخذوا عنه ، وكذلك جميع الاحاديث التي تنقل الاعمال البدنية ، كالنيابة في الصلاة عن الغير ، والصوم ، والحج ، الخ . . فكل هذه ، أعمال وردت بها احاديث صحيحة ، ولعدم اصطحاب العمل لها ، ترك الامام العمل بها ، ولهذا ، اعتبر ان عمل اهل المدينة ليس دليلا ، او أصلا مستندا على جزء من السنة نقل او لم ينقل .

وبالنسبة لتمثيلي لعمل بلال ، فانا لا أقصد ان العمل الذي صدر عن بلال وعن رفاعة بن رافع الزرقي ، وعن غيرهم ، من الاعمال التي أقرها النبي صلى الله عليه وسلم بعد اطلاعه عليها ، فانا لا أعتبر ان هذه أمثلة للبدعة الحسنة ، وانما اعتبرت جانبا من هذا قبل اطلاع الرسول عليه ، وحتى ان الرسول ، بعد اطلاعه عليه ، لم يحكم ببطلان العمل المتقدم ،

على علمه به ، فاعتبرت من هذا الجانب ، انه صار سنة ، والبحث قد ابرز هذا ، وقد اثبتته هناك .

بالنسبة للتعليق الوارد من بعض الاخوة ، حول الدعوة الى ترك العمل بالاحاديث الضعيفة ، والاكتفاء بالعمل بالاحاديث الصحيحة ، اود ان اقول كلمة مختصرة ، فان علماء الحديث ، وعلماء الاصول ، متفقون فيما بينهم ، على ان قوانين التصحيح ، وقوانين الضعف ، او التضعيف ، او الجرح ، او التعديل ، كلها قوانين مبنية على اعتبارات ظاهرية محضة ، وليس المراد منها القطع بان الحديث المحكوم بانه صحيح ، يكون صحيحا في نفس الامر ، اى القطع على الله سبحانه وتعالى ، بانه في علمه هكذا ، او ان الحكم على الحديث بالتضعيف بانه ضعيف في نفس الامر ، وعليه فليس احسن من طريقة المتقدمين ، في اعتبار الاحاديث الضعيفة في فضائل الاعمال ، ويشير الى هذا جلال الدين السيوطي في الفيته بقوله : « والحكم بالصحة والضعف على ظاهره ، لا القطع ، الا ما حوى كتاب مسلم ، او الجعفي سوى ما انتقدوا ، ابن الصلاح رجح قطعا به ، وكم امام جنح » فأرى بان الدعوة الى الغاء الاحاديث الضعيفة ، تقتضي ان نحيط علما بالمطبوع وغير المطبوع ، من كتب الجرح والتعديل ، ومن كتب الحديث ، والاطلاع عليها ، ثم بعد ذلك نصل الى الحكم بان ما قيل فيه ضعيف ضعيف ، وما قيل فيه صحيح صحيح ، في نفس الامر .

وأرجو المعذرة والسلام عليكم .

« قل ان كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم  
الله ويغفر لكم ذنوبكم والله غفور رحيم »

- قرآن كريم -

## هيئة تسيير اشغال الندوة

- الرئيس : الدكتور أحمد رمزي ، وزير الاوقاف والشؤون الاسلامية ( المملكة المغربية )
- النائب الاول للرئيس : الدكتور الحبيب بلخوجة ( تونس )
- النائب الثاني للرئيس : الدكتور محمد علوي المالكي ( المملكة العربية السعودية )
- النائب الثالث : الشيخ عبد الله نياس ( السنغال )
- كاتب الندوة : الاستاذ محمد البهاوي ، رئيس مصلحة البحث والأحصاء بوزارة الاوقاف والشؤون الاسلامية ( المملكة المغربية ) .

## اللجنة التنظيمية

تحت اشراف

السيد وزير الاوقاف والشؤون الاسلامية

الدكتور احمد رمزي

- 1 - السيد محمد المرابط : الكاتب العام للوزارة
- 2 - السيد محمد الكبير العلوي : رئيس قسم التوجيه الديني
- 3 - السيد فتح الله بيرو : رئيس القسم المالي
- 4 - السيد شاكرا التيجاني : رئيس قسم الدراسات الاسلامية
- 5 - السيد محمد ابو الفضل : رئيس مصلحة التوعية والفتوى
- 6 - السيد البلمعشي احمد يكن : رئيس مصلحة احياء التراث
- 7 - السيد العربي بلحاج : مفسر
- 8 - السيد احمد فترات : من مصلحة الشؤون الادارية
- 9 - السيد عبد القادر الادريسي : من قسم الدراسات الاسلامية
- 10 - السيد عبد الله جوريو : من مصلحة الشؤون الاجتماعية
- 11 - السيد العياشي الودكي : من قسم التوجيه الديني
- 12 - السيد محمد الرغاي : من قسم الدراسات الاسلامية
- 13 - السيد الحسين ديكوك : من مصلحة الشؤون الادارية
- 14 - السيد عبد العومن بركاش : من مصلحة التوزيع
- 15 - الامة السنداني نزهة : من مصلحة التوزيع

## الفهرس

### صفحة

- 5 ..... من خطاب صاحب الجلالة بالبرلمان
- 7 ..... التقديم
- 11 ..... الكلمة الملكية الموجهة للندوة
- 19 ..... كلمة السيد وزير الأوقاف والشؤون الإسلامية
- 24 ..... كلمة رئيس المجلس العلمي وعميد كلية الشريعة بفاس
- 27 ..... كلمة رئيس المجلس البلدي بفاس
- 30 ..... كلمة الشيخ عبد الله نياس من السينغال
- 34 ..... كلمة الأستاذ نوح عبد الرحمن من النيجر
- 37 ..... كلمة الأستاذ إبراهيم الحسيني من نجيريا
- 39 ..... كلمة الدكتور محمد علوي المالكي من المملكة العربية السعودية
- 41 ..... كلمة الأستاذ إبراهيم محمود جوب من السينغال
- 46 ..... نص الرسالة الجوابية التي بعثتها الندوة إلى صاحب الجلالة
- 324 - 49 ..... البحوث
- 358 - 325 ..... المناقشات
- 374 - 359 ..... التعقيبات
- 375 ..... هيئة تسيير أشغال الندوة
- 376 ..... الهيئة التنظيمية

**مطبعة فضالة**